أبطال ومواقف

أحمد فرح عقيلان

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

٧١١ع عقيلان، أحمد فرح

أبطال ومواقف/أحمد فرح عقيلان. -

ط ١. - الرياض: دار المعراج، ١٤١٤ هـ/١٩٩٣ م.

٤٦٩ ص؛ ٢٤ سم

ردمك ٢ - ٠٨ - ٧٥١ - ٩٩٦٠

١. الإسلام - تراجم أ. العنوان

إخراج/ رأفت بنة

دار المعراج الدولية للنشر

الرياض ١١٤٢١ - ص.ب. ٨٥٨ - هاتف وفاكس ٤٠٣٦٢٧٨

المملكة العربية السعودية

بيروت - ص.ب. ١٤/٦٣٦٦ - هاتف ٨٣١٣٣١ - فاكس ٦٠٣٣٣٣

القاهرة - ص.ب. ١٢٨٩ - هاتف ٣٩٠٠٣١٨ - فاكس ٣٩٢٦٢٥٠

أبطال ومواقف

بسم اللہ الرحمن الرحیم

مقـــــدمة

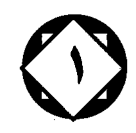
الحمد للَّه الذي أكرمنا بالقرآن والإسلام، وشرَّفنا بمحمد عليه الصلاة والسَّلام، ودعانا إلى القدوة بسيرَ الصالحين، والسير على سَنَن العلماء العاملين. .

وبعـــد.

فهذا كتابٌ جمعت فيه تراجم لطيفة لعدد من الأعلام الأفاضل والعلماء الأماثل، وما كان يهمني في العالم علوُّ مركزه ونسبه، ولا ملازمته لذوي النفوذ لكنني اهتممت أول شيء بصدق مواقفه، وعظمة رجولته وشجاعته، وقد اجتَمَعَت لي من ذلك مواقف خالدة، ومآثر ماجدة، فقدّمت هذه النماذج من البطولات الوضيئة والمواقف الجريئة وسميّت الكتاب الذي ضمّها اسمًا يغري عنوانه بالدراسة والبحث وهو (أبطال ومواقف) ليكون الكتاب دروساً لأهل الطموحات، ومعْلمًا لروّاد البطولات، والله أسأل أن ينفع جيل الصحوة من أمّة محمد بسير أسلافهم، ومناقب صالحيهم ليحملوا اللواء كما حملوه أول مرة، ويعيدوا حضارة الإسلام وأمجاده سيرتها الأولى في ظلال نصر مؤزَّر يعزُّ به المؤمنون ويذلُّ به الملحدون والكافرون.

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق وملهم السَّداد والرشاد.





حلف الفضول
وعبد الله بن جُدعان

إنما أوْحَى إليَّ هذه الحلقات ما قرأته في تاريخنا العربي والإسلامي من مواقف الرجال وتضحيات الأبطال. والحقُّ أني كثيراً ما تحضُرني همومٌ فأمضيها بقراءة من تاريخ أمتنا. وأرى قراءة بعض تاريخنا لونًا من العبادة، لأنه مواقف من الخُلُقُ الشريف تعلِّم الدنيا كلَّها كيف كان قتال العرب والمسلمين أشرف قتال، وكيف كان سلْم العرب والمسلمين أشرف سلم، وكيف كانت الحضارة النبيلة والوصايا الجليلة رائد أمتنا في حربها وسلمها، وفي سرائها وضرائها وحين بأسها، لقد أتاحت لي ظروف أن أقرأ تاريخ بريطانيا الحديث، حين كانت بريطانيا تفرض على الطلاب قراءة تاريخها سبعمائة عام، فكان أبرز حادثتين في ذلك التاريخ هما الحروب الصليبية التي انتهت فترتها تلك بموت ريكاردوس قلب الأسد بعد أن رجع من حربه مع صلاح الدين شاكراً ومقدراً لنُبل ذلك الإمام المسلم الرحيم الذي هَزم الجُناة المعتدين في حطين وفتح القدس بعد ذلك، فرأت الدنيا كلُّها عدالة قابلت همجية الصليبيين، فما سفكت دمًا، ولا فَرَّقت بين والدة ووليدها. أما الحدث الثاني في تاريخ بريطانيا فكان الصراع البرلماني الذي انتهى بتوقيع الملك يوحنا (وكان شبه مجنون) على الميثاق الكبير الذي ضمن حكم الشورى، وهو حكم أعلنه الإسلام قبل ذلك الوقت بسبعمائة سنة. ثم تحول تاريخ بريطانيا كله منذ

خمسمائة عام إلى استعمار ابتزازي شديد، سُرقت به أقوات العباد، وعاث الوحوش أثناءه في البلاد وطاح على أعواد المشانق شهداؤنا المؤمنون. ذلك كان تاريخ بريطانيا وهو لقطة من التاريخ الأوربي المعاصر إذ لم يكن أفضل منه تاريخ هولندا وبلجيكا وأسبانيا والبرتغال وإيطاليا، لأن الجميع جعلوا هدف استعمارهم واحدًا، هو نهب بلاد الناس وتدمير أخلاقهم. وفي هذه الحلقة الأولى أعرض إلى موقف من مواقف قريش في الجاهلية، شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يافعٌ، ثم أشاد به وهو نبي فقال: «لقد شهدت في بيت عبد الله بن جدعان حلفًا ما أودُّ أن يكون لي به حمر النَّعم، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت».

نعم لقد ابتهج به رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان حلفًا بين فضلاء القوم أن ينصروا بمكة المكرمة كلَّ مظلوم، ويضربوا على يد كل ظالمٍ مهما عظمت عشيرته وامتدت قبيلته. وألا يسمحوا بأي حال أن تقع في مكة المكرَّمة ظلامة على غريب ولا مواطن، لأنها تضمُّ بيت الله العتيق ومناسك حجاج العرب، فهي أكرم على الله من أن تكون ساحة ظلم وعدوان على زوار ذلك البلد الوضيء الطهور. وكان مناسبة ذلك الحلف العظيم أن نفرًا من قريش كانوا ذوي ذمم ملوَّثة لا يهمُّهم أن يأكلوا حقوق العباد. كانوا مغترين بحجم العشيرة وما حولهم من البنين والأموال فكانوا إذا قدم إنسان غريب الدار يعرضُ بضاعته، اشتروا تلك البضاعة، ووعدوه أن يعطوه حقَّه، فإذا جاء ذلك المغترب صده أبناؤهم، وقالوا له ليس لك عندنا شيء، فإذا اشتكى ظُلامته للعقلاء قالوا له: هؤلاء قوم ظلمة أقوياء لا طاقة لنا بهم؛ فيضيع بتلك الطريق الحقُّ الأبلج الصريح الذي لا يختلف عليه اثنان. وقد حدث ذات سنة أن قدم إلى مكة المكرمة تاجر يماني من قبيلة زبيد ومعه تجارة، فاشتراها منه رجل من قريش كان معروفًا بالعناد والباطل والظلم، هو العاص بن وائل السهمي، والد عمرو بن العاص وهشام بن العاص رضي الله عنهما. وبعد أن قبض العاص البضاعة واستقرَّت عنده أنكر حق الرَّجل لأن العاص كان رجلاً شريرًا

لا يلين قلبه للحق.

ومما يذكر أن العاص هذا ظل مصرًا على كفره، ولما رجع ابنه هشام من الحبشة -وكان مهاجرًا إليها- ألقى العاص القبض على هشام وسجنه بضع سنوات، فلم يستطع أن ينضم إلى صفوف الجهاد -رضي الله عنه- إلا بعد الخندق.

والمهم أن الزبيدي لما يأس من نصرة قريش؛ وقف في وسط المسجد الحرام بجوار الكعبة وأنشد بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكةَ نائي الدار والنَّفر

ومحرمٍ أشعثٍ لم يقض عمرته ... يا للرجالِ وبينَ الحِجْرِ والحجَرِ

البيت هذا لمن تمت مروءته ... وليس للفاجر المأفون والغدر

فقام أحد أشراف بني عبد المطلب واسمه الزبير فقال للزبيدي: لَبَّيْك جاءتك النَّصْفَة، والله إن هذا ظلم لا يُصبَر عليه ولا يُترك، وسارع في الحال إلى بيت رجل من كرام قريش -هو عبد الله بن جُدْعان- وكان قرشيًا من رهط أبي بكر الصّديق مُمدَّحًا جوادًا، وقد روي من أنباء كرمه ما عرفه كلُّ قرشي، وكل وافد وكل عاكف وكلُّ باد حتى لقد عرف عنه أنه كانت له قصعة يُستظل بظلها في الهاجرة، وكان له مناديان أحدهما ينادي في أعلى مكة، والآخر في أسفلها، يناديان: أُلا من أراد اللحم والشحم فليأت دار عبد الله بن جُدعان. وهو أوّل من أطعم بمكة الفالوذج: وهو حلوى راقية تصنع من لباب البُر وتُلتُّ بالعسل. وكان من خبر ابن جُدعان أن ضاقت به الدنيا في صباه لأنه يحبُّ الكرَم والبْذل والعطاء، لكنه لم يكن يجد ما يجود به فدخل شقًا عظيمًا في برّ مكة يرجو لو تلقاه حيَّة تبتلعه فلم يصادف حيَّة، وظلَّ سائرًا في الشقّ حتى عثر على كنز عظيم أغناه الله به، واستأنف عمليات كرمه. وقد نهض عبد الله بن جُدعان فنادى في أفناء قريش وأحيائها: هَلُمَّ يا أشراف مكة إلى بيتي نبرم حلفًا ينصر المظلوم، ويأخذ على يد الظالم، فاستجاب له

نفـر من أهل الغـيـرة والمعـروف من بـني هاشم وبـني المطلب وبني أسـد وهم قـوم خـديجـة، وبني زهرة أخـوال النبي صلى الله عليـه وسلـم، وبني تميم ومنهـم ابن جدعان نفسه، فأبرموا حلفًا عظيم المقاصد، وتعاقدوا ألا يجدوا في مكة مظلومًا من أهلها ومن غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتي يردُّوا مظلمته، فسَّمت قريش ذلك حلف الفضول -يعني الأفاضل- وفي الحال توجه أعضاء الحلف إلى بيت العاص؛ فدفع حق الزبيدي صاغراً، وبعدها بقليل غصب أحد القرشيين بنتًا من خثعم؛ فاستعدى أبوها الفضول فردوها مكرَّمة لم تصب بسوء فأثبت العرب أن لهم أساسًا من الفضائل، وخلفية من الأخلاق حتى قبل بعثة النبي الكريم، الذي أعلن أنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق. وما أجمل أن نجعل ختام الحديث بمثل ما بدأناه به: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد شهدت مع عمومتي حلفًا في دار عبد الله بن جـدعـان مـا أحبُّ أنَّ لي به حـمـر النعم» ولـو دعـيت إلى مـثله في الإسلام لأجبت. لقد كان موقفًا مباركًا محا الظلم من مكة، وكان بطل ذلك الموقف هو عبد الله بن جُدْعان.



هانئ بن مسعود ويوم ذي قار

هذا الموقف هو أيضًا من مفاخر العرب في جاهليتهم، وقد أشاد به رسول الله صلى الله عليه وسلم وابتهج به كما ابتهج سائر العرب، وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لما بلغه انتصار قبائل بكربقيادة هانىء بن مسعود الشيباني على عساكر الفرس : «هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم. وبي نصروا».

كانت تلك المعركة في زمن كسرى بن هُرمُز، وقد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق قبل بدء تلك الموقعة. وسببها والله أعلم أن النعمان بن المنذر كان ملكًا على الحيرة، يحكم العرب ويخضعهم لسطوة كسرى ملك الفُرس. والنعمان بن المنذر كان قحطانيًا من قبيلة لخم. وكان قميء الشكل قصيرًا أبرش لكنه كان قوي الشخصيَّة ترهبه العرب. وقد غرَّه ذلك المُلك، فكان له يومان: يوم سَعد يكافىء فيه أول من يلقاه بمال، ويوم نحس يكافئ فيه أول من يلقاه بالقتل، وتلكَ غطرسات لا يقرُّها الإسلام ولا يعترف بها، وقد منّ الله جل جلاله على العرب فجعلهم سادة على كسرى وتاجه وإيوانه بعد أن كانوا يخضعون لذنبٍ من أذنابه.

جاء في ذكر يوم ذي قار أن كسرى بن هرمز ذكر يومًا الجَمال العربي، وما

تتمتع به المرأة العربيَّة من جمال وكمال، وكان في مجلسه رجلٌ عربي يقال له زيد بن عديّ فقال له: أيها الملك العزيز إن خادمك النعمان بن المنذر عنده من بناته وبنات عمه أكثر من عشرين امرأة من جميلات العرب، فلو أرسلت إليه بعث إليك بهنَّ وهو أسعد الناس بقرْبكم ومصاهرتكم. فقال له كسرى أنا أعلم أنك تصلح لهذه المهمَّة وإني مرسلُكَ ومعك من يحرسك إلى النعمان لتقنعه أن يرسلَ إليّ من أولئك الجميلات. وفعلاً أرسل كسرى زيداً بن عدي ومعه مرافقون ليطلبوا بنات النعمان ويعودوا بهنَّ زوجات لكسرى. فلما دخلوا على النعمان قالوا له: إن كسرى أراد لنفسه ولبعض أولاده نساءًا من العرب فأراد كرامتك، وهذه هي الصفات التي يشترطها في الزوجات. وقرأ على النعمان قائمة بالصفات الجميلة، فقال له النعمان: يازيد سلّم على كسرى، وقل له إنَّ النعمان لم يجد فيمن يعرفهن هذه الصفات، وبلغه عذري، وأني عملتُ جهدي فلم أعثر على من تستحق ذلك الشرف الرفيع. ووصل زيد إلى كسرى فأوغر صدره وقال له: إن النعمان يقول لك: ستجد في عين السَّواد (أي حور العراق) من يكفينك. وترجمها زيد (في بقر العراق) فطار صواب كسرى وسكت لكي يأمن النعمانُ بوائقه، ثم أرسل إلى النعمان يستقدمه فعرف النعمان أنه مقتول لا محالة، فحمل أسلحته وذهب إلى بادية بني شيبان حيث لجأ إلى سيدهم في ذلك الوقت هانيء بن مسعود الشيباني، وأودع عنده نسوته ودروعه وسلاحه، وذهب إلى كسرى فمنعه من الدُّخول إليه وأهانه وأرسل إليه من ألقى القبض عليه، وبعث به إلى بلد موبوء بالطاعون فمات النعمان في ذلك البلد غريبًا لا يملك شيئًا من أمره، وأقام كسرى على الحيرة ملكًا جديداً هو إياس بن قبيصة الطائي. وكلَّفه أن يتصل بهانيء بن مسعود ويُحضر ما عنده من نساء النعمان وسلاحه وعتاده، فلما تلقَّى هانيء خطاب كسرى رفض تسليم الأمانات؛ فخيره كسرى إما أن يعطي ما بيده، أو أن يرحل عن دياره، أو أن يحارب، فاختار الحرب وبدأ يُعدُّ جيشًا من قبائل بكر من آل مُحَلَّم ومن بني شيبان

ومن عجل ويشكر والنمر بن قاسط وبني ذهل. وفي أثناء ذلك جمع كسرى نخبة من أبطال الفُرْس ومن قبائل العرب التي كانت موالية له -وخصوصًا قبيلة إياد- ووجههم ليجتاحوا هانئًا، ويحضروه صاغرًا إلى كسرى. فلما وصل جيش كسرى وحلفاؤهم من العرب أرسلت قبيلة إياد إلى هانىء: نحن قدمنا إلى قتالك مرغمين، فهل نحضر إليك ونفرٌ من جيش كسرى؟ فقال لهم: بل قاتلوا مع جنود كسرى، واصمدوا إلينا أولاً، ثم انهزموا في الصحراء، وإذ ذاك ننقض على جيش كسرى ونمزقهم. وقدم الجيش الفارسي وحلفاؤهم من إياد فوجدوا جيش هانىء قد اعتصم بصحراء لا ماء فيها ولا شجر، وقد استقى هانىء لجيشه من الماء ما يكفيهم، فبدأ الفرسُ يموتون من العطش، ثم انقضوا على جيش هانىء كالصواعق، وبينما هم في جحيم المعركة انهزمت قبيلة إياد أمام هانئ وانقضت على الفُرس الذين حولها، فأثخنت فيهم ومزقتهم، وقتل كل أبطال فارس الذين أرسلهم كسرى لإحضار هانئ حيًا. فلما رجعت بعض فلول الفُرس إلى كسرى إذا هم كالفئران الغارقة في الزيت. وكانت ساحةذي قار أرضًا يغطي الزفت والقطران كثيراً من أرضها، فلما رآهم كسرى على ذلك الشكل قال لهم، أين هانىء؟! وأين أبطالكم الذين لا يعرفون الفرار، فسكتوا فصاح بهم فقالوا لقد استقبلنا العرب في صحرائهم فتُهنا فيها ومات جميع القادة وخانتنا قبيلة إياد حين رأوا بني جنسهم فكاد كسرى يفقد عقله ولم يكد يمضي عليه وقت قصير حتى مات حَسْرةً؛ فتولى مكانه ابن شيرويه وقد حدث بعض من حضر يوم ذي قار أن قبائل بكر استصحبوا من خلفهم نساءَهم وانقضوا على الجيش الفارسي، فبرز أحد العلوج وطلب المبارزة فأنقض عليه عربيٌّ من بني يشكر اسمه برد بن حارثة اليشكري فقتله، وكان هانىء قد نصب كمينًا من وراء الجيش الفارسي، فانقض الكمين على الملك الجديد الذي كان كسرى عيَّنه خلفًا للنعمان بن المنذر، وفي أثناء ذلك أحسَّ العربُ روابط الأخوَّة التي تنتظمهم؛ فانسحب من جيش فارس كثير من العرب الذين كانوا

يعطون ولاءهم لفارس من قبائل تميم وقيس عيلان ؛ فانقضوا على الفرس الذين يلونهم بعد أن كانوا يدينون بالولاء لهم، وعرف العرب أنهم كانوا مخدوعين بُملك رخيص كان كسرى يضحك به على بعض أذنابه منهم. وقد اعتصمت قبائل ربيعةً وعليا معدّ وبكر فشكلوا جبهة ثابتة لم تكن تأبه بالفرس، ولا بأوامر ملوك الحيرة، وظلّت قبائل العرب من بكر وشيبان وعجل ويشكر متمسكة بتلك التخوم، حتى كان منهم فيما بعد أبطالٌ من أمثال المثنى بن حارثة الشيباني ؛ الذي ورث القتال عن هانىء بن مسعود. والحقُّ أن انتصار العرب على العجم في ذي قار كان نواة لمعركة القادسية التي أعزّ الله فيها قبائل العرب بنور الإسلام ؛ ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام .



نواة الإسلام في المدينة

سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل مرّ عليك يارسول الله يومٌ أشدُّ من يوم أحد. وكان يوم أحد يومًا عصيبًا فقد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمَّه حمزة، ورآه صلى الله عليه وسلم تؤكل كبدُه ويُمثّل به. كما فقد من خيرة أصحابه سبعين صنديدًا، منهم القارىء المجاهد مصعب بن عمير وجرح يومها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكسرت ثناياه، وسقط في أكثر من حفرة، وأشيع يومها أنه مات صلى الله عليه وسلم.

أقول سألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعيد أحد: هل مرّ عليك يومٌ هو أشدُّ من يوم أحد فقال لها: نعم لقد كان ما لقيته يوم الطَّائف من ثقيف أشدَّ مما لقيتُه يومَ أحد. يشيرُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى أيامه المؤلمة عام الحُزن حين ماتت خديجة رضي الله عنها، وكانت صدره الحنون، وكان لها من المهابة والاحترام ما خَفَّف من أذى جيرانه، فلما ماتت نال منه المشركون من جيرانه نيلاً شديدًا. حتى لقد كان ربَّما علَّق قدره ليطبخ فيلقون عليه من فوق الجدار أوساخًا، أو رحم شاة يخربون بها طبخته، وربما حمل تلك الأوساخ على عود وذهب إلى جيرانه في بيوتهم يقول لهم: أيُّ جوار هذا؟ فلا يزيدهم ذلك إلا عنادًا. وقد أحضر يومًا عقبة بن أبي معيط فرث جمل فألقاه على رأس رسول الله صلى الله عليه

وسلم وهو ساجد في حُرمة الحرم فوسَّخ ملابسه، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فوجد في البيت فاطمة التي قامت تنفضُ عنه الأوساخ وتبكي لما لحق به من إهانة، وهو الكريم الأصل العظيم الأخلاق، تبكي وهو يقول لها يا بنية ما على أبيك من بأس، والله حافظه وراعيه، لا تبكي يابنيتي وفي أثناء ذلك العذاب مات أبو طالب، وكان على رغم شركه يصدُّ المشركين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما مات لم يعد السُّفهاء يستحون من العدوان

في تلك الأحوال المبكية استيأس الرسول الكريم من قومه فقصد الطائف لعله يجدُ نُصرة من ثقيف، وهناك قابل ثلاثة نفر من زعماء ثقيف من بني عبد ياليل، فلما عرض عليهم ما بعثه الله به ردوه ردًا شديدًا، واستهزءوا به، وأغروا به السفهاء والصبية يرمونه بالحجارة حتى دميت رجلاه. فلما أصبح بعيدًا عن مرمَى الحجارة أسند ظهره إلى حائط لقوم من قريش يشكو بثه وحزنه وبلواه إلى الله. كان كلَّ ما يخشاه صلى الله عيه وسلم أن يكون الله غاضبًا عليه، وأن هذا البلاء المتلاحق ما هو إلا انتقام من الله، فتوجه إلى ربه بهذه المناجاة: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين. أنت ربّ المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدّو ملَّكته أمري. إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك. أو يحلّ عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»(١). في تلك الأثناء أقبل عليه من داخل البستان عبدٌ يقال له عداس، وقد أحضر إليه قُطف عنب، فمد عليه الصلاة والسلام يده وتناول حبَّة وقال بسم الله، ولم يزل العبد يتأمل أنواره ويسمع كلامه حتى آمن به، وطابت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جبر الله كسره بإسلام هذا. وعاد عليه الصلاة والسَّلام من الطائف وقد

(١) رواه الطبراني ٢٥/٣٤٦، وقال الإلباني في تخريج (فقه السيرة) ص: ١٢٦: ضعيف.

خذله قومه، وخذلته ثقيف، وفي غمار تلك الضائقة عرض عليه ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين فيهلكهم، وهنا تظهر العظمة حين يجيب صلى الله عليه وسلم: «بل تمهلهم ياربّ لعله يخرج من ظهورهم من يوحدك. اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» ورغم كلٍّ هذا لم ييأس رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فتوجه إلى موسم الحج يعرض نفسه على قبائل العرب ليحرسوا دعوته. لقد رآه أهل الموسم يقصد القبائل ورجلٌ يلاحقه كأنه ظلّه. وكلّما دعا رسول الله الناس إلى الإسلام وعرض نفسه عليهم قال الرجل الذي يتبعه -وهو عمه أبو لهب- لا تصدّقوه نحن قومه وأدرى به، هذا الرَّجل يسبُّ آلهتكم ويريدكم أن تعبدوا إلهًا واحدًا بدل العُزَّى واللات ومناة. ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم يعرض نفسه على القبائل، حتى إذا كان آخر أيام الموسم نزل النبي من منى متوجهًا إلى بيته بمكة، حتى إذا صار قريبًا من العقبة الكبرى رأى ستة رجال من أهل المدينة بعضهم يصلح رحله، وبعضهم يحلق شعره وبعضهم يتحدث. ولو كان غير رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرَّج عليهم، ولقال في نفسه لم تُجدنا كلُّ أيام الموسم فما نفع هؤلاء، لكنَّ النفوس الكبيرة لا تعرف اليأس ولا يتسرَّب إليها القنوط. لقد عرَّج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم وإذا هم من الخزرج من أخوال أبيه واستأنست الرحم بعضها ببعض فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام وأخبرهم أنه رسول الله بعثه الله بالتوحيد ونبذ الشرك وصلة الرَحم ومكارم الأخلاق وكان زعيمهم أسعد بن زرارة (أبو أميمة) يصغي في تفكر وتذكار فقال للجماعة: هذا والله هو النبي الذي كان اليهود يتوعدوننا أن يسبقونا إلى الإيمان ليغلبونا بدعوته، ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم: إن قومنا من الأوس والخزرج على أشد حال من العداء فإن يجمعهم الله على يديك تكن بإذن الله أعزّ الناس وبذلك الموقف الطافح بالأمل والرَّجاء أراد الله تعالى أن يكون أولئك الستة نواة المسلمين في المدينة، إذ رجعوا إلى قومهم فبشروهم بدين الإسلام، وعادوا بعد سنة

وهم اثنا عشر رجلاً فكانوا رجال العقبة الأولى وأرسل معهم النبي الكريم مصعبًا بن عمير معلمًا ومفقهًا، ثم عادوا بعد سنة أخري ثلاثة وسبعين رجلاً وهم أهل بيعة العقبة الثانية ؛ بايعوا النبي على كل خير وجهاد وشريف، حيث هاجر النبي إلى المدينة، وكتب الله أن يكون أهلها أنصار الإسلام ﴿وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾.



بلاء الحديبية

كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يُبتلون فيغلبون البلاء بصنوف شتى من السُّلوك النبيل منها: اعتقادهم أن ذلك البلاء إنما هو في سبيل عقيدة الإيمان وإذن فهو من مصائب الدنيا. وكل مصيبة إذا تخطت الدين فهي هينة.

ثم إنَّ الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم لإرادته وحكمه، من أعظم دلائل الإيمان وأن المؤمنين قد وعدهم الله رضوانه وجنته، فموعدهم لديه، حيث لا ظمأ ولا نصب لقد كان اعتقادهم أن النصر في الدنيا وعدٌ للمتقين وإن كان قد يبطىء فلا يأتي إلا بعد زلزال شديد.

ولقد كان من أعظم مواقف البلاء موقفُ المؤمنين في الحديبية -وبخاصة أثناء كتابة شروط الصلح- وذلك للأمور الآتية:

أولاً: كل المسلمين كان أملهم واعتقادهم أن يزوروا البيت ساعة وصولهم وهذا هو ما فهموه من رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أشرفوا على مكة لم يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيت ليعتمر ولكنه وجد بين يديه مفاوضات ومنعًا وكلامًا، ووجد قريشًا وقد أرسلوا قطعة قوية من الجيش يقودها خالدٌ رضي الله عنه، وقد

أحضروا من خلفهم العوذ المطافيل- أي نساءهم الكريمات. وهذا الأمر لم يستعدَّ له المسلمون إذ لم يكونوا متهيئين لقتال، وإنما جاءوا بقصد العمرة.

ثانيًا : أرسل النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحديبية رُسُلاً إلى قريش من أحلافهم، ومن العقلاء، ومن رجالات الطائف، كما أرسل عثمان بن عفان الصحابي الجليل الكريم؛ فسوَّفت قريش ولم تستجب لمطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أن تسمح له بزيارة بيت الله الحرام آمنًا مسالمًا معظمًا لحرمات البيت، ثم أرسلت قريش له أنهم لن يسمحوا للمسلمين بالعمرة هذا العام ولو قتلوا عن آخرهم. وهذا الأمر صحبه وسوسة وشكوك كادت تزعزع الإيمان الراسخ بوعد الله لرسوله، ذلك الوعد الذي جاء على هيئة رؤيا صالحة توقع المسلمون أن تتحقق ساعة وصولهم. ثم إن عثمان رضي الله عنه حين طالت غيبته في سفارته بين المسلمين والمشركين أشيع أنه قتل، فكان البلاء عظيمًا لم ينكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حين بايعه المؤمنون بيعة الرضوان على الثبات وعدم الفرار، ولو كان دونه الموت؛ فطابت نفسه، ثم تمت الطمأنينة حين رجع عثمان، وزال الخوف، وعاد إلى نفوس المؤمنين كثير من برْد اليقين.

ثالثًا : بدلاً من أن يسمعوا البُشرى من عثمان بأن قريشًا وافقت على زيارة المؤمنين للبيت؛ عاد عثمان ومعه مفاوض من قريش من سادة قريش وهو شيخ بني عامر بن كعب بن لؤي ذلك الفخذ المحترم من قريش وكان عمر رضي الله عنه أشدَّ الصحابة غضبًا حين رأى سهيلاً، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن له بتقليع ثناياه، حتى يكف عن خطبه البليغة التي كان يحرض بها قريشًا على قتل المسلمين.

لكن النبي الكريم أجاب إجابة نبيّ كريم حين قال لعمر: «وما يدريك أن تراه وقد وقف ببلاغته موقفًا يحبه الله ورسوله». وتحققت تلك النبوءة الصادقة يوم اليرموك حين ظهرت بلاغة سهيل في خطبه الحماسية الرائعة. والمهم أن سهيلاً حضر بعقلية عنيدة لا تتنازل فاستقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بصبر واحتمال وتجمُّل، وقال لأصحابه معلنًا سياسة الحلم: «لا تدْعوني قريش اليوم إلى أمر تصان به الأرحام إلا أجبت». وبدا للصحابة أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لان لينًا شديدًا في حين بدت منه صرامة وحزم شديدان إزاء مقترحات المسلمين.

رابعًا: ثم كانت الطامة حين بدأت كتابة شروط الصلح، وكان في تلك الشروط شرط في ظاهرة إجحاف بالمسلمين، وهو الشرط الذي يحتم على المسلمين أن يردُّوا من يأتيهم مؤمنًا إلى المشركين، في حين لا يلزم المشركين أن يردُّوا من يأتيهم مرتدًا عن دين محمد. ثم تألم المؤمنون وثار عمر رضي الله عنه حين اعترض سهيل على كلمة (بسم الله الرحمن الرحيم) وطلب أن يكتب بدلاً منها باسمك اللهم، وحين اعترض على كلمة (محمد رسول الله) وطلب أن يستبدل بها كلمة (محمد بن عبد الله) ووافق رسول الله صلى الله عليه وسلم على مسح الكلمتين واستبدالهما، وهنا ثار عمر رضي الله عنه ثورته العارمة حين جاء إلى أبي بكر وصاح: أما ونحنُ علي الحق وهم على الباطل لماذا نعطي الدنية في ديننا؟ فوجد من أبي بكر استسلامًا تامًا لما يراه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمع من رسول الله كلمته الكريمة: «إنه ربي ولن يضيعني».

خامسًا: حقيقة الأمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاس الأمور بميزان العقل المؤمن المتبصر في العواقب؛ فوجد أنَّ المؤمنين لم يخسروا شيئًا

إلا أن أجِّلت زيارتهم لبيت الله عامًا آخر، من ذي القعدة عام ستة إلى ذي القعدة عام سبعة، يوم تَمَّت عمرة القضاء للمسلمين، وتحققت رؤيا النبي الكريم، أما موضوع الكلمتين اللتين مسحتا فكان أمرًا شكليًا، وأما أمر المؤمنين والمرتدين فقد أسفر عن خير كثير حققه الله لرسوله وللصحابة الكرام. وقد اشتدَّ البلاء على المسلمين حين أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في أغلال مقطعة، وكانت المعاهدة قد وقعت فسلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيه، فأقبل يصفعه ويركله وهو يصيح بالمسلمين: لا تردُّوني إلى العذاب، ثم بلغت الفتنة أوجها حين دعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يعودوا من الحديبية إلى المدينة دون عُمرة، وأن ينحروا هديهم؛ فتثاقلوا ولم ينهض أي منهم إلا حين كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أول من نحر هديه، وعاد المؤمنون ساهمين. واستمر البلاء حين وصلوا المدينة، فأقبل أبو بصير مسلمًا من مكة، وتبعه ابنا عم له يطالبونه به؛ فأرسله النبي صلى الله عليه وسلم معهما، لكنه قتل أحدهما، وفرّ منه الآخر ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سادسًا: لقد ظلَّ موقف عمر الغاضب حسرة في قلبه حين رأى النتائج الباهرة التي تمخَّضَ عنها صلح الحديبية. فقد تشكلت عصابة أبي بصير وأبي جندل ومعهم أكثر من سبعين آذوا قريشًا وتجارتها، فجاءت قريش صاغرة يرجون النبي أن يمسكهم عنده ولا يردَّ أي مؤمن، ثم وجد النبي من وقته متسعًا فغزا خيبر التي أغنى بغناها الله المؤمنين، ثم راسل عليه الصلاة والسلام حكام الدنيا يدعوهم إلى الله، وكانت الحديبية سببًا في إسلام أعداد كبيرة من قريش حتى زاد عدد جيش النبي صلى الله عليه وسلم في سنتين من ألفين إلى عشرة آلاف يوم الفتح، ثم كان

فتح مكة من ثمار صلح الحديبية حين نقضت قريش شرطه الذي يوجب عليهم احترام أحلاف محمد فخالفوا وخانوا . والسؤال الآن هو : ماذا كان يحدث لو أطاع النبي صلى الله عيه وسلم عمر، وقاتل قريشًا يوم الحديبية بجيشه الصغير، ومكة مملوءة فرسانًا من قريش، ومستضعفين من المؤمنين؟ هذا هو السؤال الذي كان عمر يسأله لنفسه، ويندم به على ذنبه .

لقد تحول اجتهاد عمر في نظر عمر ذنبًا ظلّ يستغفر الله منه كلما ذكره، ولم تزل البراهين تتدافع أمام عمر أن الحديبية كانت بأمر الله فتحًا، ولم تكن مجرد صلح، وأنه ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، إنما هو الوحي الصادق .



نصر الله والفتح

كان صلح الحديبية كما أسلفنا فتحًا مبينًا، اطمأنت به المدينة على أمنها بعد أن سدَّت جبهة قريش، وأمنت حرب قريش بموجب المعاهدة عشر سنين، فانتهز الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الفرصة وغزا خيبر، ثم أمَّن شمال الدولة بتأديب القبائل الموالية للروم. وفي أثناء ذلك اهتمَّ النبي صلى الله عليه وسلم بتربية شباب الإسلام بالمدينة تربية إسلامية، فيها روح الإخاء والمحبَّة، وفيها دروس الانضباط والطاعة، وفيها تدريبات البطولة والفداء. في حين رأى شبابُ قريش بمكة من حولهم أمنًا وفراغًا ورغدًا فأمعنوا في الخمر والميسر والمعاصي والتمرُّد، فكثرت شرورهم، واستفحل عدوانهم، ونسوا شروط الحديبية ومن بينها أنَّ عليهم أن يحترموا كلَّ من يدخُل في حلف محمد بحيث يكون في مكةً آمنًا مطمئنًا. ولقد كانت قبيلة خُزاعة من حلفاء محمد صلى الله عليه وسلم، وكان المفروض ألا يعتدي عليها أي قرشي، لكن الذي حَدث أن اشتباكًا حصل بين قبيلة بكر بن عبد مناة وقبيلة خزاعة، وكانت الأولى من حلفاء قريش، والثانيةمن حلفاء محمد، وطردت القبيلتان إحداهما الأخرى حتى دخلتا الحرم، وكان شباب قريش يقاتلون سرًا مع بني بكر ويمدُّونهم بالسِّلاح، فلما دخلت القبيلتان الحرم حذَّر أحد البكريين زعيمهم واسمه نوفل بأنَّ القتال داخل بيت الله أمر منكر وحرام، وقال له: اتق

إلهك يانوفل. فقال نوفل: لا إله اليوم، خذوا ثأركم يابني بكر. والمهم أن بكراً نالت من خزاعة بتأييد من شباب قريش، وبذلك خانت قريش عهد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أبرم في الحديبية، وأصبح هجوم النبي على مشركي مكة أمراً متوقعًا، وخصوصًا حين انطلق زعيم خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي، وتلاه بديل بن ورقاء الخزاعي، وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لقيته خزاعة من عدوان قريش، فبدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التأثر والغضب، وقال لعمرو بن سالم الخزاعي: نُصرت ياعمرو بن سالم، ورأى في السماء سحابة فقال صلى الله عليه وسلم: إن هذه السحابة لتستهلُّ بنصر بني كعب وأجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردَّ على قريش ردًا عنيفًا مؤدِّبا حقًا. وترامى إلى سمع أبي سفيان أن خزاعة استغاثت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحس بالشر، وسارع إلى المدينة المنوَّرة ليتلافى الهجوم النبوي، لكنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أعدَّ جيشه ولبس لأمته، ولم يعد للرَّجاء موقع.

ووصل أبو سفيان المدينة بعد رحلة سريعة مضنية، فتوجه حال وصوله إلى بيت ابنته رملة (أم حبيبة) أم المؤمنين رضي الله عنها، فسلَّم وجلس في البيت على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفعت أم المؤمنين فراش رسول الله فقال لها أبو سفيان: أرغبت بالفراش عني أم رغبت بي عنه؟ فقالت له: هذا فراش رسول الله وما يكون لك أن تجلس عليه وأنت مشرك. فقال لها: لقد أصابك بعدي شرٌّ. ومضى إلى رسول الله في المسجد، فكلمهُ وناشده القُربَى والرَّحم، فلم يردَّ النبي الكريم عليه بكلمة، فقصد أبا بكر فاعتذر الصديق وقال له: ما كان لي أن أرجو رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد لبس لأمته. ثم رجا عمر فأسمعه مالم يُرضه، وتوجه إلى عليّ وفاطمة فاعتذرا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن ينثني بعد أنْ استعدَّ حتى يَحْكُم الله بأمره. وعندئذ انتاب أبا سفيان شعورٌ باليأس، وعاد إلى مكة مُنذرًا أهلها بشرّ قريب، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه

المؤمن الزاحف إلى البلد الحرام، فلما أشرف على مكة أمر كلَّ جندي أن يوقد في سواد الليل ناراً خاصة به، وإذا مكة غارقة في النور بعد أن شبت من حولها عشرة آلاف نار وفي أثناء ذلك خرج أبو سفيان يتلمس خبر تلك النيران، وإذا أمامه بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام وكان قد سبقهم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

كان العباس يخشى أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عُنْوَة فيستحر القتل في قريش وفرسانها وذراريها، ولهذا أجار أبا سفيان وصاحبيه حين جيء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفاوضهم طول الليل أن يسلموا لينجوا، وأدخل في الصباح أبا سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ارجع إلى مكة وأعلن في أهلها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدخل مكة سلمًا فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل بيته وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل البيت الحرام فهو آمن»، ولم يكد أبو سفيان يعلن ذلك حتى أقبلت زوجته هند تلوي شاربه وتقول: اقتلوا الضعيف الضخم الخَوَّار، وهو يقول: لا تغرنكم هذه المرأة فوالله ما لمن يبرز إلا القتل. وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيشه المؤمن ساجدًا فوق راحلته خشوعًا لله، حيث جمع المشركين في المسجد الحرام، وهم يكادون يصعقون من الخوف فقال لهم: أيها القوم ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم: لا أقول لكم إلا ما قال أخي يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء. فَسُرَّ الناس وابتهجوا، وحطم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصنام، وكبها وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ وأذَّن بلالٌ فوق الكعبة، فكادت نفوس بعض المشركين تفيض وهم يقولون: (أيَّ ثأر ثأر العبد) وتحمَّس أحد المشركين واسمه فضالة بن عمير فأقسم أن يقتل محمداً صلى الله عليه وسلم ثأراً للأصنام، وحمل خنجراً قصيراً وأخفاه، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتمتم،

فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم بطوقه وقال له: بم تتمتم يافضالة؟ فقال يارسول الله أسبّح الله وأستغفره، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الخنجر، وأدخل يده في صدره فدعا له بالهداية، قال فضالة: والله ما أخرج يده من صدري وفي الدنيا من هو أحبُّ إليّ منه، وصادف أن لقيت فضالة، وهو عائد إلى بيته إحدى عشيقاته في الجاهلية فقالت له: اجلس نتحدث يافضالة، فرفض وقال:

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلت: لا ... يأبى عليّ الله والإسلامُ
لو قد رأيت محمداً وجنوده ... في الحرب حيث تحطم الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بينًا ... والكفر يغشى وجهه الإظلام

ومن الطرائف أن رجلاً من بني بكر اسمه حماس كان حليفًا لقريش مقيمًا بمكة فرأته زوجته يسُنُّ سيوفًا له فسألته فقال: أسنُّها لأقاتل محمداً. وسترين غداً عبدين عندك من جيش محمد، وخرج في اليوم التالي وإذا حظُّه يسوقه إلى مكان اسمه الخندمة اصطف حوله صناديد قريش وأهل الثارات، من أمثال صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو كان ذلك الموقع أسفل مكة وقد وُكل بذلك الباب خالدٌ بن الوليد رضي الله عنه ليفتحه سلمًا، لكن أولئك الصناديد تحرشُوا به، وفي لمح البصر إذا إثنا عشر فارسًا مشركًا قد جُندلوا، فهرب عكرمة وصفوان وسهيل وأمامهم حماسٌ كالغزال، وقد أسرع إلى باب بيته وأقفله وزوجته تضحك من منظره وتلومه وهو يقول لها: لا تلوميني

إنك لو رأيت يوم الخندمة ... إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمهْ
وأبو يزيد قائم كالمؤتمهْ (وهو سهيل ... بن عمرو) لم تنطقي باللوم أدنى كلمهْ

وأسلمت مكة، وعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عن أعتى عُتاتها ونسي هو وأصحابه الإيذاء والعذاب حين جاء نصر الله والفتح ﴿وتمّت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾.



قتل عبهلة

كان يعيش في اليمن أثناء البعثة النبوية كاهنٌ من قبيلة عنْس يقال له عبهلة. وكان أسود البشرة، هائل الجثة، يدعوهُ الناس الأسودَ العنسي. كان ذلك الكاهنُ صاحب حيل شدَّت الناس إليه، وكان رُبما ستر وجهه بقناع فيدعوه الناس ذا الخمار وربما أحضر جمجمة حمار وتحايل حتى ينبعث من الجمجمة صفير، وكان اليمانيون في ذلك الوقت يعشقون الغرائب حتى لقد كان لهم كاهنان: أحدهما على هيئة نصف إنسان يسمونه شقًا، والآخر لا يستطيع الحركة إذ كان مقعدًا يسمونه سطيحًا وكان الناس يعتقدون فيهما العرافة وعلم الغيب، فاستغل عبهلة سذاجة الجهلة وطلع عليهم بأفعال غريبة جعلت له شعبيَّة في الناس، حتى التفَّ حوله مريدون يروون له أفعالاً ويزعمون له كرامات مكذوبة. فلما أشيع في أواخر أيّام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنه عليه الصلاة والسلام مريض، وأن المرض والأوجاع والحمَّى ألحت عليه، ادعى الأسود العنسي النبَّوة، ودعا العوامَّ إليه، فانضم إليه بعض الانتهازيين والنفعيين وأحلاس القتال في الجاهلية كعمرو بن معد يكرب.

وكان أمير اليمن في ذلك الوقت مُعينًا من قبل كسرى، وكان رضي الله عنه مؤمنًا آمن بالله ورسوله حين بلغهُ ما كان يتحلى به النبي صلى الله عليه وسلم من الصدق والفضائل والخلق العظيم، وكان النبي الكريم قد أقره على اليمن، وأمَدَّه

بدعاة إلى الله وقضاة ومزكين -أي الذين يجمعون الزكاة- برئاسة معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري. رضي الله عنهما كان ذلك الوالي هو شهرُ بن باذان، فلما رأى عصيان عبهلة خرج إليه شهرٌ من صنعاء وقاتله؛ فدارت المَعركة على شهر، وانتصَر الأسود على المسلمين وقَتل شهراً، وتزوج امرأته الصالحة الجميلة؛ فارتد كثير من أهل اليمن وتشتت الدعاة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فذهب معاذ وأبو موسى إلى حضرموت، ورجع عمرو بن حرام وخالد بن سعيد بن العاص إلى المدينة، ودانت اليمن كلها للأسود العنسي فاستفحل أمره واشتد سلطانه أما بقية المسلمين فعاملوا ذلك الأسود بالمجاملة والتقيه وعادت اليمن تحت حكم الطاغية العنسي سجنًا كبيراً. ولقد كان الأسود كريهًا لكل الناس لكنه كان كثير الجواسيس فخضع له أتباعه وتظاهروا له بالإخلاص حتى زوجته المؤمنة الجميلة أرملة شهر بن باذان تظاهرت بالإخلاص كامرأة فرعون حتى صارت موضع ثقته. وكان من حاشية الأسود رجلٌ من الأعاجم يقال له فيروز رضي الله عنه وكان فيروز ابن عمّ الأميرة زاذ زوجة الأسود التي ذكرنا أمرها فكان ربما مرّ عليها وسلَّم فشكا إليها وشكت إليه بلاء عبهلة وكان يتصلُ بهما قائد مسلم من طرف النبي عليه الصلاة والسلام ويخبرهما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيرسل جيشًا إلى اليمن ويثبتهما ويؤملهما كان اسمه دَبْرٌ بن يحنس الديلمي وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال حيًا والمسلمون مشغولون بمرضه وهنا تم الاتفاق بين فيروز وزير عبهلة وبين الأميرة زاذ ابنة عمه على قتل عبهلة فدلت فيروز على مكان ضيق في جدار القصر لا حراسة عليه وحددت له ليلة التنفيذ وقالت له سأسقيه ما يغيبُ عقله من الخمر ثم أشير إليك باقتحامه بسيفك وتم كلُّ شيء على ما يُرام وأقبل فيروز بسيفه كالأسد فوجد الطاغية سكران لا يدري ما حوله فضربه بسيفه المشحوذ على رقبته فوقف كالجمل الهائج وشخر شخيراً عاليًا ثم هوى فضربه الثانية فعلا شخيره ودخل الحرس أعلى القصر فلقيتهم الأميرة زاذ رضي الله عنها وقالت لهم النبي يوحى إليه

وقال: أشهد أن محمدًا رسول الله مات الأسود الكذاب وعزَّ دين الله فأغمى على كثير من قادة عبهلة وجاء الحق وزهق الباطل فانقض المسلمون الذين يكتمون إسلامهم على أتباع الكذاب وحرسه وسقطت خرافة الأسود العنسي واجتمع شمل الإسلام. كان ذلك قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثة أيَّام وقد بَشَّر النبي الكريم أصحابه بوحي من ربِّه. جاء في البداية والنهاية لابن كثير عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أتى الخبر على النبي صلى الله عليه وسلم من السَّماء بقتل الأسود العنسي فبشرنا وقال: قُتل العنسي البارحة قتله رجلٌ مبارك من أهل بيت مباركين. ثم وصل الخبر سريعًا في مطلع خلافة الصديق رضي الله عنه وأن أتباع عبهلة تفرَّق أمرهم وأنَّ الأمراء أجمعوا على أن يكون معاذ بن جبل إمامًا ولكن حصل أن بلغ اليمانيين والمرتدين خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فعادوا للاتحاد وتضامن قيس بن مكشوح وعمرو بن معد يكرب وقومهما واتفقوا أن يقتلوا باقي الصحابة بالسُّم لكن الله أحبط كيدهم فلم تتمَّ المكيدة ونجا فيروز. وفي أثناء ذلك فرغ الصديق للمرتدين بعزيمته العظيمة المقدامة فأرسل إلى فيروز: إن جيشنا قادم إليك فقاتل أولياء الكفر وقبل وصول الجيش الإسلامي جمع فيروز جيشه المسلم وانقض على أتباع عبهلة خارج صنعاء وقاتل الكفار بقيادة قيس بن مكشوح وعمرو بن معد يكرب لكن جيش المسلمين بقيادة فيروز صعقهم ووقع في الأسر قائدا الفلول قيس وعمرو فأرسلهما فيروز إلى الصديق في الأغلال فلما مثلا بين يديه وبخهما وقال لعمرو ما عهدتك إلا منافقًا مرتدًا فأعلنا إسلامهما وقبل الصديق توبتهما وكانت لعمرو بن معد يكرب مواقف في القادسية أرجو أن يكون الله تعالى كفرّ بها عنه خطاياه. وعاد الإسلام إلى اليمن وثبت الوعد الحق حين وصل جيش أبي بكر إلى اليمن فقطع دابر الردة وظلت اليمن بعد ذلك مخلصة الولاء للإسلام تصل إلى المدينة زكاتها وخيراتها ومنسوجاتها وكان من اليمانيين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه رضي الله عن فيروز وابنة عمه الصالحة وجميع الصحابة والتابعين.



الصدّيقُ الحازم

سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام مجموعُ المدَّة التي تولى فيها أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه الخلافة ولكنَّ الصِّديق البطل صنع في هذه المدة الخاطفة مالم يصنعه عظماء الخلفاء في عشرات السنين .

ولم تكن الطريق من حوله مفروشة بالورود لكنها كانت أشواكًا أشدَّ من حسك السَّعدان. تولى الأمر بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا الأعراب من حول المدينة يتطلعون إلى غزو مدينة الرسول؛ لينهبوا أقواتها وثمارها في غمرة حزن الصحابة على رسولهم الحبيب .

وفي أيام قليلة ارتدت القبائل العربية فلم يبق حول أبي بكر سوى أهل المدينة وأهل مكة وبعض أهل الطائف ونَفَر من أهل البحرين وكان قد تنبأ متنبئون منهم عبهلة الأسود العنسي. ومنهم طليحة الأسدي. ومنهم مسيلمة الحنفي الكذّاب. ومنهم سجاحُ التميمية ومنعت بعض القبائل الزكاة واستنكفت قبائل أخرى عن الصَّلاة وأظلمت أرجاء الدنيا بعد وفاة الرَّسول الكريم فزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر. في ذلك الموقف الهائل الذي يترك الحليم حيران قرر الصديق رضي الله عنه أن يتصدَّى للمرتدين ولو طبقت الأرض كُفرًا. فالله متمٌّ نوره ولو كره الكافرون. وبإلهام من الله جل جلاله فعل الصدّيق ما يلي :

أولاً : أنفذ جيش أسامة إلى وجهته في الشمال وسط معارضة من بعض الصحابة الذين اقترحوا على الصديق أن يبقي ذلك الجيش في المدينة ليدافع الأعراب المتربصين بدلاً من أن يوغل شمالاً فيعرض عضلاته ويرهب الروم وقبائلهم لكن الصديق قال : لا أوقف بعثًا أمر بإنفاذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قولته المشهورة : والله لا أحلُّ عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو أن الطيرَ تخطفُنا والسباع من حول المدينة ولو أنَّ الكلاب جَرَتْ بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة .

واقترح بعض الصحابة أن يبدل أسامة ويعين من هو أكبر منه وأشد فأبى وقال لعمر : ويحك ثكلتك أمك ياابن الخطاب أؤمّر غير أمير رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! وذهب الصديق ماشيًا إلى جيش أسامة وسار ماشيًا وأسامة راكبٌ وهو خجل يحاول النزول فيمنعه أبو بكر ثم تقدَّم إلى أسامة بأدب وقال له : أيها الأمير أتأذن لي باستبقاء عمر؟ فوافق أسامة رضي الله عنهم جميعًا وسار بجيشه متوجهًا إلى الشمال . وكان مروره في قبائل العرب مُذهلاً إذ لم تكن القبائل الموالية للروم تتوقع أن يعود المسلمون إلى حدود الروم في البلقاء بعد أن قتل قادتهم في مؤتة ، لكن أسامة عاد وأدّب تلك القبائل ثم وصل البلقاء في قرابة شهر فانتقم من القبائل التي نفرت مع الروم وخوَّف المتربصين وعاد رضي الله عنه في خلال شهرين وكان وصوله كالبلسم الشافي ؛ لأن المرتدين حين رأوا جيش أسامة قالوا : وي لهؤلاء لا يزال مددهم بكرًا .

ثم إن أبا بكر رضي الله عنه التفت لأعراب المدينة فأحضر الصحابة رضوان الله عليهم وانقض بأولئك المؤمنين على الأعراب حتى شرَّد بهم من خلفهم وكاد يجتث شأفة عبس وذبيان . لقد بدأ بالمغيرين فانقض عليهم كالصاعقة ثم تعقبهم وهو يقود الجيش بنفسه حتى بلغوا ذي حَسَى فانقض على بني مُرَّة وعلى عبس وذبيان يساعده أبناء مقرّن رضوان الله عليهم : النعمان وعبد الله وسويد .

ولم يزل في آثارهم حتى قتل حَبال بن طليحة ثم نزل بذي القصة وهنا التفت بنو ذبيان فشرعوا يقتلون المسلمين المجاورين لهم وفرشوا طريق خيول المسلمين بالجلود الناشفة فنفرت وقتل بعض المسلمين ولكنّ الله ثبت المسلمين على ظهور الخيل فانعطفوا من المدينة وأقسم أبو بكر أن يقتل بكل قتيل مسلم قتيلين من المشركين حتى ذلت الأعراب وأمن الله المدينة بعد أن دمّرهم بمكان يقال له الأبرق بمنطقة الربذة وحتى قال شاعر المسلمين زياد بن حنظلة :

ويوم بالأبارق قد شهدنا ... على ذبيان يلتهب التهابا

أتيناهم بداهية نسوف ... مع الصديق إذ ترك العتابا

ثم إن الصديق التفت إلى المرتدين ومانعي الزكاة وهنا جاء عمر رضي الله عنه يحاول إقناع الصدّيق بالتريث في أمر المرتدين وقال : كيف نقاتلهم وهم يصلّون والنبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في بعض رجال ثقيف : إذا صلى فسوف يزكي هنا صاح الصديق في وجه الفاروق رضي الله عنهما وهو يقول له : جبارٌ في الجاهلية خوّار في الإسلام . رجوت نصرتك فجئتني بخذلانك اغرب عنّي فوالله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه . وفي الحال جمع أبو بكر أحد عشر قائداً من قادة المسلمين وعقد لهم في مسجد النبي أحد عشر لواءً على النحو التالي :

١ ـ خالد بن الوليد يتولى أمر طليحة فإذا هزمه تحوّل إلى مالك بن نويرة .

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل ووكله بمسيلمة الكذّاب .

٣ ـ شرحبيل بن حسنة ينضم إلى عكرمة ثم يسيران بعد مسيلمة إلى قبيلة قضاعة على طريق الشام .

٤ ـ المهاجر بن أمية ويتولى أمر الأسود العنسي عبهلة ثم يُعين الأبناء على قتل قيس بن مكشوح .

٥ ـ خالد بن سعيد بن العاص ويتولى قبائل قحطان المحالفة للروم في مشارف الشام .

٦ ـ وعمرو بن العاص إلى جموع قضاعة وبني الحارث .

٧ ـ وحذيفة بن محصن إلى دُبا بعمان .

٨ ـ ثم وجهه مع حذيفة إلى مهره .

٩ ـ طرفة بن حاجب لبني سليم ومن معهم من مرتدي هوازن .

١٠ ـ وسويد بن مقرن إلى تهامة اليمن .

١١ ـ والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين .

وانتصروا جميعًا بفضل الله نصراً عظيمًا مكن الصديق أن يوجه جيوشه إلى ديار الفرس والروم حيث بدأت بشائر النصر في القادسية واليرموك ثم توج أعماله بحفظ العقيدة حين جمع القرآن في نسخة مضبوطة حفظت عند أم المؤمنين حفصة وكانت أعظم مرجع لجامعي المصحف العثماني في عهد عثمان رضي الله عنه .

فعل الصديق كل هذا في سنتين ومائة يوم . رضي الله عن الصديق مجدداً لدين الله مجاهداً في سبيله إلى آخر لحظة من عمره .



حديقة الموت

يرى الذاهب من الرياض إلى العيينة براحًا من الأرض قبل قرية الجُبيلة يقال له عقربا وهو أرض منساحة تتحول عند نزول المطر إلى مستنقع تنتشر فيه روضات وتأتي العيينة بعده ببضعة أميال .

هذا المكان كان في وقت من الأوقات حديقة لبني حنيفة اعتصموا فيها بقيادة مسيلمة الكذاب ودارت فيها معركة حاسمة قاتل فيها بنو حنيفة قتال المنتحر المستميت وتكشَّف نقعها عن هزيمة منكرة قتل فيها مسيلمة وصناديدُ أتباعه وأكثر من عشرة آلاف مرتدٍّ وانتهت بها مهزلة مسيلمة التي كانت أكذوبة جرَّت على بني حنيفة شراً مدمِّراً مستطيراً وشهدت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطولات محتسبة استشهد على أثرها أكثر من ستمائة شهيد فيهم كثير من حفظة القرآن والسابقين الأولين إلى الإيمان وكان قائد الغر الميامين فيها خالدٌ بن الوليد رضي الله عنه وجزاه عن بطولاته الإسلامية أفضل الجزاء .

وقصة مسيلمة هذا قصة عجيبة فقد كانت له في عهد النبي صلى الله عليه وسلم طموحات مغرورة منها أن يعترف رسول الله صلى الله عليه وسلم بنبوته وتقسم الأرض بينهما وقد كتب بهذا الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم التالي :

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .

أما بعد . . فإني قد أشركت معك في الأمر فلكم نصف الأرض ولي نصفها ولكنَّ قريشًا قوم يعتدون .

فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتاب التالي : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . . سلام على من اتبع الهدى . . أما بعد . فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

وكان مسيلمة صاحب حيل وكان ربما نظم بعض القول وقطعه أسجاعًا وادعى أنه يعارض القرآن الكريم : كالقطعة التي خاطب بها الضفدع والأخرى التي خاطب بها الفيل فمن الأولى قوله : ياضفدع بنت الضفدعين . نقي لكَم تنقين . لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين . رأسك في الماء وذنبك في الطين .

ومن معارضاته : والباذرات بذرا . والحاصدات زرعا . والذاريات قمحًا والطاحنات طحنًا والخابزات خبزًا والثاردات ثردًا . وكان مسيلمة أصفر صاحب نساء فقد تزوَّج سجاح على أن تعطيه نصف زرعها وزرع قومها ولما طلب قومها مهرها جعل مهرها أن أسقط عنهم صلاة العصر وكان من خبر معركة الحديقة أن هاجمهم أوَّل الأمر عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه ولم يتبع أمر الخليفة الذي أوصاه أن يتريث حتى يلحق به خالدٌ وشرحبيل بن حسنة فتصدَّى له بنو حنيفة وهزموه وبلغ الخبر أبا بكر فغضب وكتب إليه لا أرى وجهك بعد اليوم . والمهم أن خالدًا رضي الله عنه وصل وكان في الجيش شرحبيل والتقى الجمعان وثبت مسيلمة وبنو حنيفة بعد أن خطب فيهم مسيلمة خطبة أنذر المنهزم فيها بضياع مجده وشرفه وعرضه وقد اندفع المرتدون وراء مسيلمة حتى دخلوا خيمة خالد وكادوا يسبون امرأته ، ولكن أقبل خالد رضي الله عنه كالصاعقة وطلب المبارزة فلم يبرز له فارس إلا صرَعه ومزَّقه وواجهه مسيلمة فهرب من وجهه ورأى المرتدون من جيش الصحابة ما هالهم ؛ فهرب مسيلمة وتبعته بنو حنيفة حتى دخلوا حديقتهم وأغلقوا

أبوابها واعتصموا بها يضربون المسلمين بالحجارة ويرشقونهم بالسهام .

ولما طال الأمر على المسلمين نادى فيهم البراء بن مالك رضي الله عنه : ضعوني في محفَّة واقذفوا بي في الحديقة عند بابها وعيَّن أحد الأبواب . واستجاب الصحابة له فحققوا رغبته فسقط قريبًا من الباب وقتل من وجدهم بينه وبين الباب ثم كسر الباب بسيفه رضي الله عنه ودخل المؤمنون حديقة الموت واستحر القتل في جيش مسيلمة وكانت من ضمن الجيش وحشي : ذلك العبد الذي قتل حمزة في أحد . قال وحشي : ووجدت فرصتي فقلت : لقد آن أن أكفر عن جريمتي في قتل حمزة بقتل مسيلمة الذي كشفه الله لحربتي وأسدَّد الحربة فلمًّا وصلت مسيلمة أصابت مقتلاً ونفذت من الجنب الآخر فصاح كالثور الهائج والزبد يخرج من شدقيه وسارع إليه أبو دجانة ففلق رأسه بالسيف وقتل في المعركة وزراؤه ومنهم الرجال بن عنفوه وأمعن خالد قتلا وسبيا في أتباع مسيلمة وأسلم من بقي منهم وأكثرهم من النساء والأطفال وساق كثيراً منهم إلى الصديق وفي تلك المعركة قال ضرار بن الأزور يذكر أسماء بعض المعالم حول المعركة :

فلو سئلت عنا جنوبُ لأخبرت عشية سالت عقرباءُ وملْهَمُ
وسال بفرع الواد حتى ترقرقت حجارته فيه وفاض به الدمُ
نجاهد إذ كان الجهاد غنيمة ولله بالمرء المجاهد أعلمُ

وانتهت قصة ذلك الجبار العنيد بموتة عُقر فيها كما تعقر الإبل حين قضى عليه وحشي وأجهز عليه في عقر داره أبو دجانة رضي الله عنه وكتب النصر للمجاهدين المحتسبين وكان من بين الشهداء أبو دجانة وزيد بن الخطاب رضي الله عنهما وصدق الله رسوله ما بشر به أصحابه حين انتهى القتال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجون مثوبة الله لشهدائهم وكانوا كما قال الله جلَّ جلاله في سلفهم من أهل أحد : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلا﴾ .



سعد والقادسية

سعد بن أبي وقاص قرشي من بني زهرة أخوال النبي صلى الله عليه وسلم الأمير المكي أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد السابقين الأولين وأحد أبطال بدر ومن الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية وأحد الستة أهل الشورى الذين عينهم عمر. وأوّل من رمى بسهم في الإسلام وكان يرمي في يوم أحد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: ارم سعدُ فداك أبي وأمي وفي صحيح مسلم أن أحد المشركين أثخن المسلمين يوم أحد رماية وتنكيلاً فرماه سعدٌ بسهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه فأصابه سهم سعد ووقع وقد انكشفت عورته ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك.

والموقف العظيم الذي تجلَّت فيه بطولة سعد هو القادسية. وأصل ذلك الموقف أن المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه كتب إلى عمر بالمدينة يخبره أن أهل سواد العراق استخفُّوا بالمسلمين وكفروا عهودهم والتفوا حول ملكهم يزدجرد فبعث عمر رضي الله عنه إلى المثنى أن اجمع أهل النجدة من كل فارس وحكيم وشاعر وابتعدوا عن حدود الفرس واجمعوا فرسان بكر فإنها أشدُّ العرب على الفرس بعد أن هزمتهم في يوم ذي قار. وكتب إلى أهل الأقاليم من الأمراء أن يوافوه بكل فارس بطل إلى المدينة فإن كان بعيداً من المدينة فليكتبوا إليه أن يتوجه إلى المثنى بسواد العراق.

وبعد عودة عمر من حجَّته في ذي الحجة سنة ثلاث عشرة رآه الناس رضي الله عنه يخرج إلى ماء يدعى (صراراً) على بعد ثلاثة أميال من المدينة المنوَّرة فلحقه الناس ونزلوا قريبًا منه وأرسلوا إليه عثمان بن عفَّان يسأله عن سبب نزوله ذاك فأمر أن يُجمع كبراءُ القادة وأخبرهم أنَّ الفرس جمعوا صفوفهم لقتال المسلمين وأنه أجمع أمره أن يذهب بنفسه ليقود الجيوش. وجمع أهل الرأي من الجيش المسلم وفيهم عليٌّ رضي الله عنه، وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والعباس وطلحة والزبير واستشارهم في أمر خروجه فكلهم عارض ذلك وقالوا له بل تبقى أنت بين ظهرانينا تمدُّ الجيوش بالرجال وترسل رجلاً عظيمًا من أصحاب رسول الله فيقود الجيوش وأنت تؤيده وتمدَّه بالنصيحة والمعونة فإن نجح وإلا استبدلت به آخر فتغيظ بذلك العدوَّ. فاطمأن عمر إلى هذا الرأي ثم استشارهم: من ترون لهذه المهمة الصعبة؟ فأجمعوا كلُّهم على أن سعدًا بن أبي وقاص هو خير من يصلح لهذه المهمة لأنه الليث عاديًا وهنا دعاه إليه وأمَّره على حَرب العراق ثم وصاه بهذه الوصيَّة: ياسعد لا يغرنَّك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله لا يدفع السَّيء بالسيء ولكنه يدفع السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسبٌ إلا طاعته فالناس في ذات الله سواء: الله ربهم وهم عباده. فانظر الأمر الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه. وجمع عمر المقاتلين الذين في المدينة وإذا هم أربعة آلاف من قبائل مذحج وقيس عيلان وأمده بأربعة آلاف كانوا ينتظرون مروره في الطريق وانضم إليه عساكر المثنى بن حارثة وكانوا ثمانية آلاف. ثم لما وصل مناطق بكر وقبائلها انضم إليه فرسانها ثم انضم إليه الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة وعلى الجملة فقد كان جيش العرب في القادسية قريبًا من ثلاثين ألفًا نظمَّهم سعد تنظيمًا في غاية من الدقة. على كل عشرة عريف والقادة من الصحابة ورائدهم وداعيتهم سلمان الفارسي رضي الله عنهم. ولما وصل سعدٌ إلى مكان يقال له شراف وجد المُعَنَّى بن حارثة في انتظاره ومعه جيش المثنى بن حارثة الذي توفي

قبل وصول سعد بقليل رضي الله عنه وكان الفرس قد أرسلوا ملك الحيرة قابوس بن قابوس ليجمع الجنود العرب المحالفين للفرس لكنّ المثَنَّى توجه إليه وقتله وتفرّق العرب من حول الفرس. وأخذ المثنى يجمع جنود بكر وأرسل عمر إلى أبي عبيدة في الشام أن يوجه العراقيين الذين في جيشه إلى القادسية. وأحسن سعد إلى عائلة المثنى فنظمهم في عائلته وتزوج أمهم زوجة المثني وسار سعد من شراف فنزل العُذيب ومنه إلى القادسية وبدأ سعد يرسل سرايا صغيرة فتنقضُّ على الفُرْس كالبرق. فقد أغار مثلاً زُهرة بن عبد الله بن قتادة بن الحويّه على الحيرة حيث أنصار الفُرس كثيرون فوجد فيها عُرُسًا لابنة أحد المرازبة تُزَف إلى رجل من عظماء الفُرس فانقض زُهرة على العُرس وأخذ العروس ومعها ثلاثون امرأة ومالا يحصى من الأموال ومائة رجل من التوابع ساقها أمامه بكير بن عبد الله الليثي وسلّمها إلى سعد وكبّر المؤمنون تكبيرة هائلة فأمر سعد بقسمتها على المجاهدين وترك الحريم في العُذَيب. وأخذ المسلمون ينهبون بقر المنطقة وحيواناتها ويتغذون بها فاستعاذ أهل السَّواد بكسرى يزدجرد فأمر رستم أن يقود الجيش إلى القادسية فسار رستم كارهًا وهناك أرسل إليه سعدٌ رجالاً من حكماء العرب منهم النعمانُ بن مُقرِّن والأشعث بن قيس والمُعنَّى بن حارثة الشيباني وعمرو بن معدي كرب والمغيرة بن شعبة وربعيُّ بن عامر الذي سأله رستم لماذا جئتم إلى بلادنا؟ فقال: جئنا لنبلّغكم ما أرسل الله به محمدًا من الهدى ودين الحق فإن قبلتموه فأنتم إخواننا ودماؤكم حرام وإن رفضتم فالجزية وإلا فالقتال فغضب كسرى ورستم من هذا التحدِّي وأمر أن يُحضر كيسٌ من التراب فيُلقى على ظهر أشرف من في الوفد ليحمله إهانة ونكاية فحمله عاصم بن عمر وقال للمسلمين إنها بشرى من الله أنكم ظفرتم والله بأرض الفرس. وبعد هذه الواقعة حَصَلت فترة لم ينشب فيها القتال فانطلق جنود الفرس يغصبون الفتيات ويسكرون ويعربدون فلما بلغ الأمر رستم قال: والله إن العَرب إنما ينتصرون بعفافهم وطاعتهم لربهم في حين يهلك الفُرس بمثل هذه المعاصي وأرسل

سعد سرايا أُخرَ ليضايق الفرس منها سرية طليحة الأسدي رضي الله عنه الذي اقتحم معسكر الفرس وساق منه ثلاثة أفراس وهرب بها بعد أن قتل اثنين من أصحابها. ثم كانت معركة القادسية ثلاثة أيام وليلة الهرير وصباحَها إلى الظهر واسمه يوم القادسية. ففي اليوم الأول وهو يوم أرماث برز الجيش الفارسي ومعهم ثلاثة وثلاثون فيلاً: ثمانية عشر في الوسط وخمسة عشر في الميمنة والميسرة كان سعدٌ صاعداً على شرف ببيته وقد اشتدت عليه الدمامل وعرق النسا وكان يرسل من لدنه رجالاً يستصرخون للمتضايقين وفي هذا اليوم قامت مبارزات بين أبطال العرب والفرس وشرع المسلمون يقرءون سورة الجهاد (الأنفال) وكبّر سعد أربع تكبيرات بين كل واحدة وأختها وقت قليل ثم بارز عاصم بن عمر فارساً فهرب نحو جماعته فحموه فأخذ بدله رجلاً على بغل وإذا هو خبّاز الملك ومعه خبزه وبارز عمرو بن معد يكرب فارسيًا فأمسكه وجلد به الأرض فمات وأخذ منه سواريه وحزامه وبارز طليحة الأسدي أحد قادة الفرس فقتله ثم قامت مشكلة الفيلة فحلَّها سعد بأن أمر برماة ممتازين ليرموها في مقدمة خراطيمها ويرمي آخرون ركابها ويقوم آخرون بهجمات انتحارية يقطعون فيها أحزمتها لتسقط من على ظهورها الهوادج وانتهى النهار بأكثر من خمسمائة قتيل معظمهم من قبيلة أسد رضي الله عنهم وجاء الليل فلما أصبح القوم جاء يوم أغوات حيث دفع الجرحي للنساء يمرِّضنهم وأما القتلى فالتقطهم المسلمون ودفنوهم وظل قتلى الفرس مُلقين في الساحة. في صباح يوم أغوات وصل القعقاع بن عمرو التميمي ومعه المجاهدون الذين حولهم أبو عبيدة إلى العراق وكان قد أمرهم أن يدخلوا عشرة عشرة وفي الحال بارز القعقاع الفيرزان أحد قادة الفرس فقتله وبارز الحارث بن ظبيان قائداً آخر فقتله وجعل القعقاع كلما وصل عشرة يكبر فيرهب الفرس. وألبس العرب إبلهم ملابس غريبة فخافت منها الفيلة وولت تلقي راكبيها إلى الأرض في هذا اليوم قتل عدد من سراة الفرس وجوَّدَ المؤمنون وفي مقدمتهم القعقاع الذي نزل ثلاثين نزلة. وعمرو بن معد

يكرب وأبو محجن الثقفي الذي تخلص من القيد بوساطة سلمى زوج سعد رضي الله عنهما فأبلى بلاء حسنًا وكاد في ذلك اليوم يقتل رستم وفي يوم عماس وهو اليوم الثالث رأى الناس بين الصفين ألفي قتيل من المسلمين وحوالي عشرة آلاف من المجوس وكان المسلمون يسحبون قتلاهم واحدًا واحدًا ويدفنونهم في قبور يحفرها الصبيان والنساء .

وكانت أبرز أحداث ذلك اليوم أن القعقاع وزميلاً له نفذا إلى أكبر فيلين ففقآ عيونهما وقطعا مقدمتي خرطوميهما ؛ فهاج الفيلان وداسا من حولهما من الفرس واستمر القتال سجالاً إلى أن جاءت الهرير وصباح القادسية فبات سعد رضي الله عنه طول ليله متهجدًا داعيًا حتى طلع الصبح فانقضّ القعقاع ومعه جميع القبائل فانهزم أعظم قواد الفرس الفيرزان والهرمزان وسبق فارس من المسلمين اسمه هلال بن عُلفه إلى سرير رستم فرآه منقضًا ووجد رستم وقد هوى سريره فضربه ضربة بالسيف في وجهه فقضى عليه ودارت الدائرة على الفرس وقد غنم المسلمون مغانم هائلة أحضرها الصحابة رضوان الله عليهم ومنها قلنسوة رستم والعلم الفارسي الكبير وقد قتل من الفرس ليلة الهرير وصباح يوم القادسية عشرة آلاف قتيل عدا من قتلوا في الأيام الماضية وقتل من المسلمين ليلة الهرير ويوم القادسية ستة الآف عدا ألفين وخمسمائة قتلوا في الأيام قبلهما وتعقب الفرسان منهزمي الفرس بقيادة زهرة ابن الجويَّه رضي الله عنه وكان المنهزمون يقودهم الجالينوس فأدركهم زهرة وهو في ثلاثمائة جندي فقتل الجالينوس ومعظم الفارين حيث لم تقم للفرس بعدها قائمة وظهر في أعقاب تلك الوقعة من جنود سعد أصناف من الأمانة النادرة حين أحضروا إلى أمير المؤمنين عمر من ذخائر كسرى مالا يتصوره العقل وشكر عمر الجنود ودعا لهم ثم دعا الصحابي سراقة بن مالك رضي الله عنه فألبسه سواري كسرى وحقق دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي دعاه لسراقة ليلة الهجرة وقال عمر لمن أحضر له الغنائم : إن قَوْمًا حملوا مثل هذه الكنوز إلى خليفتهم هم

أمناء حقًا. فقال الصحابي الذي أحضر الغنائم: لقد رأوك يا أمير المؤمنين أمينًا فاقتدوا بأمانة أمير المؤمنين رضي الله عن عمر وسعد وعن جنود الإسلام الذين أخلصوا لله نية جهادهم فأورثهم الله أرض الطغاة وديارهم وأرضًا لهم لم يكونوا قد وطئوها وأظهر دينه على الدين كلّه ولو كره الكافرون.



خالدٌ واليرموك

بينما كان خالدٌ والمثنى بن حارثة رضي الله عنهما يفتحان بلاد فارس رأى خالد أن العدو مأخوذ بالبهرج تهمهم المظاهر وتخدعهم زخارف الذهب والفضة فلما انتصر على الروم والفرس وحلفائهم من العرب في معركة الفراض ركبه رضي الله عنه شيءمن الاعتزاز وذلك لأن تلك المعركة كانت معركة شرسة تحالف فيها على الحدود الفرس والروم وقبائل العرب في العراق ومنهم تغلب وإياد والنمرُ بن قاسط. وقد أجبرهم خالد بدهائه على اقتحام النهر وتلقَّاهم من بين أيديهم فقتل منهم ألوفًا في أوائل ذي القعدة وأقام خالد في الساحة عشرة أيام أو يزيد حتى إذا كان الخامس والعشرون من ذي القعدة توجه خالد إلى مكة المكرمة دون استشارة الخليفة أبي بكر رضي الله عنه وحج ولم يعلم بحجته إلا قليل ورجع إلى جبهة الحيرة كأنَّ شيئًا لم يكن. لكن الأمر بلغ أبا بكر رضي الله عنه فعزم على أن يؤدّب خالدًا بطريقة تربوية تشغِّل طاقته القتالية في عمل مرهق فعلاً وبينما كان خالدٌ ذات ليلة في اجتماع مع المثنى رضي الله عنهما ألقى البريدُ إلى خالد كتابًا من أبي بكر قرأه وإذا فيه أمرٌ متعبٌ حقًا. كان نصُّ الخطاب كما ذكره ابن جرير في تاريخه: إذا أتاك كتابي هذا فانصرف إلى الشام حتى تأتي جموع المسلمين في اليرموك فإنهم قد شَجُوا وأشْجَوا -يعني (حزنوا وأحزنوا) وقد علموا أنك خير من يُشجى وينزعْ

فليهنئك أبا سليمان النيّة والخطوة فأتْممْ يتمم الله لكِ ولا يدخُلَّنك العجب فتخسر وتَخَذل وإياك أن تُدلّ بعمل فإن الله هوَ أهل الحمد والمنّه وهو وليّ الجزاء. ثم خُذ نصف الناس واتركَ للمثنى نصفهم واعدل بينك وبين المُثنى في قسمة الصحابة وأهل النجدة والبأس. والسَّلام. قرأ خالد الكتاب فركبه همٌّ شديد لأنه يعرف أن قطع الصحراء مغامرة لا ينجو منها إلا من رحم الله فالجنود سيمكثون عدة أيام لا يرون فيها أثرًا للماء هم وخيولهم وركائبهم. وسار المثنى مع خالد يودّعه حتى بلغا موقع قراقر في بداية الصحراء واستدعى خالدٌ في قراقر دليلاً خبيراً من أهل المنطقة اسمه رافع بن عميرة الطائي فقال له: الأمر ياخالد ليس بالكثرة والأثقال فوالله إن الرَّاكب المفرد ليخاف هذا التيه على نفسه لأن الماء يختفى لخمس ليال هذا إلى جانب المضلَّة والتَّيهان. والمهم أن القبائل التي تلقاك عند الحدود سوف تقاتلك لأنها ستراك معتديًا على أرضهم وبالفعل وصل خالدٌ حدوداء فقاتل إليها ثم قاتل جمعًا لطيء فهزمهم وقاتل قبيلة كلب عند ماء يقال له قراقر وفي طريقه إلى ماء يقال له سُوى لقبيلة بهراء تاه خالد فهداه بإذن الله رافع بن عميرة الطائي. وبناء على نصيحة من رافع أمر خالد صاحب كلّ جماعة أن يأخذ من الماء ما يكفي لشعبته وأعطش الإبل الكبيرة ثم سقاها عَلَلاً بعد نهل وشدّ مشافرها لئلاَّ تجتر ثم استخدم المخزون من مائها مع بعض الحليب فسقى الخيل وانطلق مسرعًا ليأتي جيش الروم من ورائهم وبعد خمس ليال قال رافع لخالد انظر ياخالد هل ترى شيئًا من بعيد؟ فنظر الجميع من بعيد فلم يرَوا في أول الأمر شيئًا ثم رأى أحدهم شجرة مقطوعة فصاح رافع الله أكبر وصلنا الماء بفضل الله وعند جذر تلك الشجرة أخذ رافع يحفر وهو يقول والله ما شربت من هذا الماء إلا مرَّة واحدة كنت فيها مسافراً مع أبي وانبجس الماء على يدي ذلك الدليل المبارك وبدأ خالد يلقى الأعداء فيهزمهم بالآلاف القليلة التي كانت معه فقاتل بهراء عند ماء يقال له سُوى وهم يشربون الخمر وكانوا يعاقرونها ويغنيهم مغنيهم ويقول:

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر لعلّ منايانا قريب ولا ندري
أظنُّ خيول المسلمين وخالداً ستطرقكم قبل الصباح مع النسر

فقتل المسلمون المغني وأخذوا الأموال وقاتل خالد رضي الله عنه في تدمر وفي القريتين وانطلق حتى وصل إلى ثنية العقاب قريبًا من دمشق ثم قاتل في مرج راهط وكنيسة الغوطة وفتح بُصرى وفي مطالع ربيع الثاني كان عند المسلمين في اليرموك بعد أن سبق باهان إليها وكان أكبر عدد وصل إليه جيش المسلمين قرابة أربعين ألف مقاتل أما جيش الروم فقيل في تقديره إنه كان مائتين وأربعين ألف مقاتل منهم ثمانون ألف مقيّد ليثبتوا ولا يفروا أما المسلمون فكان من بينهم قرابة ألف صحابي وفي أوائل شهر جًمادى الأولى تراءى الجمعان والروم تحمِّسُهم الرهبان والشمامسة والمؤمنون لهم خطباؤهم ومنهم أبو هريرة وأبو سفيان. وفي مطلع المعركة خطب خالدٌ رضي الله عنه خطبة عظيمة واقعية عالج فيها رغبة العرب في الرئاسة وحثهم على الصدق وطلب الشهادة لأن المنهزم اليوم لن ينتصر أبدًا ورجاهم أن يعطوه إمارة الجيش يومهم ذلك فوافقوا بالإجماع وكان يومًا مشهودًا حقًا انقضّ الروم فيه على المسلمين في أوَّل المعركة كالعقبان الكاسرة يغرُّهم عددهم وتعجبهم كثرتهم وماضيهم وتاريخهم وبرزوا في تعبئة لم يعرف مثلها في التاريخ وقسم خالد جيشه كراديس -أي ألوفًا- وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان ووضع أبا عبيدة في قلب الجيش وعمرًا بن العاص وشرحبيل بن حسنة على الميمنة كما جعل على الميسرة يزيد بن أبي سفيان ثم أمر خالد عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو أن يثيرا القتال فاحتدم القتال على جانبي الوسط وفي أثناء ذلك أسلم زعيم من زعماء الروم اسمه جورج بن تيودور وقاتل في صف خالد وانقض أبطال الروم على كردوس عكرمة فصاح والله ما كنت لأنهزم مسلمًا مع خالد وقد كنت لا أفرُّ أيام كفري وهجم عكرمة في أبطال منهم ضرار بن الأزور وفي أثناء ذلك انقض خالد رضي الله عنه كالصاعقة على ا الروم مقابل القلب فشاع الذعر في الخيل وطفقت

تهرب وتحوَّل خالد رضي الله عنه إلى المقيدين في خنادقهم فأعمل فيهم القتل وقُتل قبل الغروب جورج رضي الله عنه ولوحظ أن قائد الروم واسمه الفيغار قد لفَّ وجهه حتى لا يرى القتلى والهزيمة فقتله أحد المسلمين وأحضر رأسه في اللفافة لخالد ودارت الدائرة على الروم وأنصارهم ونام الناس بقية ليلهم وقد أسند خالدٌ رأس عكرمة بن أبي جهل إلى صدره يقطر في حلقه ورأس ابنه عمرو رضي الله عنهما. وقاتلت النساء في ذلك اليوم المبارك وأصيبت عين أبي سفيان وقتل في تلك المعركة من أبطال المسلمين ثلاثة الآف بين قتيل وجريح وكان من بين الشهداء سلمة بن هشام وعمرو بن سعيد وأبان بن سعيد وجندب بن عمرو والطفيل بن عمرو وهشام بن العاص وعيّاش بن ربيعة وسعيد بن الحارث السهمي وهو من مهاجري الحبشة. ونعيم العدوي وأبو الروم العبدري وفي وسط لهيب المعركة ألقى البريد رسالة إلى أبي عبيدة يخبره فيها بموت أبي بكر وقيام عمر وعزل خالد لكنَّ أبا عبيدة لم يخبر بها خالداً إلا بعد نهاية اليرموك ولانقص من منزلة خالد وقبل خالد أمر الخليفة راضياً وأعلن أنه سيظل منطلقا في سبيل الله لأنه لا يقاتل من أجل عمر وإنما هجرته وقتاله وتضحيته إنما هي من أجل ربّ عمر رضي الله عن خالدٍ إماماً لأهل البطولات وقدوة لروّاد التضحيات وسلام عليه في الخالدين .



يوم نهاوند
والنعمان بن مقرن

حمل البريد الوارد من العراق وفارس مئات الرسائل إلى عمر رضي الله عنه فطفق يطالعها واحدة واحدة وكان رضي الله عنه قارئًا كاتبًا يملي رسائله بأسلوب عجيب ويردُّ على كثيرمن الرسائل بخط يده. رسالة واحدة من بين الرسائل أعجبت عمر. واستوقفته مليًا. كانت الرسالة من النعمان بن مُقرّن رضي الله عنه يقول فيها بعد المقدّمة :

لقد وليتني يا أمير المؤمنين إمارة كسكر فحولتني من محارب يطلب الشهادة إلى حاكم تغويه الإمارة وتفتنه الجباية فناشدتك الله يا أمير المؤمنين لما انقذتني من هذه الفتنة فإنما مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شابٍّ إلى جنبه مومسة تلوّن له وتتعطر.

أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تعزلني من الإمارة وتبعثني إلى جيش من جيوش المسلمين مقاتلاً لعلي أنال ما أملته من الشهادة في سبيل الله منذُ آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم.

واستعاد عمر رضي الله عنه في ذاكرته صفحات معطرة من سيرة هذا البطل الصالح المجاهد منذ قدم هو وإخوانه على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد مزينة فأعلنوا إسلامهم قبيل الأحزاب وكيف برز اسم النعمان رضي الله عنه في كل

غـزوة منذ الأحـزاب وكيف سـجل إخـوانه سـويد ونُعيـم ومعـقلٌ أروع صـفـحـات البطولـة ، في حـروب الردّة ومـا بعـدهـا . لكنَّ عـمـر رضي الله عنه كـان مثـقـل القلب بالأحـزان لكثـرة مـا قـتل من عـسـاكـر المسلمين في تلك الأيام وكـان الـذي يؤلمه أن المسلمين كانوا يقتلوا بأعداد كبيرة وبغير مقابل . لقد فقد المسلمون في القادسية قرابة ثمانية آلاف وخمسمائة شهيد لكن كان يسرُّه أنَّ الله حقق النصر أو الشهادة لكل من شـهـد القـادسيـة أما في نهـاوند الآن فقـد حشـد كسرى يزدجرد مائة وخـمسين ألف مـقـاتل يقـودهم عظمـاء قـادة الأعـداء وقـد حفـروا حـول المدينة خنادق وأحـاطوها بكلاليب الحديد فـمـا تكاد فـرس المسلم تهـوي حتى تنشب فـيـهـا كـلاليب الحـديد كالحسك فتقف مسمَّرة ليُقتل الفارس والفرس .

تألم عـمـر رضي الله عنه لأخبـار القـتـال وولى القـيـادة أبطالاً قتلوا واحـدًا بعد واحد وأخيرًا جمع أهل الرأي من حوله وفيهم عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وسـعـد بن أبي وقـاص واستـشارهـم أن يقـود الجيش بـنفسه لعلّ الله يحقق على يديه النصـر أو يكرمه بالشـهـادة لكن هذا الـرأي لـم يلق موافـقـة من أصحـاب رسـول الله وعندئذ قـال عـمـر : لقـد آن أن نحقق رغبـة القـائد المنتظر لأنه عـودنا طـول حيـاته ألا يسمح لأحـد أن يسبقـه إلى الموت ثم قـال للصـحـابة من حـولـه : لقـد وجـدت القـائد المنشـود إنه النعمـان بن مقرِّن وعندئذ صـاح الصـحـابة بلسـان واحد : هُوَلَهـا ! هُوَلَها ! اعـقـدْ لـه على بركـة الله . وفي الحـال كـتـب عـمـر إلى النعـمـان يعـقـد لـه لـواء القـيـادة ويوصيه بالمسلمين وبتقوى الله وكثرة ذكر الله وبخاصة قول (لا حول ولا قوة إلا بالله لأنها من مفاتيح الجنة) .

وكم كانت فرحة النعمان رضي الله عنه لا لأنه تقلد القيادة ولكن لأنه ستتاح له الشـهـادة . وضـاعـف من سروره أن نائبه في القـيـادة سيكـون حـذيفـة بن اليـمـان ذلك الصـحـابي الجليل الذي قـال لـه رسـول الله صلى الله عليه وسلم : «إن شئت فكن من المهـاجرين وإن شئت فكن من الأنصار» . وكمل سروره حين علم أن إخوانه معقلاً

ونُعيمًا وسويدًا سيكونون معه في جيشه. وأن من بين قادته سيكون القعقاعُ بن عمرو التميمي وعبد الله بن عمر وجرير بن عبد الله وكاتب الوحي حنظلة الأسيدي. وسار النعمان صوب نهاوند فتكامل جيشه ثلاثين ألف مقاتل. كلُّهم حريص على الشهادة مشتاق إليها شوق الظمآن للبارد العذب. وكان من الطريف أن أحد البارزين في جيش النعمان كان طليحة بن خويلد الأسدي الذي تنبأ وقتل مئات من الشهداء من بينهم عكاشة بن محصن ثم تاب فتاب الله عليه حتى كان من أسباب النصر في نهاوند لسداد رأيه وعظمة جُرأته فنقلته التوبة النصوح من مصاف مسيلمة إلى منازل الشهداء في الفردوس إن شاء الله يالسعة صدر الإسلام ولعظمة الرحمة الإلهية. ولما تراءى الجمعان وُجد المسلمون مقابلهم عظماء قادة الفرس يتقدمهم فيرزان ورزدق ومعهم مائة وخمسون ألفًا وقد ربط كثير منهم جماعات بالسَّلاسل حتى لا يكون أمامهم إلا القتل أو النصر.

وحطَّ النعمان أثقاله فتسابق أجلاء الصحابة يبنون خيمته لا لأنه قائد بطل فحسب ولكن لأنه صحابي له إجلاله ومحبته. حتى لقد قال أحدهم وهو يرفع عمود الخيمة: ما رأيت خيمة أسرع بناء ولا أعظم بُناة من خيمة النعمان في نهاوند. ولما رأى النعمان قوة التحصينات وحيلة الكلاليب وكثرة العدد استشار أصحابه فانقسموا من قائل نبني مقابلهم تحصينات كتحصيناتهم وأشار عمر بن معد يكرب أن يهجم أصحاب النعمان هجومات هائلة ليس بعدها إلا الموت أو الشهادة فقال النعمان الرأي الأول يضيع الفرصة والرأي الثاني يسقط به آلاف الشهداء وعمر رضي الله عنه يقول إن مسلمًا واحدًا خير عنده من مائة ألف دينار وأخيرًا أعطي الرأي لطليحة الأسدي فقال: الرأي أن نحتك بهم ونهاجم أطرافهم ثم نتظاهر بالفرار حتي إذا كادوا يدركوننا التففنا من ورائهم وأوقعناهم في مصيدتنا. وأعجبت الخطة النعمان فهرب المسلمون طبقًا للخطة ثم التفوا حول العدو فسدُّوا عليه طريق رجعته وكان يومًا مشهودًا تساقط فيه المسلسلون بعضهم فوق بعض ثم

استحر القتل في السَّادة من العدو وهنا حصلت ثغرة في جيش المسلمين سدها النعمان وهو يهتف بأعلى صوته: يا أهل القرآن لا تفتكم إحدى الحسنيين. اللهم لا تردني خائبًا واكتب لي الشهادة في سبيلك ورأي المسلمون النعمان وقد لبس البياض ليكون واضحًا لأصحابه وتسابق الجميع إلى الشهادة حتى لقد قال أحدهم (والله ما علمت أحدًا من المسلمين كان يفضل أن يعود إلى أهله إلا شهيدًا أو ظافرًا ولكن الله يختص بالشهادة من يشاء) .

ولما خمد غبار المعركة تكشف عن آثار رحمة الله عن جثث أربعة آلاف من شهداء الإسلام وعشرات آلاف القتلى من جيش العدو وفي مقدمة الجيش إذا فرس القائد النعمان بن مقرن ملقى على الأرض والدم ينبع من خاصرته وقد أضاء وجهه نور الشهادة فأقبل عليه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرِّن يلفانه في ثوب ويبشران الجيش بانتصار جيش الصحابة وأن الله حقق لقائدهم أمنيته بالشهادة. وانطلق البشير إلى عمر بالنصر فكان أول سؤال سأله عمر: وكيف النعمان ؟ فقال البشير ظفر بالشهادة بعد أن تنزل النصر فبكى عمر حتى سمع نشيجه.

هناك على مشارف نهاوند: مرجٌ وريقٌ معشب، يموج بالعطر والفاغية، وأزهار البرّ تشمّ من أعشابه وزنابقه شذًا عجيبًا وتستروح من عطره شذى الإيمان وبشاشة القرآن من أجسام طالما بكى أصحابها في جوف الليل من خوف الله نَضَّرَ الله تلك الأرواح والأجسام عليها وعلى أيامها الماجدة أزكى السلام.



رجل كله بطولات

من أراد أن يُحصي مواقف البطولات في سيرة عمر رضي الله عنه فقد تصدى لاقتحام بحر زاخر من فضائل النفس التى لا يتحلَّى بها إلا عظماء الرِّجال. ولهذا فسوف أذكر من كل موقف بطولي لعمر لمحةً كأنها العنوان ليمكنني أن أحيط بقطرة من خضم بحره الزاخر.

- كان رضي الله عنه يتقن فنونًا من الرياضة كالمصارعة والرماية والسباحة وركوب الخيل وكانت تلك الكفاءات تنفعه كثيرًا فى مطلع إسلامه حين كانت تتهجم عليه العصبة من أولى القوة فيضربونه لكن لا ينجو من ضرباته ولو واحد منهم.
- كانت قصة إسلامه بطولة وقصة هجرته بطولة فلقد أسلم علنًا ولما أراد الهجرة عرَّج على قريش وهي في مجالسها حول الكعبة فوقف عليهم مجلسًا مجلسًا يخاطبهم متحديًا ويقول لهم إني مهاجرٌ اليوم فمن أراد أن يثكله أهله وترمَل زوجته وييتم أطفاله فليلحقني في بطن ذلك الوادي فلم يلحقه أحد .
- كان إذا أرسل قائدًا إلى وجهة تابعة بفكره وهمومه وتحركاته حتى يظُنَّ القائد أن عمر معه ثم هو يطلب من قائده وصفًا مفصَّلاً لمنطقته فيحيط بها كأنه أحد أهلها ثم يراسله مراسلة العارف بالأماكن والأشخاص فيكون حاضرًا مع المقاتلين وهو غائب .

- كان رضي الله عنه خبيراً بمن حوله من الصحابة يختار أكفأ الرجال إلى مهمَّات الأعمال ولا يتأثر في اختياره بقرابةولا وساطة بل كلُّ همه وضع الرجل المناسب في مكانه المناسب .
- وكان رضي الله عنه جريئًا مقدامًا عارم الشجاعة لا تأخذه في الله لومة لائم حتى لقد كانت له عصًا يحملها عادةً ويستعملها كثيراً .
- كان يعيش في بيته أقل عيش وأخشنه ويطعم أهله أقل مما يأكل المسلمون في سنة المجاعة كان يقف والناس يأكلون وربما أكلوا لحمًا وعاد هو إلى بيته فلم يجد غير خبز وزيت فيأكل بشهية ثم يشرب وهو يقول الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا وسقانا فأروانا وكان ربما أثر الجوع والحرمان في وجهه فيقول لأهله لستم عندي إلا كأي أهل بيت من بيوت المسلمين ومع أن إحدى زوجاته كانت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وهي ابنة فاطمة وجدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت تصبر على ما يصبر عليه من التقشف .
- وكان رضي الله عنه عظيم الاهتمام بالمسلمين كثير التجوُّل بين بيوتهم وأحيائهم عظيم الاهتمام بشئون أطفالهم ومرضاهم وعجزتهم. وكان لا يتكبر عن حمل الطعام على ظهره إليهم فإذا قال له خادمه دعني يا أمير المؤمنين أحمل عنك قال له : إنك لا تحمل عني ذنوبي يوم القيامة .
- جيء رضي الله عنه بذخائر كسرى وكنوزه وذهبه وفضته فما مدّ عينه إلى زهرة الحياة الدنيا بل كان كلُّ همه أن يهتم بإنفاذ وعد الله ورسوله كما فعل حين جيء بسواري كسرى فقال أين أخو مدلج سراقة بن مالك ثم ألبسه سواري كسرى إنفاذاً لوعد الله ورسوله حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة فقال لسراقة : ألبَسَك الله سواري كسرى .
- وكان رجلاً طويلاً أصلع أعسر يكتب بشماله كريم المحيا أحور العينين جميل البياض تعلوه حمرة يخضب لحيته ويرجل شعره جميل الأسنان تراه إذا أقبل

عليك كأنه راكب لتمام خلقه وطول قامته وكان موصوفًا في الكتب المقدسة حتى لقد عرفه أساقفة القدس من مجرد نظرة لما عرفوا من أوصافه في التوراة .

- وهو رضي الله عنه رجل من قريش من فخذ يقال لهم بنو عدي بن كعب بن لؤى ولقب بالفاروق لأن إسلامه فرق الله به بين الحق والباطل وكانت أمه حنتمة بنت هشام فيكون بهذا أبو جهل خاله . وكان أبوه الخطابُ بن نفيل رجلاً قويًا صارمًا في معاملة أولاده في صغرهم . ولعمر أوَّليات اختص بها : فقد كان أول من دعي أمير المؤمنين وكتب التاريخ مبتدئًا بيوم الهجرة . وعسّ بالمدينة . وأدَّب بالدّرة وجمع الناس على التراويح وجلد في الخمر ثمانين ونظم ديوان الجيش وقد بلغت الفتوح في عصره من بلاد الرَّي إلى ما وراء الإسكندرية ثم إلى طرابلس وبرقة وفي عهده كانت انتصارات المسلمين في جميع بلاد الشام ومصر .

- كان رحمه الله عظيم التواضع يرقع الثوب بالأديم ويحمل القربة على كتفيه رغم مهابته ويركب الحمار عريًا والبعير مخطومًا بالليف وكان نقش خاتمه (كفى بالموت واعظًا) .

- وقدم عليه الأحنف بن قيس فوجده يطلي جملاً من إبل الزكاة في الشمس ليعالج جربه فقال له الأحنف : كان يكفيك عبد كلّ هذا العناء قال : ويحك يا أحنف وهل هنالك عبد أذلّ من عمر .

- وتعقبه خادمه أسلم ليلة فرآه يدخل بيتًا حقيرًا فيمكث فيه مدة ثم يخرج قال أسلم ودخلت من حيث خرج فوجدت في البيت عجوزًا مقعدة عمياء فسألتها من الذي خرج من عندك السَّاعة؟ فقالت رجل لا أعرفه يأتي كل يوم فيكنس الأوساخ من حولي .

- ورآه علي يركض فقال له ما بالك؟ فقال شرد جمل من إبل الصدقةفأنا أركض وراءه كي لا يضيع .

- وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن حتى لربما سمع الآيات فبكى ومرض وعاده الصحابة وكان يحتقر ملذات الدنيا فلا يركب برذونًا ولا يأكل نقيًا من جيد الخبز ولا يلبس رقيقًا. وقال له بعض الصحابة لو أكلت الطعام الطيب لكان أعون لك على الحق فقال إني رأيت صاحبيَّ (يعني رسول الله وأبا بكر) على طريقة ما أريد أن أحيد عنها. وظل رضي الله عنه يرقع ثوبه حتى خطب مرة وفي إزاره ثنتا عشرة رقعة.
- ولما قدم الشام ليراه أهل بيت المقدس نزل منزلاً قريبًا من دمشق فقال: ائتوني بسيد هذه القرية فحضر الرجل فناوله عمر قميصه المرقع وقال اغسلوا لي قميصي هذا وأعيروني قميصًا ألبسه فأحضروا له قميصًا من كتان فلما لبسه قال وما الكتان؟ قالوا هو نسيج جيد ثم قالوا له إن بلاد الشام بلاد مظاهر وأنت تركب هذا الجمل فأتوه ببرذون وبُسطَ على البرذون قطيفة فلما ركب عمر البرذون هملج به بحركات قد درب عليها فقال عمر رضي الله عنه أنزلوني ما كنت أظنُّ أن الناس يركبون الشياطين. أحضروا جملي.
- وكان رضي الله عنه يحُبُّ أن يصغّر نفسه قال أنس: دخل عمر بستانًا فسمعته يقول: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقينَّ الله ياابن الخطاب أو ليعذبنك.
- وكان شديد البكاء من خشية الله كثير السهر في طاعة الله سمع قارئًا يقرأ ﴿والطور وكتاب مسطور﴾ حتى إذا وصل إلى قوله تعالى ﴿إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع﴾ غشي عليه فعاده الصحابة أيامًا وكان رضي الله عنه مثالاً للعدل شكا إليه قبطي من أهل مصر أن ولدًا لعمرو بن العاص سابقه فسبقه القبطي فطفق ابن عمرو يضرب المصري وهو يقول له: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين فسلم عمر عصاه للمصري وقال له اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ثم قال له: أدرها على صلعة أبيه فإنه إنما ضربك بمهابة أبيه. فقال المصري

يا أمير المؤمنين إنما ضربت من ضربني . وقصصه مع المرأة التي تعلل أولادها بحصى تغليه ومع الأخرى التي وجدها في المخاض ومع العجوز المقعدة العمياء كلُّها كان يؤديها في الخفاء ليظل ثوابه خالصًا لوجه الله حتى إن المرأة التي وجدها في المخاض لم تعرفه حتى قالت له زوجته أم كلثوم بنت علي التي كانت تخدمها في ولادتها : بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام وكان إذا أحس أنه وقع في خطأ عاد حالاً إلى العدل والصواب كما فعل حين نبهته المرأة إلى أنه لا يصرف عطاءً إلا من سن الفطام؛ مما اضطر الناس أن يفطموا أطفالهم مبكرين فيبكون ليالي ومع كل هذا مات عمر خائفًا من العذاب وكان آخر ما قال : ويلُ عمر وويل أمه إذا لم يغفر الله له . لقد قتل رضي الله عنه وهو في الصلاة على يد حاقد من الكفار هو أبو لؤلؤة المجوسي . فرحم الله أمير المؤمنين وسلام عليه في المجاهدين الأبرار .



ذو النورين
عثمان رضي الله عنه

ما قرأنا في سير الصحابة الكرام أكرم من عثمان بن عفان رضي الله عنه ولا أعذب أخلاقًا وأرق شمائل من عثمان ولا أبلغ صمتًا وأكثر معروفًا من عثمان. آتاه الله أموالاً فسلطهُ على إنفاقها في الحق وبذلها في الجهاد والكرم وإعتاق الرقاب. لقد أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرم عثمان في غزوة العسرة أو تبوك فلما جاء رضي الله عنه بالدفعة الأخيرة من إحسانه ورأى النبي الكريم أن بقية المتخلفين الذين لم يجدوا ما يحملون عليه رآهم وقد ركبوا مطاياهم وتوجهوا إلى جهادهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد أعذر عثمان. اللهم إني راض عن عثمان فارض عنه».

وفي الحق أن عثمان كان بطل غزوة العُسرة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مدافع. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من يعرف أدب عثمان وكرم عثمان وعبادة عثمان. لقد زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته رقية التي هاجرت معه إلى الحبشة وتحّملت معه آلام الغُربة ثم لما عادا إلى مكة هاجرا هجرتهما الثانية إلى المدينة وهناك توفيت رقية الصالحة المؤمنة. فزوج النبي صلى الله عليه وسلم عثمان ابنته أمَّ كلثوم ثم لما توفيت أم كلثوم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أنَّ عندي ثالثةً لزوجتها من عثمان». ومن أجل ذلك سمي عثمان

ذا النورين لأن الله أكرمه بزواج اثنتين من بَنات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عثمان رضي الله عنه جميل الصورة جميل الأخلاق حتى لقد غنت النساء له ولرقية ليلة زواجهما :

أجمل زوجين رأى إنسان رقيَّةٌ وزوجها عثمان .

وكان عثمان رضي الله عنه عظيم العبادة كثير القيام لله حتى لقد ذهب بعض المفسرين أنَّهَ نزل في عثمان قوله تعالى في سورة الزُّمر ﴿أمْ من هو قانتٌ آناءَ الليل ساجدًا وقائمًا يحذرُ الآخرةَ ويَرجو رحمةَ ربِّه﴾ وإلى جانب هذه الفضائل فقد كان عثمان رضي الله عنه عظيم الثبات في الجهاد والصبر على مواقف البأس ولا غرو فقد كان ثباته رضي الله عنه متفجراً من ينابيع إيمانه. مرّ عمر رضي الله عنه بمجلس فيه عثمان فقال : معكم رجلٌ لو قسم إيمانه بين جند من الأجناد لوسعهم يعني عثمان بن عفان. وحسبُ عثمان مجداً وشرفًا أن الله عزَّ وجل حقق على يديه جمع القرآن فحفظ الله بعثمان نور العقيدة ومع أن عثمان رضي الله عنه قد تولى الخلافة وهو كبير السِّنّ فقد كان عهده عهد أمن وارف الظلال وانتصارات رائعة الجلال لأن عثمان كان صلبًا في الحق قويًا في مواقف العدل روي أنه كان في الكوفة سُربة من الشباب المترف يعيثون في الأرض ظلمًا وإفساداً فأقدموا على قتل أحد المسلمين فأمر عثمان بجمعهم على باب قصره بالرْحبة فلما اجتمعوا ظنَّ بعض الناس أنه سيردعهم بالسجن لكنه فاجأ الناس بضرب أعناقهم جميعًا وأراح الناس من تلك الطغمة المستهترة. وفي هذه الحادثة يقول عمرو بن عاصم التميمي :

لا تأكلوا بعدها جيرانكم بطرًا أهلَ الزَّعارة في عهد ابن عفانا

وقال :

إن ابن عفَّان الذي جرّبتُمُ فطم اللصوص بمحكم القُرآن

مازال يحكم بالكتاب مهيمنًا في كل عُنُقٍ منكمُ وبنانِ

أمّا كرم عثمان فحدِّث عنه وقل فيه ما تهوى العُلا فقد كان كرمه بلا حدود اشترى رضي الله عنه بئر رومة وكانت عذبة الماء ووقف ماءها لري المسلمين. واشترى بعد ذلك قطعة أرض بخمسة وعشرين ألف درهم وسَّع بها مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي توسعة البيت الحرام اشترى بيتًا لقوم من جيران المسجد ودفع لهم عشرة آلاف دينار وبلغت تبرعاته في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيراً أكملها ألفًا حين أضاف إليها ستين فرسًا ولما عادوا من تبوك عرضوا عليه أن يردُّوا عليه ركائبه فأبى وقال لهم هي لله. وحين شحّ الزاد في المدينة قدمت لعثمان قافلة عظيمة من الشام فدفع تجار المدينة له ربحًا عظيمًا فقال للتجار: لقد اشتراها مني من هو أكرم وأجل وقسمها في فقراء المسلمين.

ولما تولى الخلافة طمع أهل التخوم في دولة الإسلام وغرَّهم أن الخليفة كبير السِّن فانبرى عثمان لأهل الأقاليم النائية واستدعى كبار القادة من أهل المراس الشديد من أمثال عبد الله بن أبي سرح ومعاوية بن أبي سفيان وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر والأحنف بن قيس فكتب الله النصر لجنود المسلمين فما عرف في عهد عثمان أن جيش المسلمين خسر معركة واحدة. وحتى المعركة البحرية الأولى التي خاضها المسلمون وهي ذات الصواري انتصر فيها أسطول المسلمين الناشىء على أساطيل الروم وكان أمرًا عجيبًا جدًا أن ينتصر المسلمون في قتال البحر على أعرق أسطول في ذلك العهد.

أن ينتصر المسلمون أبناء الصحراء بقيادة عبد الله بن أبي سرح على الروم خبراء القتال البحري بقيادة قسطنطين بن هرقل أن يجتاح المسلمون بتدريبهم المبتدىء أكبر جيش بحري قضى في تدريبات القتال البحري مئات السنين ولكن قدرة الله لا تعجزها قدرة وقوة الإيمان لا تغلبها قوة والله غالبٌ على أمره وقد حيزت الأموال من أقاليم الشرق والغرب ومن معارك البر والبحر حتى اكتظ بيت المال في عهد عثمان وأصبح المسلمون في رفاه ورغد لم يعرف في عهد الإمامين أبي بكر وعمر.

ولكن الله جل جلاله لحكمة بالغة ابتلى المسلمين بيهودي أسود من اليمن -يقال له عبدالله بن سبأ- أوضع خلال المسلمين بالفتنة وحرَّض أهل مصر والكوفة وجاس خلال ديار الإسلام حين أظهر إسلامه وقاد جيشًا من المغامرين الجهلة وغزا أفكار كثير من المسلمين حين زعم أن عثمان رضي الله عنه عزل القادة الأكفاء واصطفى أقاربه من بني العاص بن أمية ثم لم يزل ذلك الخائن يغزو الأفكار المريضة حتى انتهت الفتنة بقتل عثمان رضي الله عنه شهيداً والمصحف العثماني بين يديه بعد سيرة عطرة أجمَل من أزهَار الربيع وأبهى من أنفاس الروض وبعد عمر مبارك امتلأ كرمًا وسماحة وفاض عبادة ومروءة وتدفق أخلاقًا ووفاء ولقد كان مشعلو الفتنة قومًا لا خلاق لهم غاب عنهم العقلاء وخاض غمارها المتأولون والسبئيون والحاقدون وكان عثمان رضي الله عنه قادراً أن يدرأهم لكنه كان يناشد الله كل صحابي يدخل عليه ألا يتسبب في إراقة قطرة من دم مسلم . لقد كان عثمان رضي الله عنه مبارك العهد من حيث الغنى والازدهار ومن حيث النصر والتمكين وأخيراً من حيث حفظ القرآن ذلك الكتاب العزيز الذي به حفظ الله الإسلام بعد أن كاد التحريف يخالطه لكن الصحابة من أمثال حذيفة بن اليمان أهابوا بعثمان أن يُنجد القرآن فانبرى للأمر بشجاعةوجمع شيوخ القُرَّاء وجعل مرجعهم مصحف حفصة والمحفوظ المؤكد في الصدور حتى كتبوا المصاحف العثمانية ووزعوها على الأقاليم وكان رضي الله عنه في غاية الحزم حين أمر بإتلاف كل ما عداها من المصاحف وبذلك حقق الله على يديه قوله تعالى ﴿إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

رحم الله أمير المؤمنين عثمان ذا النورين إمامًا للكرماء وأسوة للفضلاء وصابراً على البلاء وقاهراً للأعداء وجزاه الله عن خدمته للإسلام والعقيدة وعن جوده في الملمات وكرمه في الضائعات أكرم الجزاء وسلام عليه في المجاهدين الشهداء الذين فضَّلوا أن يحتسبوا أرواحهم لحقن دماء المسلمين .



الخليفة الراشد
علي بن أبي طالب

ربيبُ بيت النبوَّة وفارس الإسلام المُعْلَم، وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج فاطمة الزهراء وأبو الحسن والحسين سبطي نبيّ الله، وأول صبيٍّ دخل دين الله وربما لم يسبقه إلى الإسلام غيرُ خديجة رضي الله عنها. ومن مناقب علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلّفه أن ينام في فراشه ليلة الهجرة وأوصاه إذا أصبح أن يردّ أمانات الناس فنفَّذ الأمر وبعد أيام هاجر جهاراً متحدّيًا لقريش وفي كلّ عمره الذي جاوز الستين عُرفت عنه بطولات في كل المشاهد فما صارع أحدًا إلا صرعه ولا بارز فارسًا إلا قتله وكانت له في بدر وأحد والخندق بطولات مشهودة،أما عن أخلاقه فقد كانت أخلاق المؤمن السَّابق المحتسب وصفه أحد أصحابه ضرارُ بن حمزة فقال من جملة وصفه : كان والله بعيد المدى، شديد القوى. يقول فصلاً. ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه. يعجبه من الطعام ما خشُن، ومن اللباس ما قصر. يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته. وأشهد لقد وجدته ليلة ماثلاً في محرابه يتململ تململَ السليم، ويبكي بكاء الحزن. ويقول : يادنيا إليك عني، غُري غيري. ثم يقول آه من قلة الزاد وبُعد الطَريق، ووحشة السفرَ. وكان رضي الله عنه في القضاء لا يُشق له غبار وله أقضية تحدث عنها التاريخ .

وروي له ديوان شعـر وله خطب عظيمـة وإذا صحّ أن الخطب التي رواها الشريف الرضي في (نهج البلاغة) كانت خطبَ عليّ فإن عليًا عندئذ هو أخطب أهل الدنيا(*).

وكان في الحرب أسدًا لا يخاف ففي معركة بدر أبلى أعظم البلاء وبرز ثلاثة من صناديد قريش فتصدّى لهم ثلاثة من الصحابة وقتل عليٌّ رضي الله عنه مبارزة أول الناس وقتل حامل لواء المشركين واسمه أبو سعد بن أبي طلحة ولم يجهز عليه ولما سئل في ذلك قال لقد استقبلني بعورته فكرهت أن أراها. ولما رجع الناس من أحد تحدّثوا عن بطولة علي وعن سيفه (ذي الفقار) وربما قال قائلهم: (لا سيف إلا ذو الفقار ولافتى إلا علي) وفي غزوة الأحزاب اقتحم عمرو بن وَدّ وكان من أشجع فرسان المشركين اقتحم الخندق ومعه عدد من الفرسان وطلب المبارزة فتصدّى له عليٌّ وقتله ففر من حوله من المشركين وولوا خيولهم صوب مكة وفي الحديبية كتب عليٌّ رضي الله عنه ورقة الصلح بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قبل ذلك كان عليٌّ في غزوة بني قريظة حامل لواء المسلمين وفي خيبر كان عليٌّ فارس الموقف حين قتل مرحبًا قائد اليهود بعد أن سلّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية ومسح على عينيه من رمد أصابه وفي غزوة تبوك استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا على أهله فتكلم المنافقون فلم يأبه عليٌّ بغير الأمر الذي كلفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي غزوة حنين كان عليٌّ من بين فرسان قلائل صمدوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم أما في عهد خلافته رضي الله عنه فلم يسترح من القتال يومًا ولله في قضائه حكمة.

وقد رأيت ألاّ أخوض في موضوع معركة الجمل ومعركة صفين لأن أصحاب الرسول الذين اشتركوا في تلكما المعركتين ولأن السّابقين منهم الذين قتلوا في الجمل وصفين أقول هؤلاء لا يملك إنسان مقصرٌ مثلي أن يتصدّر في أمرهم فيقف

(*) كثير مما في (نهج) البلاغة منسوب زوراً إلى الإمام علي فلزم التنبيه [الناشر]

موقف الحكم بين قوم كان كثير منهم لا يُشق له غبار من أمثال طلحة والزبير وعمار بن ياسر وصفوان بن حذيفة وسعد بن حذيفة. وفي إحدى المعارك أراد عليٌّ رضي الله عنه أن يحقن دماء المسلمين فصاح يامعاوية علامَ يقتتل الناس إني أدعوك إلى المبارزة والأمر لمن غلب لكن معاوية أجبر عمرو بن العاص على المبارزة فلما نزل عمرو صفعه عليٌّ صفعة شديدة فكشف عمرو عورته واستنكف عليٌّ أن ينظر إليها ففرَّ عمرو. ثم كان التحكيم وفتنٌ كثيرة وقع فيها من وقع ونجا منها من نجا نسأل الله الثبات على الإيمان ثم حارب عليٌّ الخوارج فد مّرهم في معركة النهروان وزلزل الخوارج فيها زلزالاً شديداً.

أما عن قصة مقتل عليّ رضي الله عنه فخلاصتها أن ثلاثة من أشقياء الخوارج اجتمعوا في مكة المكرَّمة وسوّل لهم الشيطان أن سبب بلاء المسلمين معاوية وعمرو بن العاص وعليٌّ رضي الله عنهم فتعاهد شياطين الخوارج على أن يقوم كل واحد منهم بقتل واحد من أولئك الصحابة فتعهَّد أولهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي أن يقتل عليّاً رضي الله عنه. وتعهد البَرْك بن عبد الله الضِّرعي بقتل معاوية كما تعهد عمرو بن بكر التميمي بقتل عمرو بن العاص وتواعدوا أن يكون التنفيذ ليلة السَّابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة عند قدوم الثلاثة إلى صلاة الفجر أما البَرْك فضَرب معاوية بالسيف ضربة أصابته في أليته فلم يمت منها ونجا معاوية من القتل. وأما التميمي فشاء الله أن يضرب خارجة بن حُذافة مدير الشرطة في مصر لأنَّ عمرواً تخلف لوجع أصابه في بطنه فأمسَك الحرس القاتل وقتلوه وأما عبد الرحمن بن ملجم فانتظر عليّاً حتى حضر لصلاة الفجر فاستقبله بضربة بسيفه المسموم في جبهته فنالت الضربة من علي لكنه أوصى أولاده ألا يُمثَّل بالقاتل وإنما يقتصُّ منه قصاصاً عاديّاً. وكان عبد الرحمن بن ملجم قد عاهد فتاة يقال لها قطام من الخوارج أن يقتل لها عليّاً لأنه قتل ثلاثة من إخوانها في النهروان، ووعدته قطام الجميلة أن تتزوجه بعد أن ينفذ مأموريَّته ولله جلّ جلاله حكمة في قضائه وقدره

وليس للعباد إزاء القضاء والقدر إلا الإيمانُ والتسليم والرّضا التام بما قضى الله عزّ وجل وقدّر .

إنّ عليًا رضي الله عنه كان إمامًا عظيمًا من أئمة المؤمنين وبطلاً مشهودًا من الغُرِّ المحجلين وقد فُتن قومٌ بعليّ واستبدت بهم الفتنة حتى اعتبره بعض الناس نبيًا بل عدّه البعض الآخر إلهًا وعدّه الإمامية أبا الأئمة ورائد العترة وعدُّوا ذريته أئمة وانقسمت الفئات إلى مذاهب دينية وعدد من الملل والنِّحل ملأت الدنيا وانتشرت في الأرض وعمل الغلوُّ عمله وأوغلت الخرافة والقصص حول أولئك الأئمة ولما ملأ الخليفة الحاكم بأمر الله عصره ظلمًا وطغيانًا وتناقضًا واختفى في الصحراء نشأت طائفة منهم الدروز يعتقدون أنه اختفى ليعود إلى غير ذلك من أمور لو رآها الإمام عليٌّ لتبرأ منها . ومهما يكن من شيء فإن عليًا رضي الله عنه كان حبيبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصيح أبي بكر ومستشار عمر وكان على كافة أحواله لا يحيد عن سَنَن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان موضع المحبة منذ ولدته أمه في الكعبة إلى أن لقي ربَّه مجاهدًا في سبيل الله رافعًا لواء الله في وسط الفتنة رضي الله عن علي وآل بيته وسلام عليه في أحباب الله ورسوله .



أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه

أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه يلتقي نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجدّ الثامن فهر بن مالك بن كنانة. ومع أن نسبه بعيد في قريش إلا أنه لفضله وسبقه وشجاعته وبلائه في الإسلام رشحه الصديق أن يكون خليفة يوم السقيفة ولما حضرت عمر الوفاة قال: لو أن أبا عبيدة رضي الله عنه حيٌّ لبايعته من بعدي وكان رضي الله عنه طويلاً نحيفًا معروق الوجه خفيف اللحية. وكان من السَّابقين الأولين إلى الإسلام إذ لم يكد يدعوه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام حتى بادر إليه وربما كان ثامن ثمانية دخلوا في الإسلام وهم أبو بكر وعلي وزيد وعثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة وأبو عبيدة رضي الله عنهم وهو من العشرة الكرام البررة المبشرين بالجنة لمواقفهم العظيمة وتضحياتهم الهائلة في سبيل الإسلام. وكان رضي الله عنه متواضعًا يُظهر للمؤمنين خفض الجناح حتى وهو قائد جيوش المسلمين في الشام، وهو من مؤسسي دولة الإسلام لأنه اشترك في غزوات مشهودة وحسبك أن الله حقق على يديه نصر المسلمين في ديار الشام. رضي الله عنه وأرضاه.

ومن فضائله رضي الله عنه أن نزع حلقتين كانتا قد دخلتا في خد رسول الله صلى الله عليه وسلم نزعهما بثنيتيه فانقلعتا وظل أبو عبيدة بعد ذلك أثرم حُلْوَ الثرم

رضي الله عنه . ومع أنه لم يعش له نسل فقد خلد الله ذكر أبي عبيدة في عليين وكان رضي الله عنه عذب الشمائل محبَّبًا كريم المعاملة فقد غزا عمرو بن العاص رضي الله عنه غزوة يقال لها ذات السلاسل ثم استنجد فأمده رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدد من عظماء المهاجرين من بينهم أبو بكر وعمر وجعل قائد رجال النجدة أبا عبيدة لكن عمرو بن العاص أصرَّ أن يظل قائدًا فما كان من أبي عبيدة إلا أن أقبل عليه وقال له أنت قائدنا وانتهى الخلاف دونما جدال طويل . ولأبي عبيدة فضائل قلما اجتمعت لصحابي فقد كان ممَّن وحد الله بهم كلمة المسلمين يوم السقيفة وكان له جهد في جمع القرآن وإني مورد بعض خصائص أبي عبيدة رضي الله عنه على هيئة نقاط لتسهل علينا الإحاطة ببحر سيرته العطرة :

أولاً : لما قدم وفد نجران وفيهم أسقفان كبيران وعدد من سراتهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً أمينًا يقبض أموالهم ويقضي بينهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لأبعثن لكم برجل أمين جد أمين فاستشرف الصحابة ومنهم عمر رضي الله عنه إلى ذلك المنصب الرفيع لكنه صلى الله عليه وسلم أشار إلى أبي عبيدة رضي الله عنه وقال لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة» . وأرسله النبي صلى الله عيه وسلم مع وفد نجران وقد كسب لقبًا من أشرف الألقاب (أمين هذه الأمة) .

ثانيًا : في يوم بدر رأى أباهُ يقاتل في صفوف المشركين . فتحاشاه مرات ولكن الوالد بدا حريصًا على مناصرة الشرك فاضطر أبو عبيدة إلى قتل أبيه فوجدها المشركون فرصة للإفساد والإرجاف وطفقوا يتفكهون وينشرون في الناس أن أصحاب محمد يقتلون آباءهم وجاء أن أبا عبيدة ابتأس أول الأمر ولكن الله جل جلاله أنزل في محكم كتابه آية عظيمة تؤيدموقف أبي عبيدة وأن دين الإسلام فوق كل قرابة وأسمي من أي اعتبار وهي قوله تعالى في آخر سورة المجادلة ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر

يوادُّون من حادَّ الله ورسوله. ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ .

ثالثًا : قدم عمر الشام فقال لأبي عبيدة : اذهب بنا إلى منزلك ـ قال : وما تصنع عندي أخشى أن تعصر عينيك عليّ فدخل عمر فلم يجد عن أبي عبيدة شيئًا يُذكر قال عمر أعندك طعام فقام أبو عبيدة إلى كسيرات في جونة فبكى عمر وقال : غيرتنا الدنيا كلّنا إلا أبا عبيدة .

رابعًا : ومن كرامات أبي عبيدة أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه في غزوة إلى سيف البحر فنفد ما مَعَهم من القوت حتى كان أحدهم ربما لا يجد تمرة واحدة في اليوم فأخرج الله لهم من البحر حوتًا هائلاً أكل منه الجيش ثماني عشرة ليلة ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاع ذلك الحوت فنصبتا ثم أمر براحلة فرُحلت ومرت من تحت الضلعين فلم تصبهما وقد حدَّث أفراد الجيش أنهم عادوا إلى المدينة وقد سمنوا وبدا عليهم السِّمن لما أكلوه من لحم الحوت وزيته .

خامسًا : وفي مسند أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يحشر أبو عبيدة يوم القيامة بين يدي العلماء يتقدمهم بمقدار رمية سهم» وكان عليه الصلاة والسلام يقول : «ما من أحد من الصحابة إلا لو شئت لأخذت عليه مأخذًا إلا أبا عبيدة» .

سادسًا : ولما وصل خالد رضي الله عنه نجدة للمسلمين بالشام استقبله أبو عبيدة فقال لخالد تقدَّم لتؤمنا في الصلاة يا أبا سليمان فقال خالد رضي الله عنه : ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عنه : «لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة» .

سابعًا : دخل عليه أحد أصحابه فوجده يبكي فقال له ما يبكيك ؟ فقال : لقد امتلأ بيتي رقيقًا وامتلأ مربطي خيلاً فماذا أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أوصاني أن أقتصر من الخدم على ثلاثة ومن الدواب على ثلاثة .

ثامنًا : أرسل عمر رضي الله عنه لأبي عبيدة أربعمائة دينار ليوسع بها على نفسه فقسَّمها في الفقراء قبل انصراف الرسول فلما بلغ ذلك عمر رضي الله عنه قال : الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا .

تاسعًا : ولما بلغ عمر رضي الله عنه شدةُ وطأة الطاعون في فلسطين كتب إلى أبي عبيدة يقول له أن اقدم إلينا فإنا في حاجة إليك فعرف أبو عبيدة أن عمر يريد أن يبعده من الطاعون فكتب إلى عمر رضي الله عنه يقول : لا أربأ بنفسي يا أمير المؤمنين عن أخيار المسلمين وبالفعل تحققت مخاوف عمر حيث مات أبو عبيدة في الطاعون ومعه قرابة ثلاثين ألفًا .

عاشرًا : ومن فضائل أبي عبيدة رضي الله عنه أن عمر حالما تولى الخلافة أمر بعزل خالد رضي الله عنهما وتولية أبي عبيدة إمرة الجيش فكتم أبو عبيدة النبأ أيامًا حتى انتهت معركة اليرموك بالنصر ، وحتى أنهى أبو عبيدة حصار دمشق ثم تقدم لخالد بأدبه المعهود وأخبره بمحتوى خطاب عمر وظل حافظًا لمنزلة أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه فاتحًا أمامه ميدان الجهاد . وكان أبو عبيدة رضي الله عنه إذا سار في معسكره بين عسكره وعظ جنوده أبلغَ في الوعظ ومن مواعظه قوله : ألا ربَّ مبيض لثيابه مدنِّس لدينه وربّ مكرم لنفسه وهولها مهين ادرءوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات . فلو أن أحدكم عمل من السيئات مثل ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن . وقد كتب الله لأبي عبيدة أن يموت شهيداً في طاعون عمواس بعد أن نال أعلى الدرجات في الدنيا حين أصبح قائداً في جميع بلاد الشام وكان عمره حين توفي ثمانيًا وخمسين عامًا قضاها رضي

الله عنه مجاهدًا في الله سالكًا طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن يخرج من الدنيا وقد رسم الأسوة الحسنة للشباب رضي الله عن أبي عبيدة إمامًا من السابقين الأولين وقائدًا بطلاً للغر المحجلين .

إن الذاهب إلى الأردن يرى في حافة غور الأردن قبرًا يضم ذلك البطل المؤمن الذي جرَّد سيفه مجاهدًا بدريًا مضى يخوض المعارك الكبرى حتى رفعه الله بجهاده مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .



الزبير بن العوام

هذه مجموعة من المواقف البطولية لصحابي جليل بطل ما تأخر يومًا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام أسلم وهو ابن ثماني سنين وكان من ألصق الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم فخديجة رضي الله عنها عمته لأنها بنت خويلد وأخوها العوام بن خويلد ثم إنه عديل رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته أسماء بنت أبي بكر وأم المؤمنين عائشة هي أيضًا بنت أبي بكر. ومن مناقبه أنه ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالدته صفية بنت عبد المطلب وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنَّة وأحد الستة أهل الشورى وأول من سلّ سيفه في سبيل الله ففي الحديث المشهور أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذهب إلى أعلى مكة فغاب ففزع الأصحاب وكان الزبير في الثانية عشرة من عمره فاستل سيفًا لأبيه وخرج والناس يعجبون يقول من يراه انظروا الغلام ومعه السيف حتى لقيه النبي صلى الله عليه وسلم فقال مالك يازبير؟ فقال: أتيت أضرب بسيفي من أخذك. كان رضي الله عنه قليل الرواية للحديث فقال له يومًا ابنه عبد الله: لماذا لا تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث ابن مسعود؟ فقال: لقد كنت ألازمه ولا أفارقه ولكني أخشى الخطأ وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كذب عليَّ متعمدًا فليتبَّوأ مقعده من النار».

ولما أسلم غضب عليه عمُّه فكان يعلقه ويدخن عليه وهو يقول : لا أرجع إلى الكفر أبدًا . وقد تولت أمه صفية بنت عبد المطلب تربيته وكانت صارمة تضربه ضربًا شديدًا . وهو يتيم وتقول :

إنما أضربه لكي يدبّ ثم يَجُرَّ الجيش وهو ذو جلب

وكان رضي الله عنه طويلاً يسعفه طوله في النزال فكان إذا ركب الفرس خطت رجلاه الأرض وقد بدأ مسيرة القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع عشرة سنة فقد نال نصيبه من الإيذاء وهو صبي ثم شاهده الناس في بدر فارسًا عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم في حين كان عن شماله فارس أيضًا المقدادُ ابن الأسود رضي الله عنه وكان على الزبير عمامة صفراء فنزلت الملائكة بعمائم صُفر وفي هذا يقول أحد أحفاده مفاخرًا :

جدي ابن عمة أحمد ووزيره عند البلاء وفارس الشَّقراء
وغداة بدر كان أول فارس شهد الوغى في اللأمة الصفراء
نزلت بسيماه الملائك نصرةً في البأس يومَ تألُّب الأعداء

ولما عاد المسلمون من أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من يتبع قريشًا فيأتينا بخبرهم؟» وكان يخشى أن تعود قريشٌ فتدخل المدينة فانتدب أبا بكر والزبير في سبعين رجلاً فخرجوا في آثار المشركين فسمع المشركون أنَّ في آثارهم أولئك المغاوير فلم يجرءوا على العودة وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء . واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ ويوم الأحزاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من يأتيني بخبر بني قريظة؟ فقال الزبير : أنا وانطلق فجاء بخبرهم ثم قالها الثانية فذهب الزبير ورجع بخبرهم ثم قالها الثالثة فانطلق الزبير ورجع بخبرهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ لكل نبي حواريًا وإن حواريّ الزبير» والحواري هو الصاحب أو التلميذ العظيم الصدق . الخالص من كل ريبة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق

يقول له وهو على فرسه الأشقر: «ارم يازبير فداك أبي وأمي». وضرب الزبير يوم الخندق أحد المشركين بسيفه على مغفره فقطعه إلى القربوس، وهو مقدم السرج ومؤخره؛ فقال الناس ما أجود سيف الزبير فغضب الزبير رضي الله عنه لأن الفضل لله ثم للسَّاعد الذي وجه الضربة. وفي يوم فتح مكة كان الزبير يحمل لواء المهاجرين ثم حمل لواء سعد بن عباده فدخل مكة ومعه لواءان. وما عُلم أن الزبير رضي الله عنه تخلَّف عن رسول الله صلى الله عليهوسلم في أي غزوة. وقد حدث حفيده هشام بن عروة أن الزبير كانت فيه ثلاث ضربات بالسيف: إحداها في عاتقه تلقاها في اليرموك والإثنتان تلقَّاهما يوم بدر وأن ابنه عروه كان يقول كنت أدخل أصابعي في التي في عاتقه وتثلم سيف الزبير يوم بدر فكان يعرفه من يراه. وكان الزبير رضي الله عنه في المبارزة أعجوبة الأعاجيب يساعده في ذلك طوله. فقد برز في إحدى المعارك أعرابي على جمل له يقول: هل من مبارز؟ فبرز له الزبير فتقدم إليه رضي الله عنه ووقف إلى جوار جمله ومد يده وهو واقف على الأرض إلى رأس الأعرابي وهو راكب جمله فجره وأسقطه ثم قتله والمسلمون يكبرون ويهللون

ومن فضائله أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعتبرون نجدتهم عليًا وحمزة والزبير وكان رضي الله عنه وليًا لذرية عثمان وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود؛ فكان لا يمسُّ أموالهم وينفق عليهم من ماله. ومنذ مات عمر لم يأخذ الزبير عطاءَه من بيت المال محتسبًا ذلك عند الله. ومع كل هذه الفضائل قضى الله بحكمته أن يكون مقتل الزبير رضي الله عنه على يد رجل يقال له ابن جرموز في موقعة الجمل فلما بلغ عليًا مقتلهُ بكى بكاءً مُرًّا لما علم من فضائل الزبير وكان ابن جرموز ينتظر مكافأة على قتل الزبير لكن عليًا قال حين جيء له برأس الزبير: بشر قاتل ابن صفية بالنار. ومضى عليٌّ بأصحابه إلى قبر الزبير بوادي السباع ليس بعيدًا عن مدينة الزبير فبكى علي رضي الله عنه وأبكى الناس من حوله. وكان عندما قتل

يناهز ستين عامًا وقد أوصى قبيل وفاته ابنه عبد الله أن يُنقِّي ذمته ويسدَّ ديونه فإذا لم يَف المال بالدين فليستعن برب الزبير وقام عبد الله بن الزبير بالوصية خير قيام وبدأ يسَدد ديونه وإذا هي بَاهظة وأعانه ربُّ الزبير حين باع أرضًا للزبير اشتراها من قديم يقال لها الغابة باعها رضي الله عنه بمليون وستمائة ألف درهم وجلس عبد الله فيها ووفّى كلَّ ذي حقّ. وكانت من دأب الزبير إذا أودع أمانة أن يَضُمها إلى ماله حالاً لكي يغرمها إذا تلفت وكان يشتري بتلك الأمانات وما انضم إليها من ماله أرضًا وكان قد اشترى الغابة بمائة وسبعين ألف درهم وكانت الغابة بفضل الله بركة لأنها وفّت بكل ديون الزبير رضي الله عنه. واجتمع بنو الزبير إلى عبد الله وقالوا له اقسم الباقي من تركة الزبير بيننا فأبى عبد الله رضي الله عنه وقال لهم بل نؤجل القسمة حتى ننادي في الموسم أربع سنوات : من كان له على الزبير حق فليأتنا كي نقضيه حقه. ولما انقضت السنون الأربع وزعت التركة على نسائه الأربع وسائر ورثته من ذكور وإناث وإذا نصيب إحدى زوجاته وهي عاتكة بنت زيد يزيد على ثمانين ألف درهم وقد مدحه حسان رضي الله عنهما فقال :

أقام على عهد النبي وهديه ... حواريُّهُ والقول بالفعل يُعْدَل

أقام على منهاجه وطريقه ... يوالي ولي الحق والحقُّ أعدل

له من رسول الله قربى قريبة ... ومن نصرة الإسلام مجدٌ مُؤثلُ

فكم كربة ذبَّ الزبير بسيفه ... عن المصطفى والله يعطي فيجزل

اللهم ارض عن الزبير السَّابق المجاهد واجزه عن جهاده خير الجزاء .



طلحة بن عبيد الله
رضي الله عنه

الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله قرشي من بني تيم قوم أبي بكر رضي الله عنه الجواد بنفسه الفياض بكرمه ونواله. كان رحمه الله حَسَنَ الصورة كريم السيرة وكانت عائشة رضي الله عنها إذا ذُكر يومُ أُحُد قالت : ذلك كله يوم طلحة بن عبيد الله وقال أبو بكر رضي الله عنه كنت أول من رجع إلى رسول الله يوم أحُد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ولأبي عبيدة : عليكما صاحبكما يريد طلحة وكان قد نزف رضي الله عنه كثيراً من دمه. فأقبلنا نعالج نزيفه وهو في بعض تلك الجفار فإذا به حوالي سبعين بين ضربة وطعنة ورمية. وقد قُطعت أصابعه وشُلت يده. ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحُد صعد المنبر وتلا قوله تعالى من سورة الأحزاب ﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدُوا الله عليه فمنهمْ من قضَى نحبه ومنهم من يَنْتَظِر ومَا بَدلُوا تَبْديلاً﴾ .

وإذا طلحة رضي الله عنه يدخل فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول هذا منهم. من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة.

وطلحة رضي الله عنه من العشرة المبشرين بالجنة ومن أهل المواقف المشهودة في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد التفت النبي صلى الله عليه وسلم في

بعض مواقف يوم أحد فلم ير إلا طلحة يدافع عنه وقد صمد المشركون نحوه ووصلوا إليه فصادمهم طلحة كأنه عشرة رجال وكان ربما سقط مغشيًا عليه فينهض ويستأنف القتال وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرات وهو جريح فكان سببًا في نجاته عليه الصلاة والسلام. وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على حراء هو وأبو بكر وعثمان وعليٌّ وطلحة والزبير فتحركت الصخرة التي كانوا واقفين عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب الجبل : اهدأ حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد. واشتهر طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه بكرم منقطع النظير كانت غلة طلحة كل يوم ألف درهم وكان ينفق معظم دخله على الصحابة وبخاصة بنو تيم قومه يسدد عنهم ديونهم ويوسع عليهم معايشهم ومن أخبار كرمه أنه كان يرسل إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كلّ سنة عشرة آلاف درهم وقضى عن رجل من قومه اسمه صبيحة التيمي ثلاثين ألف درهم وكانت له تجارة منتشرة تدرُّ عليه أموالاً طائلة فلا يمسي أحيانًا عنده منها بضعة دراهم. أتاه مال مَرَّة من حضرموت فبات يتململ ولاحظت زوجته الصالحة الكريمة أم كلثوم بنت أبي بكر قلقه وعدم إغماضه فسألته عن أسباب سهره فقال لها كيف ينظر إليّ ربي وأنا أكنز الليلة سبعمائة ألف درهم. فقالت له أصحابك الفقراء كثيرون انو إنفاقها غدًا وعندئذ لا يحسبك الله في الكانزين فقال لها رضي الله عنهما . إنك موفقة بنت موفق. ولما أصبح أفرغ المال في صرر وأخذ يوزعها حتى كاد المال ينفد وهنا قالت له زوجته : ونحن يا أبا محمد أليس لنا من هذا المال نصيب ولملم رضي الله عنه بقية مما تبعثر وإذا قرابة ألف درهم فقال لها لو ذكرتني قبل أن ينفد المال. وقد بارك الله عزَّ وجل مال طلحة رضي الله عنه إذ على الرغم من جوده ترك أكثر من ألفي ألف درهم وأكثر من مائتي ألف دينار على أن الجزء المؤسف من حياة طلحة رضي الله عنه هو الجزء الذي أمضاه أثناء الفتنة التي في معركة الجمل فقد ذهب طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم صوب العراق يطالبون عليّاً رضي الله عنه بتسليمهم قتلة

عثمان رضي الله عنه . وانقسم الناس في الفتنة قسمين أحدهما مع عائشة رضي الله عنها والزبير وطلحة وأما الثاني فمع عليّ رضي الله عنه . وكانت معركة الجمل واأسفاه بين أشرف فئتين من المسلمين وحسبك بفئتين إحداهما تقودها عائشة رضي الله عنها وحواريان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هما طلحة والزبير والأخرى إمامها علي بن أبي طالب أبو الحسن والحسين وصاحب المواقف المشهودة في خدمة الإسلام . لقد التقى الجمعان فقتل طلحة والزبير قتل طلحة رضي الله عنه مروان بن الحكم حين رماه بسهم في ركبته وأما الزبير فقتله رجل يقال له ابن جرموز وكانت مأساة بكى لها كلٌّ من يعزٌّ عليه الإسلام والمسلمون ويروى أن عليًا رضي الله عنه مرّ على طلحةوهو مقتول فجعل يمسح عن وجهه التراب ويبكي وهو يقول ياليتني مت قبلك يا أبا محمد يعزٌّ علي أن أراك قتيلاً تحت نجوم الليل وُقتل وقد ناهز الستين وهذه هي السنٌّ التي تُوفّي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه أبو بكر وعمر وصاحبه عليٌّ رضي الله عنه وطلحة والزبير .

وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال سمعت بأذني رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (طلحة والزبير جاراي في الجنة) وعن علي أيضًا أنه قال : إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخوانًا على سرر متقابلين. وقد نقل طلحة رضي الله عنه من قبره بعد ستة وثلاثين عامًا على أثر رؤيا رأتها ابنته عائشة رحمها الله فلما أخرجوه لينقلوه إلى دار اشتروها خصيصًا ليدفن بها إذا جسده على حاله لم يتغير . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على رجليه فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله . لقد بلغ من احترام رسول الله صلى الله عليه وسلم لطلحة أنه لم يحضر بدراً إذ كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ولكن حين نصر الله المسلمين ببدر ضرب لطلحة بسهمه كاملاً . لقد أسلم طلحة رضي الله عنه فأوذي على يد أهله بني

تيم وكـان نوفل بن خـويلد ربما ربط أبا بكر وطلحـة في حـبل واحـد ولا يسـتطيع قومهما بنو تيم أن يمنعوهما من بطشه .

رحم الله طلحـة بن عبيـد إمامًا من العشـرة المبشرين بالجنة ومجاهدًا يفـتدي رسول الله صلى الله عليه وسلـم بروحه وغنيًا مـتصدّقًا يبـذل ماله في الله ويشـارك أصـحاب الرأي في اختيار عثمان خليفة بعد أن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبة كريمة مخلصة ثم لم يزل إلى جواره حتى مات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض .



حكيم بن حزام
رضي الله عنه

هذا الصحابي الجليل سيرته ذات بشاشة وجمال وذات نكهة طيبة عطرة. وذلك لأن خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها كانت عمته وكان الزبير بن العَّوام الإمام المبشر بالجنَّة ابن عمه وقد طال عمره في الإسلام فروى عنه الحديث بعض التابعين رحمهم الله كسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين وعطاء بن رباح. ولم يسلم رضي الله عنه إلاَّ يوم فتح مكة وقد حضر غزوة بدر مقاتلاً في صفوف المشركين وكان يحمد الله على أن نجاه من القتل يوم بدر وإلا لقتل مشركًا. وكان إذا أراد أن يقسم بالله جَهْد يمينه يقول: لا والذي نجاني يوم بدر من القتل ومن الكفر وقد كتب الله له عمرًا طويلاً أنفقه في الكرم وصنائع المعروف في الجاهلية والإسلام. عاش رحمه الله مائة وعشرين سنة ونيفًا له منها نيف وسبعون في الجاهلية ونيف وأربعون في الإسلام ومع أنه أسلم متأخرًا فقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة حنين وحضر النصر فيها وحضر غزوة الطائف وحسن إسلامه وجهاده. ويبدو أنه كان في الجاهلية يحبُّ المال على عادة أغنياء العرب في الجاهلية ولهذا قدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حنين فطلب منه مالاً أسوة بالمؤلفة قلوبهم فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقنع وظلَّ يستزيد والرسول صلى الله عليه وسلم يزيده، وعندئذ وعظه رسول الله صلى الله عليه

وسلم فكان مما قال له : ياحكيم إن هذا المال غرور والدنيا حلوة خضرة ومن أخذ المال باستشراف نفس يعني بطمع وهلع وتشوُّق وسوء أُكْلة لم يبارك له فيه أما من أخذه بسخاوة نفس وحسن أكلة بورك له فيه . فلما سمع حكيم كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تأثر وأقسم ألا يقبل عطاء من إنسان وبرَّ رضي الله عنه بقسمه فلم يقبل عطاءً حتى نصيبه من بيت المال . وقد أرسل إليه عمر رضي الله عنه عطاءه وهو حقه من بيت المال فأبى فقال عمر للصحابة اللهم إني أشهدكم على حكيم أني أدعوه إلى حقه فيأبى ولم يقبل حكيم عطاء عمر ولا قبل عطاء من عثمان ومعاوية ومع ذلك بارك الله لحكيم في ماله وكان من أغنى الصحابة . وكان حكيم رضي الله عنه من أعظم قريش حتى لقد عُدَّ من أهل الرأي في دار الندوة وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة، وقد ورد في حديث حسن الإسناد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن .

وكان حكيم رضي الله عنه في الجاهلية والإسلام يسابق الريح في كرمه حتى قال عن نفسه في الجاهلية : كنت إذا لم يأتني صاحب حاجة في يومي أعدّ ذلك اليوم يومَ عقوبة وقال يومًا يحدث عن نفسه كنت تاجرًا أخرج إلى اليمن وآتى الشام فكنت أربح أرباحًا كثيرة فأعود على فقراء قومي يعني أنه كان يَسدّ حوائج فقراء قومه واشتريت في سوق عكاظ زيدًا بن حارثة لعمتي خديجة فوهبته رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام النبي الكريم بإعتاقه . وحدث عنه بعض من رآهُ في الجاهلية قال : لما حصر المشركون بني هاشم في الشعب كان حكيم تأتيه قافلته بالطعام والحنطة فيسوقها نحو الشعب ثم يضرب أعجازها فتنطلق نحو المسلمين فيأكلون من الطعام الذي عليها وكان صلى الله عليه وسلم يُشيد بأربعة من سكان مكة لرجاحة عقولهم ويقول : أربعة أربأ بهم عن الشرك عتّاب بن أسيد وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام وسهيل بن عمرو . وكان حكيم يحمل الكَلّ فلا يأتيه ضعيف إلا حمله ولما حج معاوية رضي الله عنه اشترى دار حكيم بأربعين ألف

درهم فقال ابن الزبير ما يدري هذا الشيخ أي بيت باع فقال حكيم وما الذي بعته ؟ هي دار كنت اشتريتها بزقٍّ من خمر .

وكان رضي الله عنه يأبى أن يكون قد عمل معروفًا في الجاهلية فلا يعمل مثله وأكثر في الإسلام وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصنائع التي صنعها في الجاهلية هل يفيد منها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ياحكيم لقد أسلمت على ما سلف لك من خير يعني بذلك عليه الصلاة والسَّلام أن حكيمًا كان في الجاهلية خيراً ثم جاء الإسلام فأضاف صنائع الخير في الإسلام إلى صنائع الخير في الجاهلية وكان رضي الله عنه قد أعتق في الجاهلية مائة رقبة فأعتق مثلها في الإسلام وساق في الجاهلية مائة بدنه فساق مثلها في الإسلام. وكان رضي الله عنه أحد النفر الذين دفنوا عثمان ليلاً ليلة قتله. وقال مصعب بن ثابت رأيت حكيمًا بن حزام رضي الله عنه جاء يوم عرفة ومعه مائة رقبة ومائة بدنة ومائة بقرة ومائة شاة وهو يقول الكل لله. ولما قتل الزبير بن العوَّام رضي الله عنه لقى حكيم ابنه عبد الله فسأله كم على أبيك من الدين فقال عبد الله بن الزبير عليه ألف ألف فقال حكيم دون تردد عليَّ منها خمسمائة ألف .

وكنت قد أسلفت أن حكيمًا بن حزام رضي الله عنه باع دار الندوة لمعاوية رضي الله عنه بمائة ألف فقال عبد الله بن الزبير : بعت ياحكيم مكرمة قريش فقال حكيم ذهبت المكارم يابن أخي إلا التقوى إني اشتريت بدار الندوة داراً في الجنة وأشهدكم أني قد جعلت ثمنها لله. وكان حكيم رضي الله عنه قد جَنَّد ماله في الجهاد لتوفير ركائب لفقراء الصحابة في الغزو يحملهم عليها إذا لم يجدوا ما يُحملون عليه وكان رضي الله عنه مقدامًا أبلى ليلة الدفاع عن عثمان بلاء حسنًا وكان من أبطال يوم الدار وهو أحد النفر الذين خاضوا الخطر ليلة مقتل عثمان رضي الله عنه ودفنوه ليلاً في وسط الموت والخطر. وكان حكيم رضي الله عنه إذا عادت قافلته من الشام وزع جزءًا كبيراً من ربحه على الفقراء وقد ذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تنبأ

لأربعة من أهل الجاهلية أن تهديهم عقولهم بإذن الله إلى دين الله وبالفعل هدتهم الفطَرُ النقية إلى الحنيفية عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام وسهيل بن عَمرو، ومما ورد في سيرة حكيم رضي الله عنه أن أمه ولدته داخل الكعبة فقد دخلت الكعبة في نِسوة من قريش فعاجلها المخاض وفرش لها نطع حيث ولدته قبل عام الفيل ببضع عشرة سنةوقد سمع وهو يقول قبيل موته : اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك وكان إذا رأى هدية سنيَّة أحب أن يهديها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : كان محمد أحب الناس إليّ في الجاهلية فلما نُبىء وهاجر شهدت الموسم فوجدت حلة تباع من حُلل سيف بن ذي يزن فاشتريتها بخمسين ديناراً لأهديها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدمت عليه بها في المدينة وعرضتها عليه في المدينة فقال : إنا لا نقبل هدايا المشركين ولكن إن شئت بالثمن. فبعتها له بالثمن حين أبى الهدية فلبسها عليه الصَّلاة والسلام فلم أر أجمل منها عليه ثم ألبسها أسامة بن زيد فقال حكيم لأسامة أتلبس حُلة ذي يزن فقال أسامة نعم والله لأنا خير منه وأبي خير من أبيه فانطلقت إلى مكة وأخبرتهم بما كان من جواب أسامة فَسُرَّ المسلمون بذلك الحديث .

رضي الله عن حكيم بن حزام كريمًا وسيدًا ومقدامًا ومحسنًا في الجاهلية والإسلام .

١٩

أبو ذر الغفاري

في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما أقلَّت الغبراء ولا أظلَّت الغبراء من رجل أصدق لهجةً من أبي ذرّ وفي رواية ابن سعد ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر. من سرَّه أن ينظر إلى زهد عيسى عليه السَّلام فلينظر إلى أبي ذر. وفي مسند أحمد أن أبا ذر قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس: أرحم المساكين وأجالسهم. وأنظر إلى من تحتي ولا أنظر إلى من فوقي، وأن أصل الرحم وإنْ أدبرتْ. وأن أقول الحق وإن كانَ مُرًّا. وأن أقول لا حول ولا قوة إلا بالله.

ويبدو صدق اللهجة في أبي ذر من أول ساعات إسلامه فقد جاء في قصة إسلام أبي ذر كما ورد في الصحيحين: قال ابن عباس ألا أخبركم بإسلام أبي ذرّ قلنا بلى قال أبو ذر: بلغني أن رجلاً بمكة قد خرج يزعم أنه نبيٌّ فأرسلتُ أخي (يعني أخاه أُنَيْسًا) ليكلمه. فقلت انطلق إلى هذا الرجل فكلمه فانطلق فلقيه ثم رجع فقلت ما عندك؟ قال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشرّ قلت لم تشفني. (يعني أنه لم يفهم كلَّ شيء عن محمد) قال أبو ذر فأخذت جراباً وعصًا ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه. وأشرب من ماء

زمزم وأكون في المسجد فمرَّ عليَّ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : هذا رجلٌ غريب ؟ قلت نعم . قال : انطلق إلى المنزل (أي منزل علي) فانطلقت معه لا أسأله عن شيء ولا يخبرني . فلما أصبح الغد جئت إلى المسجد وليس يخبرني عن النبي بشيء فمر بي عليّ فقال : أما آن للرجل أن يعود؟ قلت لا . قال : ما أمركَ وما أقدمَك . قلت إن كتمت علي أخبرتك . قال : أفعَل . قلت قد بلغنا أنه خرج نبي . قال : أما قد رشدت . هذا وجهي إليه فاتبعني وادخل حيث أدخل فإن رأيتُ أحداً أخافه عليك قمتُ إلى الحائط كأني أصلح نعلي وامض أنت . فمضى ومضيت معه فدخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله : اعرض عليَّ الإسلام فعرض عليَّ فأسلمت مكاني . فقال لي يا أبا ذر . اكتم هذا الأمر وارجع إلى قومك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل فقلت والذي بعثك بالحق لأصرخن بها (أي بدعوة الحق) بين أظهرهم فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال يامعشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ فقاموا : فضُربتُ لأموت فأدركني العباس فأكبَّ علي وقال : ويلكم أتقتلون رجلاً من غفار ومتجركم وممركم على غفار فأطلقوا عني . فلما أصبحت رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس . فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ فصنع بي كذلك وأدركني العباس فأكب عليّ وفي إضافة لابن سعد أن أبا ذر حين أسلم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم متى كنت ههنا قال منذ ثلاثين يومًا قال فمن كان يطعمك قلت ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت وما أجد على بطني سخفة جوع قال صلى الله عليه وسلم إنها مباركة وإنها طعامُ طعم . فقال أبو بكر يارسول الله ائذن لي في طعامه الليلة فانطلقنا ففتح أبو بكر بابًا فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف فكان أول طعام أكلته بها . وذكر أبو ذر أنه لقي أخاه أنيسًا فأخبره برحلته وإسلامه فأسلم أنيس وكان معهما أمُّهما فأسلمت ثم عادا إلى قومهما فأسلم نصفهم ثم أسلم نصفهم الآخر وجاءت قبيلة أسلم فقالوا يارسول الله هؤلاء إخواننا نسلم على الذي أسلموا عليه

فأسلموا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله .

وكان أبو ذر في الجاهلية من الحنفاء الذين هدتهم فطرتهم إلى الإسلام قال رضي الله عنه لقد صليت قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين وسئل أين توجهت فقال حيث وجهني الله أصلي عشاء حتى إذا كان آخر الليل ألقيت كأني خفاء (أي كساء) يطرح على الأرض . وكان أبو ذر رجلاً شجاعًا يغير في عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه كأنه الليث وكان في الجاهلية لا يعبد الأصنام وقد حدث عن نفسه فقال كنت رابع الإسلام أسلم قبلي ثلاثة فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت سلام عليك يارسول الله وأسلمت فرأيت الاستبشار في وجهه فقال من أنت ؟ قلت جُندب رجلٌ من غفار فرأيتها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي أنه تغير وجهه حين انتسب أبو ذر) لأن غفار كان منهم من يسرق الحاج . ولازم أبو ذر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليهوسلم فكان حامل لواء غفار يوم حنين . وكان لا يبطىء بعدئذ عن غزوة . وقال : أبطأت في غزوة تبوك (العُسرة) لعجَف بعيري وقد قال الناس في غزوة تبوك : تخلَّف أبو ذر وأبطأ به بعيره . لكن أبا ذر أخذ متاعه عن بعيره وخرج يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي مشيًا ونظر ناظر فقال : إن هذا الرجل يمشي على الطريق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن أبا ذر فلما تأمله القوم قالوا هو والله أبو ذر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويُبعث وحده . وتحقق ما تنبأ به رسول الله لأبي ذر فمات وحده كما سنذكر فيما بعد . لقد كان أبوذر من أجلاء الصحابة وقد شهد مؤتة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتدئه إذا حضر ويتفقده إذا غاب وفي الحديث الذي رواه الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنه لم يكن نبي إلا وقد أعطي سبعة رفقاء (وزراء) وإني أعطيت أربعة عشر فسمَّى فيهم أبا ذر . وروى أنه صلى الله عليه وسلم دعا لأبي ذر فقال : (اللهم اغفر لأبي ذر وتب عليه) وفي الحديث الذي رواه أحمد أن أبا ذر قال بايعني

رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسًا وواثقني سبعًا وأشهدَ عليَّ سبعًا ألا أخاف في الله لومة لائم. وفي الحديث الذي أورده الإمام أحمد وابن سعد أن أبا ذر قال: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم. وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني وألا أسأل أحدًا شيئًا وأن أصل الرَّحم وإن أدبرت. وأن أقول الحق وإن كان مُرًّا وألا أخاف في الله لومة لائم وأن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ويبدو أن أبا ذر كانت فيه حدَّة فقد ساب رجلاً يومًا فعيره بأمه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية)وروي أن أبا ذر خلف بنتًا فضمها عثمان رضي الله عنه إلى عياله. وقد روى مسلم رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نصح أبا ذر ألا يتأمّر على اثنين (يعني ألا يقبل الولاية) وألا يتولى أمر يتيم وقد جاء في خاتمة أبي ذر أنه رضي الله عنه مرض بالربذة وهي مكان بالشام ولم يكن معه إلا امرأته وغلامه فكفنه فتى من الأنصار بكفن من غزل أمه وأوصى أصحابه أن يغسلوه ويكفنوه ويضعوه في طريق الحجيج ليقوم بدفنه أول ركب يمرون فمر أول ركب وإذا هو ركب ابن مسعود رضي الله عنه فلمَّا أخبر بأن المتوفى أبو ذر بكاه وفداه وواراه التراب وهو يقول صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك رحم الله أبا ذر إماماً جريئًا في الحق عاش ومات لا يخشى في الله لومة لائم.



أبو أيوب الأنصاري

هذا الصحابي الجليل نال من الله عزَّ وجلَّ كرامة ما حظيَ بها صحابي. فقد أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة المنوَّرة والأنصار يقولون له : مرحبًا بك يارسول الله راشداً مهديًا ولما دخل المدينة كان في استقباله ألوف ينظرون إليه في حبٍّ وإكبار والكلّ يقول له : ههنا ههنا في بيتي يارسول الله وهو يقول لهم دعوا الناقة فإنها مأمورة. وتمضي الناقة في مسيرتها الميمونة المباركة حتى تبرك على باب أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه واسمه خالد بن زيد من بني النجار من الخزرج رضي الله تعالى عنه وأرضاه حيث مكث النبي صلى الله عليه وسلم في ضيافة الصحابي الكريم إلى أن بَنَى المسجد النبوي الشريف وبنيت حجرة أمنا سودة بنت زمعة وكانت في حينها زوجته الوحيدة بعد وفاة خديجة رضي الله عنهما فتحوَّل النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته والمسجد تاركًا لأبي أيوب سيرةً وتاريخًا وذكراً عطراً يعلو على كل ذكر .

وفي أثناء إقامة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عند أبي أيوب جنَّد هو وزوجه نفسيهما لتوفير الراحة لرسول الله. وقد فضَّل النبي صلى الله عليه وسلم أول الأمر أن ينزل في الدور الأرضي لكثرة ضيوفه وزائريه وحتى لا يجشمهم مشقة الصعود إلى العُلِّية لكنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في الحقيقة يضرب مثلاً

أعلى في الأخلاق حين رفض أن يسكن في العُلِّية وتركها للمضيف وفي ذات ليلة انكب بعض الماء في أرض العُلِّية فخشى أبو أيوب وزوجته أن يتسرب الماء إلى غرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفقا طول ليلهما يمسحان الماء ويجففانه حرصًا على راحة النبي الكريم. وكان أبو أيوب وزوجته يبعثان بالطعام يوميًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا ردَّ بقيته أخذا يتتبعان موقع يد النبي صلى الله عليه وسلم فيأكلان من تلك الآثار الزكية من أجل ذلك كان الناس يعتبرون أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه صحابيًا كريمًا مبارك الناصية محظوظًا ويحبون من شغاف قلوبهم أن يكرموا مضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. قدم أبو أيوب رضي الله عنه على ابن عباس أيام كان واليًا على البصرة في عهد علي رضي الله عنه فقال له ابن عباس: والله لأصنعن بك كما صنعت برسول الله صلى الله عليه وسلم. وفرغ لأبي أيوب بيته وسأل عن ديونه فعلم أنها عشرون ألف درهم فوفَّاها عنه وأعطاه مثلها وهو يقول له مرحبًا بمكرم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان أبو أيوب يلازم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أجل ذلك كان من رواة الحديث ومن أحاديثه العظيمة قوله ليزيد بن معاوية وهما يغزوان القسطنطينية: ادفنوني تحت أقدامكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من مات لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة وفي رواية أن أبا أيوب رضي الله عنه قال ليزيد بن معاوية حين جاءه يعوده في مرض موته: اقرئ الناس مني السلام ولينطلقوا بي وليبعدوا ما استطاعوا. يعني داخل بلاد العدو ثم ليدفنوني ففعل الناس وعملوا بوصيته وفهم الناس من وصية أبي أيوب أنه أراد أن يجعل من جثمانه منارًا يضيء للناس سبل الجهاد ليفتحوا ديار الكفر لأنوار الإسلام. ولا غرو فأبو أيوب كان من السَّابقين الأولين إلى الإسلام شهد بيعة العقبة وحضر بدرًا وكَلَّ مشاهد رسول الله صلي الله عليه وسلم وظلَّ متطلعًا إلى شرف الجهاد والاستشهاد حتى حقق الله له الشهادة ودفن تحت أسوار القسطنطينية حيث داست قبره سنابك خيل الأعداء وظلَّ قبره

غريبًا نائيًا حتى هيَّأ الله له محمدًا الفاتح رحمه الله فنقل رفاته إلى داخل القسطنطينية بعد أن فتحها الله على المسلمين على يد ذلك القائد المؤمن الجليل. وفي الفتنة التي قامت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما قاتل أبو أيوب مع عليّ وكان يروي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي خاطب به الأنصار حين خطبهم خطبة كانت موعظة ذرفت منها العيون وخشعت منها القلوب كأنها موعظة مودع وهناك حذر الأنصار أنهم سيلقون بعده أثرةً وأوصاهم أن يصبروا حتى يلقاهم على الحوض. لقد كان أبو أيوب رضي الله عنه قدوة لدعاة الحق فلقد كان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على حياة النبي الكريم حتى لقد سهر ولم يطعم النوم ليلة بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية خائفاً أن ينال النبي سوء بسبب أنها كانت حديثة عهد بكفر ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس سلاحه مجاهدًا في سبيل الله في مصر ثم في معارك القسطنطينية ومضى في ذلك الجهاد المبارك حتى بلغ قرابة سبعين سنة بائعًا لله نفسه وماله بأن له الجنَّة حتى ركز رفاته لواءً حول أسوار القسطنطينية يهيب بأمة محمد أن يظلوا مجاهدين لرفع كلمة الحق لتكون كلمة الله هي العليا .

لقد كان لأبي أيوب كرامات في حياته وبعد موته أما في حياته فقد رزقه الله حُبّ القلوب وجعل له في الناس ودًا ورزقه من الأخلاق ما جعله إمامًا من أئمة المتقين وأما بعد موته فقد جاء في الأخبار أنَّ الروم اكتشفوا وراء المسلمين قبرًا عرفوا فيه البركة وظلوا يزورونه كقبر شهيد فقال لهم بعض المسلمين هذا قبر رجل كريم نزل الرسول صلى الله عليه وسلم في ضيافته. وأراد الله لقبر أبي أيوب أن يكون أنأى قبر تمتع به شهيد وإن الزائر لمدينة استنبول في هذه الأيام ليرى في بعض مرابعها قبرًا جليلاً لا يزال ينادي بالجهاد لإعلاء كلمة الله وتحرير المقدسات. رضي الله عن أبي أيوب بطلاً خاض الغمار من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم عبر الجزيرة حتى اختاره الله عند أسوار القسطنطينية منارًا للمجاهدين وبطلاً من السابقين

ومجاهدًا محتسبًا من الصابرين ومضيافًا لسيد العالمين رضي الله عن أبي أيوب ونفعنا بسيرته الخالدة العطرة ومواقفه المحتسبة الجليلة .



حذيفة بن اليمان

هذا الصحابي الجليل له من الفضائل والمناقب ما جعله من نجباء الصحابة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُسند إليه مهمات الأمور إذ كان موضع ثقته حتى لقد لقب (صاحب السر) لما رواه البخاري في مناقب حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم علم حذيفة أحوال المنافقين حتى لقد كان رضي الله عنه ربما عرف المنافق بمجرد النظر إليه. وحذيفة بن اليمان أصله من قبيلة عبس لكن أباه أصاب دمًا في قومه وسكن المدينة حليفًا للأوس فلقبه قومه اليمان لأن الأوس والخزرج يمانيون.
ويعتبر رحمه الله من رواة الحديث فقد روى اثنى عشر حديثًا من المتفق عليه وانفرد البخاري فروى له ثمانية أحاديث ثم تفرد مسلم فروى له سبعة عشر حديثًا فصار مجموع ما روي له في الصحيحين أو أحدهما سبعة وثلاثين حديثًا. وقد جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له إن شئت كنت من المهاجرين وإن شئت كنت من الأنصار وقد أسرَّ له النبي الكريم بأسماء المنافقين وضبط حذيفة عنه الفتن الكائنة في الأمة فكان رضي الله عنه في ذلك الأمر حجة حتى إن عمر رضي الله عنه كان على جلالة قدره يسأله: نشدتك الله ياحذيفة هل أنا من المنافقين. وقد لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد معه الغزوات جميعها إلا بدرًا وكان سبب تغيبه عن بدر أن أبا جهل أدركه وأباه ذاهبين إلى المدينة فأسرهما ولم يفلتهما إلا بعد أن أخذ

عليهما عهدًا ألا يقاتلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ذكرا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نفي بعهدهم ونستعين الله عليهم. وفي معركة أحد وقع أبوه بين الصفوف وكان قد برز في درع سابغة لم يظهر فيها منه شيء فقتله المسلمون خطأ وحذيفة يصرخ ويلكم هذا أبي فحكم النبي الكريم لحذيفة بالدية لكنه رضي الله عنه عفا وقال للصحابة يغفر الله لكم فكبر في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم وظل الصحابة يحفظون له تلك المنقبة الكريمة.

ولقد كان حذيفة رضي الله عنه أطهر الناس من النفاق وذلك لعظمة علمه بالمنافقين قال عنه عليٌّ رضي الله عنه: علم المنافقين وسأل عن المعضلات فإن تسألوه تجدوه. وكان كثيرًا ما يسأل النبي صلي الله عليه وسلم عن الشُّرور ليظل دومًا بعيدًا عنها. وقد جمع رضي الله عنه صفتين جعلتاه في مقدمة الصحابة وهما شجاعته التي لم تكن تعرف التراجع وزهده في حطام الدنيا حتى لقد عاش على الكفاف وهو وال على المدائن. حين توفرت بين يديه كنوز تلك الولاية الغنية وإنما كان يلازم الكفافَ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الغر الميامين.

وروي أنه لما وصل المدائن حاكمًا لها استقبله أغنياء الناس من عرب وفرس وقالوا له إن أمير المؤمنين عمر أمرنا أن نسمع لك ونطيع ونعطيك كلَّ ما تطلب فقال رضي الله عنه: ما أريد إلا طعامًا قليلاً يقيم جسدي وعلفًا لحماري من تبن ثم إن عمر دعاه يومًا إلى المدينة وكمن له يوم وصوله ليرى مقدمه على الطبيعة فلما رأى حاله في الهيئة والمظهر والملبس أقبل عليه يعانقه ويقول له أنت والله أخي وأنا أخوك ولما حضرته الوفاة قال وهو يحتضر: حبيبٌ جاءني على فاقة. يعني بذلك أن الموت جاءه وهو أحوج ما يكون إليه وذلك لأن حذيفة كان يعلم ما سيكون في الأمَّة من فتن ثم أردف عند الموت قائلاً لا أفلح من ندم يعني بذلك من يموت وهو نادم على الدنيا. وقال: أليس بعدي ما أعلم؟ الحمد لله الذي سبق بي الفتنة قادتها وعلوجها. وفعلاً سلم الله حذيفة من فتنة مقتل عثمان إذ كان مشغولاً بالقتال

وبإسداء النصيحة للخليفة الراشد الثالث رضي الله عنه حتى لقد كان هو الذي نبهه إلى ما شاع في القرآن الكريم من اختلاف بين القراء وصبيان المكاتب وأشار عليه بجمع القرآن في مصحف واحد لا يُبقي سواه فنشط عثمان لذلك وجمع القرآن الكريم في النسخ التي وجه بها إلى الأقاليم. وقدوصفَ أبو نعيم صاحب الحلية حذيفة رضي الله عنه في كتابه حلية الأولياء فقال: حذيفة بن اليمان هو المشرف على الفتن والعيوب العارف بالمحن وأحوال القلوب سأل عن الشرّ فاتقاه وركن إلى الإنابة والندم. وكان رضي الله عنه من أهل الجهاد المشرف فقد خاض معارك الجهاد في بلاد فارس وكان نائب القائد (النعمان بن مقرن) في معركة نهاوند وقاد الحملة التي فتحت قلعة الدينور الحصينة ثم تقلبت به الحياة بين عسر ويسر فما لينت قناته ولا غيرت من يقينه حتى لقد كان عمر رضي الله عنه إذا جيء بجنازة ليصلي على صاحبها يقول: هل صلى عليها حذيفة فإن قالوا نعم بادر بالصلاة عليها وإلا تردد وكان يروي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليأتين على الناس زمان يقال للرجل ما أعقله ما أظرفه وما في قلبه من الإيمان مثقال شعيرة) لقد كان حذيفة رضي الله عنه عبداً ربانيًا عرف الله فخافه كأشد ما يخاف المؤمن ربّه وهذه قصة نختم بها مناقب حذيفة فيها عبرة ودرس لكل مجاهد يتطلع إلى منازل الشهداء ومقامات العظماء.

حدث حذيفة رضي الله عنه قال: كنّا آخر ليلة في الخندق على حال زاغت معها الأبصار وبلغت القلوب الحناجر حين انصبت علينا قريش من فوقنا وغدرت بنا قريظة من أسفل منا وما مرت علينا ليلة أشدّ برداً من تلكم الليلة وما كان عليّ ما يسترني إلا ثوب رقيق أخذته من زوجتي لا يجاوز ركبتي حتى لقد أبرك خشية أن يراني الناس في ذلك الثوب. فبينما أنا على تلك الحال إذ أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفقد جنوده فوقف عندي وقال: يا حذيفة: إن القوم في هذه الليلة لابد أن يحدثوا أمراً وإني أريدك أن تذهب إليهم وتأتيني بما يكون من خبرهم ودعا

لي فقال : اللهم اجعل حُذيفة رفيقي واحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله . قال حذيفة رضي الله عنه فما أتم دعاءه حتى ذهب عني كل البرد وكل الخوف وكل الجوع ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب في القوم فانظر ماذا يصنعون ولكن لا تحدثن فيهم شيئًا حتى تأتينا . فدخلت معسكر القوم والريح وجنود الله تفعل بهم الأفاعيل لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء فقام أبو سفيان ونادى يامعشر القوم لينظر كلٌّ منكم جليسه وليتثبت منه في الظلام فأخذت بيد جليسي بقوة وقلت من الرَّجل فقال أنا فلان فتركت يده ثم قال أبو سفيان يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ولقد هلكت خيلكم وإبلكم وأخلفتنا قريظة وبلغنا عنهم ما نكره فارتحلوا إني مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به فهممت أن أرشقه بسهم ولو شئت لقتلته ولكني تذكرت عهد رسول الله صلى الله عليهوسلم بألا أحدث في صفوف القوم شيئًا فأعدت السهم إلى الكنانة . ورجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا هو قائم يصلي في ثوب لبعض نسائه من وشي اليمن فبشرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمعته ورأيته من رحيل الأحزاب وغضبتهم على اليهود فحمد الله وطرح عليّ نصف الثوب فعاد إليَّ البرد والتعب فغطاني رسول الله ببقية الثوب وقال لي نم فإنك لم تنم طول ليلك فنمت لم أفق إلا على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول استيقظ يانومان وقمت وإذا الفرحة تعم المؤمنين .

والسُّؤال الآن هو : من أين جاءت لحذيفة رضي الله عنه تلك العزيمة مع أنه كان من أشد الناس بردًا وجوعًا وخوفًا والجواب أن الله حين يتولى عبدًا ويحبُّه يحوِّله عبدًا ربانيًا ينظر بنور الله ويسمع بسمع الله ويبطش بيده ويمشي برجله وتهون عليه في الله كلُّ الآلام مادامت في حب الله ورسوله ، وفي سبيل الله ولإعلاء كلمته رضي الله عن حذيفة مجاهدًا بطلاً ومستشارًا مؤتمنًا وأميرًا زاهدًا خرج من الدنيا طاهر اليد من حطامها سالمًا من فتنها وشهواتها .



أبو قتادة الأنصاري

كلُّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحلوا بالصِّدق فتوج الله صدقهم بالنصر والتمكين والفتوح. توجَّهوا إلى الجهاد ولا هم لهم إلا أن تكون كلمة الله هي العليا فأتمَّ الله بهم نوره وألزمهم طالع النصر وهو كلمة التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلها. وأبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه فارس من بني سَلَمة والجميل في ذلك الصحابي أنه كان من رواة الحديث وكان في الوقت نفسه من أسود الله روى عنه أنس بن مالك وعطاء بن يسار وابنه عبد الله بن أبي قتادة وقد أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم بفروسية أبي قتادة فقال في الحديث الذي رواه مسلم في غزوة ذي قُرد وهو الحديث الذي رواه إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خير فرساننا أبو قتادة وخير رجّالتنا سلمة بن الأكوع يشير إلى أن أبا قتادة كان إذا ركب لا يُشق له غبار وقل أن بارز فارسًا إلا قضى عليه أما سلمة بن الأكوع فكان عدَّاء ربما أفلت من جيش بأسره وغنم منهم وهم ينظرون مشدوهين لسرعته. وكان لأبي قتادة فرسٌ مشهورة يقال لها جروة مدرّبة على أصوات الحَرْب ويبدو أن قبيلة فزارة ظلّت في الإسلام على بداوتها وجفائها وكان منها رئيس لها يقال له عيينة بن حصن كان النبي صلى الله عليه وسلم يتزلفه بالعطاء هو والأقرع بن حابس التميمي لكنَّ نعرة فزارة غرَّتها ذات يوم فأغار

فارس من فزارة كان شديد البطش والغطرسة يقال له مسعدة الفزاري أغار على سرح المدينة ونخيلها وزروعها وقتل فارسًا مسلمًا من المشهورين وهو محرز بن نضلة. ولنترك أبا قتادة رضي الله عنه يحدثنا عما تمّ في تلك الحرب: قال أبو قتادة رضي الله عنه كنت أغسل رأسي وقد غسلت أحد شقيه إذ سمعت فرسي جروة تصهل وتبحث بحافرها فقلت هذه حرب قد حضرت فنهضت ولم أغسل شقّ رأسي الآخر وركبت وعليّ بردة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيح: الفَزَعَ الفَزَعَ. وأدركتُ المقداد بن الأسود فسايرته على فرسي ساعة ثم سبقته وكان فرسي أجود من فرسه وكنت علمت من المقداد أن مَسْعدة الفزاري قتل محرزًا بن نضلة فانطلقت وأنا أقول للمقداد إما أن أموت وإما أن أقتل قاتل محرز وضربت فرسي فلحق مَسْعدة فوقف لي مسعدة راسخًا وأنزل عن فرسي فأضربه بسيفي ضربة أطاحت بعاتقه وأردته قتيلاً ثم جلَّلته ببردتي وهي بردة معروفة لكي لا يمسها الناس وليتركوا لي قتيلي وسَلَبه وتلاحق الناس يمرون على البردَة ويقولون أبو قتادة قُتل: فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ليس أبا قتادة ولكنه بُرْدُ أبي قتادة فَخَلوا بينه وبين سلبه وفرسه وكنت أثناء ذلك في أثر القوم الفارين فلما أدركني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم بارك في شعر أبي قتادة وبشره. أفلح وجهك أبا قتادة. قتلت مَسْعَدة؟ قلت نعم قال ما هذا الذي بوجهك قلت سهم رُميتُ به قال فادنُ مني فتفل عليه ومسحه فما ضَرَب عليّ عرقه ولا قاح. وبالفعل ظلّ أبو قتادة مُشرق الوجه لم تتأثر ملامحه بالجرح ومع أنه مات وهو ابن سبعين سنة كان من يراه يظنه ابن خمس عشرة سنة. واشترك أبو قتادة بعدئذ في الغزوات ومنها أحد وحنين وحدث عن نفسه يوم حنين فقال: خرجنا مع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فرأيت رجلاً وقد علا المسلمين يرشقهم بنباله فاستدرت له متسللاً من ورائه ثم ضربته ضَرْبة ثقيلة قطعت درعه فأقبل علي وضمَّني ضمة وجدت منها ريح الموت ثم ارتخى وأرسلني وسقط ميتًا فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم (من قتل قتيلاً وله بينة فله سلبه. فلما رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت له يارسول الله قتلت قتيلاً ورآني الناس حين قتلته فقال رجلٌ صدق يارسول الله وسَلَبُ القتيل عندي فارضه يارسول الله واترك لي سلبه وكان عليه الصلاة والسلام يخجل فقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما للرجل الذي طلب السلب يعمد أسدٌ من أسود الله مجاهدٌ في الله فيقتل رجلاً وأنت تطلب سلبه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد صَدَق قال أبو قتادة فأعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سلب القتيل وفيه درع جيدة فبعتها وسائر السَّلب واشتريت بستانًا كأن أول مال أثلته بالمدينة ثم فتح الله على أبي قتادة حين غزا مكانًا يقال له حضْرة في خمسة عشر فارسًا فغنموا من المشركين مئتي بعير وألفي شاة وسْبيًا آخر ثَم غزا أبو قتادة رضي الله عنه إضم بعد شهر وهو موضع بين مكة واليمامة فأغنى الله أبا قتادة تحت ظلال سيفه المبارك وفرسه الجيد الصَّافن. وكان أبو قتادة رضي الله عنه كثير الملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه كان يتحرَّج من كثرة الرواية متخوِّفًا من قوله صلى الله عليه وسلم (من كذب عليَّ عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار).

وجاء في سيرة أبي قتادة أن عمر أرسله في أثار ملك الفرس فقتله بيده وعليه منطقة قيمتها خمسة عشر ألفًا أعطاها عمر لأبي قتادة والله يرزق من يشاء بغير حساب وكان أبو قتادة رضي الله عنه جريئًا ولكن الصحابة يتحملون جُرأته. قدم معاوية رضي الله عنه المدينة فتلقاه أبو قتادة فقال له معاوية: استقبلني الناس على مدخل المدينة ما عداكم يامعشر الأنصار فقال له أبو قتادة أمرنا أن نصبر على حكمك حتى نلقاه على الحوض. قال معاوية وكان عظيم السياسة إذن فاصبروا. والجدير بالذكر أنَّ أبا قتادة كان كثيراً ما يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حرسه ذات ليلة فلما أصبح قال عليه الصلاة والسَّلام لأبي قتادة: اللهم احفظ أبا قتادة كما حفظني مُنذ الليلة. ما أرانا إلا قد شقفنا عليك وكان لأبي قتادة على ما

يبدو شعرٌ يحرص عليه ويَرجله وحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إلى أبي قتادة ثلاث مرّات وفي كل مرّة يقولون للنبي إنه يرجل شعره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احلقوا رأسه . ورآه مَرَّة يُصَلّي لكنه يتقي شعره أن يتشعث فهمَّ عليه الصلاة والسلام أن يَجُزَّه فقال يارسول الله : اعذرني وسوف أسُرُّك إن شاء الله وكان رضي الله عنه يلبس الخزَّ ويتأنَّق في مظهره ويروى أنه لما مات صلى عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وحسبك بهذا قدرًا ومنزلة لذلك الصحابي الفارس المحدث الجليل رضي الله عنه ورزق أمة محمد رجالاً كأولئك الغر الميامين والسلف الصالحين .



شرحبيل بن حسنة

إن أهمَّ ما صنعه الإسلام بالعرب أن اكتشف مواهب أهل المواهب ثم وجه تلك القدرات في اتجاهاتها السليمة ثم إنه ملأ قلوبهم بحب الله ورسوله وإذا حياتهم وضيئة طهور كل ما فيها خير وطيب وحلال ونحن الآن بصدد رجل من رجالات الصحابة الأجلاء ومن مهاجري الحبشة ولم يكن من بطون قريش المعدودة فقد كان يقيم في مكة وهو حليف لبني جمح والحليف في الجاهلية كان يقيم في قبيلة غير قبيلته ويعيش على أدبه وأخلاقه ورجولته. وشرحبيل بن حسنة كان رجلاً من كنده يقيم في بني جمح ولكنَّ طائفةمن خصال الخير اجتمعت في ذلك الصحابي الجليل فجعلته من خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسَنَة هي أمُّه وكان شرحبيل رضي الله عنه معدودًا في وجوه الصحابة وله بطولات في حرب اليرموك جعلته في مقدمة المجاهدين الأبرار إذ مُنذ أسلم لله جعل كلَّ همه نصرة الإسلام والجهادَ في سبيل الله حتى ذكر اسمه في أعلام أبطال الصحابة في اليرموك وفي معارك فلسطين .

ولتلك الأسرة المباركة شأن جليل فقد سارعت إلى الإسلام ويبدو أن أمهم حَسَنة رضي الله عنها هاجرت إلى الحبشة بأولادها ثم عادوا فهاجروا إلى المدينة وكان شرحبيل رضي الله عنه أصغر من النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين وكان

عمره رضي الله عنه عُمراً خالداً مليئًا بالجهاد والوظائف القيادية عاش سبعًا وستين وارتبطت سيرته بالأردن لأنه كان قائد تلك الربوع عاش فيها ومات فيها بمرض الطاعون الذي اجتاح الجيش الإسلامي في بلاد الشام فمات فيه عدد من نجباء الصحابة كان منهم أبو عبيدة وشرحبيل رضي الله عنهما اللذان قتلا في يومين متقاربين وكانت لشرحبيل صحبة كريمة برسول الله صلى الله عليه وسلم وروي أن شرحبيل رضي الله عنه كان من كتاب الوحي وكان من المقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان موضع ثقة رسول الله شهد معه المشاهد وأبلى في المعارك وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا غسل ثوبه استعار ثوب شرحبيل يلبسه إلى أن يجف ثوبه وقد وكله رسول الله صلى الله عليه وسلم بمهمة عظيمة فقد جعله رسوله إلى المقوقس في مصر ويبدو أن المقوقس عظيم القبط أعجب بشرحبيل ودعاه ليسكن مصر فاستأذن شرحبيل النبي صلى الله عليه وسلم فأذن له بسكنى مصر حيث أقام أربع سنوات في مصر ولما عاد إلى المدينة وجد الناس يعزي بعضهم بعضًا بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر رضي الله عنه خبيراً بالرجال ومن اللحظة الأولى في حرب الردة اختار الصديق رضي الله عنه شرحبيل بن حسنة قائداً من قواد تلك الحرب فأبلى فيها بلاءً حسنًا ثم اختاره الصديق قائداً من قوَّاد الجيش الإسلامي في الشام من بين قادة غُرٍّ ميامين هم خالد بن الوليد وأبو عبيدة عامر بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص رضي الله عنهم . وعرف شرحبيل رضي الله عنه في حروب الردة أنه كان سريع النجدة يوكله الصديق رضي الله عنه بالنجدات السريعة ولهذا فقد بعث به في أول الأمر نجدة لعكرمة بن أبي جهل في حرب مسيلمة ثم لما أنجز المهمة وشارك في هزيمة مسيلمة أرسله الصديق إلى قبيلة قضاعة وكانت قبيلة على طريق الشام توالى النصارى فهزمها شرحبيل رضي الله عنه ثم إن خالداً رضي الله عنه توجه إلى الشام بأمر من الصدّيق فطلب رضي الله عنه شرحبيل وولاه قيادة رُبع الجيش المتوجه إلى

الأردن حيث اقترن اسمه بقيادة الجيش الإسلامي في تلك المناطق. ثم كانت معركة اليرموك العظيمة التي قادها خالد رضي الله عنه وكان شرحبيل رضي الله عنه في الميمنة مع عمرو بن العاص ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم ومع أن الجيش الإسلامي لم يزد في أي وقت عن اربعين كردوسًا أي أربعين ألفًا فقد بلغ جيش الأعداء في بعض الروايات مائة وأربعين ألفًا. وفي أثناء معركة اليرموك عمد خالد رضي الله عنه إلى خطة مرهبة وهي أن يختار أشجع شجعان المسلمين ليصدموا ظهر جيش الروم فاختار يومها مائة فارس انقضوا على العدو انقضاض الصاعقة وأثخنوا فيهم وكان شرحبيل رضي الله عنه أشَدَّ الفرسان نكاية في الأعداء وفي معركة دمشق ولى أبو عبيدة رضي الله عنه شرحبيلاً قيادة الرَّجالة فنزل بهم على باب الفراديس ولما استسلمت دمشق كتب أبو عبيدة لأهلها كتاب الصلح الذي شهد عليه كبراء قادة الجيش وشهد عليه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وقد اشتهر شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه أثناء معاركه بشدة الحذر حتى لقد كان ينام وهو لابسٌ عُدَّة الحرب وفي موقع يقال له فحل جنوبي دمشق داهمه الروم فجأة ظنًّا منهم أن البطل نائم وإذا هو وجنوده أيقاظ كالصقور ففوجىء الروم بالبطل وجنوده ينقضون على المهاجمين فيقتلون قائدهم ونائبه ويظفرون بغنائمهم وعندئذ كلَّف أبو عبيدة رضي الله عنه شرحبيلاً أن يتوجه إلى بيسان فهاجمها وحاصرها ثم صالح أهلها على شروط صلح دمشق ثم اتصل أهل طبريا بشرحبيل حين سمعوا عن وفائه بالعهود فاتصلوا به فصالحهم على صلح أهل بيسان وأسرع عندئذ رضي الله عنه إلى أجنادين ليكون مع عمرو بن العاص في حرب أرطبون ولما هزم أرطبون واجتمع قادة الروم مهزومين في القدس كان شرحبيل رضي الله عنه من الشهود على استسلامها لعمر ولم يزل شرحبيل رضي الله عنه جادًا في الجهاد لا ينى ولا يفتر حتى وافته منيته بين الشهداء الذين ماتوا في طاعون عمواس. فأسلمها رضي الله عنه أمانة معطرة بالإخلاص والعزيمة المجاهدة والهمة

التي بدأت في بطحاء مكة وصالت وجالت في مشاهد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم حطت رحالها في ساحة الأبطال بالشام والأردن وفلسطين ولعلك لو وقفت على العدوة الشرقية لنهر الأردن تشاهدُ قبوراً كالأزاهير الندية الشذية تتأملها فتحكي لك قصة من أمجد قصص الفتوحات يوم انبرى أبطال العرب المسلمين إلى جموع الروم فعلموهم أن العدد والعتاد لا يغنيان شيئًا يوم تتدفق القلوب بالعقيدة الصادقة والهمم العالية والأهداف النبيلة التي أعلاها لا إله إلا الله ثم تتسلسل فيها شعب الإيمان أخلاقًا أحلى من السلسبيل العذب على المهج الظماء. اللهم ارض عن سيدنا شرحبيل بن حسنة وزملائه في معارك فلسطين اللهم واكتب لنا في تلك المشاهد الماجدة الخالدة معركة النصر على اليهود التي نستعيد بها مقدّساتنا رغم بجاحات العدو الجبان وغدراته التي يسخرها في السّاحات ليعود بخزي الدنيا مضروبة عليه الذلة والمسكنة وغضب الله. اللهم أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.



النجاشي ملك الحبشة

هذا الملك الصالح العادل يعدُّ من الصحابة مع أنه لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كُتبتْ له مع صُحبه. وقد أسلم رضي الله عنه وحسن إسلامه وأحسن إلى مهاجري الحبشة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما توفي في حياة رسول الله صلى اللهعليه وسلم شهد له بالإيمان وصلى بالصحابة عليه صلاة الغائب ولم يثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على غائب سواه. وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن الرجل مات في قوم غير مسلمين ولم يبق حوله رجل من مهاجري الحبشة فيصلي عليه لأن الصحابة جميعًا كانوا قد رجعوا من الحبشة إلى المدينة المنورة يوم فتح تبوك وبذلك لم يبق حول النجاشي مسلمون ليصلوا عليه ولهذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصحراء وصلى بالصحابة على النجاشي صلاة الغائب. حدث عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن قول النجاشي لعمرو بن العاص حين قدم له هدية من قريش فاعتبرها النجاشي رشوة وقال لعمرو : ارجع بهديتك فوالله ما أخذ عليّ ربي رشوة حين ردّ عليّ ملكي. والنجاشي يعيد بهذا القول قصة فقدانه لملكه ثم عودته إليه بإرادة الله عزَّ وجلّ. وخلاصة القصة أن النجاشي لم يكن على وفاق مع بطارقته وبعض ذوي المطامع من شعبه. وكان للنجاشي عمٌّ له اثنا عشر ولدًا ولم

يكن لوالد النجاشي إلا ولد واحد هو النجاشي فوثبت الفئة الطامعة على والد النجاشي فقتلوه وولوا عليهم أخاه فنشأ النجاشي يتيمًا يكفله عمه. ولما بلغ أشده واستوى أظهر كفاية في تدبير الملك حتي أحبه عمه وقربه على جميع أبنائه. فلما رأى الطامعون ذلك قالوا والله إنا لنتخوف أن يملّكه فيقتلنا جميعًا بعد أن علم أنا قتلنا أباه فقالوا لوالدهم: إما أنْ تقتل هذا الفتى وإما أن تخرجه من بين أظهرنا فإنا نخاف على أنفسنا منه. فقال لهم عمّه: ويلكم بالأمس قتلتم أباه واليوم تحرضونني على قتله غربوه أنتم عن دياركم. فخرجوا به فباعوه لرجل تاجر بستمائة درهم وفي مساء ذلك اليوم أرسل الله صاعقة قتلت العم فحاول الناس أن يختاروا ملكًا لهم من الاثنى عشر وإذا هم جميعًا حمقى. فاضطروا أن يبايعوا النجاشي حيث استردوه من الذي اشتراه. وعقدوا له التاج ولواء القيادة وبهذا رجع إليه ملكه وإلى هذه القصة يشير النجاشي وهو يكلم عمرو بن العاص حين سلمه الرشوة لكي يغريه بإعادة المسلمين إلى مكة (والله ما أخذ الله مني رشوة حين ردّ عليّ ملكي . ولا أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه) وقصة النجاشي مع مهاجري الحبشة كما رواها مؤرخو السيرة قصة رائعة كلما ذكرت وتكررت تحلو. ونذكرها هنا كما ذكرها الإمام أحمد في مسنده عن أم سلمة وهي من مهاجرات الحبشة رضي الله عنها قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا فيها خير جار هو النجاشي. أمنا في جواره على ديننا. وعبدنا الله تعالى لا نُؤذَى ولا نسمع شيئًا نكرهه فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بنا أن يبعثوا إلى النجاشي رجلين جلدين من الدهاة وأن يرسلوا معهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة. ومن أجود أدَمها. ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلاّ أعدوا له هدية سنية تليق بمقامه وكان الرجلان اللذان وقع عليهما الاختيار هما عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي. فقدما على النجاشي ونحن عنده في أسعد حال ووزعا هدايا البطارقة قبل أن اجتمعا بالنجاشي. فقالا: أيها الملك إنه قد ضوى (أي أوى) إلى ملكك وبلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دينهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا

بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك أشراف قومنا من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إلى ذويهم فهم أعلم بهم وأعلى بهم عينا. وفي الحال أمن البطارقة على كلامهما لأنّ كلّ بطريق كان قد تسلّم هديته فغضب النجاشي من بطارقته وقال: كيف نسلمهم وقد اختاروا جوارنا وكيف نحكم عليهم قبل أن نسألهم ونعرف دينهم وأخلاقهم وكان ذلك الرأي أبغض شيء إلى رسولي قريش.
وفي الحال أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحضروهم في يوم حددوه لهم يتقدمهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه واتفقوا على ألا يقولوا إلا الصدق كما علمهم نبيهم صلى الله عليه وسلم مهما تكن النتائج. ودخلوا على النجاشي والبطارقة حوله وعلمهم أحد الحرس كيف يسجدون للنجاشي إذا صاروا بين يديه. لكنهم حين دخلوا عليه لم يسجدوا كما علمهم كبير الحاشية فلما سألهم: لماذا لم تسجدوا كما علمناكم قال له جعفر بجأش قوي رابط: لقد علمنا رسولنا صلى الله عليه وسلم ألا نسجد إلا لله.

فوقعت هذه الكلمة في قلب الملك وقعًا هائلاً مهيبًا وجميلاً وكبُر الصحابة المسلمون في عين النجاشي فأقبل على جعفر يسأله: ما هذا الدين الذي يقول رسولا قومكم إنكم ابتدعتموه. قال جعفر: إنا كنّا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة. ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فبعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وأمانته وصدقه وعفافه صلى الله عليه وسلم. فدعانا إلى الله لنعبده ونوحِّده ونخلع تلك الأوثان التي لا تضر ولا تنفع. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم. وحسن الجوار والكف عن محارم الله والدماء. ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة. كما أمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فاتبعناه وصدقناه فعذبنا قومنا وقهرونا وظلمونا فجئنا إلى بلدك رغبةً في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك.

فطلب النجاشي من جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليه شيئًا مما عند محمد فقرأ

عليه صدراً من سورة مريم من قوله تعالى : ﴿كهيعص﴾ إلى قوله تعالى ﴿والسَّلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه . إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ فبكى النجاشي وعقلاء البطارقة وقال : هذا وما جاء به عيسى من مشكاة واحدة . وسأل جعفراً عن عيسى بناء على رغبة عمرو بن العاص فقال : أقول ما علمنا رسولنا وقرآننا : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم الطاهرة البتول . فقال النجاشي والله ما كان عيسى إلا الذي قلتم . ثم أمر برد رسولي قريش وهداياهما وإكرام المؤمنين فظل كثير منهم بالحبشة بضع عشرة سنة .

قالت أم سلمة ثم خرج على النجاشي جيش يريد أن يزيله عن ملكه فدعونا كلنا للنجاشي أن ينصره الله فنصره وقالت عائشة رضي الله عنها مازلنا نتلقى من أخبار النجاشي أنَّ المار بقبره في الحبشة يرى عليه نوراً رضي الله عن النجاشي وجزاه عن إنصاف المؤمنين وإيوائهم والإحسان إليهم أكرم الجزاء .



سعد بن معاذ
رضي الله عنه

جاء في سنن النسائي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : جاءني جبريل فقال : من هذا العبد الصالح الذي مات؟ فتحت له أبواب السماء وتحرَّك له العرش فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا سعد بن معاذ فجلس على قبره .

وقال صلى الله عليه وسلم لأم سعد : إن ابنك أول من ضحك الله إليه واهتز له العرش . وجاء في الصحيحين أن الصحابة تعجبوا من حُلَّة وأعجبوا بحسنها فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم «لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة خير من هذه» .

هذا الصحابي الكريم الجليل سعد بن معاذ من بني عبد الأشهل من الأوس أسلم على يد مصعب بن عمير حين قرأ عليه القرآن وكان إسلامه خيرًا وبركة على قومه فقد كان محببًا محترمًا في قومه فلما هداه الله إلى الإسلام وقف على قومه وقال لهم : كيف تعلمون أمري فيكم قالوا : أنت سيدنا فضلاً وأيمننا نقيبة . قال فإن كلامكم علي حرام رجالكم ونسائكم حتى تؤمنوا بالله ورسوله فما بقي في بني عبدالأشهل قوم سعد رجل ولا امرأة إلا وأسلموا .

وكان سعد في الجاهلية صديقًا لأمية بن خلف فنزل سعد في مكة المكرمة ضيفًا على أميّة وحصل بين سعد وأبي جهل مشادة فخاف أمية من سفاهة أبي جهل وأخذ

يقول لسعد اخفض صوتك فأبو الحكم سيد أهل هذا الوادي. فقال سعد والله لا أخفض صوتي ولئن منعتموني من الطَّواف لأقطعنَّ عليكم متجركم بالشام ولتعلما أني سمعت من رسول الله صلي الله عليه وسلم أن مقتل أمية سيكون على يده وظلَّ أمية من ذلك الحين يخاف أن يخرج لقتال محمد لكن خوفه لم يمنعه من قدر الله حين أغراه أبو جهل بالخروج مع المشركين فقتل أميَّة وقتل أبو جهل معًا. وقد كتب الله عزَّ وجل لسعد بن معاذ أن ينال الشهادة فقد رماه أحد الكفار من مشركي قريش بسهم في عاتقه فقطع عرقًا يقال له الأكحل ثم انفجر الجرح بعد ذلك بأيام فكان سببًا في استشهاده لكن بعد أن شفى الله غليله من قريش ومن يهود بني قريظة لأنه هو الذي أصدر على اليهود حكم القتل وقال له عندئذ رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد نزل حكمك هذا من فوق سبع سموات وكان رضي الله عنه في الهيجاء أسدًا مشهود الهجوم وكان في بدر وأحُد معروف المكانة ثم كان استشهاده في أعقاب غزوة الأحزاب ومع أنه توفي شابًا في السَّابعة والثلاثين فقد كتب الله على يديه مصرع بني قريظة كما أقرَّ عينه بهزيمة الأحزاب وقد توفي ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعانقه ودمه يتفجر من جرحه على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد حزن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما سمع والدة سعد تندبه ببيت شعر لم ينكر عليها ذلك بل قال كل باكية قد تكذب إلا أمَّ سعد. وكان سعد رحمه الله عظيم الجسم أبيض ذا مهابة تحسُّ بها عند أول نظرة إليه ومع ضخامة جسمه حمله الصحابة يوم وفاته وإذا هو خفيف فلما أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال كيف لا يكون خفيفًا وقد حملته معكم الملائكة ؟ وروي أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أتى سعدًا بن معاذ وقد انفجر جرحه وغاب عن الوعي فقال عليه الصلاة والسلام (اللهم إن سعدًا قد جاهد في سبيلك وصدّق رسولك وقضى الذي عليه فتقبل روحه بخير ما تقبلت به روحًا). فلما سمع سعد دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت روحه وفتح عينيه وقال: السلام عليك يارسول الله.

إني أشهد أنك رسول الله. ودخل مرة على سعد وهو يجود بنفسه فقال له: جزاك الله خيرًا من سيِّد قوم. لقد أنجزت ما وعدته، ولينجزنك الله ما وعدك وجاء أن أحد الصحابة الذين اشتركوا في حفر القبر لسعد بن معاذ بالبقيع قال: كان يفوح علينا المسك كلما حفرنا حتى انتهينا إلى اللحد. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر ضمة القبر وشدّتها ويقول: لو نجا أحدٌ من ضمة القبر لنجا منها سعد بن معاذ. وكان أسعد بن زرارة رضي الله عنه ابن خالة سعد بن مُعاذ وأسعدُ هذا هو أول من أسلم بمكة وهو يحضر الموسم حين عرَّج عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه خمسة من الأوس فكلمهم في الإسلام فأسلموا وكانوا نواة الإسلام في المدينة. وفي اهتزاز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ يقول أحد شعراء الأوس:

وما اهتزَّ عرشُ الله من موت هالك ... سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو

وفي سنن النسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يذكر سعدًا بن معاذ هذا العبد الصالح الذي تحرَّك له العرش وفتحت أبواب السماء وشهده سبعون ألفًا من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك. لقد ضُمَّ ضَمَّة ثم أفرج عنه. وعلى هذا الحديث علق الذهبي رحمه الله فقال: كأنك ياهذا تظُن أن الفائز لا يناله هول في الدارين ولا روع ولا ألمٌ ولا خوف اسأل ربك العافية وأن يحشرنا في زمرة سعد بن معاذ. لقد كان سعد بن معاذ من سادة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان سيد قومه وأسرعهم إلى الإسلام وكتبت له الشهادة وأراح المسلمين من غَدَرات بني قريظة وكان بدريًا عظيم البلاء حتى لقد قالت عائشة رضي الله عنها ما كان أحد أشدَّ فقدًا على المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه من سعد بن معاذ. وبعد فإن أحاديث الصفات يأخذها المؤمن بالتصديق المطلق دونما تساؤلات فلا يذهبن الشيطان بالعبد بعيدًا حول هذا الحديث الثابت الصحيح وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة مات سعد بن معاذ لقد اهتز عرش الرحمن لوفاة سعد بن معاذ. على المؤمن أن يعتقد أن العرش خلقٌ عظيم من خلق الرحمن وهو مسخَّرٌ

لقدرة الله وإرادته فإن أراده أن يهتز فإنه يهتز بأمر الله وحين أمر الله الجبال أن تؤوب مع داود استجابت وهو جلّ جلاله القائل في محكم كتابه ﴿تسبح له السموات السبع والأرض. ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليمًا غفورًا﴾ وقد جاء في صحيح البخاري قول ابن مسعود كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. والحقُّ أن أحاديث الصفات من أعظم اختبارات الإيمان والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذّكر إلا أولو الألباب وحين سُئل أحد الراسخين في العلم عن قوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ قال الاستواء معلوم والكيف مجهول والسُّؤال عنه بدعة وإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفاة سعد بن معاذ (فتحت له أبواب السماء) وقال وجنازة سعد موضوعه «اهتز لها عرش الرحمن فما يجوز تأويل القول إلا أنه الاهتزاز المعلوم دون بحث عن الكيف لأن التساؤل المتمحل يقود إلى الأمور المنهي عنها من التشبيه والتمثيل والتعطيل فتزل القدم نحو الشرك. والله نسأل أن يثبت قلوبنا وإياكم على حقيقة الإيمان والدِّين الخالص وسلام على سيد الأوس وحامل لوائهم سعد بن معاذ مجاهدًا في الله داعيًا إلى مرضاته يبذل كل غال لإعلاء كلمة الله.



سلمة بن الأكوع

إذا ذكر الصحابي الجليل سلمة بن الأكوع الأسلمي رضي الله عنه ذُكرت له موهبتان عظيمتان هما الرماية والعَدو. كان رضي الله عنه إذا ركض لا يُسبق وإذا رمى لا يخطىء وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتدبه لعظائم الأمور ويبدو أنه رضي الله عنه أسلم بعد الخندق وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات منها غزوة الحديبية فكان رضي الله عنه من أهل بيعة الرضوان وهي البيعة التي بايع فيها أهل الحديبية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طالت غيبة عثمان رضي الله عنه في مكةبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على القتال حتى الموت وعلى ألا تأخذهم في الله لومة لائم وحسبُك من سيرة هذا البطل الجريء أنه كان جيشًا وحده في غزوة ذي قُرَد حيث أذاق جيش المشركين الويلات وصمد لهم وحده حتى تنبه الصحابة واجتمعوا وعندئذ هربت فلول المشركين وكتب الله نصر المسلمين على يد سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ولنترك سلمة نفسه رضي الله عنه يحدّثنا عن تلك الغزوة .

كانت قبيلة غطفان تشكل خطراً شديداً على المدينة المنوَّرة وكان عليها زعيم من المؤلفة قلوبهم هو عيينة بن حصن الفزاري كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحاول أن يتألفه لكنه كان شديد المراس قوي الشكيمة فلما رأى ما حققه رسول الله

صلى الله عليه وسلم من مكاسب في الحديبية ورأى استعداده لغزو خيبر حيث مغانم كثيرة تنتظر المسلمين أراد أن ينغص على المسلمين فهاجم المدينة المنوَّرة في غارة مفاجئة هو وابنه عبد الرحمن وانقض عبد الرحمن على إبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل راعيها وسبى زوجته وكان من فرسانه مسعدة الفزاري الذي قتل الفارس المسلم محرزا بن نضلة قال سلمة رضي الله عنه واعتقدت غطفان أنها ستنهب إبل النبي ثم تفرُّ بها قبل أن ينتبه لها أحد وزين لهم الشيطان ظنونهم لكني كنت أول من نذر بهم وأطلُّ عليهم وإذا خيل غطفان وعليها فرسانهم فقمت أوَّلاً على ربوة وصَرخت بأعلى صوتي واصباحاه واصباحاه واتبعت القوم وحدي ركضًا على قدمي فواجهتهم وعقرت بهم وكنت كلما كثر الشجر بيني وبينهم أسدد إليهم سهامي وأصيح خذها وأنا ابن الأكوع واليومُ يومُ الرُّضع (يعني يوم الذعْر) حتى أذقتهم العذاب الشديد وكلما لحقوني فررت منهم حتى إذا أجهدتهم رجعت إليهم وأرشقهم بالنبال وأقول خذها وأنا ابن الأكوع حتى طردتهم عن كثير من الإبل وعن أسلحتهم ولم يزل ذلك شأني وشأنهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحًا وأكثر من ثلاثين بردة يستخفُّون منها وحصرتهم في ثنية ضيقة وعلوت من فوقهم الجبل وهم يحاولون إدراكي فلا يستطيعون حتى إذا ارتفع الضحى أتاهم زعيمهم عيينة نجدة لهم وقد أخذ منهم الجهد فرشقتهم بسهامي وهو بينهمفقال أحد القوم: هذالقينا منه في صباحنا البرح والمصائب ونحن لا نستطيع اللحاق به ولا تجنّب نباله فما فارقنا منذ السحر حتى أخذ كلَّ ما بأيدينا فقال عيينة لولا أنه يعلم أن وراءه طلبًا لتركَكم ليقم إليه نفر منكم ليقتلوه فصعد إليَّ أربعة من فرسانهم فصحتُ فيهم والله الذي أكرم وجه محمد لا يطلبني رجل منكم فيستطيع إدراكي ولا أطلبُ رجلاً منكم فيفوتني أنا ابن الأكوع وانقضضت على رجل منهم فرميته وأنا أقول له خذها وأنا ابن الأكوع فصاح من الرعب ابن الأكوع مُنذ الغداة قلت له نعم ياعدو نفسه فلما رشقته علق به سهمان سهم الغداة وهذا السَّهم وأخذت بعنان فرسين ونظرت إلى

غطفان حول ماء يقال له ذو قُرَد فما زلت أرشقهم حتى حلأتهم عن الماء أي طردتهم . فاقترب جيش المسلمين وانتشروا بين الشجر فكان أول من وصل منهم محرز بن نضلة حيث نازله عبد الرحمن بن عيينة الفزاري فقتل محرزًا رضي الله عنه ثم انقض أبو قتادة على عبد الرحمن فقتله وفرَّ القوم وأصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُسلِّمه الفرسين واقترحت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعقب القوم فقال لي إنهم الآن قد وصلوا حيهم ويَقْريهم أحدهم ولكن اجلس وكل وإذا بلال قد نحر جزوراً مما خَلَّفوا فهو يشوي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمني عليه الصلاة والسَّلام ولما أصبحنا قال النبي الكريم خير فرساننا أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع وقسم لي رسول الله سهم الفارس والراجل ثم أردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة فلما كان بيننا وبين المدينة ضحوة إذا رجل من المسلمين يقوم بمسابقات فلا يسابق رجلاً إلا سبقه . ثم نادى من يسابقني إلى المدينة . فقلت له ويحك لا تكرم كريمًا ولا شريفًا ؟ فقال إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن شئت فانزل لمسابقتي فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أسابقه لأكفَّ من غَربه فأذن لي عليه الصلاة والسلام فقلت له انطلق أولاً حتى تركت بيني وبينه مقدار شرفين أو ثلاثة ثم انطلقت خلفه كالريح حتى أدركته فصككْتُه بين كتفيه وقلت له هذا أنت . فضحك وظلَّ ساكتًا لا يتحدَّى حتى دخلنا المدينة وظل سلمة رضي الله عنه ملازمًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته فشهد غزوة حنين وكان يحدّث ويقول بيتنا قبيلة هوازن يوم حنين فقتلت بيدي تلك الليلة سبعة من رجالهم واستمر رضي الله عنه محدثًا بحديث رسول الله بعد وفاة النبي وحدث عبد الرحمن بن رزين أنه قابل سلمة رضي الله عنه بالربَّذة في بلاد الشام قال فأرانا يده ، وإذا هي ضخمة لشدَّة ما جالدت في سبيل الله فقال لقد بايعت بيدي هذه رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعته بيعة الرضوان على الموت في سبيل الله قال عبد الرحمن فأقبلنا نقبل يده رضي الله عنه ولقد كان سلمة رضي الله عنه

مقبولاً ومباركًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان يقدر بلاءه في الجهاد وما تحمله في سبيل الله قال رضي الله عنه: أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً ومسح على وجهي مراراً واستغفر لي مراراً عدد ما في يدي من الأصابع وقد عمر رضي الله عنه وظل يفتي بعد مقتل عثمان رضي الله عنه حتى توفي سنة أربع وسبعين بعد أن نيَّف على تسعين سنة. قضاها بين مجاهد في سبيل الله ومحدِّث عن رسول الله ومُفت على علم بدين الله رحم الله سلمة بن الأكوع محبًا للإسلام مضحيًا لأجله باذلاً روحه لنصرة رسول الله رحم الله سلمة وهو يهاجم وحده جيشًا للمشركين فيهزمهم راكضًا على قدميه ينضحهم بنباله عن إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلمهم أن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم محروسة بأبطال الإسلام لا تؤخذ على غرَّة ولو باغتها صناديد الشرك وأقطاب القبائل.



أبي طلحة الأنصاري
رضي الله عنه

هذه المواقف البطولية جمعتها من سيرة صحابي جليل هو أبو طلحة الأنصاري صاحب المواقف المشهودة في افتداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو زيد بن سهل الخزرجي أكرمه الله فكان من السابقين الأولين للإسلام. وكان الصحابي الجليل أنس بن مالك ربيبًا لأبي طلحة وروى أن أبا طلحة منذ مات رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرَد الصوم أي صام صومًا متصلاً لا يكاد يفطر إلا في يوم عيد أو نحوه.

وكان يرى أن الصائم إذا بلع البَرَدَ لا يفسد صومه لأن البَرَد ليس بطعام ولا شراب وهذا اجتهادٌ من أبي طلحة والجمهور على خلاف ذلك وهذا الأمر جاء في حديث رواه الإمام أحمد من حديث لأنس قال مُطرنا بردًا وأبو طلحة صائم فجعل يأكل منه قيل له أتأكل وأنت صائم فقال : إنما هذا بركة. ولأبي طلحة رضي الله عنه مواقف ومناقب واستجابة لأمر الله ورسوله وقد شهد العقبة وكان نقيبًا من نقبائها وكان يُحلُّ شرب الطِّلا وهو ما طبخ من العنب حتى يذهب ثلثاه وقد شربه هو ومعاذ وأبو عبيدة وعلم عمر أنه لا يسكر فأحله لهم. وكان يرى أن الجهاد فرض على الشباب وعلى الشيوخ ويقرأ في ذلك قوله تعالى من سورة التوبة ﴿انفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم

تعلمون﴾ ولهذا استمر يجاهد بلا كلل وقد جاء في حديث أنس أن أبا طلحة قال له بنوه قد غزوت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر وعمر ونحن نغزو عنك فاسترح فأبى وغزا في البحر فمات. وقد تزوج أبو طلحة أم سُليم رضي الله عنهما واشترطت عليه مهراً أن يُسْلِم فكان مهر أم سليم أبرك المهور وأي مهر أجلُّ من الإسلام. ومن مناقبه رضي الله عنه أنه حين خرج غازيًا في البحر مات في السفينة فلم يجدوا له مكانًا يدفنونه فيه فانتظروا ستة أيام حتى وجدوا له في اليوم السَّابع مكانًا ولم يتغير طول تلك المدة فوجدوه كما هو. وقد حصلت له ولأم سليم مواقف كانت من نبع إيمانهما فقد كان لهما غلام كبر حتى بدت منه نجابة وفي يوم مرِض الصبيُّ ثم اشتد عليه المرض وكان أبوه يسأل عنه كلما جاء إلى البيت وفي إحدى غيباته مات الولد فسجته أم سليم في زاوية من البيت ولما حضر أبوه أبوطلحة سأل أول شيء عن الصبي فكتمت عنه أم طلحة الخبر ثم تناست الأمر وتصنعت لزوجها فكان بينهما ما يكون بين المرء وزوجه ثم قالت له إن الله كان أعارك عارية فقبضها فاحتسب ابنك ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان من أم سليم إزاء أبي طلحة دعا لهما وقال: اللهم بارك لهما في ليلتهما. فكان أن أنجبت أم سليم لأبي طلحة ولداً براً عرف بشدة بره لوالديه حتى لقد لقبه أهل زمانه ريحانة الصحابة. وقد حدث أبو طلحة أن يوم بدر كان يومًا عظيمًا وقد دخل كثيرٌ من المؤمنين القتال وإن كثيراً منهم لكارهون إذ كانوا يحبُّون لو تتاح لهم القافلة غنيمة لكن الله أراد أن يحق الحقَّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون وأراد الله أن يرفع معنوية المؤمنين في المعركة فبشرهم بنصرة الملائكة لهم ثم غشَّاهم النعاس أمنة منه حتى إن بعضهم أصابته في منامه جنابة فأنزل الله عليهم من السماء ماء ليطهرهم به ويذهب عنهم رجز الشيطان وليربط على قلوبهم ويثبت به الأقدام. وقد روى أبو طلحة رضي الله عنه يوم أحد موقفًا له في غاية الثبات فقد كان يرمي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رضي

الله عنه راميًا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رمى أبو طلحة رفع بصره إلى السماء ينظر أين يقع سهمه وكان يدفع صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم وراءه ويقول يارسول الله هكذا . . . لا يصيبك سهم . ولما انهزم الناس وانشغلوا عن رسول الله ونَفَذ إليه المشركون كان يمرّ الرجل ومعه الجعبة من النبل فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم انثرها لأبي طلحة ثم يطل على القوم فيقول له أبو طلحة بأبي أنت وأمّي يارسول الله لا تشرف لا يصيبكَ سهم نحري دون نحرك وكانت أمنا عائشة وأم سليم رضي الله عنهما تحملان القرب على ظهريهما وتفرغان الماء في أفواه المجاهدين ثم ترجعان فتملآنهما . ومع شدّة الموقف فقد ثبت الله الأقدام حتى لقد وقع سيف أبي طلحة من يده مرارًا لشدة النعاس ولقد أنعم الله على أبي طلحة بصوت جهوري كالرعد كان يستعمله في الروع فيخوف المشركين حتى لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (صوت أبي طلحة في الجيش خيرٌ من فئة) وكان إذا اشتد الخطر من فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم جثا بين يديه ليحرسه من وقع السهام ويقول : (نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء) وفي يوم حنين أبلى أبو طلحة بلاءً حسنًا فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يحفز المسلمين ببعض الحوافز فقال : من قتل قتيلاً فله سلبه • فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين قتيلاً وغنم أسلابهم وينظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي طلحة وهو يزأر فيقول : (لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل) .

هذا ولأبي طلحة رضي الله عنه موقف يدلُّ على عظمة إيمانه بالله ورسوله وقرآنه العظيم وعلى تدبره وفهمه للقرآن المجيد فقد نزل قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ قرأها أبو طلحة كما قرأها كثير من أصحاب رسول الله لكن أبا طلحة رضي الله عنه تدبرها فوجد أن مقياس الإيمان هو أن ينفق العبد من أعزّ ماله إيثارًا لما عند الله وانتظارًا لمثوبته وكان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً ونخيلاً فلما نزل قوله

تعالي ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبُّون﴾ جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إن أحبّ أموالي إليّ بيرحاء وإنها صدقة لله فضعها يارسول الله حيث أراك الله فقال صلى الله عليه وسلم (بخ !! ذلك مال رابح وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فجعلها أبو طلحة في أقاربه وكان ينال حسَّان بن ثابت منها نصيب لقرب قرابته من أبي طلحة رضي الله عنهما. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ أبا طلحة الأنصاري ويدعو له ولأسرته المباركة الكريمة وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حلق شقَّ رأسه فوزع الشَّعْر على الناس. ثم حلق شقه الآخر فأعطاه أبا طلحة. وكان رضي الله عنه قوي البنية جلْدًا على الجهاد قوي الصوت مربوعًا لا يغير شيبه ومات رضي الله عنه في خلافة معاوية بعد عمر مبارك والرواية الصحيحة في وفاته أنه بعد أن غزا في البحر عاد إلى المدينة وتوفي فصلى عليه عثمان رضي الله عنه وكان رضي الله عنه من المحدّثين وله في كتب السنة أحاديث منها حديثان في كل من الصحيحين وحديث تفرد به البخاري وآخر تفرد به مسلم أما الأحاديث التي رواها أبو طلحة في كتب السُّنن فهي قرابة عشرين حديثًا. رضي الله عن أبي طلحة وزوجه أم سليم وأسرته المباركة رضي الله عنهم أحباء لرسول الله صلى الله عليه وسلم مضحين من أجله يفتدونه بأرواحهم وأجسادهم وسلام عليه في أهل القدوات الخالدة والمآثر الماجدة .



سعيد بن زيد رضي الله عنه

هذا الصحابي الجليل هو من العشرة المبشرين بالجنَّة وهو ابن عمّ أمير المؤمنين عمر وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب والعشرة المبشرون بالجنة هم الخلفاء الراشدون الأربعة يضاف إليهم طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل الذي نحن بصدد سيرته . وهو من السَّابقين الأولين إلى الإسلام فقد أسلم هو وزوجته فاطمة مبكرين وقاسى في سبيل الله كثيرًا ويبدو أن أكثر الأذى كان يناله من سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان قد نصب من نفسه مؤدبًا لكل من يسلمُ من آل الخطاب وقد جاء في قصة إسلام عمر أنه رضي الله عنه تعرَّض لأحد المسلمين يريد أن يضربه على إسلامه فقال الرجل قبل أن تضربني انظر ختنك وأختك اللذين أسلما وسعدا بإسلامهما منذ وقت طويل فترك عمر الرجل وانطلق مسرعًا إلى دار صهره سعيد حيث وجده وفاطمة يقرآن القرآن فانقض على زوجها وشج وجهه ثم انقض على فاطمة فضربها وكان عندهما خبّاب يقرئهما القرآن فاختفي خوفًا من بطش عمر وكان عمر رضي الله عنه في مطلع البعثة عنيدًا شديد المقاومة للإسلام حتى لقد كان أهله يائسين من إسلامه . مرَّ مرة على إحدى قريباته فوجدها قد جمعت متاعها فقال لها إلى أين قالت إلى الحبشة نفر من وجهك ومن أمثالك فبدا عليه التأثر رضي الله عنه وقال لها

صحبتكم السَّلامة وقدم زوجها فقالت له أبشر فقد وجدت في قلب عمر بن الخطاب رقة للإسلام فقال لها زوجها والله لأن يسلم حمار الخطاب أقربُ من أن يسلم عمر بن الخطاب لكن الله حقق فراسة السيدة المسلمة ولم يخرج عمر من بيت صهره وأخته إلا وقد أسلم وأعزَّ الله به الإسلام استجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد نشأ سعيد بن زيد رضي الله عنه في بيت كريم يفوح فيه شذا الإيمان فقد كان أبوه زيد بن عمرو بن نفيل ينكر عبادة الأصنام وعادات الجاهلية من وأد البنات وشرب الخمر وقد سافر إلى الشام ليقابل رهبان النصارى ويلتمس لديهم صفاء التوحيد فخاب فيهم ظنه لأنه رآهم يعبدون المسيح ويشركونه بالله فعاد من الشام وهو يقول أنا على دين إبراهيم ووصل إلى مكة فانضم إلى أمثاله من الحنفاء من أمثال ورقة بن نوفل على أنه لم يلبث أن مات على تلك الفطرة قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابنه سعيد يارسول الله ادعُ لوالدي لأنه مات مؤمنًا فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لابنه سعيد إن أباك يُبعثُ أمَّة وحدهُ ويعني بذلك أنه اهتدى إلى الإيمان مع أنه لم يجد من أهل زمانه من يفصل له أمور الدين وأحكامه . وأسلم سعيد بن زيد كما قلنا مبكرًا ولربما كان الخامس عشر في ترتيبه بين السَّابقين الأولين وقد شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم بدرًا والمشاهد البطولية فكان من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه . وقد أشاد النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الأسرة المباركة الفاضلة فقال دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين .

وقد روي لزيد والد سعيد شعر يدُلُّ على إيمانه في الجاهلية ومنه هذه الأبيات :

وأسلمت وجهي لمن أسلمتْ ... له المزنُ تحملُ عذبًا زلالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرًا ثقالا

دحاها فلما استوت شدّها ... سواءً وأرسى عليها الجبالا

وقرأنا أن ورقة بن نوفل رثى زيداً أبا سعيد بهذه الأبيات :

رشدت وأنعمتَ ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك ربًا ليس ربٌ كمثله ... وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وإدراكك الدين الذي قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربِّك سَاهيا
فأصبحت في دار كريم مقامها ... تعلَّل فيها بالكرامة لاهيا
وقد تدرك الإنسان رحمةُ ربه ... ولو كان تحت الأرض خمسين واديًا

ويعدُّ سعيد بن زيد من البدريين لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلَّفه بمأمورية تتعلق بالقتال فتساحلت القافلة وتأخر سعيدٌ عن شهود القتال وكان سعيد رضي الله عنه يصف عذابه على يدي عمر فيقول : لقد رأيتني وإن عمر لموثقي على الإسلام وأخته . ومن كرامات سعيد بن زيد أن امرأة ادعت أن سعيد بن زيد ظلمها في أرض زعمت أنه أخذها منها فقال سعيد أنا أظلمها وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أخذ شيئًا من الأرض طُوِّقَه إلى سبع أرضين ثم دعا عليها فقال اللهم إن كانت كاذبة بعد هذه فأعم بصرها واقتلها في أرضها فما ماتت حتى عميت وسقطت في حفرة في أرضها فماتت . ولم يوص عمر لسعيد أن يكون أحد المرشحين للخلافة لأن تلك كانت سياسته في قرابته . وقد مات سعيد رضي الله عنه بعد أن جاوز السبعين وطيبه ابن عمر بالمسك وغسله سعد بن أبي وقاص ونزل معه هو وابن عمر في حفرته يودعان جَسَدًا شريفًا عاش مجاهداً لتكون كلمة الله هي العليا .

وبالمناسبة فإن على المؤمن أن يؤمن أن الذين بشرَّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة كالعشرة الكرام البررة الذين ذكرنا منهم سعيد بن زيد وكبلال وآل ياسر الذين مرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم عليه الصلاة والسلام صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنَّة وكعكاشة بن محصن الذي بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ممن يدخلون الجنَّة بغير حساب وكجميع من لهم بشائر في كتب

السيرة المعتمدة أنهم من أهل الجنة ثـم أولئك الأخيار من المهاجرين والأنصار الذين دعـا لهم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم بالجنة كـحـذيفـة بن اليـمـان ليلة هزيمة الأحزاب .

أقول : على المؤمن أن يعتقد أنَّ هؤلاء وأمثالهم هم إن شاء الله من أهل الجنَّة لأن من نهج أهل السنة والجماعة أن يؤمنوا بكل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحيحة فرسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحَى إليه. نسأل الله جل جلاله أن يرزقنا خلوص الدين وصدق اليقين وأن يجعلنا ممن زكت بالتوحيد نفوسهم وصفت بالإخلاص أعمالهم لنكون كما أمر الله المؤمنين بأمره العظيم : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حُنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ .



سلمان الفارسي
رضي الله عنه

الصحابي الجليل سيدُنا سلمان الفارسي رضي الله عنه له قصة طريفة جميلة فيها عبرٌ جليلة ومواقف نبيلة قصةٌ عنوانها (الباحث عن الحق) رواها سيدنا سلمان نفسه وإني ملخصها للإخوة القارئين لعل الله ينفعهم بها فيدعوا لي بحسن المآب ويدعوا لوالدي بجزيل الثَّواب .

فتح سلمان عينه فوجد نفسه في قرية صغيرة من قرى أصبهان يقال لها جيّ وجد نفسه في أحضان النعمة طفلاً مترفًا يوفّر له أبوه كلّ ما يطلب إذ كان أبوه رئيس الدين وموقد النار وكان سلمان على ما يبدو وحيد والديه فكان أبوه يحافظ عليه. وقد بلغ من حبّ أبيه له أنه حبسه في البيت كما تحبس الجارية وكم كانت فرحة أبيه حين رأى سلمان مجتهدًا في دين المجوسية يوقد النار ولا يتركها تنطفىء ولو ساعة ويبدو أن سلمان رضي الله عنه لم يكن راضيًا عن المجوسية وأن عبادة النار لم تكن لها وقع في نفسه وكان يتمنى لو يخالط الناس ويخلُصُ من حصار أبيه له في البيت ويبدو أن الفرصة سنحت له ذات مرَّة إذ خَرَج أبوه في عمل له إلى قرية مجاورة وأوصى سلمان أن يرعى شئون ضيعة لهم ووجدها سلمان فُرصة أن يذهب إلى الضيعة لأول مَرَّة وإذا كنيسة في طريق الضيعة تنبعث منها أصوات تردّد صلوات من الإنجيل فطرب سلمان للكلم الطيب وشغلته تلك الصلاة فلم يعد من الكنيسة إلى

الغروب ولم يهتم بضيعة أبيه بل كان كلُّ همه أن يعرف أين أصْلُ دين النصارى فعلم أن المركز الرئيسي لذلك الدين في الشام ولما عاد أبوه علم أن سلمان أعجب بدين النصارى فغضب وحبسه في البيت وجعل في رجليه قيوداً لكنَّ سلمان ظلَّ على صلة بالنصارى حتى إذا قدمت قافلة من تجار النصارى وعلم أنهم من الشام احتال فألقى أغلاله وهرب مع القافلة العائدة إلى الشام حيث تفرَّغ لملازمة أهل الدين. وهناك اتصل بكبير الأساقفة النصارى بالشام وعمل في خدمته فتكشفت له رضي الله عنه من أخلاق الأسقف أمور فظيعة فقد كان يكنز الذهب والفضة التي يجمعها من الناس باسم الدين حتى اجتمعت عنده كنوز كبيرة ولم يلاحظ سلمان على الأسقف أنه يهتم بأمور دينه إلا بمقدار ما يجمع الثروة الحرام فلم يسع سلمان إلا أن يخبر الأساقفة عن تصرُّفات الأسقف الكبير ثم أطلعهم على كنوزه المدَّخرة فاغتاظوا وقتلوا الأسقف وصلبوه ورموه بالحجارة ثم جاءوا بأسقف آخر فنصَّبوه في مكان الأول وإذا هو رجل زاهد صالح قال سلمان ما رأيت أجمل أخلاقًا منه فلزمته حتى إذا حضرته الوفاة وصَّاني أن أرحل إلى رجل صالح بالموصل ورحلت إليه فوجدته على خير حال من مخافة الله وتقواه فلازمته أخدمه حتى إذا حضرته الوفاة أحالني إلى قسيس صالح بنصيبين فلازمته وخدمته ولما حانت وفاته دلني على أسقف بعمورية وإذا هذا الأسقف عالمٌ بكتب الله فلما حضرته الوفاة قال لي ياسلمان : لقد أظَلَّنا في هذه الأيام زمان نبي يبعث من العرب مُهاجَرُه بين حرَّتين إلى أرض سبخة ذات نخل فارحل ياولدي إليه فشريعته هي الحق واعلم أن له ثلاث علائم ظاهرة : أنه لا يأكل الصدقة لكنه يقبل الهدية ويؤاكل منها أصحابه والثالثة أن في كتفه خاتم النبوة . قال سلمان ومكثت أترصد قوافل العرب العائدة بتجارة إلى الشام فمرَّ بي تجار من قبيلة كلب وكانت قبيلة نصرانية من قبائل اليمن فأعطيتهم غُنيمة لي وبقرات في مقابل أن يدلوني ويحملوني معهم إلى الحجاز فلما وصلوا إلى وادي القرى خانوني وباعوني عبداً من رجل يهودي بوادي القُرى ثم قدم رجل

من يهود بني قريظة فاشتراني وحملني إلى المدينة حيث رأيت النخل وطمعت أن يكون هذا هو البلد الذي يهاجر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان اليهودي لا يخبرني عن شيء من أمور ما يحيط به من الدنيا فلم أعلم ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصل من مكة إلى قباء. قال سلمان وكنت أطلق سمعي لما يتردد حولي وإذا يهودي يُسَارُّ صاحبي ويقول له قاتل الله بني قيلة (يعني الأنصار) جاءهم رجل من مكة يزعم أنه نبي فاستقبلوه بالترحاب فاقتربت وقلت ما الخبر فلكمني اليهودي لكمة وقال ما شأنك بهذا عُدْ إلى عملك قال سلمان : لكني لم أعدْ أخشَى اليهودي فلما انتهى عملي بالنهار ذهبت بالليل إلى رسول الله ومعي بعض الطعام فأقبلت على النبي صلى الله عليه وسلم وقدمت إليه الطعام وقلت هذا صدقة تصدق بها رجل علي فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذوقه ثم جئته في اليوم التالي بطعام وقلت له هذا هدية فقبله وأكل هو وأصحابه منه ثم ظللت أسير خلفه حتى انحسر ذات يوم رداؤه وإذا خاتم النبوة في كتفه وحينئذ أحسست أن ربي أوصلني إلى نبي الهدى والحق فأخذتني رعدة وبكيت من الفرح ثم قصصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قصتي فسربي رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب أن أعيد قصتي على الصحابة. وظلّ سلمان في رق اليهودي ففاته أن يجاهد في بدر وأحد ثم كاتب سلمان اليهودي أن يعتقه في مقابل أن يحيي له ثلاثمائة نخلة ويدفع له أربعين أوقية من الذهب فساعدني الأنصار بالفسائل وغرس معي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض النخل بيده الكريمة حتي أنجزت غرس النخلات الثلاثمائة وأعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعة من الذهب في حجم البيضة وفيت منها اليهودي حقه وأصبحت بفضل الله حُرًّا. وحضرت مع رسول الله الخندق ثم لم يفتني مُنذئذ أي مشهد من المشاهد. وشرَّف الله سلمان رضي الله عنه بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت صحبة مفيدة حقًا حتى لقد كان سلمان ممن يُؤخذ رأيهم في عظائم الأمور وكان سلمان رضي الله عنه هو الذي أشار

على النبي صلى الله عليه وسلم أن يحفر الخندق واشترك رضي الله عنه في حفره فصدَّ الله به خيل المشركين التي حاولت استباحة المدينة ﴿وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزا﴾ وظلّ سلمان صاحبًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان محلّ تقديره لما لقيه في الله من عناء.
ولما نزل قوله تعالى في سورة محمد: ﴿وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ قال الصحابةُ مَن هؤلاء يارسول الله فضرب على فخذ سلمان ثم قال: (هذا وقومه) لو كان الدين عند الثريًا لتناوله رجال من الفرس وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (التمسوا العلم عند أربعة أبي الدرداء وسلمان وابن مسعود وعبد الله بن سلام) ويبدو أن الحديث يتعلق بغير علماء قريش. وكان رضي الله عنه ماهراً في صناعة الخوص يشتري خوصًا بدرهم فإذا صنعه باعه بأربعة دراهم ولما مات رضي الله عنه كانت تركته قرابة عشرين درهمًا وكان آسفًا لأنه تركها ويردد في ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليكن بلاغ أحدكم في الدنيا كزاد الراكب) وفي يوم وفاته دعا زوجته وكان اسمها بُقيرة وكان في عُلِّيَّة لها أربعة أبواب فقال لها افتحي هذه الأبواب فإن لي زواراً لا أدري من أي هذه الأبواب يدخلون عليّ ثم دعا بمسك فقال ذوبيه في تور فمات رضي الله عنه وأنا أذوفُه وتوفي رضي الله عنه بالمدائن في خلافة عثمان وما قيل إنه عاش أكثر من ثلاثمائة سنة فهو حديث خرافة والحق أنه رضي الله عنه جاوز السبعين رضي الله عنه مهاجراً إلى الله بحث عن حقيقة الإيمان حتى وصل إليها ونال شرف الصحبة حتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (سلمان منّا آل البيت).



عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

الإمام المحدِّث القدوة عبد الله بن مسعود كان مغتربًا في قريش. ولم يكن من قريش نفسها لكنه كان له ولاء في بني زهرة وهو من قبيلة هذيل وقد رفع الله قدره بالقرآن حتى لقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد يعني عبد الله بن مسعود وحدث عبد الله بن مسعود عن سبقه في الإسلام فقال أخذت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة أحكمتها قبل أن يسلم زيد بن ثابت وكنت أتلوها وزيد له ذؤابتان يلعب مع الصبيان وحسبك بإمام هو أسبق في قراءة القرآن من زيد بن ثابت رضي الله عنه وظل عبدالله في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعهَّد وساده وسواكه ونعليه وأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرفع حجابه ويسمع سراره مالم ينهه عن ذلك. وبلغ من حُظْوته عند النبي الكريم أن قال فيه إن ابن أم عبد من المحظوظين من أمتي وهو أقربهم وسيلةً إلى الله يوم القيامة. وكان مرَّة يجني لرسول الله صلى الله عليه وسلم سواكًا من الأراك فانكشفت ساقه فضحك الصحابة لدقة ساقه فقال النبي صلى الله عليه وسلم وما يضحككم والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد وشهد له أبو موسى وأبو مسعود البدري أن ابن مسعود كان يؤذن له إذا حجب الأصحاب ويشهد إذا غابوا. وقال فيه عليٌّ رضي الله عنه عبد الله بن مسعود قرأ

القرآن ووقف عنده وكفي به. وكان عبد الله يقول إن الشيطان ليخرج من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة. إنما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره ومن أقواله رضي الله عنه شرُّ العمى عمى القلب وشرُّ الضلالة ما كان بعد الهدي وخير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى والخمر جماعُ كل إثم والنساء حبائل الشيطان والشباب شعبة من الجنون وأشرف الموت قتلة الشهداء. أسلم رضي الله عنه في السَّابقين حتى لقد روي أنه كان سادس ستة دخلوا الإسلام ما كان على الأرض غيرهم وحدث عن قصة إسلامه فقال: قدمت مكة مع عمومة لي فأردنا شراء عطر فدلّونا على العباس بن عبد المطلب فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم وبينما نحن عنده إذ أقبل رجل كأتمِّ ما يكون الرجال كأنه القمر ليلة البدر يمشي على يمينه غلام حسن الوجه وتقفوهم امرأة قد سترت وجهها فتوجهوا نحو الركن فاستلمه الرجل ثم الغلام ثم المرأة ثم قام الجميع فكبروا وركعوا وسجدوا ولم نكن في الجاهلية نعرف الطواف هكذا فقلنا للعباس ما هذا الطواف الذي تفعلون أهو دين جديد قال العباس هذا ابن أخي محمد بن عبد الله والغلام عليّ بن أبي طالب والمرأة خديجة زوج محمد أما والله ما على وجه الأرض أحد نعلمه يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة. وقد دخل عبد الله في الإسلام مع السابقين وكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبد الرحمن قبل أن يولد له وفي عبد الله بن مسعود وإخوانه المؤمنين الغرباء نزل قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه﴾ وذلك حين طلب المشركون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يجمع بينهم وبين المستضعفين في مجلس واحد. وعبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي أنه ما بقي مع رسول الله يوم أحد إلا أربعة أحدهم ابن مسعود. وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينًا نظن ابن مسعود وأمه من آل بيت رسول الله لكثرة ملازمتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عبد الله رضي الله عنه صاحب سر

رسول الله ووساده يعني فراشه وسواده يعني سره وسواكه ونعليه وطهوره وهذا يكون في السفر .

وبلغ من علمه بالقرآن أنه قال (ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وفيم نزلت) وروى أحمد والترمذي وابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار وتمسكوا بعهد ابن أم عبد وفي مطلع إسلامه أدركه أبو جهل وهو ينتقل يعظ الناس ويبشرهم وينذرهم فانقض عليه أبو جهل وصفعه صفعة هائلة ولم يكن يتوقع أن يردّها ابن مسعود لكن الذي حدث أنه رضي الله عنه استجمع كلّ قواه وصفع أبا جهل فكبه على الرغام ثم انطلق وكان عدّاء حتى بلغ الحبشة مهاجراً ثم لم يجتمع بأبي جهل إلا وهو على صدره يجهز عليه في معركة بدر رضي الله عنه ويقول له لقد أمكن الله منك ياعدو الله. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اقرأ علي القرآن فقال يارسول الله أأقرؤه عليك وعليك أنزل قال : إني أشتهي أن أسمعه من غيري. قال ابن مسعود فقرأت عليه من سورة النساء حتى بلغت قوله تعالى : ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمَّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ فغمزني عليه السَّلام برجله فإذا عيناه تذرفان. ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي جهل بعد أن أجهز عليه ابن مسعود فحمد الله وقال هذا كان فرعون هذه الأمة. وبعث عمر رضي الله عنه ابن مسعود معلمًا لأهل الكوفة وكتب لهم لقد آثرتكم بعبد الله على نفسي .

وروى البخاري في الفضائل أن رسول الله صلى الله عيه وسلم قال استقرءوا القرآن من أربعة : فبدأ بعبد الله بن مسعود وذكر أبيَّ بن كعب ومعاذًا بن جبل وسالمًا مولى أبي حذيفة وضرب مثلاً في السمع والطاعة حين أرسل إليه عثمان رضي الله عنه يستدعيه فقدم إليه سامعًا ومطيعًا على الرغم مما كان بينهما من موجدة. وسئل أبو موسى عن فتيا في الميراث عن رجل مات وترك ابنه وابنة ابن وأختا فأفتى

أبوموسى بأن للابنة النصف وللأخت النصف وأن الحفيدة محجوبة ولما سئل عبدالله قيل له أتوافق أبا موسي قال : قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين. بل للأبنة النصف ولابنة الابن السُّدس تكملة الثلثين وللأخت الثلث يشير إلى قوله تعالى(فإن كن نساءاً فوق اثنتين فلهنَّ ثلثا ما ترك). ولما بلغ الأمر أبا موسى قال لا تسألوني مادام فيكم هذا الحبر يعني ابن مسعود وكان رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام للعبادة وسمع لصدره دوي كدوي النحل. وتنازل رضي الله عنه عن عطائه من بيت المال واستثمر أمواله فمات عن تسعين ألف مثقال غير الرقيق والعروض والماشية واشتهر في الكوفة رضي الله عنه بالكرم والصدقات وحين توفي أوصى أن يكون التصرُّف في تركته للزبير بن العوام وولده عبد الله. وأوصاهما بأسرته. وعاده عثمان في مرضه فسأله ما تشتكي قال ذنوبي قال هل أحضر لك طبيبًا قال : الطبيب أمرضني. قال ألا آمر لك بعطاء قال لا حاجة لي فيه. ومات رضي الله عنه وقد عاش بضعًا وستين سنة قبل عثمان بثلاث سنين وحماه الله من فتنة قتل عثمان رحم الله الإمام المحدّث والبطل المجاهد عبد الله بن مسعود معلمًا لكتاب الله راويًا لحديث رسول الله وسلام عليه عابدًا قانتًا قدوةً للمتقين.



عثمان بن مظعون رضي الله عنه

ما قرأت سيرة الصحابي الجليل عثمان بن مظعون إلا أحسست لقلبي خفقان حبّ تدمع له العين وتخشع له النفس وذلك لأنه عاش ومات مغموراً على الرغم من جلائل مواقفه وروائع أعماله وتضحياته. ولأنه كان من أشد الصحابة حرصًا على العبادة والجهاد وحبّ الله ورسوله. ثم لأنه نال من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة فريدة حتى إنه عليه الصَّلاة والسَّلام خاطب ابنه إبراهيم يوم مات فقال له : الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ولما ماتت ابنته رقية خاطبها عليه الصلاة والسلام فقال لها الحقي بسلفنا الخير عثمان بن مظعون. كان رضي الله عنه من بني جمح من قريش وكان قومه عُتاة في الكفر مؤذين للمسلمين وكان من أشدهم على الرحمن عتيًا أمية بن خلف وأبيّ بن خلف وعلى الرغم من ذلك فقد كان عثمان رضي الله عنه من أسرع الناس إقبالاً على الإسلام إذ لم يسبقه بالإسلام إلا ثلاثة عشر فكان الرابع عشر في ركب الإيمان الممتد إلى يوم القيامة. وكانت استجابته لدعوة الإسلام مدهشة حقًا إذ لم يكد أبو بكر رضي الله عنه يدعوه إلى الدين القيم ويبلغه النبأ العظيم حتى استجاب في شوق وحماسة وصدق مما جعله في قمة قائمة الشرف بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان من بركة إسلامه أن أسلم بإسلامه ابنه السَّائب بن عثمان وأخواه عبد الله بن مظعون والسَّائب

ابن مظعون وكان أربعتهم ممن هاجروا إلى الحبشة واغتربوا في الله يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. وكان عثمان بن مظعون رضي الله عنه قائد ركبهم وإمام مسيرتهم ولما استقروا في جيرة النجاشي الكريم رضي الله عنه نزلت سورة النجم وسرت إشاعة أن النبي صلى الله عليه وسلَّم صالح قريشًا على ألا يسبَّ آلهتهم وأن سورة النجم اشتملت في زعم قُريش على مدح لآلهة قريش وأن محمداً صلى الله عليه وسلم قرأ آية سورة النجم على النحو التالي: (أفرأيتم اللات والعُزَّي ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك هي الغرانيق العلا. وإن شفاعتهنَّ لترتجى) وواضح أن القصة فيها تلفيق إذ كيف يتأتى أن يأتي بعد هذا المديح قوله تعالى مباشرة ﴿إن هي إلا أسماء سَّميتموها أنت وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾. مهما يكن من شيء فقد خُدع بعض المهاجرين بتلك الإشاعة ورجعوا إلى مكة المكرَّمة وهناك وجدوا الإشاعة مكذوبة.
وكان ممن رجعوا عثمان بن مظعون وأرحامه الذين أسلموا معه. فلما وصل رضي الله عنه إلى مكة المكرَّمة عرض عليه الوليد بن المغيرة أن يُجيره من أي أذىً فيعيش آمنًا في جيرة رجل قوي. فقبل عثمان أول الأمر ومشى في مكة آمنًا لا يجرؤ أحد على إيذائه، لكنه كان يمرُّ بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم يعذَّبون فأبى عليه إيمانه أن يتنعم هو في جوار الوليد ويرى إخوانه المؤمنين يُسامون أشد العذاب.
فذهب إلى مجيره الوليد ورد عليه جواره في أسلوب مؤدب وعندئذ أغرى قومه به السفَّهاء فهجموا عليه يضربونه ولكمه أحدهم على عينه لكمة شدَيدة آذت عينه وتركت حولها أثرًا أسود مخضرًا فشمت به الوليد وقال له لقد كنت ياعثمان في منعة وحماية وكانت عينك في غنى عن هذا الذي أصابها فقال له عثمان: جوار الله آمنُ وأمنعُ وأقوى من جوارك. ووالله إن عيني الصحيحة لفي شوق أن يصيبها مثلُ ما أصاب أختها. ولي في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشراف صحابته أسوة حسنة ثم أنشأ يقول:

فـإن تكُ عـيني في رضـا الله نالـهـا يــدا ملحـــــد في الديــن ليس بمهتَـد
فقـد عــوَّض الرحـمن منهـا ثوابها ومـــن يرضَـــهُ الرحمـــن ياقـوم يسْعَدَ
وإني وإن قلتــم غــويٌّ مــضلَّلٌ ســأحــيــا على دين النبيِّ مــحــمَّدَ
أريـــــد بــذاك الله والحــــقُّ دينُنا على رغم من يبــغي علينا ويعــتــدي

وكان من أشدّ الناس إيذاءً له أبيٌّ بن خلف الذي قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي نزل فيه قوله تعالى ﴿ويلٌ لكل همزة لمزة﴾ . ولقد ذُكر عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه كان راجح العقل ذا حكمة وفكر نقيّ وكان من أكثر فتيان الجاهلية ابتعادًا عما يشين . حتى لقد حرم على نفسه الخمر في الجاهلية وقال كيف أشربها وهي تذهب بعقلي وتضحك مني الناس ولما نزل قوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون﴾ أعجب عثمان رضي الله عنه بشمولها وروعة آدابها وسمو مضمونها . وكان يقول نزلت هذه الآية العظيمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فأحسست وأنا أتلوها أن الإيمان استقر في قلبي . وخرج فلقيه الوليد بن المغيرة فتلاها عليه فأصغى إليها وكاد يؤمن لعظمة وقعها وقال وهو مأخوذ بإعجازها (والله إن لهذا الكلام لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو وما يعلى عليه وإنه والله لا يقول هذا بشر لكنه بعد ذلك فكّر وقدَّر . فقتل كيف قَدَّر لقد قتله تفكيره حين انحرف به شيطانه فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر ألا ترونه يفرق بين المرء وزوجه وبين الابن وأبيه . لقد كان عثمان بن مظعون رضي الله عنه يعشق العبادة عشقًا فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتبتل فيترك الزواج ويتفرغ للعبادة ويسيح في الأرض ويزهد في الدنيا فلم يوافقه النبي صلى الله عليه وسلم وردّ عليه رغبة التبتل فاتخذ بيتًا منعزلاً يتعبد فيه فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ بعضادتي الباب وقال : ياعثمان إن الله لم يبعثني بالرهبانية وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة وظل

عثمان يصوم النهار ويقوم الليل وجاءت زوجته واسمها خولة بنت حكيم تزور أمهات المؤمنين فرأينها في ثياب رثة فقالت لمن ألبس.زوجي يصوم النهار ويقوم الليل فلامه رسول الله صلى الله عليه وسلم فامتثل فلما عادت لزيارة أمهات المؤمنين إذا هي كالعروس. وقد شهد رضي الله عنه بدراً وجاهد على قدر إمكانه لأن عينه كانت تضايقه ثم إنه مات على فراشه بُعيد بدر فكان أوَّل صحابي من المهاجرين دُفن في البقيع .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم أن عثمان يحتضر فسارع إلى بيته فاستقبلته زوجه في لوعة وقالت وهي تبكي يارسول الله : فارسك وصاحبك . فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبّله وهو يبكي والدموع تسيل على خدّ عثمان ثم رفع وجهه صلى الله عليه وسلم فبدت دموعه وعاد يقبله الثانية فرأى الناس دموعه وعاد يُقبله الثالثة وله شهيق صلى الله عليه وسلم ثم قال له : رحمك الله أبا السَّائب لقد خرجت منها ولم تتلبّس منها بشيء .

وحسبك بهذا القول شهادة لذلك الصحابي الجليل الذي هجر أهل مكة من أقاربه وهاجر هو وجميع آل مظعون لينعم بجيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أوعب آل مظعون في الهجرة حتى لقد غلقت بيوتهم بمكة وخط لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع دارهم بالمدينة فظلت تلك الدار المباركة معروفة لقد قال عمر رضي الله عنه لما توفي عثمان بن مظعون على فراشه ولم يُقتل هبطت منزلته من نفسي حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه على فراشهما فندمت ورجع عثمان إلى منزلته من نفسي حين رأيت أخيارنا يموتون ولا يقتلون رضي الله عن عثمان بن مظعون وسلام عليه في المهاجرين المجاهدين والأئمة الخالدين .



هشام بن العاص
رضي الله عنه

الصحابي الجليل هشام بن العاص هو أخو عمرو بن العاص رضي الله عنهما وكان أصغر منه سنًا ولم يُعقب ذرية مما جعل تنقله سريعًا وجهادهُ متصلاً وهو قرشي من بني سهم يجتمع نسبه برسول الله صلى الله عليه وسلم في جدهما كعب بن لؤيّ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هشام وأخيه عمرو : ابنا العاص مؤمنان. وكان هشام رضي الله عنه عطر الحياة عظيم السيرة كل مواقفه إيمان بالله وجهادٌ في سبيل الله. فمنذ أن أشرق نور الإسلام عشا إليه هشام وأسرع إلى الدين القيم ينهل من ينابيع وحيه. ولكنه ابتلى بظالمين ربما لم تشهد مكة في الظلم مثلهما ساموه سوء العذاب أولهما أبوه العاص بن وائل السهمي وكان من أشد قريش كفرًا أما الثاني فخاله أخو أمه أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي إذ كانت أمُّه هي أم حرملة المخزومية وقد رأى في الهجرة إلى الحبشة خلاصًا من ذينك الظالمين فهاجر إلى الحبشة حالما تمكن من ذلك حيث عاش مع إخوانه المهاجرين في كنف النجاشي سعيدًا بحرية عبادته ولكنَّ شيئًا واحدًا ظلَّ ينغص عليه عيشه هو بُعدُه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحنينه إلى صحبته. وقدم إلى الحبشة ذات يوم من أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر إلى المدينة فطار شوقًا إلى مكة المكرَّمة ولكنه حين وصلها تلقَّفه أبوه وخاله وقبضا عليه وأودعاه السجن وتعاونا في

تعذيبه فمكث في العذاب إلى ما بعد غزوة الأحزاب ثم تمكن أن يُفلت بعد أن ارتكست قريش والأحزاب فهاجر إلى المدينة حيث التقى بحبيبه صلى الله عليه وسلم وكم فرح بذلك اللقاء الكريم فأقسم أن يعوض عما فقده من فضل بدر وأحد والأحزاب وذلك بتجديد العزم على مواصلة الجهاد في سبيل الله. وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سائر غزواته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشيد بصبر هشام وتقواه وجلده لأنه نذر نفسه للجهاد وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخلص هشام في خدمة الصديق رضي الله عنه وكان مدربًا على فنون القتال فقد أرسله النبي صلى الله عليه وسلم على رأس سرية قبيل الفتح كما أرسله الصديق رضي الله عنه في مهمة إلى ملك الروم قام بها خير قيام. ومضى صابراً محتسبًا باحثًا عن الشهادة في حروب الشام تلك التي خاضها في بطولة وإيثار أدهش بهما الأبطال. وقد روي أن هشامًا رضي الله عنه كان أكرم الناس نفسًا وأنبلهم إيثاراً حتى لقد روي أنه مرَّ عليه صحابي يقال له حذيفة العدوي وهو يجود بنفسه في يوم قائظ وكانت مع حُذيفة رضي الله عنه شربة ماء وحيدة فدنا من هشام يريد أن يسقيه وإذا جريح من بين قتلى المسلمين يتأوه فأطبق هشام فمه وهو يقول أسق أخي ومات رضي الله عنه على الظمأ مؤثراً أخاه على نفسه. وكان هشام رضي الله عنه من الفرسان المُعْلَمين إذا أثبت قدمه في مستنقع الموت لم يترك مكانه إلا منتصراً أو شهيداً فلما كان يوم أجنادين في فلسطين كان هشام في جيش أخيه عمرو يقود المعركة ضد أرطبون الروم وكأنه رضي الله عنه لاحظ في بعض المسلمين نكوصاً وتخوفاً فأقبل كالأسد يقول أيها القوم أنا هشام بن العاص أمن الشهادة تفرون وكان الروم يحرسون ثغرة لا تتسع أن يجتازها إلا رجل واحد لأن الثغرة كانت أخدوداً وهنا أقبل هشام فاقتحم الأخدود وقتل قائد القبيلة الغَسَّانية الموالية للروم وصمد للثغرة يقتل يميناً وشمالاً حتى أثبتته الجراح فسقط في الأخدود وتحرَّج المسلمون أول الأمر أن يدوسوا جَسَده لكن عمْراً أخاه صاح في المقاتلين إن أخي

هشاماً قد مضى إلى ربه ولم يبق منه إلا جسدٌ لايتألم لجراح وهنا انقض المسلمون على المشركين فهزموهم هزيمة منكرة هرب منها أرطبون وجنوده وتنزَّل النصر وأقبل المجاهدون يبحثون عن أشلاء هشام فما وجدوا إلا لحومًا وعظامًا متناثرة جمعها عمرو في نطع ودفنه وهو يطلب رحمة الله لتلك العظام المباركة. وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يذكر أخاه هشامًا في إجلال فيقول أمُّه أم حرملة بنت هشام وأمي سبيَّه. وكان أبوه يفضله عليّ وحسبك بفراسة الوالد لولده وأخيرًا فقد كنَّا ليلة أجنادين نتمنى الشهادة ونطلبها فتقبل الله دعاءه وكتبها له بينما ردّني عنها وكان يكنى في الجاهلية أبا العاصي فكنّاه النبي صلى الله عليه وسلم أبا المطيع ولقد نال في نهاية حياته أعظم الكرامة حين قتل مُقبلاً محتسبًا غريبًا ينصر الله ورسوله لتكون كلمة الله هي العليا. وبقتله حماه الله من فتن الدنيا وتلك الحروب المريبة التي وقعت بين المسلمين كما حماه من عشق المناصب والمسابقة على الحطام فكان رضي الله حسنات وخيرًا كلُّه إذ لم يَجْنِ من ثمار النصر إلا الشهادة وجسمًا ممزَّقًا متناثر الأشلاءَ على رُبَى أجنادين وقيل اليرموك. وكان يعتزُّ أنه هو وأخوه عمرو أقبلا على جماعة من مشيخة الصحابة وهم يتمارون في تأويل بعض آي القرآن الكريم فلما ارتفعت أصواتهم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم محنقًا غضبان محمرًا وجهه يرميهم بالتراب ويقول ياقوم: بهذا هلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض. إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا لكنه نزل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه.

وتأمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه القوم فرأى عمرو بن العاص وهشامًا ابن العاص معتزلين القوم لإيماريان ولا يشتركان في جدل فأبدى إعجابه عليه الصلاة والسلام بابني العاص. وكان الصحابة إذا ذكروا هشامًا قالوا: الشهيد الصالح المجاهد وذلك لأنه رضي الله عنه كان متفرغًا للقتال. وكان أخوه عمرو إذا ذكره ترحم عليه وقال: عرضنا على الله أنفسنا يوم أجنادين فاختاره وتركني وكان

من كـرم الله على هشـام أنه أُوذي في الله فتـحـمل الأذى وهاجـر في الله هجـرتين . وذاق غيابات السجن فما هان لذلك ولا ضعف ولا استكان وآتاه الله عطر الذكر في الدنيـا وحسن ثواب الآخرة . ولقـد ظل رضي الله عنه يأسى على سنوات ضـاعت عليـه وضيَّعت فرص بدر وأحـد والأحزاب فكان من يرونه في القتـال يحسُّون أنه كان يحاول أن يثخن في الأعداء ليعوض عما فات . وكان مسك ختام حياته الطيبة الخالدة الماجدة أن جبر الله خـاطره فجعل أجمل سـاعـات حياته آخـرها حين نال شهادة حقيقية عالية عجز عن نيلها عظماء الرجال رحم الله هشـامًا بن العاص خرج من الدنيا قبل أن فتحت على غيره فعاش مجاهدًا مهاجرًا ومات شهيدًا قدوة وترك في سجل الخلود مُثُلاً عليا تدعوا كلَّ أهل الدنيا أن يترسموا خطا الشهيد الصالح هشام بن العاص .



جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه

جرير بن عبد الله سيد بَجيلَة وهي قبيلة اختلف في أصلها فقيل هي يمانية وقيل بل عدنانية وقد نسبت القبيلة إلى أمها بجيلة وكانت بجيلة يمانية من سعد العشيرة ومع أنه رضي الله عنه أسلم متأخرًا فقد انتظم في سلك الجهاد مبكرًا وكان جريئًا على أصنام قحطان وقد أشاد به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل هو وقومه وكان لا يحجبُه مهما كان مشغولاً بل يستقبله ببشاشةويكرمه قال جرير رضي الله عنه ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآني قط إلا ابتسم في وجهي وقال فيه النبي الكريم حين أقبل وافدًا عليه يطلع عليكم رجل من خير ذي يمن كأن على وجهه مسحةَ مَلَك . وفيه قال عليه الصلاة والسلام إذا أتاكم كريمُ قوم فأكرموه ومما قال فيه شاعرهم (لولا جريرٌ هلكت بجيلة) كان رحمه الله جميل الصورة حتى لقد قال فيه عمر : جرير بن عبد الله يوسف هذه الأمة . ولوسامته وحسن صورته كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بأن يلبس أحسن حُلله ويكون فيمن يستقبلون الوفود وكان جمال خُلُقه أجل من جمال خَلْقه ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتباهى بجرير بن عبد الله . وكان صاحب ذوق رفيع روي أنَّ عمر رضي الله عنه وجد في مجلسه رائحة من بعض جلسائه فقال عزمت على صاحب هذه الرائحة إلاَّ قام فتوضَّأ . فقال جرير بن عبد الله بل

علينا كلنا يا أمير المؤمنين فاعزمْ قال عمر نعم كلكم عزمت عليه ثم قال ياجرير أنت سيد في الجاهلية ومازلت سيداً في الإسلام. وكان رضي الله عنه من أهل الحديث له مُسند فيه مائة حديث منها من المتفق عليه ثمانية أحاديث وانفرد البخاري بحديثين ومسلم بستَّة أحاديث. وقد ولاه عثمان رضي الله عنه همذان وفيها فقد عينه. وقد سكن مُدَّه في الكوفة وكان له بها بيت لكنه تحول إلى قرقيسياء وهي بلدة عند مصب نهر الخابور في نهر الفرات. وقد أرسل عليٌّ رضي الله عنه إلى جرير يدعوه أن ينضمَّ إليه بعث إليه ابن عباس والأشعث وكلُّهم بلَّغه رسالة عليّ التي قال فيها: نعم ما رأيت ياجرير من اعتزالك معاوية وإني أدعوك أن أنزلك بالمنزلة التي أنزلك إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جرير: إن رسول الله بعثني إلى اليمن أقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها حُرمت دماؤهم وأموالهم. والآن فقد قالوها واعتقدوها فكيف أقاتل من آمن وقال لا إله إلا الله. وظلَّ جرير رضي الله عنه معتزلاً لعلي ومعاوية مبتعداً عن ميدان الصراع وحسبك دليلاً على منزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء في قصة إسلامه من أنه أقبل من أرض اليمن ومعه مائة وخمسون رجلاً من بُجيلة قبيلته وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدمهم فابتهج لذلك وانتظرهم وظلَّ يذكر جريراً بخير. جاء في مسند أحمد أن جريراً بن عبد الله قال: لما دنوت من المدينة أنختُ راحلتي وحللت عيبتي (أي أنزلت حقيبة أمتعتي ولبست أجمل ثيابي ثم دخلت المسجد فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فرماني الناس بأبصارهم فجلست وقلت لجليسي يا أخي هَلْ ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمري شيئًا؟ قال نعم ذكرك بأحسن الذكر في خطبته وقال إنه سيدخل من هذا الفج رجل من خير ذي يمن كأن على وجهه مسحة مَلَك. قال جرير فحمدت الله ثم لما دخلتُ عليه ألقى إليَّ بوسادة فجلستُ على الأرض فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رآني خلَّيت الوسادة:أشهد أنك ممن لا يريدون في الأرض علواً ولا فساداً فأسلمت ثم التفت رسول الله صلى

الله عليه وسلم إلى أصحابه فقال لهم : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رآني بعد ذلك اليوم إلا تبسَّم وقال : جرير رجل من خير ذي يمن كأن على وجهه مسْحَة مَلَك . وروي أن جريراً رضي الله عنه أقبل يومًا على مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا المجلس مزدحم فرمى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بُردة وقال دونكها يا أبا عمرو فتلقاها بصدره ونحره احتفاءً بها وقال : أكرمك الله يارسول الله كما أكرمتني ثم قال لأصحابه إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ومن فضائل جرير رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتدبه لأمر جليل فقد كان في اليمن بيت يعبده أهل اليمن يقال له ذو الخلَصَة أو بيت خثعم وكان أهل اليمن يسمونه الكعبة الثامنة وكانوا ينسجون حوله قصصًا بأن له جنًا يحرسونه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبدي مخاوفه أن تعود (قبيلة دوس) إلى عبادة ذي الخلصة وفي الحديث لا تقوم السَّاعة حتى تضطرب أعجاز نساء دوس حول ذي الخلصة ، وكانت قبائل دوس وخثعم وبجيلة تعبد ذا الخلصة وهو من قبيلة كانت تعبده وجاء في رواية هدمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجرير رضي الله عنه مَنْ لذي الخلصة يريحني منه فقال جرير أنت تعلم يارسول الله أني رجل لا أثبت على ظهور الخيل لأمر حدث لي فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجه جرير وقيل على صدره وقال : اللهم ثبت جريراً واجعله هاديًا مهديًا . وانطلق جرير في مائة وخمسين فارسًا معظمهم من قبيلة أحمس فحرقوه وخَرَّبوه حتى تركوه كالجمل الأجرب وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشرونه فقال اللهم بارك على خيل أحمس يكررها خمس مرات . وروى الطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : جريرٌ منا أهل البيت ظهراً لبطن وقال يومًا لجرير إن الله قد حَسَّنْ خَلْقك فحسِّن خُلُقك . وكان عليه الصلاة والسلام يعجبُ من عقل جرير وحلاوة منطقه وبمجرد إسلام جريرانتضَى سيفه مجاهدًا في سبيل الله وانطلق مجاهداً وكان له في أيام القادسية موقف مشهود فقد اختاره سعد بن أبي

وقاص قائداً لميمنة جيش المسلمين وأبلى بلاء حسنًا زلزل به أركان جيش الكفر وكان لجرير أثر عظيم في حرب القادسية إذ كان قائد قومه ودوامًا في مقدمتهم وكان من قبل أيام الرسول يُنْتَدبُ لعظيمات الأمور فقد أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذي الكلاع وهو من ملوك اليمن وإلى ذي ظُليم فقاتل رضي الله عنه وأدان الناس للإسلام ولما قدم من عند سعد إلى عمر رضي الله عنه سأله عن سعد وأصحابه فأجابه إجابة العاقل الصادق سأله عمر : كيف تركت سعداً في ولايته؟ فقال جرير : تركته أكرم الناس مقدرة وأحسنهم معذرة، هو لهم كالأم البرة، وهو ميمون الأثر مرزوق الظفر أشدُّ القوم عند البأس وأحبُّ قريش للناس. قال عمر : فكيف الناس معه؟ قال جرير : هم كسهام الجعبة منها القائم الرائش ومنها العصل الطائش وابن أبي وقاص ثقافها، يغمز عَصلها ويقيم ميلها. قال عمر : فأخبرني عن إسلامهم. قال جرير : يقيمون الصلاة لأوقاتها ويعطون الطاعة لولاتها. فقال عمر الحمد الله : إذا أقيمت الصَّلاة أوتيت الزكاة. وإذا كانت الطاعة كانت الجماعة. ومن روائع كلام جرير رضي الله عنه : الخرسُ خير من الخلابة (والخلابة هي التظاهر الأجوف بالفصاحة) وكان جرير يقول البكَمُ خيرٌ من البذاء. وكان في حجة الوداع في جوار رسول الله ولما ارتفع لغط قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجرير : استنصت الناس ياجرير. وروى أن جريراً كان فارع الطول كان طوله ستة أذرع وكان رضي الله عنه متواضعًا حدّث عنه أنس بن مالك قال : كان جرير يخدمني وهو أكبر مني وتوفي جرير رضي الله عنه في خلافة معاوية سنة أربع وخمسين للهجرة بعد حياة حافلة بالبطولات رضي الله عن جرير بن عبد الله البجلي صحابيًا مؤثراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم محبًا لأصحابه وخلفائه مجاهداً في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا .



معاذ بن جبل
رضي الله عنه

معاذ بن جبل سيد من سادات الصحابة علم أنصاري من الخزرج. من السَّابقين الأولين إلى الإسلام شهد العقبة وشرفه الله فكان من أهل بدر. أمّهُ جهنية وكنيته أبو عبد الرحمن وكان مثلاً رائعًا للشباب المسلم الواعي فقد أسلم وهو في الثامنة عشرة وشهد بدرًا وهو في الحادية والعشرين وكانت شخصيته جميلة تامَّة فقد كان طويلاً واضح الثغر واسع العينين أبيض جعدًا وكان رضي الله عنه حافظًا لكتاب الله حتى لقد روي عن أنس أنه قال: جمع القرآن على عهد رسول الله أربعة كلهم من الأنصار: أبيٌّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت. وأبو زيد (رجل من الأنصار). وفي صحيح البخاري: خذوا القرآن عن أربعة: من ابن مسعود. وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة. وفي الحديث الصحيح عن أنس: أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. وأشدُّها في دين الله عمر. وأصدقها حياءً عثمان. وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ وأفرضهم (أي أعلمهم بالمواريث زيد) ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة. وقال عمر رضي الله عنه: لو أدركت معاذًا ثم وليته ثم لقيت ربي فقال من استخلفت على أمة محمد لقلت سمعت نبيَّك وعبدك يقول يأتي معاذ بن جبل بين يدي العلماء برتوه ومعنى الحديث أنه يتقدم العلماء بمقدار رمية سهم ولما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة

المكرمة ضرب مثلاً للشباب القوي المسلم حين عيَّن عتابًا بن أسيد إمامًا يصلي بالناس وخلَّف معاذًا يقرئهم ويفقههم وكان عتاب في السابعة عشرة ومعاذ دون الثلاثين وفي فضائل معاذ وحبّ النبي صلى الله عليه وسلم له أحاديث عظيمة فقد أخبره النبي صلى الله عليه وسلم أنه يحبُّه وحدّث معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له حين بعثه قاضيًا إلى اليمن : كيف تقضي إن عرض قضاء. فقال : أقضي بما في كتاب الله. قال له صلى الله عليه وسلم فإن لم يكن قال : فبما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فإن لم يكن فيما قضى به الرسول ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو فضرب رسول الله صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضى الله. ولما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن خرج معه يودعه ومعاذ راكب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي تحت راحلته فلما فرغ قال يامعاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري فبكى معاذ حين هاج به التذكار فقال له عليه الصلاة والسلام لا تبك يامعاذ فإن البكاء من الشيطان. وفي بعض مواقف وداعه قال له عليه الصلاة والسلام اذهب ومعك روح القدس وفي أحاديث مناقب معاذ ما ورد في الحديث الصحيح عن معاذ قال : لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يامعاذ إني لأحُبك في الله. قلت وأنا والله يارسول الله أحبك في الله قال أفلا أعلمك كلمات تقولهن دبر كل صلاة، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وقال ابن مسعود إن معاذًا كان أمةً قانتًا لله حنيفًا فقيل له ذلك إبراهيم فقال عبد الله الأمَّة هو معلِّم الخير والقانت المطيع وإن معاذًا رضي الله عنه كان كذلك. وكنَّا نشبه معاذًا بإبراهيم وكان الذين يفتون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة من المهاجرين وثلاثة من الأنصار، وهم عمر وعثمان وعليٌّ من المهاجرين. وأبيُّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت من الأنصار.

وخطب عمر في الجابية (موضع بجوار دمشق) من أراد الفقه فليأت معاذًا بن جبل. وروى أن عمر رضي الله عنه قال (لولا معاذ لهلك عمر) وكان لهذا القول

مناسبة وهي أن رجلاً غاب عن زوجته سنتين ثم رجع وإذا هي لا تزال حاملاً فأراد عمر أن يرجمها فقال معاذ ليس لك على ابنها سبيل ولما ولدت إذا هو ولدٌ تام الخلقة له ثنيَّتان يشبه أباه جداً فأقبل الرجل عليه يقبله ويقول هو ابني. فقال عمر عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ. وقال أبو سلمة الخولاني دخلت مسجد حمص وإذا فيه نحوٌ من ثلاثين صحابيًا وإذا شاب أكحل براق الثنايا ساكت ولكن حين يتمارى القوم يتكلم، فقلت من هذا؟ فقيل: معاذ بن جبل فوقعت محبته في قلبي ووقع معاذ مرَّة في دَين وكان الدائنون يهوداً فلم يسامحوا بشيء فأنقده الله من الدين على يدي أبي بكر فلما قضى دينه سافر إلى الشام ليدعو إلى الله هناك. وقد كتب الله لمعاذ رضي الله عنه حياة ماجدة عظيمة حافلة بجلائل الأعمال وبالباقيات الصالحات ابتدأت ببيعة العقبة وغزوة بدر وانتهت باستشهاده في وادي الأردن شهيدًا في طاعون عمواس وبين هذا وذاك ملأ الدنيا علمًا وأدبًا وروعة قضاء وكان من أزهد الناس في دنيا الناس. بعثه عمر مَّرة في مأمورية ماليَّة ليقسم فيهم فيئهم وكانوا يظنون أن يأخذ أجرة على عمله فظل يقسم حتى لم يترك فيئًا وعاد بالحلس الذي كان على دابته يحمله على كتفه وأرسل إليه عمر مَرَّة أربعمائة دينار ليصلح بها شأنه فدعا الجارية وقسَّم الدنانير وطفق يقول خذي هذا إلى آل فلان وهذا إلى آل فلان حتى نفدت أو كادت وإذا امرأته قائمة فقالت له والله ما عندنا شيء ونحن مساكين فنظر وإذا الخرقة لم يبق بها سوى دينارين فألقى بهما إليها وهو يقول لقد نسيت وهذا يكفيكم ولما رجع الغلام وأخبر عمر بما كان من فعل معاذاً وكان قبلها قد بعث إلى أبي عبيدة ففعل كفعل معاذ فقال عمر رضي الله عنه هم إخوة بعضهم من بعض وابتسم ابتسامة رضا عن تلك التربية النبوية الرائعة ولما حضرته الوفاة وكان يعاني من ألم الطاعون قال له الناس ادعُ الله أن يرفع عنك الرِّجز فقال: إنه ليس برجز ولكنه دعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وشهادة يخص بها الله من يشاء منكم وأسلم الروح راضيًا مرضيًا مهاجراً غريبًا مجاهداً في سبيل الله. وماتت قُبيل موته

ابنتاه فدفنهما في قبر واحد وأصيب بالطاعون ولده عبد الرحمن فعاده وسأله : كيف تجدك فقال الحق من ربك فلا تكونن من الممترين وسأله مرة أخرى فقال ستجدني إن شاء الله من الصالحين وكان يقول كلما ألح عليه الألم غُمَّ غَمَّك فإنك تعلم أني أحبك ومات رضي الله عنه وهو في ريعان الشباب في الرابعة والثلاثين من عمره وكان أحد العظماء الذين نشروا الإسلام في المدينة بطرق مختلفة حتى لقد اتفق هو وأحد أبناء عمه عمرو بن الجموح أن يتسلطا على صنم كان يعبده عمرو اتفقا على أن يكبَّاه كل يوم على وجهه فكان يأتي رضي الله عنه وينظفه ويعبده لكنهما استمراً في إهانة الصنم وكان يسميه (مناة) حتى جاء يوم قذفا بالصنم في بئر مهجورة وقد ربطا رقبته برقبة كلب فلما رآه في الصباح فكر وقدّر وعلم أن الحق لله وأن هذه الأصنام خرافة حين نظر إلى صنمه مُقرنا مع الكلب فآمن وهو ينشد :

والله لـــو كنـــت إلـهًا لـم تكـن أنـتَ وكـلـبٌ مُقـــرنين في قَرَن

وقد حَدَّث بعض من حضر وفاة معاذ أنهم أسندوه قبيل وفاته فقال روّحوني ألقى الله في مثل سن عيسى عليه السَّلام. وقد روى أن المسيح عليه السَّلام توفي في الثالثة والثلاثين. وروي عنه أنه دعا الله في أخريات أيامه فكان يقول : أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار. مرحبًا بالموت مرحبًا. زائرٌ مُغبٌّ جاء على فاقة. اللهم قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أنني لَم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار. ولكن لظمأ الهواجر ومزاحمة العلماء في حلَق الذكر. وكانت له رضي الله عنه مواقف لا يثبت لها إلا عظماء الرجال ولا ينهض لها إلا كل ذي عزيمة جريئة كانت حياته في أولها صمودًا في وجه أذى المشركين واليهود ثم كانت حياته في اليمن حافلة بالأخطار والجرأة والبطولة في فتنة الأسود العنسي الكذَّاب ثم لم يكد تستقر به الحياة في الشام عقب الفتح حتى داهمه الموت مُشْرق الصفحات داعيًا إلى الله في أهل الصدق والعلم والدعوة والجهاد رضي الله عن معاذ إمامًا وبطلاً في كوكبة الغرّ المحجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.



جعفر بن أبي طالب
رضي الله عنه

الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بطل من أعلام البطولة وأعلام الجهاد وأعلام الاستشهاد كتب له من الشرف ما ندر أن يجتمع لعظيم من العظماء قال عنه صاحب الحلية الخطيب المقدام والجواد المطعام مضيف المساكين ومهاجر الهجرتين ومصلي القبلتين وقال عنه الحافظ الذهبي في مقدمة ترجمته : السيد الشهيد. الكبير الشأن علم المجاهدين. ومن فضائله الماجدة أن عوّضه الله عن ذراعيه اللتين قطعتا في مؤتة بأن أبدله بهما جناحين في الجنَّة وهو أكبر من علي بعشر سنوات وكان من السَّابقين الأولين إلى الدين القيّم إذ لم يكد يسمع ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم حتى أسلم بعد أخيه عليٍّ بوقت قليل ثم أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة بعد أن أسلمت زوجه أسماء بنت عميس فهاجر في نفر من فضلاء الصحابة منهم ابن مسعود وأبو موسى وعثمان بن مظعون وتبعهم عثمان بن عفَّان وزوجته رقية. حدثت أم سلمة أم المؤمنين وكانت من مهاجري الحبشة أن الأذى اشتد بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ففتنوا بمكة وبرح بهم البلاء ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه لا يستطيع دفع الأذى والبلاء عنهم فقال لهم : إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم مخرجًا وفرجًا. فتتابع المهاجرون أرسالاً فنزلوا من النجاشي في خير دار حين

أمنوا عند النجاشي على دينهم. وكان جعفر رضي الله عنه نقيبهم وخطيبهم والناطق بلسانهم وقد ظهرت بركات جعفر وبطولته وجرأته منذ وصل الحبشة وذلك أن قريشًا حين رأوا ما تمتع به المسلمون من أمن ورخاء في الحبشة أرسلوا رسولين من دُهاة قريش هما عمرو بن العاص وعبد الله بنُ ربيعة في وفد إلى النجاشي يحمل الهدايا الفاخرة للملك ولجميع القسس والبطارقة لكي يغروا النجاشي بالمسلمين فيطردهم من دياره ويسلمهم إلى رُسل قريش وفعلاً وصل وفد قريش فبادروا بتوزيع الهدايا على رجال الدين وعلى الملك ثم أذن لهما فدخلا على الملك فسجدا بين يديه ثم قال عمرو بن العاص : أيها الملك إن نفراً من قومنا نزلوا بأرضك بعد أن نفروا من ديننا وجاءوا بدين لا تعرفه أية أمة من الأمم فخشينا أن يفسدوا في أرضك هنا كما أفسدوا في أرضنا فجئناك لتسلمهم لنا لأننا أدرى بهم ووافق القساوسة في الحال على تسليمهم لأن كل بطريق كان قد تسلم هديته فقال النجاشي رضي الله عنه إذنْ ندعوهم غداً لنسمع منهم كما سمعنا منكم فاغتاظ وفد الشرك والقساوسة .

وفي اليوم التالي جاء المسلمين رسول النجاشي فاستقبله جعفر فقال للمهاجرين سأكونُ متكلمكم فلا يتكلم منكم أحد ولما حضر المسلمون خلف جعفر انتهوا إلى النجاشي فدخلوا عليه ولم يسجدوا له كما أوصاهم رجاله فلما سُئلوا في ذلك قال جعفر نحن قوم علَّمنا نبينا ألا نسجد إلا لله فوقعت الكلمة من قلب الملك موقعًا عظيمًا. فقال لجعفر ما هذا الدين الذي جئتم به وخالفتم به قومكم كما خالفتم ديننا فاندفع جعفر في جأش رابط وقال : أيها الملك كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونئد البنات ونأتي الفواحش ويظلم القوي منا الضعيف ويغير بعضنا على بعض ظلمًا وعدواً ونقطع الأرحام ونسيء الجوار فبعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله تعالى لنعبده وحده ونخلع الأصنام والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار

والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفحش وقول الزور كما أمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدَّقنا واتبعنا النور الذي جاء به وأحللنا ما أحلّ من الطيبات وحرمنا ما حرَّم من الخبائث فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الحجارة فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا لجأنا إلى ديارك واخترناك على من سواك ورغبنا في جيرتك ورجونا ألا نُظلم عندك. فقال له الملك هل عندك مما جاء به شيء نسمعه فقرأ عليه جعفر صدراً من سورة مريم فبكى النجاشي والقساوسة حتى اخضلَّت لحاهم وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ وهنا قال عمرو أيها الملك إنهم يخالفونك في ابن مريم وأمّه. قال: ما تقولون في ابن مريم وأمّه؟ قال جعفر نقول كما قال الله تعالى: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم الطاهرة البتول التي لم يمسَّها بشر. فقال الملك وقد أخذ عوداً بيده عن الأرض: والله ما يختلف ما جاء به عيسى عن هذا ولو بمقدار هذا العود. ردّوا عليهم هداياهم أما المسلمون فهم جيران لي يعيشون في جواري آمنين. ويبدو أن جعفراً رضي الله عنه مكث في الحبشة مُدَّة طويلة ولم يعد منها إلا إبَّان غزوة تبوك. فلما وصل بعد ذلك الغياب الطويل فرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحةً عظيمة وقد اجتمعت على النبي الكريم يوم لقاء جعفر فرحتان عظيمتان أولاهما فتح خيبر والثانية عودة جعفر. روى الشعبي أنه لما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من خيبر تلقاه جعفر فالتزمه رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي عانقه) وقبّل بين عينيه وقال: ما أدري بأيهما أنا أفرح (أي أشد فرحًا) بفتح خيبر أم بلقاء جعفر.

ولما اختصم عليٌّ وجعفر وزيد بن حارثة في ابنة حمزة أيُّهم يكفلها كفَّلها النبي جعفراً لأنه زوج خالتها وقال: الخالة والدة. ففرح جعفر بذلك وقام يحجل حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي الكريم ما الذي تفعل فقال رأيت أهل

الحبشة يصنعون ذلك بملوكهم. وكان جعفر رضي الله عنه ذا أخلاق عالية حتى لقد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشبه خَلْقُكَ خلقي وأشبه خُلُقك خلقي فأنت مني ومن شجرتي. وكان رضي الله عنه جوادًا يسابق الريح في كرمه حتى لقد لُقب أبا المساكين. وجعفر هو أخو عليٍّ وعقيل شقيقهما وكان أكبر منهما وقد ولدت له أسماء بنت عميس في الحبشة ثلاثة أولاد عبد الله وعونا ومحمداً. وكان من أوائل الصحابة إسلامًا حتى قيل لم يسلم قبله سوى واحد وثلاثين نسمة. ولعظمة جوده قال فيه أبو هريرة: ما احتذى النعال ولا ركب المطايا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر بن أبي طالب كان ينقلب بنا إلى بيته فيطعمنا ما يكون في البيت حتى لقد كان يخرج العُكَّة وفيها أثر سمن فنلعقُ ما فيها. ولقد كان أروع مشهد في حياة جعفر رضي الله عنه حين جَهَّز النبيُّ غزوة مؤتة بعد وصول جعفر رضي الله عنه بأقل من سنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجنود المسلمين عليكم زيد (يعني ابن حارثة) فإن أصيب فجعفر فإن أصيب جعفر فابن رواحة وكان رائعًا من جعفر أن سار تحت إمرة زيد مع أن زيداً مولى ولما وصل الجيش مشارف الشام لقيتهم جيوش الروم ومن والاهم من العرب فأحاط جيش الروم بجيش الصحابة فاستشهد زيد بعد بلاء عظيم ثم رأى الناس جعفراً يتقدم كالأسد عاتيًا وهو ينشد:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وباردٌ شرابها

والروم روم قد دنا عذابها ... عَلَيَّ إنْ لاقيتها ضرابها

ثم عقر فرسه الشقراء وانقض على الأعداء فقطعت يده اليمنى فأمسك اللواء باليسرى ولما قطعت اليسرى ضم اللواء إلى صدره. فتكاثرت عليه الجراح حتى لقد أحصى الصحابة في صدره أربعة وتسعين جُرحًا. ومع ذلك فقد طعن والرمح في جسده رجلاً فقتله. فقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعوَّضه الله من يديه جناحين يطير بهما في الجنة مع جبريل وميكائيل يأكل من ثمارها وقد حدثت أسماء

بنت عميس زوج جعفر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت جعفر فدعا بنيه فأحضروا فشمَّهم وذرفت عيناه فبكى كل من حضر ورجع صلى الله عليه وسلم فقال : اصنعوا لآل جعفر طعامًا فقد شغلوا عن أنفسهم وفي جعفر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرَّ بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة وهو مخضب الجناحين بالدم أبيض الفؤاد. وكان ابن عمر إذا لقيه عبد الله بن جعفر قال : السَّلام عليك ياابن ذي الجناحين رحم الله جعفرا ورضي عنه وسلام عليه في الشهداء الخالدين.



أبو موسى الأشعري
رضي الله عنه

هذا الصحابي إمامٌ فقيهٌ قائدٌ قاضٍ من السَّابقين الأولين إلى الإسلام ويبدو أنَّ قومه الأشعريين كانوا يترددون على مكّة المكرمة فآمن أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس في وقت مبكر ولما عاد إلى اليمن وسمع بإيمان النجاشي وكرم معاملته هاجر إلى اليمن ثم لما قدم مهاجرو الحبشة إلى المدينة مع نقيبهم جعفر بن أبي طالب كان معهم أبو موسى وبعضُ قومه فوصلوا المدينة مع سائر مهاجري الحبشة فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح خيبر فقسم النبي لأبي موسى من مغانم خيبر مع أن مغانم خيبر كانت بأمر الله قصْرًا على من شهدوا الحديبية وكأن أبا موسى رضي الله عنه أحسَّ أنه قد فاته جهاد وشرف كبير لتأخره في الهجرة فعزم رضي الله عنه أن يعوض بالجهاد ما فاته فعاش كأنه رصيد الذهب لا يظهر إلا في الملمَّات وكتب الله له أن يظل مجاهدًا حتى بلغ قرابة ثمانين عامًا. رضي الله عنه وأرضاه. وقد أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ومعاذ إلى اليمن قاضيين وجامعين للزكاة وأوصاهما قائلاً بشرا ولا تنفّرا، ويسِّرا ولا تعسِّرا، وما عُهد أنهما اختلفا على أمر من الأمور لأن كلاً منهما كان وقّافًا عند كتاب الله وسنة رسوله. ولما تولى عمر الخلافة أقرَّ أبا موسى على قضاء البصرة فلما وصل إليها جمع الناس ولخَّص مأموريته بإيجاز فقال إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم أعلمكم كتاب الله عزَّ وجلَّ

وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن أنظف لكم طرقكم. وكان رضي الله عنه جميل الصوت عذب القراءة حتى لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: ياعبد الله لو رأيتني وأنا أسمع قراءتك. واستمع النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أم المؤمنين عائشة تستمع فلما أعلمه النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال يارسول الله إني لو علمت بمكانك لحبَّرت لك القرآن تحبيرا وكان رضي الله عنه طويل القيام في الليل عظيم الدعاء وقد شهد رضي الله عنه أول ما شهد غزوة ذات الرقاع وحدث بذلك فقال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة ونحن ستة نفر نعتقب فنقبت أقدامنا وتساقطت أظفاري فكنا نلف على أرجلنا الخرق حتى لقد سميت الغزوة ذات الرقاع ويبدو أنه غزا غزوة في البحر وروى حديثًا مما وقع له ولأصحاب السفينة.

ومن كلامه رضي الله عنه قوله من خطبة له بالبصرة إن أهل النار ليبكون في النار حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت وإنهم ليبكون الدم بعد الدموع. ولمثل ما هم فيه فليبك الباكون. ومن فضائل أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له كما جاء في الصحيحين فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس وأدخله يوم القيام مُدخلاً كريمًا. وحمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علمًا كثيراً. وزار مرَّة دمشق فنزل بعض الدور بدمشق فخرج معاوية ليلاً ليستمع إلى قراءته كما فعل من قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رضي الله عنه قائداً يدَّخر للشدائد فقد فتح بلاد أصبهان زمن عمر وفتح تُسْتُر وقتل في حنين أخوه أبو عامر فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: اللهم اغفر لعبدك أبي عامر اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك. فقال أبو موسى ادعُ لي يارسول الله فقال اللهم واغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله مُدْخلاً كريمًا. وفي أبي موسى وقراءته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمعه يقرأ: لقد أُعطي هذا مزماراً من مزامير داود. وروي أنه قرأ ليلة فقامت بعض أمهات المؤمنين يستمعن قراءته فلما علم بذلك قال لو علمت

بمكانكن لحبرته تحبيراً أي جوَّدته أحسن تجويد. وجاء في تاريخ ابن عساكر أن الشعبي قال: يؤخذ العلم عن ستة: عمر وعبد الله وزيد بن ثابت يشبه علمهم بعضه بعضا. وعليٌّ وأبيٌّ بن كعب وأبي موسى يشبه علمهم بعضه بعضا ويقتبس بعضهم من بعض وكان أبو موسى إذا صلى الصبح استقبل الصفوف رجلاً رجلاً يقرئهم وكان زاهداً في دنياه دخل البصرة على جمل أبيض. وعليه خُرج. ولم يخرج معه من البصرة سوى ستمائة درهم. وسأل عمر مرة قتادة كيف خلَّفت أبا موسى في البصرة فقال: تركته يعلم الناس القرآن. وكان لا يحبُّ كتابة الحديث خشية أن يصرف الأنظار عن القرآن قال ابنه أبو بردة كتبت عن أبي أحاديث ففطن بي فمحاها. وقال خُذ كما أخذنا. وكان يتولى كبار الأحداث فيخرج منها منتصراً فهو الذي فتح الأهواز والرُّها. وأصبهان. ولما تولى عثمان رضي الله عنه طمع بعض المقيمين في أطراف الخلافة في شيخوخته فدعا رضي الله عنه كبار قواده ومنهم الأحنف بن قيس وأبو موسى فكان أن هزموا المتمردين وأثبتوا أن النصر مع الصبر وقد استعاد أبو موسي فتح أصبهان ونهاوند وكان عمر قد كتب في وصيته: لاتُقروا العامل أكثر من سنة وأقروا أبا موسى أربع سنين. وروى ابن سعد أن عمر رضي الله عنه كان إذا جلس إليه أبو موسى قال له ذكرنا ياعبد الله فيقرأ له وللحاضرين القرآن الكريم. وقال أحد أصحابه ما سمعت صوتًا أجمل من صوت أبي موسى. إن كان ليقرأ فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته. وقلما كنت تلقاه يوم حرٍّ إلا صائمًا وقلما يطرقه الطارق ليلاً إلا وجده متهجداً وكان يروى أنه سمع هاتفًا في لجة البحر يقول: لقد قضى الله جل جلاله قضاء ألزم به نفسه أنه من عطَّش نفسه لله في يوم حار كان حقًا على الله أن يرويه يوم القيامة ووقف في بعض الغزوات في بستان خرب يصلي فسمعه القوم يقول اللهم إنك أنت المؤمن تحبُّ المؤمن وأنت السَّلام تحب السَّلام ورآه الناس قبيل موته يجتهد في العبادة حتى لا يكاد يفرغ نفسه فقالوا له لو رفقت بنفسك فقال: إن الخيل إذا أرسلت فقاربت آخر

مجراها أخرجت كلّ ما عندها والذي بقي من أجلي قليل. وكان لا يترك لبس السراويل خشية أن ينكشف شيء من عورته. وغلاة الشيعة يبغضون أبا موسي الأشعري ويتهمونه أنه خُدع في التحكيم وأن عليًا رضي بأبي موسي محكمًا بضغط من اليمانية مع أن ما أخرجه ابن سعد في طبقاته وابن عساكر في تاريخه يفيد أن أبا موسى ما قصد في التحكيم إلا وجه الله وأنه كان يرى أنه لو عُين عبد الله بن عمرو فلربما استقام أمر الناس فقد روي أن معاوية رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى يحثه على بيعته فكان ردُّه واضحًا أبلج. كتب إلى أبي موسى يقول: إن عمرو بن العاص قد بايعني بالخلافة وإني أقسم أنك إذا بايعتني على الذي بايعني لأستعملَّن أحد ولديك على الكوفة والآخر على البصرة وألاَّ يغلق دونك باب فاكتب إليَّ بخط يدك كما كتبت إليك بخط يدي. فردّ عليه أبو موسى أما بعد فإنك كتبت إلي في جسيم أمر الأمة فماذا أقول لربي إذا قدمتُ عليه. ليس لي فيما عرضت عليّ حاجة والسَّلام عليك. وقد شهد لأبي موسي كلٌّ من أرّخ حياته أنه كان صوامًا قوَّامًا ربانيًا زاهدًا متعبدًا جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر وأن الإمارة ما غيرته وأن دنياه ما نفذت يومًا إلى دينه وكان عليه الصلاة والسَّلام ربما خصه بالكلام والنصح من بين أصحابه. ففي الحديث الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال له: ياعبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة. قال بلى يارسول الله فقال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله. وهو من رواة الحديث الأعلام ورد له في الصحيحين من المتفق عليه تسعة وأربعون حديثًا وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة عشر رحم الله أبا موسى إمامًا قائدًا وسلام عليه في أهل الصدق والجهاد.



أُبيّ بن كعب رضي الله عنه

أُبي بن كعب صحابي أنصاري جليل من بني النجار أخوال والد النبي صلى الله عليه وسلم وهو صحابي إذ ذكر اسمه ذكر القرآن الكريم إذ كان رضي الله عنه من أعظم قرَّاء القرآن . كان من أوائل المسلمين بالمدينة شهد بيعة العقبة وشهد غزوة بدر الكبرى وله من الفضائل ما ينظمه في سلك الأئمة الكرام والمؤمنين الأعلام رضي الله عنهم جميعًا . وجاء في مناقبه رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أمرتُ أن أقرأ عليك القرآن . قال أبي : وسمَّاني ربي لك عزَّ وجل؟ قال نعم . قال وذُكرت عند رب العالمين؟ قال نعم فذَرَّفت عيناه رضي الله عنه وتلا قوله تعالى : ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ . وفي صحيح مسلم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب : يسأله عن أعظم آية نزلت من القرآن الكريم فقال أبي ﴿الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم﴾ يعني آية الكرسي فضرب النبي صلى الله عليه وسلم في صدره وقال له : (ليهنك العلمُ أبا المنذر) وكان من بين أربعة من الأنصار جمعوا القرآن وحفظوه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم معاذ بن جبل وأبي كعب وزيد بن ثابت ورجل يقال له أبو زيد من أعمام أنس بن مالك رضي الله عنهم . وفي حديث شامل لمناقب بعض الصحابة رضوان الله عليهم رواه ابن ماجة والترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. وأشدُّهم في أمر الله عمر. وأصدقهم حياء عثمان وأقرأهم لكتاب الله أبي بن كعب وأفرضهم أي أعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وإن لكل أمة أمينًا وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وفي سنن أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالناس فلُبس عليه آيةٌ لم يذكر ما وراء الآية التي قرأها فتوقف. فقال لأبي: أصلّيت معنا؟ قال: نعم. قال فما منعك أن تفتح علي؟ ولا شك أنه خصَّ أبيًا بذلك السؤال لثقته بقوة حفظه. وعرف عنه رضي الله عنه أنه كان يقرأ القرآن في تدبر ولهذا لم يكن يُتم القرآن في أقل من ثمان ليال. وقال له عمر يومًا إني لا أستعملك. أريدك أن تبقى بالمدينة يعني بذلك أنه لا يفرط فيه وذلك بإرساله عاملاً أي واليًا لبعض الأقاليم. وأضاف عمر رضي الله عنه أكره أن يُدَنَّس دينك وكان أبيٌّ رضي الله عنه مستجاب الدعوة، فقد روي أن عمر رضي الله عنه خرج قاصداً مكة المكرَّمة وكان معه نفر من الصحابة بينهم أبي فتقدم عمر وترك الباقين الذين مع أبي تركهم في المؤخرة فهاجت سحابة فقال أبي: اللهم اصرف عنا أذاها فلم تمطر على أبي والذين معه ثم لما أدركوا عمر والقوم الذين معه وجدوهم قد تبللت ثيابهم ورحالهم فسألهم عمر: ألم يصبكم من المطر مثلُ الذي أصابنا؟ قالوا: بلى ولكن أبا المنذر دعا الله أن يجنبنا أذى السحابة فلم تمطر. فقال لهم عمر رضي الله عنه: هلا دعوتم لنا معكم؟ ودخل يومًا على عمر رضي الله عنه رجل فأخذ يذم الدنيا ويقع فيها وكان أبيٌّ رضي الله عنه في المجلس، فقال للرَّجل: كل كلامك مقارب (أي قريب من الصحة والصدق) ولكن هل تدري ما الدنيا؟ إنَّ فيها بلاغنا وزادنا إلى الآخرة. وفيها أعمالنا التي نُجزَى عليها. فقال الرجل وكان لا يعرفُ أبيًا: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: هذا سيد المسلمين أبيٌّ بن كعب.

وكان أبيٌّ شديد الجَلَد على العبادة والسَّهر في قيام الليل فلما احتاجه الناس وطلبوه لتدريسهم القرآن خَفَّف من عبادته جداً وجلس لتعليم الناس لعلمه بفضل

القرآن وحفظه وتعليمه .

وقد قرأ القرآن على أبيٍّ عددٌ من أجلاء الصحابة، منهم عبد الله بن عباس وأبو العالية وعبد الله بن السائب وكان أمير المؤمنين عمر يجل أبيا ويتأدب معه ويحيل المتحاكمين إليه. ولما أراد عثمان رضي الله عنه أن يجمع القرآن دعا اثنى عشر رجلاً لجمعه. في مقدمتهم أبيُّ بن كعب وزيد بن ثابت وكان أبي رضي الله عنه من المحدِّثين فقد روي عنه مائة وأربعة وستون حديثًا منها ثلاثة في صحيح البخاري وسبعة في صحيح مسلم، وثلاثة اتفق عليها الشيخان. حدث أحد الصحابة واسمه عُتي بن ضمرة قال : رأيت أهل المدينة يموجون في سككهم فقلت : ما شأن هؤلاء؟ فقال بعضهم : ما أنت من أهل البلد؟ قلت لا . قال فإنه مات اليوم سيد المسلمين أبيُّ بن كعب غفر الله له ورضي عنه .

وكان رضي الله عنه نحيفًا قصيراً ولكنه كان عظيم المهابة وكان ابن عمه أبو طلحة الأنصاري الذي تصدَّق بأحب ماله إليه بستان بيرحاء الذي كان عذب الماء رائع الثمار. وكان أبيٌّ رضي الله عنه عظيم الخشوع شديد الخشية حدث يومًا فقال : انطلقت يومًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب بيده صدري ثم قال : أعيذك بالله من الشك والتكذيب. وقال له رجل يومًا : أوصني. فقال أبيّ : اتخذ كتاب الله إمامًا. وارض بربك قاضيًا وحكمًا فإنه هو الذي بعث فيكم نبيكم شفيعًا مطاعًا وشاهدًا لا يُتَّهم، وأنزل عليكم كتابًا فيه ذكركم وحكم ما بينكم وخبركم وخبر ما بعدكم. وكان يكثر أن يقول كنا مع نبينا صلى الله عليه وسلم ووجهنا واحد. فلمَّا قبض نظرنا هكذا وهكذا. وقال مرَّة يعظ : المؤمن بين أربع : إن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر، وإن قال صدق، وإن حكم عدل. فهو يتقلب في خمسة كلها نور يقول الله في عمله ﴿نور على نور﴾ كلامه نور وعلمه نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة. ومما رواه أبي رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك أن يحسر الفرات عن جبل من ذهب فإذا سمع به

الناس ساروا إليه . فيقول من عنده . لئن تركنا الناس يأخذون منه لا يدعون منه شيئًا فيقتتل الناس فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون . ومن الأحاديث التي رواها أبيٌّ رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بشِّر هذه الأمة بالسَّناء والنصر والتمكين ومن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب وروى أيضًا رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذهب ربع الليل قال : يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة .

رضي الله عن إمام القرَّاء أبي بن كعب وعسي أن يجعلنا جميعًا من أهل القرآن الذين يؤنس القرآن وحشتهم ويحاج في الحساب عنهم ويأتي بين يدي الله شفيعًا لهم ويرافقهم بعدئذ إلى جنَّة الله ورضوانه .



عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عبد الله بن عمر بن الخطاب من النماذج الرائعة لشباب الإسلام تقرأ سيرته فتحسُّ لها نقاء وصفاءً ووضاءة منذ أسلم وهو طفل إلى أن توفي وهو في السابعة والثمانين من عمره. روي أنه أسلم قبل أبيه. وجاهد قبل أن يحتلم وتقدم للجهاد يوم أحد فاستصغره رسول الله صلى الله عليه وسلم وردّه وكانت أولى غزواته الخندق وشهد الحديبية وكان ممن بايع النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة. وأخته لأمه وأبيه حفصة أم المؤمنين. ووالدته زينب بنت مظعون أخت الصحابي الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنه. وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق ابن عمر مجاهدًا بطلاً في الشام والعراق وفارس ومصر وبذلك جمع العلم والبطولة رضي الله عنه.

وفي حديث حسن الإسناد أن ابن عمر كان إذا حج أو اعتمر أخذ من لحيته ما جاوز القبضة وروي عن ابن عمر خلق كثير من أهل الحديث أما هو فروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وبلال وصهيب وسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وعثمان بن طلحة وزيد بن الخطاب. وكان ابن عمر وهو شابٌّ أعزب ينام في المسجد فرأى في المنام كأن ملكين عتلاه إلى النار فرأى في النار قومًا يعرفهم فطفق يتعوذ بالله من النار فقصت حفصة تلك الرؤيا

على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل فكان بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قدراً ضئيلاً وكان رضي الله عنه قويًا شديد الأسر وكان كما وصفه ابن مسعود أملك شباب قريش لنفسه عن الدنيا وقد حمى الله ابن عمر من الفتنة أيام عثمان فاعتزل الأمر ولم يطالب بالخلافة وقال سعيد بن المسيب : كان ابن عمر يوم مات خير من بقي. وكان رضي الله عنه من الأغنياء الشاكرين إذا أحبّ شيئًا تصدق به استجابة لقول الله تعالى ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وكان يزهد في الدنيا فيلبس الإزار إلى نصف ساقيه لكنه كان ربما لبس مطرف الخز مما يسوى خمسمائة درهم. وكان نقش خاتمه (عبد الله بن عمر) وكان إذا ذكر الفتنة قال كففت يدي فلم أندم ولكن الذين قاتلوا على الحق أفضل مني. وكان حريصًا على اتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقد كان يتابع خطو رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يهتم بها ويصب في أصلها الماء لكيلا تيبس وكان إذا ذكر النبيَّ بكى. وكان يتوضأ لكل صلاة ويقرأ القرآن على كافة أحواله وكان لا يكاد ينام من الليل إلا قليلاً فيبيت لله ساجداً وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه وكان لا يصوم في السفر ولا يكاد يفطر في الحضر. واستقرض مرة من رجل ألف درهم فلما ردها إليه جعلها ألفًا ومائتين حتى يكون حسن الأداء. وهذا جائز إذ لم تكن الزيادة شرطًا أما إذا شرطت فهي إذ ذاك ربا. ولقد استلف النبي صلى الله عليه وسلم بكراً فلما أراد الوفاء لم يجد إلا خياراً رباعيًا فقال لخازن اعطه إياه إن خيار الناس أحسنهم قضاءً.

ورفض عبد الله بن عمر أن يبايعه الناس بعد مقتل عثمان وقال والله ما أحبُّ أنها دانت لي سبعين سنة وأن يقتل بسيفي رجل واحد. وفي طريق مكة لقى ابن عمر راعيًا فقال له بعني شاة فقال إنما أنا مؤتمن قال بعني إياها وقل أكلها الذئب قال الراعي فأين الله عزَّ وجل فطفق ابن عمر يكرر فأين الله عزَّ وجل ثم اشترى العبد

فأعتقه واشترى له الغنم. وركب مرَّة ناقة فأعجبته مشيتها وسرعتها فأناخها وجللها وقال اجعلوها في البُدْن لنقربها إلى الله مع الهدي. وجاءه مرَّة أحد غلمانه فقال ياأبا عبد الرحمن إنني كاتبتك لأشتري نفسي وقد عجزت فقال له رضي الله عنه اذهب فأنت وأمُّك وولداك أحرار لوجه الله تعالى.

وكان نافعٌ راوية الحديث في مطلع حياته عبدًا عند ابن عمر فحاول عبد الله بن جعفر شراءه منه ورغبه فسامه بعشرة آلاف درهم فقال عبد الله بل غير ذلك أولى لقد أعتقته لوجه الله. ومع غناه رحمه الله كان إذا أعسر صبر على الجوع حتى لقد قال عن نفسه إنه ليأتي عليَّ ثماني سنين ما أشبع فيها شبعة واحدة. ومرض يومًا فاشتهى عنبًا في أوائله فأرسلت امرأته بدرهم واشترت له عنقودًا ودخلت به عليه وإذا وراءها سائل فقال ابن عمر أعطوه إياه واشترت آخر فتبعها نفس السائل فقال ابن عمر أعطوه إياه فقالت للسائل إلى متى. لا تعد إليَّ وقال رضي الله عنه عن نفسه إني أخرج من بيتي وأتجول في السوق ومالي حاجة إلا أن أسلم على الناس ويسلموا عليَّ. وكان لا يلقى صغيراً ولا كبيراً إلا ويسلِّم عليه من أجل المثوبة ومكث رضي الله عنه يفتي الناس ستين سنة وكان يرفض أن يتولى منصبًا في الدولة دعاه عليٌّ رضي الله عنه في أول خلافته وقال له : إنك في الشام محبوب وقد ولَّيتك ديار الشام فاعتذر فلم يقبل عليٌّ عذره فهرب إلى مكة واختفى بها وكان إذا ذكروا الخلافة أمامه صمت حتى لا تكون فتنة ويقول والله لا يهراق بسببي قطرة دم ما دام فيَّ روح. وكان رضي الله عنه يكره الحجاج لقسوة قلبه على عباد الله ولما بويع عبد الملك بن مروان كتب ابن عمر إليه أما بعد فإني قد بايعت لك بالسمع والطاعة على سنة الله ورسوله وحدث ابنه سالم أن أباه مات بمكة من جرح في قدمه وأوصى أن يدفن خارج الحرم ولكنهم على ما يبدو لم يقدروا فدفنوه داخل الحرم في مكان بمكة يدعى فخ في مقبرة المهاجرين وسنه بين أربع وثمانين وسبع وثمانين سنة وأوصى رجلاً أن يغسله ويعتني بغسله فغَسَّله ودلكه بالمسك ودفنه في مقبرة

المهاجرين وكان يأسف كلّما ذكر عليًا ويقول وددت أنني اتبعته وقاتلت معه الفئة الباغية. والحقُّ أن ابن عمر ذهب في الزهد مذهبًا بعيدًا عظيمًا رضي الله عنه وعن أبيه وأي رجل أحسن دينًا وأعف نَفْسًا من رجل عرضت عليه الخلافة فأباها وعرض عليه القضاء لعثمان فردّه وأبى أن ينوب عن عليٍّ فيتولى الشام والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا فاتته العشاء في جماعة كفَّر عن ذلك فأحيا تلك الليلة. وقرأ مرَّة سورة المطففين فلما بلغ قوله تعالى ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ سقط مُغمىً عليه ولم يكمل السورة. وكان رضي الله عنه واسع العلم حتى لقد جمع عالمٌ من أحفاد المأمون فتاواه في عشرين كتابًا. وكان قارئًا كاتبًا ومن أصح الصحابة رواية للحديث وتزوج ستًا من النساء وخلَّف ثلاثة عشر ولدًا وثلاث بُنيَّات. وكان مطعمًا للطعام كانت له جَفنة عظيمة تُملأُ ثريدًا ولحمًا فيجتمع عليها خلق كثير ويأكلون اللحم والفراخ ويزدحمون حتى يأكل بعضهم واقفًا ويشربون من مزادتين نبيذًا وماءً. وأراد بعض القوم أن يبايع ابن عمر فاجتمعوا وطلبوا منه أن يدعو إلى نفسه بالخلافة فرفض وقال لو اجتمعت عليَّ الأمة إلاَّ ثلاثة علوج بقَطَر ما قاتلتهم. ودخل الحرم يومًا فسمع يدعو وهو ساجد اللهم إنك تعلم أنه ما يمنعني من مزاحمة قريش على الدنيا إلا مخافتك. وكان عبيده يضاعفون من صلاتهم فإذا رآهم مجتهدين في العبادة أعتقهم فيقول له الناس هؤلاء يخدعونك فيقول من خدعنا بالله عزَّ وجل تخدَّعنا له. وكان أكرم الناس في زمانه باع أرضًا له بمائتي ناقة فتصدق بمائة على مجاهدين وعاهدهم ألا يبيعوها بل يجاهدوا عليها. وكان قلما يأكل إلا مع المساكين واليتامى وتعشى مع القوم يومًا فغاب عن مائدته يتيم فبحث حتى وجد طعامًا خبَّأته له زوجته وأطعمه لليتيم، رضي الله عن ابن عمر إمامًا في العلم والجود والزهد ومخافة الله وسلام عليه وعلى والده في الخالدين.



أبو مسلم الخولاني
رضي الله عنه

أبو مسلم الخولاني عالم مجاهد عابد كان رضي الله عنه من مفاخر اليمن علمًا وتضحية وجهادًا . وكان له جَلَدٌ على العبادة حتى لقد كان ربما صلى في ليلة واحدة ثلاثمائة ركعة .

وقد أسلم مع قومه في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاع في الناس له ذكرٌ ومكارم أخلاق فأرسل إليه الأسود العنسي المتنِّبىءُ الكذاب ودعاه أن يؤمن به وبنبوته فرفض وأعلن أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا هو رسول الله فغضب الأسود وأمر أن توقد لأبي مسلم نار عظيمة وأن يُقذفَ فيها ودخل أبو مسلم نار الأسود غير هيَّاب ولا وجل فلم تضرهَّ النار ورأى الناس ذلك المنظر الذي نجى الله فيه أبا مسلم من النار فدخل الناس مرَّة أخرى في رحاب الإسلام وتركوا دين الأسود فلم يجد الأسود مناصًا من نفي أبي مسلم من اليمن فتوجه رضي الله عنه إلى المدينة المنوَّرة ليلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحظى بصحبته . لكنه حين وصل إلى المدينة وجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جاور الرفيق الأعلى ووجد أن الناس قد استخلفوا أبا بكر رضي الله عنه .

ومما يُذكر في هذا المجال أن الأسود العنسي كان رجلاً دجالاً من اليمن ادَّعي النبوة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبهلة وقد ارتد عن

الإسلام فاتبعه خلقٌ كثير من بينهم مُعظم قبيلته مَذْحج وكانت له حيل شيطانية وأفعال مرهبة فكان ربما عَلَّق في حجرته جماجم بشرية يصدر عنها صفير وربما ادعى تسخير الجنّ والمهم أنه استرهب الناس وفتنهم وملك معظم اليمن حتى سخَّر له نفراً من المؤمنين الذين صَدَقوا الله ما وعدوه. كان بعضهم من الفرس وبعضهم من اليمانيين وبعضهم من نسائه وسكان قصره تواعدوا في ليلة مباركة ودخل عليه فدائيون منهم فاغتالوه ولما حان أذان الفجر أذن المؤذن بأذان المؤمنين وسرى صوته كأنفاس الجنة أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله فتفرق جنود عبهلة ورجع كثير منهم إلى دين الله وانتهت قصة الأسود الكذَّاب بخذلانه وهزيمته ومصرعه. وقد هلك قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهر واحد.

ونعود إلى الإمام الجليل أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه الذي طرده عبهلة الأسود فقد وصل إلى المدينة كما أسلفنا في أول خلافة الصدّيق فأناخ راحلته عند المسجد ودخل فصلى وبكى لأنه لم يحظ بلقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه عمر رضي الله عنه وكان قد بلغه أن أبا مسلم قد توجه إلى المدينة وبفراسته المعروفة توسم فيه عمر أنه أبو مسلم فسأله بعد التحية: ممن الرجل؟ قال من اليمن. قال عمر: ما فعل المؤمن الذي حرقه الكذاب بالنار فلم تؤذه فقال: ذلك رجل يقال له عبد الله بن ثوب ويلقبه الناس أبا مسلم الخولاني. قال له عمر: نشدتك بالله. أنت هو؟ قال: نعم. فاعتنقه عمر وبكى ثم أخذه إلى الصديق فأجلسه الصديق بينه وبين عمر. فقص عليهما قصته مرة أخرى فبكى عمر وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد من صُنع به كما صنع بخليل الله.

كانت أمنية أبي مسلم أن يطلب العلم ويسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم فتحقق له من ذلك نصيب وافر فتطلع إلى سنام الأمر وعموده الجهاد في سبيل الله والاستشهاد دون هذا الدين فرحل إلى بلاد الشام وأقام بمدينة داريا. ومنها توجه إلى بلاد الروم. وكان إذا غزا لا يفطر حتى تقوم المعركة أمَّا إذا لم

يحصل قتال فإنه كان يظلُّ صائمًا. فدخل عليه يومًا جماعة فوجدوه يتقلب في ماء بارد فقالوا له أتصوم في الغزو ودمشق في هذه الأيام حارة فقال: إن بين أيدينا أيامًا أشدَّ حرًا من أيام الغزو ونحن نصوم ونتعب لعلنا نستريح فيها.

وكان لأبي مسلم رضي الله عنه في الغزو كرامات فقد كان الجيش المسلم إذا اعترضته مخاضة أحضروا أبا مسلم فجعلوه أمامهم فيخوضها أمامهم فلا يصل الماء إلى رُكَب الخيل وكان يقول للجنود إذا سقط شيء من متاعكم فأنا ضامنه. وكان من قبل ذَلك معروفًا بخبرته العظيمة في أمور البحر وأعماقه. ومعرفة الأعماق على حسب ألوان المياه وسطوحها. ومن كراماته أن امرأة زارتهم يومًا ويبدو أنها أعجبت بفروسيته فأفسدت عليه زوجته فدعا عليها فعميت وبعد مدة جاءته تائبة باخعة بذنبها فقال: اللهم إن كانت صادقة في توبتها فتب عليها واردد عليها بصرها. فأبصرت. وكان رضي الله عنه عظيم الجلد على القيام والسهر في طاعة الله حدث عنه أحد أصدقائه أن رجلين أتياه في منزله فقال لهم بعض أهله: هو في المسجد. فأتيا المسجد فوجداه يركع فانتظرا انصرافه من الصلاة وأحصيا ركوعه فكان أكثر من ثلاثمائة ركعة وكان يكثر أن يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث هادفة لها مرامٍ أخلاقية منها قوله صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليَّ ربي أن أجمع المال وأكون من المتاجرين ولكن أنزل علي أن سبح بحمد ربك وكن من السَّاجدين واعبد ربك حتي يأتيك اليقين. وكان رحمه الله يقول للناس: ارفعوا أصواتكم بذكر الله وكبروا مع الصبيان حتى يظن الناس أنكم مجانين.

ودخل يومًا على معاوية رضي الله عنه فقال: السَّلام عليك أيها الأجير. فقال بعض الناس بل قل أيها الأمير فقال معاوية: دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول. ونصح مرة معاوية رضي الله عنه فقال: اعلم يامعاوية أنك إن جئت بشيء كان لك شيء. وإن لم تجيءْ بشيء فلا شيء لك. لا تحسبن الخلافة جمع المال وتفريقه. الخلافة هي العمل بالحق والقول بالعدل. وأخذ الناس في ذات الله. إنا يا معاوية

لانبالي بكدر الأنهار ما صفا لنا رأس العين وإنك رأس عيننا فاصف ليدوم لنا الصفاء. وخطب معاوية يومًا وكان قد حبس رواتب الناس شهرين. والناس لا يتكلمون رهبة من معاوية فلمّا نزل قال له أبو مسلم : يا أمير المؤمنين إن هذا المال ليس بمالك ولا بمال أبيك وأمّك فأحس معاوية رضي الله عنه بالغضب فأشار للناس أن امكثوا. ونزل عن المنبر ومضى فاغتسل فلما عاد قال : صدق أبو مسلم فيما قال : من أن المال ليس بمالي ولا مال أبي ولا أمي. ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الغضب من الشيطان. والشيطان من النار. والماء يطفىء النار. فإذا غضب أحدكم فليغتسل. اغدوا على عطاياكم فخذوها على بركة الله عزّ وجل) وكانت جرأته في وعظ معاوية رضي الله عنه مشهودة دخل عليه مرة فقال له : وددت لو سميت نفسك أجير المسلمين فذلك أدنى أن يذكّرك بسؤال الله لك. لا أن تسمّي نفسك أمير المؤمنين فترى منها جماحًا.

وقد توفي رضي الله عنه في غوطة دمشق فمر بعض زملائه من العسكر على راهب فقال لهم مات أبو مسلم الخولاني وهو رجل نجده في كتبنا رفيق عيسى ومن المباركين. ولما وصلوا الغوطة وجدوه قد مات. ومع أنه كان حريصًا على الشهادة فقد مات على فراشه ولما بلغ معاوية نعيُّه قال : هذه والله كلُّ المصيبة. ويبدو أنه رحمه الله توفي قبل معاوية بقليل رحم الله أبا مسلم الخولاني إمامًا عالمًا مجاهدًا بذل كلَّ عمره في سبيل الله فنال بإذن الله مجدًا في بلاده وفي مدينة نبيه وفي مُهَاجَره ومسارح جهاده وظلَّ مثلاً يحتذى في الصبر والجهاد والقدوات الصالحات.

٤٠

عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه

عبد الله بن عمرو بن العاص صحابي قارىء كان عظيم الصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم اشتهر أبوه بالدهاء السياسي والعسكري واشتهر هو بحبِّ العبادة ورواية الحديث وحفظ العلم الشريف. وهو قرشي من فخذ يقال لهم بنو سهم. اشتهر في الرواة حتى لقد أحصي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة سبعمائة حديث منها ثمانية في صحيح البخاري وعشرون في صحيح مسلم وسبعة مما اتفق عليه الشيخان. وقد سمح له رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابة الحديث وكان رضي الله عنه كاتبًا. مع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمنع أن يكتب حديثه خشية أن ينصرف الصحابة عن القرآن الكريم ويشتغلوا بدلاً منه بالحديث لكنه أذن لعبد الله بن عمرو ويبدو أن هذا الإذن جاء في وقت لاحق حين زال احتمال التقصير في القرآن وقد روى الحديث عن كبار الصحابة كما روى عن كبار التابعين.

وكان رضي الله عنه عظيم الجسم أحمر الوجه طويلاً. واشتهر بحبه للعبادة وطول السهر والتهجد وتلاوة القرآن. وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم آل عمرو بن العاص فقد روى أحمد في مسنده والترمذي أن النبي عليه الصلاة والسَّلام قال: عمرو بن العاص من صالحي قريش. نعم أهل البيت أبو عبد الله وأم عبد الله وعبد الله. ولقد بلغ من حبّ عبد الله للعبادة أنه كان يصوم النهار ويقوم

الليل بدون انقطاع . وكان يخفي ذلك عن أبيه رضي الله عنهما . وفي يوم جاء والده إلى بيته ليسأل عن أحوال ولده وزوجة ولده فوجد الكنَّة ولم يجد زوجها فسألها كيف عبد الله فقالت له : نعم الرَّجل عبد الله أسهر نفسه في عبادة ربّه فلم يقرب لأهله فراشًا فشكاه أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكر النبي على عبد الله انقطاعه للعبادة عن أهله وقال : لكني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأمس النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني . وقد استأذن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصوم الدَّهر كلَّه وأن يقرأ القرآن في كل ليلة فكان آخر ما سمح له به أن يصوم يومًا ويفطر يومًا وهذا صوم داود عليه السلام وأن يقرأ القرآن كل ثلاث ليال على أكثر تقدير . وقال له إن لأهلك عليك حقًا وإن لعينك عليك حقًا وإن لضيفك عليك حقًا . ولما كبر عبد الله بن عمرو وجاوز المائة أثر طول العبادة في صحته فكان ربما قال وهو نادم ليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحق أن النبي الكريم جاء باليسر والسماحة وجمال الإسلام ولم يجعل على أمته في الدين من حرج . ولو أن عبد الله اتبع طريقة اليسر التي كانت منهج رسول الله ولو أنه اكتفى بالعبادة المعتدلة لتمكن أن يداوم عليها ولكان القليل الدائم خيرًا له من الكثير المنقطع . ولكنه رضي الله عنه أوغل في العبادة بحماسة مندفعة فلم يستطع أن يحافظ على ما عود نفسه عليه .

وقد حضر رضي الله عنه معركة صفين لكنه كان إذا حدث عن ذلك أقسم أنه ما قتل طول الفتنة مسلمًا وكان كلما ذكر صفين يقول ليتني مت قبلها بعشرين سنة لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار : تقتلك الفئة الباغية ومما يذكر أن عمارًا رضي الله عنه قتل وهو يحارب في جيش علي رضي الله عنه .

وكان عبد الله رضي الله عنه حريصًا أن يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمتابعة الصيام ما نشطت إليها نفسه لكنَّ النبي الكريم كان أرأف بالمؤمنين من أنفسهم فقال له (إن من حسبك أن تصوم من كل جمعة ثلاثة أيام) وذكَّره أن حقوق الأهل

والضيف والعبيد في تأديتها ثواب أي ثواب. وكانت زوجته رضي الله عنها رفيعة مستوى الذوق واللباقة في الحديث وانظر إلى عبارتها المهذَّبة حين سأل حمُوها عمرو عن زوجها عبد الله فقالت رضي الله عنها: هو خير الرِّجال وحسبك به عابداً لم يفتِّش لنا كنفًا ولا قَرَب لنا فراشًا. ففهم عمرو رضي الله عنه مقصدها وقام إلى ابنه الصالح فقال له: انكحتك امرأة من قريش ذات حسب ففصلتها وفعلت ما فعلت وانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو ابنه إليه فدعا النبيُّ عبد الله وسأله: أتصوم النهار؟ قال نعم. ثم قال له: أتقوم الليل؟ قال نعم. فقال له عليه الصلاة والسلام: إن لعينيك عليك حقًا وإن لضيفك عليك حقًا. وإن لأهلك عليك حقًا. وكان عبد الله رضي الله عنه قارئًا لكتب أهل الكتاب يعرف التوراة والإنجيل ولعلَّه تعلمهما ليزداد بصيرة بعظمة دين الإسلام وهدي محمد عليه الصلاة والسلام.

ولقد كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنه من ملوك الصحابة غنىً وكرمًا كما كان من أجلائهم دينًا وعبادة وشرفًا. لقد ورث عن أبيه قناطير من الذهب المصري الخالص فأنفق من سعة في وجوه الخير والجود والإحسان وكان كثيراً ما يخفي خشوعه لله تواضعًا حتى لقد كان ربما أطفأ السراج إذا هملت دموعه من خشية الله تجنبًا للرياء والسمعة وما أبطره الغنى يومًا فأنساه منهج الخاشعين والمتواضعين.

وكان من أعظم أهل زمانه جوداً وتواضعًا للفقراء. كان موكبه في الحج يتجاوز ثلاثمائة راحلة جميعهم يحجون على نفقته. ويرعاهم ببره ومروءته. وقد عُمّر في الإسلام طويلاً ونفع الله بعلمه. عاش رضي الله عنه قرابة مائة وعشر سنين ومما يذكر أن أباه كان أكبر منه ببضع عشرة سنة. رضي الله عن عبد الله بن عمرو بن العاص كاتبًا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصًا على منازل الصديقين وسلام عليه صحابيًا كريمًا لم تبطره القناطير المقنطرة من الذهب بل أنفقها في مرضاة الله ولم يتمكن المال أن يحيد به عن سنن الصالحين.



الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحبهم إلا مؤمن ولا يكرههم إلا باغٍ أو منافق أو فاسق ومع أن تاريخ آل البيت في مجموعه تاريخ مؤلم حقًا لكن الحكمة الإلهية فوق كل حكمة والإرادة الإلهية فوق كلّ إرادة لقد قتل الحسن مسمومًا رحمه الله وقتل الحسين قتلة مؤلمة وقتل زين ابن الحسين وقتل كثير من تلك النفوس الزكية العابدة ولم تكتب الخلافة في عصورها الأولى لأي من آل البيت ولكن الأمور كلها بيد الله وما يدرينا أن الله جلّ جلاله لم يكتب الخلافة لآل البيت لأن رضاء الناس غاية لا تدرك والحاكم مهما عظم عدله وحلمه وجوده لا يمكن أن يرضى عنه الناس كلُّهم وإذا خرج إنسان من عند حاكم دون أن ينال بغيته فلابد أن يغضب والغضبان قد يسبُّ ويشتم ولا يكتفي أن يسبُّ من أغضبه بل لعله يتعدَّى فيسبُّ أبا الحاكم وجدَّه وهذا أمر لم يرضه الله لآل بيت رسوله ولا رضيهم له والله جلَّ جلاله أهل الحمد والثناء معطيًا وآخذاً وباسطًا وقابضًا اللهم اجعلنا من محبي آل البيت ومن رفقائهم في الدنيا والآخرة .

إن سيرة الحسن بن علي رضي الله عنه يقع في أثنائها كثير من السيرة النبوية الكريمة الفاضلة لأن أولاد فاطمة كان يعدُّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عترته وآل بيته وكان يحبُّ فاطمة لأنها بعد موت والدتها خدمته وخدمت بيتها ولأن

زوجها عليًا رضي الله عنه دافع عن دين الله ورسول الله ووقف دونهما كالليث عاديًا. وكان صلى الله عليه وسلم يقول: فاطمة بضعة مني.

بعد سنتين ونصف من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما فسعد بمولده رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له ساعة ولادته وأذَّن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وعقّ عنه وسُرَّ به كثيرًا حين رأى في ملامح وجهه شبهًا بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان الذي يرى الحسن في كبره كالذي ينظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عليه الصلاة والسَّلام يحبُّ الحسن ولا يصبر عن مداعبته حتى لقد روى أنه عليه الصلاة والسَّلام إذا ذهب من بيته إلى الصلاة عرَّج في طريقه على بيت فاطمة فينظر إلى أطراف البيت ويسأل: (أثمَّ لُكع) يعني هل هناك الولد المشاغب؟ فإذا وجده داعبه بقبلة ونحوها وإلا استأنف طريقه إلى المسجد. وكان حسن ربما دخل المسجد وعمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقدمة الجماعة فإذا وجده ساجدًا ركب فوق عاتقه وهو ساجد؛ فيطيل النبي صلى الله عليه وسلم سجوده وربما التفت إلى الجماعة فاعتذر إليهم وقال لهم: ارتحلني سبطي (يعني ابني) فكرهت أن أقطع عليه لعبته. وكان صلى الله عليه وسلم يرعى تربية الحسن منذ نعومة أظفاره حتى لقد رآه يومًا يأكل تمرة من تمر الصَّدقة فنزعها من فمه بيده الشريفة وهو يقول: إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة. وكبر الحسن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ سبع سنوات ولشوق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الذرية وحبه للأطفال كان لا يكاد يَفارق حَسَنًا وحسينًا وكان كثيرًا ما يدعو لهما ويقول: اللهم إني أحبهما فأحببهما وكان أبو بكر رضي الله عنه يحبُّ الحسن لشبهه برسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه مرةً يلعب مع صغار الصبية فرفعه بين يديه يُقبلهُ وأبوه ينظر إليه ثم ارتجز أبو بكر وهو يرفعه وهو ينشد:

بأبي شِبْهُ النبي ليس شِبْهًا بعلي

وعلي يضحك أيضًا. رضي الله عنهما وعن أصحاب رسول الله أجمعين .

ورآه النبي صلى الله عليه وسلم وأخاه حُسينا وقد دخلا المسجد وعليهما ثوبان أحمران طويلان وكلما مشيا بالثوبين عثرا فوقعا ثم نهضا فنزل عليه الصلاة والسلام عن المنبر وحملهما وعاد بهما إلى المنبر فأجلسهما بين يديه ونظر إلى الناس فقال : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) نظرت إليهما يقعان وينهضان فلم أصبر . وكان عليه الصلاة والسلام إذا أحسَّ بالحسن قريباً منه يلعب فرَّج ما بين رجليه وفتحهما وهو راكع فيدخل الحسن من بينهما إلى الجهة الأخرى. وكان كثيراً ما يدعو له فيقول اللهم إني أحبُّه فأحبَّه واحبب من يحبُّه. ومرت الأيام فكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا رأى الحسن وهو شابٌّ دمعت عيناه فإذا سُئل قال : إذا رأيته تذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلس الحسن بجانبه على المنبر وهو يقول: إنَّ ابني هذا سيد ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين. وروى الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. وكان الحسن رضي الله عنه جميل الصورة مبارك الطلعة يزينه إلى ذلك وقار ورزانة ورأي وتدبير . وكان من أجواد العرب في الإسلام حتى ضربت بجوده الأمثال وقد أشاد بجوده الشعراء ومدحوه كريمًا ممدَّحا فياض اليدين وكان ربما أعطى محتاجًا مائة ألف وكان عظيم العبادة لربه روي أنه حجَّ خمس عشرة مرَّة وحجَّ كثيراً من حجاته ماشيًا من مكة إلى المدينة وتصدق مرتين بنصف ماله وفي معجم الطبراني أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه جابر بن عبد الله رضي الله عنه فوجده قد أردف حسنًا وحسينا على ظهره وهو يقول: لهما نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما. وهذه النظرة الرحيمة إلى الأطفال كانت من دروس التربية النبوية الكريمة. وودت أن يعيها الناس في أيامنا هذه. في هذه الأيام إذا اقترب صبي من أبيه وهو يصلي فربما دفعه والده بعنف وقد يرزق بمتفقه جاهل يقول له إن ملابس الطفل نجسة مع أنه

عليه الصلاة والسَّلام صلى بالناس وهو يحمل أميمة بنت أبي العاص وهي طفلة صغيرة رحمة بأمها بنت النبي الكريم زينب رضي الله عنها. وكان عليه الصلاة والسَّلام ربما حمل حسنًا وحسينا وربما ارتحلاه وهو ساجد فلا يسأل عن ملابسهما. وكان عليه الصلاة والسلام ودودًا بعترته وذوي رحمة جاء في مسند أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى علي وابنيه وفاطمة فقال: أنا حربٌ لمن حاربكم سلْمٌ لمن سالمكم. ولما دوّن عمر الدواوين ونظم الأعطيات كتب للحسن والحسين خمسة آلاف درهم كأعطية من شهد بدراً. وقد عرف عن الحسن أنه كان كثير العبادة والقيام وكان يداوم قراءة سورة الكهف قبل النوم. وسمع مرةً رجلاً يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم ليسدَّ دينه فأرسلها إليه. وصالح الحسنُ رضي الله عنه معاوية رضي الله عنه عام الجماعة حرصًا على وحدة المسلمين وحقنًا لدمائهم. فابتهج المسلمون بذلك وعدوّا ذلك العام عامًا مباركًا ويروى أن الحسن مات مسمومًا وأنه كان يعرف الذي سَّمه لكنه لم يخبر أحدًا بذلك لشدة حرصه على اجتماع الشمل وتخوُّفه من تصدُّع الوحدة ودفن رضي الله عنه في البقيع عن سبع وأربعين سنة بعد عمر حافل بالحلم والكرم والصفح الجميل اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل وصحبه الطيبين الطاهرين وألهمنا حبَّه وحبَّ آل بيته الذين تطيب بهم الأحاديث وتحلو بذكرهم الحياة.



الربيع بن خثيم

يكبر العالم في عيني حين أعلم أن الدنيا أقبلت عليه فزهد فيها وأنه ترك أطماع الحياة وأقبل على ما عند الله . والربيع بن خثيم الثوري كان من أولئك العلماء لقد أدرك ذلك العالم الزاهد عصر النبي صلى الله عليه وسلم وكان من ملازمي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان إذا دخل على عبد الله بن مسعود لم يأذن ابن مسعود لغيره حتى يفرغ كلٌّ منهما من صاحبه . وبلغ من إعجاب ابن مسعود بالربيع أن قال له يومًا : يا أبا يزيد لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبَّك . وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين . والمخبت هو المؤمن الخاشع المتواضع المطمئن بإيمانه واستسلامه . وشهد للربيع جلساؤه الذين صحبوه أنهم ما سمعوه رحمه الله يلفظ كلمة واحدة لا تصعد إلى السماء وأنَّ لغو الحديث ما كان يصدر عنه إنما هو الكلام الذي ذكره ربُّنا في سورة فاطر إذ يقول عزَّ وجلَّ : ﴿إليه يصعدُ الكلمُ الطيِّبُ والعملُ الصالحُ يرفعه﴾ ولقد ذكر بعض ملازميه أنه صحبه سنين فما سأله الربيع عن شأن من شئون الدنيا إلاَّ مرَّة واحدة قال له أأمك حيَّة؟ كأنه يريد أن يطمئنَّ على برِّه بها .

وكان إذا سُئل كيف أصبحت؟ يقول : أصبحت ضعيفًا مذنبًا آكل رزقي وانتظر أجلي . وكان إذا جاءه طالب علم يسأله يقول له : اتق الله فيما علمت . وما استؤثر به عليك فكله إلى عالمه . السرائر السرائر اللاتي يخفين على الناس وهنّ لله

باديات التمسوا دواءَهَنّ بالتوبة التي لا يُرجع بعدها للذنوب .

وأجمل ما في سيرة الربيع بن خثيم أنه كان يحرص على كتمان أعماله وربما دخل عليه داخل وهو يقرأ القرآن فيغطي المصحف حتى لا يُرى وهو يقرأ وكان يقول : كلُّ عمل لا يراد به وجه الله يضمحل . وصنعت له زوجته مَرَّة طبخة يقال لها الخبيص فدخل عليه رجل مريض يسيل لعابه وأخذ الربيع يطعمه فقالت له زوجته : تطعمه وهو لا يدري ما أكل فقال لها الربيع ولكن الله يدري . وكان من حرصه على كتمان عبادته لا يصلي في المسجد إلاَّ الفريضة ثم يخرج ليصلي نوافله في بيته حتى لا يذكره الناس بعبادة طويلة .

وقد أصيب رحمه الله في صحته وألح عليه الفالج حتى لقد كان يقول وهو يعاني من آلام الشلل : ما أودُّ أن يكون مثل هذا الألم في مسلم ولا كافر . ومع الشلل كان قليل النَّوم فتقول له ابنته يا أبتاه ألا تنام؟ وهو يقول لها : كيف ينام ياابنتي من يخاف البيات يعني يخاف أن يهاجم ليلاً . يشير بذلك إلى قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿أفأمن أهل القُرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا وهم نائمون) وكان رحمه الله لا يصلي صلاة مكتوبة إلا في المسجد رغم الفالج فيقول له أصحابه لقد رخص الله لك في ذلك فيقول إني أسمع حيّ على الصلاة فإن استطعتم أن تأتوها ولو حبواً . وقيل له لو تداويت فقال : لقد تداوى من قبلي أقوام كان فيهم مرضى وأطباء فما بقي المداوي ولا المداوى . ذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرسّ وقرونًا بين ذلك كثيراً تداووا فما عاش المريض ولا الطبيب .

ولقد وصفه من عرفوه بأنه كان من معادن الصدق جاءَه رجلٌ يومًا وقال له : دلني على رجل أفضل منك فقال له : كل رجل يكون منطقه ذكراً وصمته فكراً وشكراً فهو خير مني . ويبدو أن الربيع رحمه الله كان من قوم ذوي أصول كريمة يكثر فيهم الفضلاء قال فيهم أبو يعلى الثوري : كان في بني ثور زهاءُ ثلاثين رجلاً ما منهم واحدٌ دون الربيع بن خثيم . وكان عظيم التقدير للقرآن الكريم كان يقول

سورة الإخلاص يراها الناس قصيرة وأنا أراها طويلة عظيمة فأيكم يقرأها فليعلم أنها كافية مجزئة ولا يستقلنَّها وسأله رجل مرة عن الداء والدواء والشفاء فقال الداء الذنوب والدواء أن تتوب والشفاء ألا تعود إلى الذَّنب . وكان يدعو فيقول اللهم أشكو إليك حاجات لا تبث إلا إليك واستغفرك اللهم من كلّ ذنب وأتوب إليك .
وكان رحمه الله شديد الخشية من عذاب الله مرَّ مرَّة هو وابن مسعود على حدادين يصهرون الحديد على شاطىء الفرات فقرأ عبد الله بن مسعود يذكر النار ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرا . وإذا ألقوا منها مكانًا ضيقًا مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾ . فصعق الربيع رحمه الله حين سمع القراءة ولازمه ابن مسعود حتى أفاق فعاد به إلى أهله .

وكان أصحاب الربيع منتقين جاءه يومًا بعضهم فسألهم الربيع ما الذي جاء بكم؟ قالوا : نحبُّ أن نذكر الله معك ونحمده معك لأنَّ الذكر عند الصالحين يحيي القلوب فقال : أحمد الله أنكم لا تقولون جئنا لتشرب فنشرب معك . وحدَّث بعض من كانوا يخالطونه فقال : لما قتل الحسين بن علي رضي الله عنه ذهبت أخبر الربيع لأرى ماذا يقول وقلت في نفسي اليوم أسمع من الربيع كلامًا شديداً فقلت له يا أبا يزيد قتل اليوم ابن فاطمة عليهما السَّلام فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ثم تلا قوله تعالى : ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ قلت له ما تقول في هذا الأمر . فقال : إلى الله إيابُهم وعليه حسابُهم . وكان رحمه الله صبوراً على العبادة إذا سجد تخيلته ثوبًا مطروحًا وربما وقفت عليه العصافير . ولشدّة بكائه قالت له ابنته ما أراك يا أبي إلا قد قتلت قتيلاً فأنت تبكي خطيئتك فقال لها صدقت يابنتي لقد قتلت نفسي . وقرأنا أن جماعة من الشباب أرادت أن تختبر الربيع فأرصدوا له امرأة جميلة على باب المسجد -وكان ذلك وهو شاب- فلما خرج من المسجد سفرت له عن وجه كأنه دارة القمر متظاهرة أنها ستسأله ولشدَّ ما كانت دهشتها إذ رأته يبكي حين رأى

وجهها فقالت له: ما يبكيك. فقال لها أبكي لهذا الجمال يسلك سبيل الضلال؛ فيُرى في جهنم هذا الوجه وهو جمجمة متفحمة. ولقد شوهدت تلك المرأة التي كانت متهتكة وهي من ملازمات الصلاة قلبها معلّق بالمساجد. وكان الربيع رحمه الله كريمًا بماله ويكره أن يعطي القليل. ويقول أستحي من الله أن أرى في ميزاني نصف رغيف. رحم الله الربيع بن خثيم عبداً منيبًا إلى ربه صابراً على بلاء حبيبه يستقل كلَّ عبادة في جنب الله.



زرّ بن حبيش
رحمه الله

هذا الإمام العالم الأديب كان من فضلاء التابعين. أكرمه الله بصحبة عدد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد رأى عمر وعثمان وجالس عليًا وأدرك عبد الرحمن بن عوف وأبيًا بن كعب وصفوان بن عسّال المرادي. وسعيدًا بن زيد وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبا ذر وعائشة. كنيته أبو مريم وهو من بني أسد. أقام بالكوفة وأراد الله له الخير فأطال عمره وأحسنَ عمله. وكان ممن لقيهم وحدث عنهم عمار بن ياسر وكان في اللغة مطّلعًا حتى لقد كان ابن مسعود يسأله عن بعض أمور اللغة ومسائلها. وقد صحب في المدينة أبيًا ابن كعب وكان يسأله عن كلّ آية من كتاب الله حتى كان أبيٌّ ربما سئم فيقول له زرّ: اخفض لي جناحك يا أبا المنذر فإني أعدّ حياتك مُتعة للصالحين.

كان زرّ بنَ حبيش رحمه الله من عشاق العلم وكان إذا سُئل عن مسألة التمس إجابتها عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. تساءل الناس يومًا عن ليلة القدر فأسرع زرٌّ رحمه الله يلتمس الجواب عند أبيٍّ بن كعب. ويقول لأبيّ والله لقد علم أنها في رمضان. ولكنه عمّي على الناس حتى لا يتكلوا. والله الذي نزّل القرآن على محمد إنها لفي رمضان وإنها ليلة سبع وعشرين. قال زرّ: كيف علمت ذلك يا أبا المنذر؟ قال أبي: عرفت ذلك بالعلامة التي ذكرها لنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم حين أخبرنا أن الشمس تطلع حين تطلع وليس لها شعاع حتى تبيضَّ وترتفع . وحكى زرٌّ رحمه الله أنه حاك في نفسه أمرٌ من المسح على الخفين، فذهب إلى صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه وهو من الصحابة فقال له صفوان : ما جاء بك يازر. فقال : طلب العلم. فقال صفوان : إنه ليس رجل يطلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضاءً بما يفعل. ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنَّة فسأله زر عن المسح على الخفَّين فعلمه صفوان المسح كما شاهده وهنا سأله زرّ: هل رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صفوان وغزوت معه اثنتي عشرة غزاة . وكان زرَّ يحضر مجلس عليٍّ رضي الله عنه وروي عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق وروي عن علي أيضًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عفا عن صدقة الخيل والرقيق. أي لم يوجب فيهما زكاة وقال : أدُّوا صدقة ما دون ذلك من أموالكم. وجلس زرّ رحمه الله مع عمر رضي الله عنه وروى عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يخلون رجلٌ بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما. ومن أراد بحبوحة الجنَّة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد. وروي عن عمر أيضًا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن. وكان يطيل الجلوس مع ابن مسعود لعلمه أن ابن مسعود كان ملازمًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد روي عن ابن مسعود حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حفظ على أمتي أربعين حديثًا ينفعهم الله عزَّ وجلّ بها قيل له أدخل من أي أبواب الجنة شئت. وروي أيضًا عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخَّر صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد وإذا الناس في المسجد بعضهم مضطجع وبعضهم ينتظر الصلاة فقال: أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله في هذه السَّاعة إلا أنتم فنزل قوله تعالى يذكر أهل الكتاب في سورة آل عمران : ﴿ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليْل وهم

وسلم قال : يُبعث مناد عند حضور كل صلاة فيقول : يابني آدم قوموا فاطفئوا عنكم ما أوقدتم على أنفسكم فيقومون فينظرون فتسقط خطاياهم من أعينهم ويصلون فيغفر الله لهم ما بينهما فإذا حضرت العصر فمثل ذلك فإذا حضرت المغرب فمثل ذلك. فإذا حضرت العتمة فمثل ذلك فينامون وقد غُفر لهم. ثم قال فمدلجٌ في خير ومدلجٌ في شر. وكان زرٌّ يتردد على حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فروى عن حذيفة أن أمّه رضي الله عنها لامته على انقطاعه عن زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها حذيفة : الليلة أذهب إليه وأصلي معه وأسأله أن يستغفر لي ولك. وذهب كما وعدها فصلى مع النبي صلاة العشاء ثم تبعهُ فرأى أنه قد عرض له عارض فتأخر عنه ثم دنا منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هذا؟ فقال : حذيفة بن اليمان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غفر الله لك ولأمك ياحذيفة. ما الذي جاء بك؟ فأخبره حذيفة فقال عليه الصلاة والسلام : أرأيت العارض الذي عرض لي. إنه ملك لم ينزل إلى الدنيا إلاّ الساعة وقد استأذن ربه أن يسلِّم عليّ وأخبرني أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة .

وعرف عن زر رحمه الله أنه كان جريئًا في الحق لا يبالي أن يخاطب الملوك بدعوة الحق والنصح الصادق كتب إلى عبد الملك كتابًا بليغًا وكان له في البلاغة أسلوب مؤثر فمما جاء في كتابه إلى عبد الملك: واحذر أن يداهمك الأجل وأنت غافل. ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول الحياة ما يظهر من صحتك فأنت أعلم بنفسك واذكر ما تكلم به الأوّلون :

إذا الرجال وَلَدت أولادُها ... وبليت من كبَر أجسادُها
وجعلت أسقامها تعتادها ... فهي من زروعٍ قد دنا حصادها

وقد أسلفنا أن كثيراً من الأحاديث التي رواها زرٌّ كانت لها نكهة خاصة

وأهداف كبيرة فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : من لبس ثوب شهرة أعرض الله عنه حتى يضعه . وثوب الشهرة هو الثوب يلبسه الرَّجل يخالف فيه مألوف المسلمين حتى يشتهر بذلك الثوب . ونختم أحاديث زرّ التي رواها رحمه الله بهذا الحديث رواه عن صفوان بن عسال المرادي قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأقبل رجلٌ فلما نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بئس أخو العشيرة وبئس الرجل . فلما دنا منه أدنى مجلسه . فلما قام وذهب قالوا يارسول الله . حين أبصرته قلت بئس أخو العشيرة وبئس الرَّجل . ثم أدنيت مجلسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه منافق أداريه عن نفاقه . وأخشى أن يُفسد عليّ غيره . ويبدو أنَّ هذا الحديث يختص ببعض أحوال من المنافقين العتاة الخطرين الذين يستشري شرهم فيجاملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه يحذر المسلمين منهم ليحتاطوا لخطرهم المستطير . ولقد عاش زرٌّ مائة وسبعا وعشرين سنة عالمًا ومحدثًا وواعظًا وتوفي رحمه الله في خلافة سليمان بعد أن درس عليه تلاميذ أجلاء منهم الأعمش وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري وكان ممن روى عنه الشعبي وإبراهيم النخعي . رحم الله زرًا بن حبيش طالبًا دءوبًا ومعلمًا مخلصًا وواعظًا ومحدّثًا وسلام عليه في العلماء العاملين .



شريح القاضي

مررت على مدرسة ابتدائية في الرياض وإذا اسمها مدرسة شريح القاضي الابتدائية وسررت جدًا من اهتمام وزارة المعارف بتراثنا الكريم الطهور وودت لو أن كلَّ مدرسة سميت باسم عظيم من عظماء السلف أن تكتب جماعة الصحافة فيها نبذة موجزة مفيدة عن حياة ذلك السلفي ملقية ضوءًا على مواقف البطولة في حياته. وكنت أعلم جانبًا من حياة القاضي شريح الكندي وأنه اشتهر رضي الله عنه بأنه كان قاضيًا للكوفة وضرب رقمًا قياسيًا في الجلد على القضاء فقد أعجب به عمر فولاهُ قضاء الكوفة وثبته في وظيفة القاضي عثمان وعليٌّ ومعاوية وظل قاضيًا إلى زمن الحجاج حين استعفى من القضاء في آخر سنة من عمره واعتذر عن القضاء لكبر سنه حيث توفي بعيدها وعمره مائة وثمان سنين .

وما كان شريح رضي الله عنه ليبقى في القضاء هذا العمر الطويل لولا أن أحكامه كانت ثابتة مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ولولا أنه رفض الحكم بالهوى وظل على طريقة الهدى النبوي الكريم مما أرضى عنه جمهور المسلمين. ولتولي القاضي شريح القضاء لعمر قصة طريفة كما كانت له قصة أخرى في توليه القضاء لعلي رضي الله عنهما أما القصة الأولى فهي أن عمر رضي الله عنه اشترى من بدوي فرسًا وجربه فأعجبه فنقد ثمنه ولكن لم يكد يمشي بالفرس قليلاً حتى

وقف في مكانه وكأنما سُمَّر إلى الأرض فعاد عمر بالحصان وسلّمه لصاحبه وهو يقول: الفرس معطوب. قال البدوي لقد بعتك الفرس سليمًا وأنت تردُّه عليَّ معطوبًا. ثم قال البدوي إن رضيت أن يحكم بيننا شريح بن الحارث الكندي وقبلت بحكمه فأنا أيضًا راض بما يحكم به. قال عمر لقد رضيت بحكم شريح وذهبا إلى شريح فسمع مقالتيهما ثم حكم للأعرابي وقال: لقد أخذت الفرس يا أمير المؤمنين وهو سليم وما يدريك لعله عَطِب عندك احتفظ به كما اشتريته. فسرَّ عمر من قضاء شريح وقال هكذا فليكن القضَاء يا أبا أميَّة ثم لم يمض بعض الوقت حتى ولاه عمر قضاء الكوفة. وأما قصة شريح مع عليّ في أمر القضاء فهي أن عليًا رضي الله عنه كانت له درعٌ يعتز بها فافتقدها يومًا فلم يجدها ثم وجدها مع يهودي يبيعها في سوق الكوفة فقال علي لليهودي: هذه درعي سقطت عن جمل لي ليلة كذا وفي مكان كذا. قال اليهودي بل هي درعي وفي يدي يا أمير المؤمنين ولست أكذبك فترافعا إلى شريح القاضي فقال شريح لعلي رضي الله عنه ألديك بينه؟ قال نعم: مولاي قَنْبر وولدي الحسن يشهدان معي فقال شريح: ولكن شهادة الابن لأبيه لا تجوز يا أمير المؤمنين. قال علي سبحان الله ياشُريح شهادة رجل من أهل الجنة تردُّها: أما سمعت ياشريح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الحسنُ والحسين سيدا شباب أهل الجنَّة. قال شريح صدقت يا أمير المؤمنين ولكني مع هذا لا أجيزُ شهادة الولد لوالده عند ذلك التفت عليٌّ إلى اليهودي وقال له ليس عندي بينة غير ما ذكرت فخذ الدرع أو خلّها وبعها كما تشاء. فقال اليهودي أما الآن فإني أشهد أن الدرع هي لك يا أمير المؤمنين لأني لقيتها في بعض الطرقات ثم وقف اليهودي متأملاً يقول في نفسه: أمير المؤمنين يقاضيني عند قاضيه وقاضيه يحكم لي عليه حين لم يقدم بيِّنة شافية أشهد أن هذا هو الدين القيم الحقّ وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فقال له عليٌّ رضي الله عنه: أما وقد أسلمت فقد أصبحنا أخوين في دين الله والدرع لك وهذا الفَرَس أيضًا. وقد شوهد اليهودي بعدئذ يقاتل

الخوارج في سبيل الله. وكان لشريح رحمه الله طرائف معروفة في القضاء ومن ذلك أن ابنا لشريح كفل رجلاً فما كان من المكفول إلا أن فرّ هاربًا فسجن شريح ابنه مدة طويلة كان في أثنائها ينقل الطعام بيده إلى السجن. وقد ورد في سيرة شريح أنه كانت له صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه قابل النبي وأسلم على يديه ثم أخبره بأن له قومًا كثيرين في اليمن فقال له أحضرهم فذهب إلى اليمن وأحضرهم وقفل بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن لقي الله تعالى ومن المؤرخين من ينكر ذلك ويقول إن شريحًا أسلم وعاد إلى اليمن ثم انتقل من اليمن زمن الصديق رضي الله عنه ويبدو أن شريحًا كان رجلاً يتمتع بمواهب شتى من الفصاحة والذكاء وسرعة البديهة والفهم وكان قليل الرواية للحديث فقد حدّث عنه الشعبي وإبراهيم النخعي وابن سيرين وقال عنه يحيي بن معين إنه ثقة ولما ولاه عمر القضاء كتب إليه وهو بالكوفة : إذا أتاك أمر في كتاب الله فاقض به وكذلك إذا وجدته في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا لم يكن فيهما فاقض بما قضى به أئمة الهدى فإن لم يكن فأنت بالخيار أن تجتهد رأيك أو تؤامراني أي تشاورني. ومؤامرتك أياي أسلم لك. وكان يقال له في عهد معاوية قاضي المصرين -يعنون البصرة والكوفة- وسُئل مرة ممن أنت فقال : ممن أكرمهم الله بالإسلام وعدادي في كندة وكان رضي الله عنه شاعراً يحبُّ الشعر ويتمثل به وينظمه قال ابن سيرين أدركت الكوفة وبها أربعة فقهاء: الحارث وعبيدة وعلقمة وشريح وكان شريح أعلمهم وعبيدة يوازيه. وكان شريح قلما يغشى عبد الله بن مسعود لأنه كان يرى نفسه في درجته وقد قال عليٌّ رضي الله عنه لشريح وهو بين الناس في الرَّحبة اذهب فأنت أقضى العرب. وكان عليٌّ رضي الله عنه ربما طلب من شريح أن يقضي وهو في مجلسه (مجلس عليّ) جاءته امرأة مرة تخاصم زوجها الذي طلقها وتقول لقد كان الحيض ثلاث مرات في شهرين بعد الطلاق فقال لشُريح اقض في أمرها قال شريح وأنت ههنا قال علي نعم فقال شريح إن جاء من خاصتها من يشهد أن هذا

حصل وأنها كانت تطهر وتصلي جاز لها وإلاَّ فلا . فقال عليٌّ رضي الله عنه : قالون وهي كلمة بلسان الروم معناها : أحسنت . وكانت بديهة شريح رضي الله عنه حاضره قال له رجلٌ مرَّة : ما الذي أحدثتم في القضاء؟ قال شريح : تحدثون أموراً في دنياكم فنحدث لها ما يلائمها . وقال خصم لشريح : إني أعلم كيف أذكرك فقال له شريح : ذكرني قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الراشي والمرتشي والكاذب . وكان شريح يقول للشاهدين إنما يقضي على المتهم شهادتكما وإني سأتقي الله فيكما فاتقياه في الشهادة واختصم إلى شريح قوم غَزَّالون فقال بعضهم إنها سنَّة بيننا فقال له شريح : قل إنها سنة بين الغَزَّالين .

وقد بلغنا أنَّ عليًا رضي الله عنه أعطى شريحًا على القضاء خمسمائة درهم . وكان لشريح خاتم نقش عليه (الخاتم خير من الظنّ) يشير بهذا إلى أهمية التوقيع والكتابة وكان إذا جلس للقضاء تأنق في ملبسه فلبس مطرف خز وبرنسًا وعمامة يرسلُ من خلفها عَذَبه . وكان شريح إذا سُئل كيف أصبحت يقول : أصبحت ونصف الناس عليَّ غضاب واختصمت إمرأتان إلى شريح في ولد هرَّة فقالت امرأة : هو ولد هرَّتي وقالت الأخرى : بل ولد هرتي فقال شريح لرجلٍ إلقه إلى هذه ثم إلى هذه فإن هي قرت ودرّت واسبطرت فهي لها وإن هي هربت وفرت واقشعرت فليس لها . وكان إذا أصابته مصيبة حمد الله على أربع : أن الله لم يصبه بأعظم منها وأنه رزقه الصبر عليها وأن كتب له ثوابها وأنه لم يجعلها في دينه . وكانت لشريح فراسة مؤمن حتى لقد كان يصيب بالظن ومن شعره الطريف أنه كان له ولد يحبُّ اللعب بالكلاب فلما عاد الولد من الكتاب سأله أبوه أصليت الظُّهر؟ قال لا سأصليه هنا فأخذ شريح قرطاسًا وكتب إلى معلمه بهذا الأسلوب التربوي الجميل :

ترك الصلاة لأكلب يسعى لها ... يبغى الهراش مع البغاة الرُّجَّسِ
فليأتينك بكرة بصحيفة ... كتبت له بصحيفة المتلمس

فـإذا أتـاك فـداوه بمـلامـة　　وانصـحـه مـوعظة الأديب الكيّس

وإذا هممت بضـربه فـارفق به　　وإذا بلغت ثلاثـة لك فـاحـبس

واعلـم بأنك مـا أتيت فنفـسُه　　مع مـا يجـرّعُني أعـزُّ الأنفس

رحم الله القاضي شريحًا قاضيًا عادلاً يعتز به تراث الإسلام ومربيًا يرسم للمربين طريق الحلم والحزم والسَّداد .



عقبة بن نافع الفهري الدمشقي

عقبة بن نافع الأمير الفهري القرشي أمير الشمال الأفريقي في عهد معاوية ويزيد خاض معارك حاسمة ووقف مواقف مشهودة فحقق الله على يديه فتح الشمال الأفريقي كله حتى وصل إلى أقصى بلاد المغرب وهناك حين رأى المحيط الأطلسي أجرى حصانه فيه وقال : والله لو علمت أن وراءك أرضًا لمضيت غازيًا في سبيل الله .

وقد جمع رحمه الله أخلاقًا ومثلاً عليا فقد كان يجمع إلى شجاعته العظيمة دينًا صادقًا وما أجمل الشجاعة في الرجل التقي الديّن وقد شهد فتح مصر ولكنه لم يشتهر إلا حين اكتشف مواهبه عمرو بن العاص أخوه لأمه فولاه في فتح مصر مهامّ شديدة أنجزها عقبة في شجاعة وأمانة وإقدام وفي مطلع خلافة معاوية أمدَّ عقبة بن نافع بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل فافتتح أفريقيا واختط مدينة القيروان حيث اتخذ منها مركزًا لجيوشه والذاهب في هذه الأيام إلى تونس العاصمة يحرص على زيارة القيروان ليصلي في المسجد الذي يسميه أهل تونس (مسجد سيدي عقبة) حيث يرى هناك جامعًا عظيم الجلال وقد أرفق به مقرُّ الحكم والإدارة في عهد عقبة بن نافع رحمه الله . ولقد كان عقبة رحمه الله مستجاب الدعوة وكان يتوجه إلى الله بالدعاء عند الشروع في معاركه ويصادم العدو في شجاعة مُذهلة فيكتب الله له

النصر وقد بدأت أولى انتصاراته حين ولاه عمرو بن العاص وهو في مصر قيادة قوة من المسلمين وكلَّفه فتح بلاد النوبة التي كانت كثيراً ما تشغب على المسلمين وتسبب لهم عرقلة وإزعاجًا فهجم عليهم عقبة كالليث عاديًا وصدمهم صدمة قاصمة روّعتهم وملأت قلوبهم بمهابة المسلمين ثم لما عاد عقبة منتصراً وكل إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه قيادة حامية برقة فاستتبَّ الأمن. وقد ذكر المؤرخون أنَّ البربر كانوا قومًا شديدي المراس جريئين على العرب حتى جاءهم عقبة بن نافع فخوَّفهم ثم لاحقهم بالهزائم حتى وجدوا أن لا سبيل لهم إلا أن ينضووا تحت لواء القادة العَرب المسلمين. وقد سار عقبة رحمه الله في رحلة الجهاد فانضم إلى عبد الله بن أبي سَرْح حتي حقق الله على يديهما فتح طرابلس ثم صدم الروم في بحر مصر وانطلق كما ينطلق الإعصار ففتح غُدامس وأجزاء واسعة من السودان وحصّن القيروان لتكون قاعدة للمرابطين من المجاهدين يقيمون فيها وقد حُميت ظهورهم.

وكما يبتلي الله المؤمنين فقد ابتلي عقبة رحمه الله بحسد أحد الولاة فلم يزل به حتى سبب له العزل والسجن ولكن المحنة لم تدم طويلاً إذ فرج الله كربة عقبة فعاد إلى هوايته المحببة وهي الجهاد في سبيل الله وكان يحرص على الأمن لأن البربر كانوا كثيري الشغب لكنه كان عادلاً محببًا فأحبه الناس وهابوه وروي أنه حين أراد بناء القيروان وجد مكانها غيضة كثيفة الأشجار فأمر بقطعها؛ وإذا حول جذور الأشجار جيوش من الحشرات والأفاعي والسباع؛ فدعا على تلك الأعداد الهائلة من الوحوش فلم يبق في الموقع منها شيء حتى إن الوحوش قد شوهدت وهي تحمل أطفالها هاربة إلى الأودية البعيدة. وروي أنه نادى بأعلى صوته: يا أيها الدواب والهوام إنا نازلون فاظعنوا فخرجن من جحورهن هوارب وقد روى عبد الرحمن بن حاطب أن عقبة لما افتتح منطقة القيروان وأجمع بناء تلك القاعدة قال: يا أهل الوادي إنا حالّون إن شاء الله فاظعنوا وكررها ثلاث مرات حتى رأينا أنه لم يبق حجر ولا شجر إلا خرج من تحته دابة حتى هبطن الوادي ثم التفت إلى الناس

وقال: الآن انزلوا على اسم الله ومما روي من كرامات عقبة رحمه الله أن عسكره ذات يوم أعوزهم الماء فقام وصلى ودعا الله أن يغيث جيشه ويسقيهم فلم يفرغ من صلاته حتى دحَسَ حصانه الأرض فنبعت عين ماء تحت سنابك الفرس وشرب جيش عقبة القائد القانت. وكان عقبة يحبُّ القتال وفتوح البلدان ويكره الانغماس في السياسة على الرغم من قرابته لعمرو بن العاص رضي الله عنه. وقد نجَّاه الله من تلك الأحداث المؤلمة المؤسفة التي تلت مقتل عثمان ولم يشترك في الفتنة بل أبدله الله بها جهاداً صابراً محتسبًا في الشمال الأفريقي والحق أن مدينة القيروان التي كانت مأثرة من مآثر عقبة حرست ديار الإسلام وصدت آلاف الأعداء وحرست القاعدة الإسلامية من انتقاضات البربر الذين اشتهروا بشراستهم وعدم دوامهم على عهد. لقد عاش عقبة رحمه الله أربعًا وستين سنة ملأها بطولات وجهاداً وكان إذا طارد عدواً ظل متعقبًا له حتى يلحقه في أوكاره ويقضي عليه غير مبال بعدده وعدته. وكان مغيظًا محنقًا من البربر لأنهم كانوا إذا هُزموا فرُّوا إلى الصَّحراء الواسعة وتحصَّنوا وأخيراً شكلوا اتحاداً مع الروم الذين ظَلُّوا يتربصون الدوائر بالمسلمين في البحر وانضم إلى اتحادهم زعيم لهم اسمه (كسيله) وزعيم آخر لقبيلة أخرى اسمه ابن الكاهنة لكنه رحمه الله صادمهم وهزمهم وهاجمهم هجومًا صاعقًا وتقرَّب إليه كسيله فأهانه حتى كانت خاتمة المطاف أن سار عقبة إلى مدينة تدعى (تهوده) ومعه ثلاثمائة فارس فقط وفيهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهز حلفُ الأعداء قلة تلك المفرزة من الجيش المسلم ونصبوا لهم كمينًا هائل العدد فأظهروا رضي الله عنهم من البطولات مالا تطيقه الجبال حتي قتل المسلمون جميعًا رحمهم الله ومن بينهم بطل الإسلام عقبة بن نافع وكانت تلك الواقعة نكسة للمؤمنين لأنَّ كسيلة بسط نفوذه على المنطقة وظل الأمرُ منتقضًا في أول خلافة عبد الملك بن مروان حين ثار عليه ابن الزبير وأهل العراق وابن عمه عمرو بن سعيد ثم لم تلبث الأحوال أن استتبت حول عبد الملك فانتبه إلى الشمال

الأفريقي ووجه إليه قائداً شديد البأس هو زهر بن قيس البلوي قائدة في برقة في جيش كبير فأعاد احتلال الشمال الأفريقي وقضى على كسيلة والروم في معركة حمش. ومهد السبيل لفتح الأندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير رحمها الله. والحقُّ أن عقبة بن نافع رحمه الله على الرغم من مقتله غرس الرعب في قلوب البربر والروم حين رأوا شدة بأسه وحرصه على الموت. إن الذاهب في هذه الأيام إلى تونس تشُدُّه آثار سيدنا عقبة رحمه الله فيقف بمدينة القيروان عند آثار المجد الإسلامي حيث المسجد ومقرُّ القيادة ودار الإمارة في هالة من المهابة والسَّناء. اللهم أمدّ شباب الإسلام بقبس من روح عقبة والمجاهدين الأبرار تجعلُهم نموذجًا لشباب محمد صلى الله عليه وسلم الذين نشروا دين الله بالبطولة والعدل والمحبة والإيمان. وعسى الله أن يرفع في أمتنا علم الجهاد لنعيد مقدساتنا وننقذ قبلتنا الأولى: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾.



رفيع بن مهران
(أبي العالية الرياحي)

كثيرًا ما تأتي النعمة عن طريق المصيبة وتكون إرادة الله للعبد أحْسَن من إرادته لنفسه وقد شاء الله لرفيع بن مهران أن يكون إمامًا ومقرئًا وحافظًا ومفسِّرًا عن طريق المصيبة. ففي أعقاب معركة بين بعض العرب وبين الفرس وقع أبو العالية رفيع بن مهران في الأسر فاشترته امرأة من بني رياح من تميم من قوم جرير وكانت تلك المرأة صالحة تحبُّ المؤمنين والمصلين. وقد أنست في ذلك الشاب من اللحظة الأولى صلاحًا وطيب معدن وحبًا للخير. ورأته يعجب بأخلاق المسلمين ويحبُّ الإسلام. ولما رأته أسلمَ وحسُنَ إسلامه ورأت جمال صلاته وكمالها أعتقته ومنحته ولاءه فأقبل في الحال على العلم وحفظ القرآن وأوصى إن هو مات أن يُقسَم ماله ثلاثة أقسام: ثلث في سبيل الله وإعداد المجاهدين وثلث لآل بيت رسول الله وثلث للفقراء ويبدو أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وهو شاب ولكنه أسلم على يدي أبي بكر الصديق. وروي أنه قرأ القرآن على عمر ومن قبل ذلك قرأه عرضًا على أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وسمع الحديث من عدد من الصحابة الفضلاء منهم عمر وعليٌّ وأبيٌّ وأبو ذر وابن مسعود وعائشة وأبو موسى وأبو أيوب وابن عباس وزيدُ بن ثابت وعدد غيرهم. ثم تصدَّر لتعليم القرآن والعلم وكان ابن عباس رضي الله عنه يقدم أبا العالية وربما أجلسه على السرير إلي جانبه فإذا تغامز

بعض قريش قال لهم ابن عباس : هكذا العلم يزيد الشريف شرفًا ، ويجلسُ الملوك على الأسرة مع الملوك .

وكان رضي الله عنه ثبْتًا ثقة حتى قال بعض معاصريه : ليس أحدٌ بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية رفيع بن مهران الرياحي . وكان ربما ختم القرآن كلَّ ليلة ثم أرشده بعض العارفين بأن القرآن لا يُفهم حق الفهم إذا قرىء في أقلَّ من خمسة أيام فألزم نفسه بقراءة القرآن مرة كلَّ خمسة أيام . وكان ربما رحل أيامًا ليسمع الحديث عند بعض أهله فإذا وصل إلى صاحب الحديث أخذ يتفقَّد صلاته فإن وجده يحسن صلاته أقام عنده وإن وجد فيه تضييعًا رحَل ولم يسمع منه وهو يقول : هو لما سواها أضيع .

وكان رحمه الله زاهدًا في حطام الدنيا اشترى يومًا ثوبا من تاجر يعرفه اسمه شعيب ابن الحبحاب فلما رآه يبالغ في مراعاته أبى أن يشتري منه أي ثوب .

ولقد اعتزل الحرب التي قامت بين عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما ، وقد حدث عن نفسه فقال لما كان زمن عليٍّ ومعاوية وإني لشابٌّ أحب القتال كما أحب الطعام الشهيّ فلبست عُدَّة القتال حتى أتيتهم فإذا صَفَّان طويلان ما يدري أين طرفاهما إذا حضرت الصلاة تسابقا إليها . فإذا كبر هؤلاء كبر أولئك وإذا هللت فئة سارعت الثانية للتهليل . فراجعت نفسي وقلت : مع أيِّ الفريقين أقاتل وكلاهما مسلم مؤمن؟! فرجع وتركهم ولم يشترك في الفتنة بل ظل معتزلاً لها .

وكان ماهرًا في تعليم القرآن يوصي الطالب ألاَّ يزيد في الحفظ على خمس آيات كل يوم ويقول لأصحابه : لم يكن جبريل يزيد لمحمد عن خمس آيات . وكان يقول للحفَّاظ : إذا أردتم الهداية فقوُّوا إيمانكم لأن الله تعالى يقول : ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ وإذا أردتم أن يستجيب الله دعاءكم فاستجيبوا لله لأنه يقول : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ .

وكان رحمه الله يقتطع من وقته أوقاتًا يجاهد فيها في سبيل الله فيقاتل أحيانًا في الشرق وأحيانًا في الغرب لتشهد له مشارق الأرض ومغاربها. وكان في القتال مقدامًا يعجب زملاؤه بإقدامه واحتسابه. وفي إحدى غزواته التهبت إحدى رجليه ونصحه الأطباء ببترها خشية أن يلتهب باقيها فتفسد. واقترحوا عليه مخدراً. فقال: ائتوني بقارىء يقرأ القرآن ويجود التلاوة وليقرأ عليَّ كتاب الله ثم اقطعوا كما تشاءون وقطعوا رجله من أعلى القدم فأمسك الرجل المقطوعة بيده وخاطبها يقول لها: عزائي فيك أنني ما مشيت بك إلى فاحشة. وعرف عنه أنه كان ينجز الأعمال في صمت ودأب حتى لقد قال عن نفسه: تعلمت القرآن والكتابة فما شعر بي أهلي ولا رئي في ثوبي حبرٌ قط.

وكان يقول إني لأرجو ألا يهلك عبدٌ بين نعمتين: نعمة يحمد الله عليها. وذنب يستغفر الله منه. وكان يقول إن الرَّجل إذا مرض قال الله تعالى اكتبوا لعبدي ما كانَ يعمله في صحته فما عمله من أجلي فهو لي وأنا أجزى به وما عمله من أجل غيري فاطلبوا ثوابه من الذي عمله من أجله.

وكان يفسر قوله تعالى: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً﴾ أي لا تأخذوا أجراً على ما تعلمونه الناس فإن مما كتب الله في الكتاب الأول يابن آدم علّم مجَّانًا كما عُلّمتَ مجانا.

ومن كلامه رحمه الله: لا يتعلَّم مُستح ولا متكبر وكان كريمًا إذا دخل عليه أصحابه أكرمهم ورحب بهم وتلا قوله تعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ ومن أحاديثه التي كان يرويها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو عند الكرب لا إله إلا الله العليم الحليم. لا إله إلا الله رب العالمين رب العرش الكريم. لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم. ومن الأحاديث التي رواها أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى على وادٍ فسأل ما هذا الوادي؟ فقيل هذا وادي الأزرق فقال صلى الله عليه وسلم: كأني

أنظر إلى موسى عليه السَّلام وله جُؤار إلى ربه تعالى بالتلبية . ثم مرَّ على ثنية فقال : ما هذه؟ قالوا ثنية كذا وكذا قال : كأني أنظر إلى ابن متي عليه السَّلام على ناقة جعدة حمراء خطامها من ليف وعليه جبة من صوف .



عروة بن الزبير بن العوام

عروة بن الزبير بن العوام يضرب بجذوره الزكية في أغوار نسب مبارك عريق. أبوه الزبير: حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية بنت عبد المطلب. وأمه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق. وخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وقد لازمها وتتلمذ عليها عروة رحمه الله حتى أخذ عنها كلَّ ما وعته من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فنعمت الأستاذة ونعم التلميذ. كان عروة رحمه الله أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة الذين كان الناس يرجعون إليهم في العلم والفتيا. وقد حماه الله من المشاركة في الفتنة المؤلمة أيام عثمان رضي الله عنه فقد قتل عثمان وعروة في السَّادسة من عمره وكان أخوه عبد الله بن الزبير ممن كانوا يحرسون عثمان وكان أبوه ربما نقَّره يُدلله وهو يرتجز له:

مباركٌ من ولد الصديق　　　أبيض من آل أبي عتيق

ألذُّه كما ألذُّ ريقي

وقد أسعدت الظروف عروة رحمه الله فروى عن كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كعائشة وأسماء وعليّ وجابر وزيد بن ثابت وأبي أيوب وأسامة وعمرو بن العاص وأم هانىء بنت أبي طالب وابن عمر رضي الله عنهم. وكان عروة رحمه الله حريصًا على طلب الحديث الشريف وروايته حتى لقد قال:

كان يبلغني عن الصحابي الحديث فأقصده فأجده في القيلولة فأجلس على بابه إلى أن يستيقظ ثم أسأله. ووصفه الزهري فقال: كان عروة رحمه الله بحراً لا تكدّره الدّلاء. لقد تحولتُ إليه فوجدته ثبج بحر ولغزارة علمه كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه مع أنهم صحابة وهو تابعي. وكان رحمه الله كريمًا يسابق الريح في كرمه. كان له بستان طيبُ الماء رائع الرطب لا يزال يدعى باسمه إلى الآن وكان إذا طاب رطبه فتحه للناس يأكلون منه وينقلون إلى أولادهم وكان القصر والبئر في العقيق على طريق الحجيج فكم من حاجّ وصل القصر والبئر وقد أضناه العطش والجوع والتعب فأوى إلى ظله الظليل وتنعم برطبه ومائه الزلال ودعا لصاحبه الذي آثر الآخرة والثواب وكان عروة رحمه الله شاعراً فمن شعره بعدما أتم حفر آبار القصر قوله:

بنيناه فأحسنا بناه	بحمد الله في قلب العقيقِ
فساءَ الحاسدين وكان غيظًا	لأعدائي وسُرَّ به صديقي
يراه كلُّ مختلف وسار	ومعتمر إلى البيت العتيق

وكان رحمه الله يسرد الصوم. يصوم الدهر ما عدا الأيام التي يحرم أو يكره صومها وكان يحبُّ أن يُسأل في الحديث حتى لا ينسى ومات رحمه الله وهو صائم وجعل حاضروه يقولون له أفطر فلم يفعل ومات على صيامه وذكروا عنه أنه اجتمع يومًا هو ونفر من أترابه فقال بعضهم لبعض ليذكر كلٌّ منكم أمنيته في حياته وكان منهم شقيقه عبد الله وأخوه لأبيه مصعب وعبد الله بن عمر فتمنى ابن عمر أن يغفر الله ذنوبه وتمنى عروة أن يصبح عالمًا يتلقى الناس عنه علمه. وكان عروة رحمه الله عالي القدر عند قومه فقد خطب وهو بالمدينة سودة بنت عبد الله بن عمر فلم يكد يذكرها لأبيها حتى أعلن في قومه أنه زوّج عروة ابنته سودة بما جعل الله للمسلمات على المسلمين من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان وأن يستحلّها بما يُستحل به مثلها. وكان عروة براً مؤدّيًا لحقوق البرّ، كان يقول: ما بر والده من شدّ الطَّرف إليه

يشير بذلك أن غضَّ الطرف في حضور الوالد ضَرَبٌ من البرّ .

وهاتان حادثتان من سيرة عروة بن الزبير تدلاَّن على عمق إيمانه بالله وصبره على قضائه أولاهما : أنه رحمه الله أصابته آكلة في قدمه ثم لم تزل ترتفع حتى أوشكت أن تبلغ ركبته فشكا أمره إلى الوليد بن عبد الملك فاهتم بالأمر وجمع الأطباء فأجمعوا أنه لابد من قطع الرجل من الركبة واقترحوا عليه أن يسقوه مسكرًا ليطيق وقع الألم لكنَّ عروة رحمه الله قال لا أشرب شرابًا يذهب بعقلي وينسيني نفسي . ودعا الأطباء أن يشرعوا في قص رجله حين يبدأ في الصَّلاة وقام للصلاة وقطع الأطباء رجله وهو لا يتألم أو يتضور ثم لما رأى رجله في الطست قال يخاطب الرِّجل عزائي فيك أنني ما مشيت بك إلى معصية وأنا أعلم . ثم قال : اللهم لئن تكن أخذت لقد أبقيت ولئن تكن ابتليت لقد عافيت وصبر على المصيبة صبرًا جميلاً ولم يغفل ورده من القرآن تلك الليلة وكان وردُه أن يقرأ في كل ليلة ربع القرآن وقد عزَّاه في رجله اثنان من أقاربه هما عيسى بن طلحة وإبراهيم بن محمد بن طلحة وكان عزاؤهما بليغًا جدًا فقد قال له عيسى حين رأى رجله مقطوعة : إنا والله يا أبا عبد الله ما أعددناك للصراع ولا للسباق ولقد أبقى الله لنا منك ما نحتاج إليه : رأيك وعلمك . أما إبراهيم فقال له يعزيه : والله ما بك حاجة إلى المشي ولا أربٌ في السعي وقد تقدمك عضو من أعضائك وابن من أبنائك إلى الجنة إن شاء الله ولقد أبقى الله لنا منك ما كنا نفتقر إليه : علمك ورأيك والله ولي ثوابك والضمين بحسابك . أما الحادثة الثانية التي تجلى فيها إيمان عروة وصبره فهي أنه كان له ولد اسمه محمد محببٌ إليه لبره وصبره . فسقط محمد رحمه الله من فوق سطح فوقع في اصطبل للوليد بن عبد الملك تحت سنابك الخيل فأغمي عليه وداسته الخيل فقتلته فلما حمل إليه نبأ مقتل ابنه لم يزد على أن حمد الله وقال : اللهم أخذت عضوًا وتركت أعضاء وأخذت ابنًا وتركت أبناء . وفي المدينة لقيه العالم المحدث محمد بن المنكدر فقال له : كيف كانت سفرتك فقال : (لقد لقينا من

سفرنا هذا نصبا) وقد عاش رحمه الله سبعًا وستين سنة ملأها علمًا وصبرًا واحتسابًا وترك فيها من الأسوة ما يصلح أن يكون نموذجًا لأخلاق المؤمنين وقد هداه الله إلى اعتزال الناس في الفتنة حين بنى قصره وأتم حفر بئره العذبة بالعقيق ولما قيل له: هجرت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقد رأيت المساجد لاهية والأسواق لاغية والفاحشة في الفجاج عالية فعشت بعيدًا عن الإثم في عافية وقيل له يومًا ما أرواكِ للشعر فقال كانت خالتي عائشة أروى مني للشعر. ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا وسمع عروة رجلاً يقول ما ابتلي عروة إلا بذنب اقترفه فقال يعلم الله أني كنت كما قال معن بن أوس:

لعمرك ما أهويت كفّي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي

ولست بماشٍ ما حييتُ لمنكر ... من الأمر ما يمشي إلى مثله مثلي

ولا مؤثر نفسي على ذي قرابة ... وأوثر ضيفي ما أقام على أهلي

وأعلم أني لم تصبني مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

وكان إذا دخل بستانه ظلَّ يكرر قول الله تعالى ﴿ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ معلنًا بذلك أن كلّ نعمة تصيبه إنما هي من الله. والعبد لا حول له من الأمر ولا قوة رحم الله عروة بن الزبير إمامًا للصالحين في الكرم والسخاء وفي الصبر على البلاء وفي حلبة الأدباء والعلماء.



صِلَة بن أشيم العدوي

هذا السيد الجليل من سادة التابعين ليس مشهوراً يردد الناسُ ذكره لكنني أعشق سيرته عشْقا لأنه كان مجاهداً شجاعًا لم يزل يقاتل في سبيل الله حتى احتسب ابنه ثم جاد بنفسه فقتل رحمه الله في ذلك اليوم بعد أن أبليا بلاءً حسنًا. كان رحمه الله من أشد الناس فهمًا للقرآن وإنفاذًا لأوامره وصفه صاحب الحلية فقال: كان منتصحًا بكتاب الله متحببًا إلى عباد الله صابراً على النوازل، ذاكرٌ في الليالي. قال له رجلٌ يومًا ادعُ لي فقال له: رغبك الله فيما يبقى، وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذي لا يُسْكَن إلا إليه. ولا يعوَّل في الدين إلا عليه.

ذلك هو الإمام النبيل الشهيد صلة بن أُشيم العدوي البصري الذي أكرمه الله بخصال منَ أنبل ما يتحلى به العلماء: صدق الجهاد في سبيل الله، وجمال الأسلوب في الوعظ، والزهد في حطام الدنيا. والعبادة الخفية المخلصة. حدث عنه زميله في الجهاد جعفر بن زيد فقال: كنا في غزوة صوب (كابل) فقلت لأتبعنَّ صلة بن أشيم أرقب عبادته ذات ليلة لكثرة ما سمعت من ثناء المجاهدين على عبادته فرأيته يدخل غابة في العتمة ويشرع في صلاة لم أرَ أتم من خشوعها ودعاء لم أر أجمل من معانيه وجاء أسدٌ فدنا منه فما التفت صلة إليه ولا عَذَبَه (أي صاح عليه) حتى سجد فقلت: الآن يفترسه وهو ساجد لكنَّه رحمه الله جلس وسلم وقال

للأسد: أيها السَّبعُ اطلب الرزق في مكان آخر فولى وإن له لزئيراً أقول تصدَّعت منه الجبال ثم مضى يصلي ويحمد الله بمحامد تقشعر لها القلوب ثم دعا الله فقال اللهم إني أقلُّ من أن أسألك الجنَّة ولكن أسألك أن تجيرني بعفوك من النار وحدث الحسن رحمه الله قال: مات أحد إخواننا فصلَّينا عليه فلما وضع في قبره وَمُدَّ عليه الثوب جاء صلة بن أشيم وأخذ بناحية الثوب ونادى يافلان:

فإن تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالُكَ ناجيا

غفر الله لك وثبَّتك ثم بكى فأبكى الناس. وكانت له رحمه الله كرامات منها ما أسلفنا من قصة الأسد وقد حدَّث رحمه الله أنه كان يسير على حافة نهر تيري في إحدى غزواته فجاع ولم يجد ما يأكل فلقيه رجلٌ من الكفار يحمل على عاتقه شيئًا فسأله صلة عما معه فقال هو خبز ولكنَّ عليه شيئًا من شحم الخنزير فتركه ولم يأكل منه ثم لقيه رجلٌ يحمل خبزاً فقال له: أطعمني منه. فقال الرجل لقد تزودته لعدة أيام وأنا مسافر فتركه ولم يأخذ منه شيئًا. قال صلة ثم أحسست من خلفي بوجيب طائر فالتفت وإذا خمار قد لُفَّ بداخله زبيل رطب ولم يكن الموسم موسم رطب. قال صلة فما أكلت أجمل من ذلك الرطب وحافظت على نواهنَّ كي أغرسهن وظل الخمار مع زوجة صلة فلفَّت فيه مصحفًا. وفي قصة استشهاده رحمه الله عبرة كبرى لمعتبر ودرس لأهل العلم أن يتوجوا علمهم بالتضحية فقد كان رحمه الله هو وابنه في غزوة سنة اثنتين وستين ورأى رحمه الله أن جيش العدو متفوق في عدده وسلاحه فقال لابنه انطلق يابني داخل صفوف الأعداء وقاتلهم قتال من لا يعرف الفرار لعلي أحتسبك عند الله وانطلق الابن رحمه الله فأثخن في العدو حتى استشهد فحمى أبوه جثمانه وقتًا ثم انطلق صوب الأعداء كأنه قارعة الموت ولم يزل يقاتل حتى استشهد في اليوم نفسه الذي قتل فيه ابنه فكتبت له شهادتان ولما جاء نعيهما إلى زوجة صلة وهي الزوجة المحدِّثة الصالحة معاذة العدوية قالت للنساء المجتمعات لتعزيتها: إن كنتن جئتن لتهنئتي فمرحبًا بكنّ وإن كنتن جئتن للبكاء

والتعزية فارجعن. وكانت تقول والله ما أريد الحياة بعدهما إلا لأدعو الله أن يجمعني بهما في جنته ورضوانه وبالمناسبة فإن لتلك الزوجة المؤمنة الفاضلة حديثًا يستحقُّ أن تعيه النساء لما فيه من قدوات صالحات فقد جاء في سيرتها أنها كانت راوية ثقة من رواة الحديث روت عن علي بن أبي طالب وعائشة رضي الله عنهما وحدث عنها جماعة منهم أبو قلابة الجرمي وأيوب السختياني وحديثها يحتج به في الصحيح وعدها يحيى بن معين في الثقات وكان لزواجها بصلة بن أشيم قصة طريفة: فقد بلغه ما عرف عنها من صدق الحديث والرواية وسهر الليل في العبادة وبلغها ما عرف عن ابن عمها صلة من الجهاد والعلم والبأس فلما خطبها وافقت وزُفت إليه ولما دخل بها رحمه الله قام يصلي فنسى الزوجة وقامت هي تصلي فنسيت الزوج وطلع النهار فحضر أقاربهما وعلما ما كان من شأنهما ولما لامه ابن عمه قال له: عندما أدخلتني الحمام تذكرت لفح النار ثم أدخلتني على ابنة عمّ من الطيبات المطهرات فتذكرت نعيم الجنة وبين هذا وذا مضى الليل في الصلاة. وقد عاشت رحمها الله بعد ابنها وزوجها الشهيدين سبع سنوات ضاعفت فيها من العبادة حتى لقيت الله على خير حال. وقد سبق أن أشرت أنه كان لصلة بن أشيم رحمه الله أسلوبٌ أخاذ في الوعظ والإرشاد يصل به إلى هداية المذنب وإنابته إلى الله فقد كان يمرُّ عليه شباب يلهون ويلعبون طول يومهم وفي الليل ينامون عن الصَّلاة فأراد أن يعظهم بالحكمة والموعظة الحسنة فزارهم يومًا فاستقبلوه باحترام ودار بينه وبينهم حديث قال لهم أثناءه: ماذا تقولون في جماعة من المسافرين كانوا في نهارهم يحيدون عن الطريق ويدورون في مكانهم ثم إذا جاء الليل ناموا ولم يسيروا إلى المكان الذي يقصدون؟ متى في ظنكم سيصلون إلى مستقرهم. فقالوا بلسان واحد: هؤلاء لا يمكن أن يصلوا أبدًا فاستأذن الشيخ في الحال وتركهم يفكرون وعرفوا هم ما يعنيه الشيخ وقالوا والله إنه يعنينا لأننا في غفلة عن رحلتنا أبدًا وكم كان سروره حين رآهم وهم يحرصون على صلاتهم ولا ينامون عنها.

وروي أن صلة بن أشيم رحمه الله كان مع بعض القوم فمر عليهم شابٌ يجر ثوبه بشكل لا يخلو من مظهر الكبر فهمَّ بعض القوم أن يتناولوه بالتأنيب فناشدهم الشيخ رحمه الله أن يتركوا التفاهم معه له ليتصرف بلباقته المعروفة. فدنا من الشاب وسلم عليه في أدب وتواضع واستغرب الشاب ذلك التواضع المهذَّب من الشيخ وهنا قال له الشيخ: يابن أخي لي إليك رجاء أتعدني أن تحققه؟ فقال له الفتى: نعمْ وكرامةً ونَعْمَة عين. فقال الشيخ: أرجوك يابن أخي أن ترفع إزارك إلى ما فوق كعبيك وفي الحال رفع الفتى إزاره إلى حيث يُستحسَنُ أن يكون وأقبل على القوم فقال: هذا أمثل مما أردتم إذ لو شتمتموه لشتمكم ولما سارع إلى طريق الهداية. رحم الله صلة بن أشيم عالمًا جليلاً ومجاهداً محتسبًا وواعظًا موهوبًا ورحم الله زوجته الصالحة التي احتسبت عند الله زوجًا من أكرم الأزواج وابنًا من أبرِّ الأبناء.



طاوس بن كيسان اليماني

هو الإمام القدوة الجرىء ذكوان بن كيسان وإنما غلب عليه لقب طاوس لأن العلماء كانوا يعتبرونه زين العلماء في عصره فظل معروفًا باسم طاوس بن كيسان وهو فارسي الأصل يماني الوطن ومن أئمة التابعين ومن صفوة علماء عصره في نظافة اليد وعفة النفس والاستغناء بالله عن كل عباده .

وكان رحمه الله ممن أطال الله عمره وبارك عَمله فقد عاش أكثر من مائةسنة قضاها في إحقاق الحق وتغيير المنكر وكانت له مواقف مشهودة في الوعظ عرف عنه فيها أنه لا يخاف في الله لومة لائم وبسبب عزوفه عن عطاء الكبراء كان لا يخشاهم إلا بمقدار ما يخشون ربهم بالغيب ومن الولاة الذين حدثت بينه وبينهم مشكلات محمد بن يوسف الثقفي أخو الحجاج وكان واليًا ظالمًا غضوبًا وكانت فيه كلُّ مساوىء الحجاج لكن لم تكن فيه حسنة واحدة من حسناته كانفعاله بالأدب وتقديره لبليغ القول . وقد حاول محمد هذا أن يغري طاوسًا بالمال لكنه رحمه الله تماسك أمام الإغراء حتى لقد زار يومًا محمدًا بن يوسف وكان الوقت بردًا وشتاء فنزل رداء الشيخ عن كتفيه فأمر الوالي محمد ابن يوسف بقباء من جيد السَّاج أن يوضع على كتفي الشيخ فلما تنبه الشيخ لمطرف السَّاج ووقف للانصراف حرك كتفيه في رفق حتى سقط القباء على أرض الغرفة ومضى دون تعليق . وكان يمرُّ في

السُّوق على بائع رؤوس يشويها في فرنه فإذا رآها وقد سلخ منها الشَّوى لم يأته نوم تلك الليلة. وقال له مجاهد يومًا يا أبا عبد الرحمن: رأيتك تصلي في الكعبة والنبي صلى الله عليه وسلم على بابها يقول لك: اكشف قناعك وبين قراءتك فقال له لا يسمعنَّ هذا منك أحد ولكن ظهر على وجهه ابتهاج عجيب فَرَحًا بالرؤيا الصالحة. وكان العلماء ربما ذكرَّوه أن يصمت في الخطر عملاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» فيقول لهم: من قال واتقى الله خيرٌ ممن صمت واتقى الله. وكان يشجع إخوانه العُزَّاب أن يتزوجوا قال يومًا لأحد إخوانه وقد أبطأ لم يتزوج: لقد جعلت لي حقًا أن أقول فيك إنه ما منعك من الزواج إلا عجزٌ أو فجور.

وكان يكره اختلاط الرجال بالنساء ويمقت ذلك مقتًا شديدًا ويَرْوي أن أحد عباد بني إسرائيل كان يداوي المجانين فجيء له بامرأة جميلة مجنونه ليداويها فأعجب بجمالها ووقع عليها وسوَّل له الشيطان أن يقتلها ويدفنها ليتخلص من الجريمة فقتلها ولكن أهلها استقصوا واكتشفوا الجريمة فجاءه الشيطان وقال له: اكفُر وأنا أنجيك من القتل فلما كفر لم يغنِ عنه الشيطان شيئًا وباء العاصي بكفره كأنما نزل في أمثاله قوله تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريءٌ منك إني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾ وكان طاوس ربما زار ابن عباس فإذا وصل رحمه الله منزل ابن عباس يدخل مع الخاصة ولا يدعه ابن عباس رضي الله عنه ينتظر. وكان رحمه الله يقول كيف أسكت على الباطل أو أقول غير الحق وقد أدركت خمسين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!. وكان يحبُّ النظافة. دخل عليه رَجُلٌ فرأى على ثوبه وسخًا وفي عينيه عمش فقال له طاوس: افرض أن الفقر من الله لكن أين أنت من الماء والماء بفضل الله رخيص؟

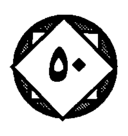
وروي أن محمداً بن يوسف أخا الحجاج كان حريصًا أن يغري الشيخ بالهدايا

في مقابل أن يؤيده في بعض إجراءاته فأرسل إليه مرة سبعمائة دينار مع رجل ووعد الرجل أن يكافئه بكسوة إذا هو أقنع الشيخ بقولها لكن الشيخ ردّها كعادته وعندئذ ألقى بها الرسول من كوة البيت وبعدئذ لزم من الشيخ أمرٌ من الأمور التي لا يستغني عنها الأمير لكن الشيخ لم يوافق وعندئذ قال أحد الحاضرين: أيها الشيخ تأخذ هدايا الأمير وتمتنع عن قضاء أموره؟ فقال الشيخ ويحكم ما أخذنا هدايا الأمير ولا أنزلنا حوائجنا بغير الله وحققوا مع الرَّجل الذي زعم أنه أوصل الهدية فوجدوا المال في كوة البيت وقد نسجت عليه العنكبوت. وروى أن سليمان بن عبد الملك دعا طاووسًا ليسأله بعض الأسئلة فقال طاوس في نفسه هذا موقف سوف يسألني الله عنه يوم القيامة ولما وقف بين يدي الخلفة قال يا أمير المؤمنين: إن صخرة كانت على شفير جُبّ في جهنم هوت إلى قعرها فلم تصل إلا بعد سبعين خريفًا أتدري لمن أعد الله ذلك الجب وتلك الصخرة؟ قال سليمان لمن أعدَّها؟ فقال الشيخ أعدّها الله لمن آتاه الله ملكًا فأدخل الجور في حكمه فبكى لتلك العبارة سليمان. وأرسل سليمان مرة إلى طاوس فقال له: لو تحدثنا؟ فقال إني محدثك بثلاثة أحاديث:

أولها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أهون الخلق على الله من ولي من أمر المسلمين شيئًا فلم يعدل فيهم». وثانيها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في وليمة طعام: «إن لكم على قريش حقًا ولهم على الناس حق. حقكم على قريش أن يرحموا إذا استرحموا ويعدلوا إذا حكموا ويؤدُّوا أماناتكم إذا ائتمنوا فمن لم يفعل ذلك منهم فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فتغير وجه سليمان وقال حدثني ياطاوس فقال يا أمير المؤمنين أذكرك أن آخر آية نزلت من القرآن هي قوله تعالى: ﴿واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ ولقد قال في طاوس زميله إبراهيم بن ميسرة قالها وهو ينظر إلى الكعبة: وربّ هذه البنية ما رأيت عالمًا الشريف والوضيع عنده بمنزلة كطاوس بن كيسان اليماني.

وكان غفر الله له صاحب حجة وبديهة وإقناع في مواعظه فمن ذلك ما رواه من أن عيسى عليه السلام قابل إبليس فقال إبليس لعيسى : تقول إنه لا يصيبك إلا ما كتبه الله عليك . إذن فارق إلى قمة هذا الجبل واقذف بنفسك من قمته ثم انظر هل يصيبك إلا الموت فقال له عيسى : إن العبد يا إبليس ليس هو الذي يبتلي سيده ولكن السيد هو الذي يبتلي عبده .

وقد كتب الله لطاوس رحمه الله أن يموت موتة كريمة فقد مات وهو حاج محرم بمكة المكرَّمة وكانت الحجة الأربعين وروي عنه أنه كان يصلي الفجر بوضوء العشاء . وفي جنازة طاوس رأى الناس علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رحمه الله يرفع النعش على عاتقه وقد سقطت قلنسوته ومُزق رداؤه ولم يتخلَّ عن النعش وقد روى أن طاوسًا كان مستجاب الدعوة وقد خلَّف ذرية صالحة كان منهم ابن عالم جريء هو عبد الله بن طاوس الذي دخل على أبي جعفر فوعظه وكان معه مالك ابن أنس فخاف مالك وضمَّ ثيابه خشية أن يصيبه دم عبد الله بن طاوس رحم الله طاوس بن كيسان إمامًا جريئًا في الحق يقتدى العلماء بسيرته في الزهد والشجاعة ويرسم بأخلاقه هيبة العالم الذي لا يخشى في الله لومة لائم .



الليث بن سعد رحمه الله

إني محدثكم عن عالم كان دخله في السَّنة يزيد على عشرين ألف دينار وكان مع ذلك لا تراه إلا مدينًا فما وجبت عليه زكاة قط وكان رحمه الله للفقراء عامة وللعلماء خاصة رحمةً مرسلة من الله فما لجأ إليه طالب علم إلا يسَّر عليه ولا قصده فقير فرده خائبًا . والجميل أنه كان يعطي ويعتذر كأنه هو الآخذ وكأن الذي يأخذ منه هو الذي يعطيه . وكان له ابن يقال له شعيب يعينه على العطاء ويكره لأبيه أن يعطي القليل ولا يبالي أن يموت أبوه وهو لم يترك لورثته شيئًا . وكان شعيب هذا قارئًا مجيدًا فكان يحلو لأبيه أن يصلي وراء ابنه شعيب بل لقد اتخذه لمجلسه إمامًا راتبًا .

وقد قرأنا من أحاديث جوده مالم يُرو عن حاتم . وكان رحمه الله يصل مالك ابن أنس في كل سنة بمائة دينار فلما علم أن مالكًا زوج ابنته من أحد تلاميذه أرسل إليه معونة زواجها خمسمائة دينار . وشكا إليه زميله الواعظ منصور بن عمار عُسْرَته وضيق حاله فأعطاه ألف دينار وجارية . وجاءته مرَّة امرأة تطلب شيئًا من العسل دواء لابنها المريض فأمر لها بمائة وعشرين رطلاً من العسل . ولما لامه إخوانه في ذلك قال : هي سألت على قدرها ونحن أعطيناها على قدرنا . وكان رحمه الله أسمح الناس معاملة وأطلقهم يدًا . اشترى منه قوم مرَّة ثمر بستانه وبعد أيام جاءوه

فقالوا له نرجوك أن تقيلنا -أي تفسخ العقد- وترد علينا دراهمنا. وفي الحال رد عليهم نقودهم فلما عدّوها وجدوا فيها خمسين ديناراً زيادة فسألوه ما هذا المبلغ الزائد؟ فقال لهم: لقد أمَّلتم أن تربحوا حين عاملتمونا فأردت ألا يخيب فينا أملكم. وحج سنة فلما مرَّ بالمدينة أرسل إليه الإمام مالك بن أنس من بطبق من رطب فأكل الليث وتلاميذه ورد الطبق لمالك وعليه ألف دينار. وحدّث أحد تلاميذه أنه صحبه عشرين سنة فما رآه يتغدَّى وحده أو يتعشَّى وحده بل يدعو الناس والتلاميذ ليأكلوا معه وما كانت وجبة مما يقدّمه لضيوفه تخلو من اللحم. وكان ربما يطعم تلاميذه في الشتاء هرائس بعسل النحل وسمن البقر لكي يدفئوا بينما يسقيهم في الصيف سويق اللوز بالسكر وكان إذا سافر بحراً استأجر ثلاث سفن إحداها لمطبخه. والثانية لعائلته والثالثة لضيوفه وجلسائه وتلاميذه. ولما احترقت مكتبة أحد زملائه العلماء واسمه لهيعة، أرسل إليه في الحال ألف دينار.

ومن قصصه رحمه الله أنه أعطى أحد تلاميذه واسمه سعيد الآدم صحيفة مُسطَّرة للحساب وقال له اكتب لي فيها أسماء من يلازمون المسجد ممن لا تجارة له ولا بضاعة قال سعيد فأخذت الصحيفة وعدت إلى بيتي ثم جلست لأكتب الأسماء فكتبت بسم الله الرحمن الرحيم وطفقت أحصر الأسماء في ذهني فأحسست كأن هاتفًا يهتف بي: ياسعيد هؤلاء قوم تعاملوا مع ربهم سراً إذ كلٌ قصد أن تكون أعمالهم لا رياء فيها ولا سمعة فكيف تكشفهم لآدمي؟؟ وإذا مات الليث ومات ابنه شعيب أفليس مرجع هؤلاء عندئذ إلى عائلهم الأكبر. الذي عاملوه؟؟ قال سعيد فقمت ولم أكتب شيئًا. ولما قابلت الليث في اليوم التالي ناولته الصحيفة ففضها فلم يرَ فيها غير (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال: ما الخبر؟ أخبرته بصدق. فصاح باكيًا وقال: تبيَّنتها ياسعيد وطفق يكررها وهو يبكي (مات الليث ومات ابنه شعيب أليس مردُّهم إلى عائلهم الأكبر الذي عاملوه سراً).

وكان رحمه الله إلى جانب أخلاقه وجوده الهائل عالمًا ثبتًا ثقة واسع المعرفة كثير

الأشياخ وقد روى عنه كثير من أشياخه من تلاميذه وشهد له كثير من العلماء المتخصصين بعلم الرجال أنه صادق ثقة وكان حريصًا على جمع الكتب في الحديث حتى إنه حين زار بغداد أرسل إلى هُشيم الواسطي غلامًا يقول له : أخوك ليث المصري يقرئك السَّلام ويسألك أن تبعث إليه شيئًا من كتبك . وبمثل هذا الأدب جعل الله لليث ودًا في قلوب الصالحين . ولليث بن سعد رحمه الله حادثة مع الرشيد تدل على أنه كان يجمع إلى علمه ذكاءً وحسن تصرُّف فقد دعاه الرشيد رحمه الله ذات ليلة والسيدة زبيدة خلف الستارة تسمع . وقال له : كان بيني وبين أم محمد كلام . ولما زاد الكلام قالت لي الناس يقتدون بعملك معتقدين أنك من أهل الجنة فسبق مني عندئذ يمين حين حلفت أن لي عند الله بدل الجنة جنتين . وما أدري ماذا أفعل بذلك اليمين . فقال له الليث : أقسم لي بالله ثلاثًا أنك تخاف مقام ربّك فأقسم الرشيد ثلاثًا أنه يخاف الله تعالى . فقال الإمام الليث إذن لاشيء عليك في يمينك الأول لأن الله تعالى يقول : ﴿ولمن خاف مقام ربّه جنتان﴾ ثم أمره بالاستغفار لأنه تألى على الله أنه سيدخله الجنة وهذا معصية تذهب إن شاء الله بالاستغفار .

وكان الليث بن سعد رحمه الله يقبل هدايا الرشيد والخلفاء ولكنه كان لا تستشرف نفسه إليها ولا يطلبها وكان يقول في ذلك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية . والحقُّ أن الليث رضي الله عنه كان عبقريًا منذ نشأته فقد حدَّث شرحبيل بن جميل -وهو من الأشياخ- أن الناس عرفوا لليث فضله وعلمه وأنه من سراة العلماء منذ أيام هشام بن عبد الملك بن مروان وكان في مصر سراة من العلماء والولاة والكل يعرف فضل الليث ويعده فقيه العصر . وكان الليث رحمه الله فصيح اللسان يتقن القرآن والنحو ويحفظ الحديث وجيد الشعر وكان حلو المذاكرة والموعظة يميل إلى الاختصار والإيجاز في الوعظ ولكن بأسلوب مؤثر جدًا . قال له الرشيد يومًا : عظني ياليث فقال : يا أمير المؤمنين : من رأس العين يأتي الكدر فإن صفت العين صفت السواقي وهذا شأن الولاة يصلحون إذا صلح

الخلفاء .

وقد عاش الليث ستة وسبعين عامًا عاشها بمصر فهو مصري المولد والنشأة والوفاة . عاش ثمانية وثلاثين عامًا في عصر بني أميَّة وثمانية وثلاثين عامًا في خلافة بني العباس وظلَّ على كافة أحواله وتقلبُّ أيامه محترم الرأي مسموع الكلمة حتى لقد كانت الرسالة منه تكفي لعزل والٍ وتنصيب والٍ مكانه . ومن بركات الليث بن سعد رحمه الله أنه رأى بعض الناس بمصر ينتقصون من قدر عثمان رضي الله عنه فلما حدّث الليث بمزايا عثمان وفضائله كف الناس عن تنقص عثمان حين اطلعوا على جلائل كرمه وأعماله وشبيه بذلك ما حدث من الإمام إسماعيل بن عياش رحمه الله فقد عاش بحمص وأحسَّ أن الناس ينتقصون من قدر عليّ رضي الله عنه فلم يزل يحدث الناس في فضائل علي حتى كفوا عن انتقاصه وأحبوه رضي الله عنه . وكان يكره أن يوغل السَّائل في الصفات ويقول : أمرّوا أحاديث الصفات كما جاءت وكان المصريون يفاخرون بالليث ويعدونه من مفاخر مصر وكان لا يستنكف أن يروي الحديث عن تلاميذه حين يتوسم فيهم الصدق والمعرفة . وبالمناسبة فقد كان الليث رحمه الله عصاميًا لم يصل إلى عليا المناصب ومنازل الاحترام بكثرة عشيرته ولا رفعة حسب إذ كان رحمه الله من أصل فارسي من أهل أصبهان ولكن سعة علمه وطول باعه ورحلاته ونبل شمائله وأخلاقه كل هذه بنت له سؤددًا تقاصر عن نيل مثله أشراف الزمان . وكان له في الرواية إسناد مشرق إذ كانت روايته عن عطاء ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عائشة . ولما توفى رحمه الله ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة مائة وسبعين للهجرة ، سار في جنازته خلق لا يحصون . وحدث بعض من شهد الجنازة أنه حضرها مع والده فرأى الناس كلهم يبكون كأنما كل واحد منهم ثاكل . فسألت والدي عن سر ذلك الحزن فقال لي : يابني هذا عالم لاتقع العين على مثله . رحم الله الليث بن سعد عالمًا عاملاً وجوادًا عظيم الكرم وإمامًا هدى الله به كثيرًا من الناس .



مسلمة بن عبد الملك

الأمير الأموي الجليل، والقائد المجاهد المغوار، نجل الخليفة عبد الملك بن مروان ابن الحكم، رأى نفسه ينحدر من أمٍّ غير عربيَّة فلم يتطلَّع إلى الخلافة؛ وإنما عوّض عن ذلك بأن تطلع إلى منازل الشهداء، وآفاق المجاهدين، ومدارج السَّالكين؛ فلبس لأمة الحرب وقضى معظم حياته على تخوم دولة الإسلام مدافعًا عن دعوة الحقّ وكان كثير القيام والصيام حتى لقد لقبه بعض جنوده الجرادة الصفراء ولم يزل في معامع البطولة حتى صار من أعظم أبناء عبد الملك وشاع له في الناس ذكر جعله عند الناس أهمَّ من كلِّ إخوانه وكان رحمه الله مبارك الناصية كثير الانتصارات.

وإلى جانب مواقفه القتاليةكانت له دراسة في الحديث حتى لقد حدث عنه عدد من رجال الحديث كيحيى الغسَّاني ومعاوية بن صالح وعبد الملك بن أبي عثمان وعبد الله بن قزعة وعُيينة والد سفيان بن عيينة وروى هو الحديث عن عمر بن عبد العزيز رحمهم الله وقد ولاه أخوه الوليد الموسم ثم تولى العراقين لأخيه يزيد ثم تجلّت عبقريته القتالية حين تولى ولاية أرمينية وذلك لأنها كانت بؤرة الاشتباك مع الروم في دولة القسطنطينية.

وكان مسلمة رحمه الله كريمًا من عظماء الأجواد وهو بعد خالد بن الوليد أعظم قائد قرشي باشر القتال بنفسه مدحه الشاعر أبو نخيلة وكان من أمراء الشعراء فقال فيه

أمسلمُ إني يابن خير خليفة ويافارس الدنيا ويا جبل الأرضِ
شكرتك إن الشكر من معدن التقى وما كلُّ من أوليته نعمةً يغضي
وأحسنت لي ذكري وما كنتُ خاملاً ولكنَّ بعض الذكر أنبهُ من بعض

كان يكنَّى أبا سعيد وأبا الأصبغ ولكن يبدو أنَّ الجهاد شغل وقته فألهاه عن الزواج وكانت له دار في دمشق يؤُمُّها ذوو الحاجات والعفاة عند الباب القبلي للجامع الأموي بدمشق وكان مسرح غزواته أول الأمر في الشرق ثم غزا بلاد الترك والقسطنطينية وكان أحد قواد الإسلام الذين حاصروا القسطنطينية. وكان مسلمة رحمه الله فصيحًا قوي العارضة في الحث على الجهاد وكانت للروم حصون متناثرة في أرمينيا وكان بعضها حصينًا جدًا فلم يزل مسلمة يهاجمها حصنًا حصنًا حتى كشف ظهر الروم وكان ربما لقي في بعضها مقاومة لا تطاق.

وكان لا يبالي بالمال ويعشق الكرم عشقًا قال يومًا للشاعر نصيب الأسود سلني حوائجك يانصيب فأبى نصيب أن يسأله وقال لو سألتك لما قنعت أن تعطيني على قدر مسألتي ولكني أترك الأمر لكرمك فأعطاه مسلمة ألف دينار ولما حضرته الوفاة رحمه الله أوصى بثلث ماله للشعراء والأدباء وقال إن حرفة الأدب حرفة جُحفَ أهلها وكان رحمه الله شديد التقدير لأهل الدين وأهل الباقيات الصالحات الذين يخلصون أعمالهم لوجه الله ويكرهون الشهرة والذين جعلوا كلَّ همِّهم أن يرضى الله جل جلاله غير ناظرين إلى رتبة عسكرية أو دعاية دنيوية.

حاصر يومًا أحد حصون البيزنطيين وإذا الحصن هائل التحصينات وكان مسلمة رحمه الله لا يرضى أن يرتد عن حصنٍ دون فتحه وقد مكث المسلمون عدة أيام لا ينالون من الحصن أي نيْل وعندئذ هاج شوق مسلمة لفتح ذلك الحصن الحصين وفي اليوم الرابع هجم الجنود المسلمون هجومًا عامًا والنبال تنهال عليهم كوابل المطر وقد استحر القتل في المسلمين فرأى الناس في وسط السَّاحة جنديًا مسلمًا قد لبس سلاحه وحمل في يده مسحاة ثقيلة قوية وانقض على ثغرة من الحصن تواريها زاوية

وأخذ يضرب بمسحاته والكل يتعجب من شدَّة قوته لكنَّ أحدًا من جنود المسلمين لم يتمكَّن أن يعرفه لأنه كان ملثَّمًا ووسَّع الجندي الثغرة حتى دخل منها ودخل عدد من المسلمين فعقروا جنود النصارى من خلفهم واستمرت المعركة حتى بدت تباشير النصر فانصرف صاحب المسحاة والنقب مسرعًا حيث اختفى ولم يعرفه أحد. وبعد المعركة سأل مسلمة رحمه الله عن صاحب النقب فلم يعثر له على أثر وقد اشتد شوق مسلمة إلى لقاء الرَّجل لما لمس من إخلاصه لله وحرصه على ألا يناله من عمله شهرة ولا يخالطه رياء فأعلن عن جائزة سنية لمن يعرف شيئًا عن صاحب النقب فلم يبلغ عنه أحدٌ لأن الرَّجل رحمه الله أمعن في التستُّر وعندئذ بعث مناديًا في الجيش إن الأمير يناشد الله صاحب النقب أن يقابله ليتشرَّف بمعرفته وليطلب منه الدُّعاء فلما رأى صاحب النقب أن في الأمر مناشدة الله انتهز فرصة بعد صلاة العشاء بوقت وتوجه إلى خيمة مسلمة ولا أحد يراه حتى إذا وصل إلى الخيمة قال لحارسها بلغ الأمير أني أعرف صاحب النقب وأني أرغب في لقائه لإبلاغه عنه ففرح الأمير رحمه الله وقال للحارس ائذن له حالاً ودخل الرَّجل مشرق الوجه على الأمير فحيَّاه وقال له: أيها الأمير إني أعرف صاحب النقب ولكني أريد أن تعاهدني إذا أنا أخبرتك عنه ألا تسألني عن اسمه أو اسم قبيلته وألا تلحقني من هذه الخيمة لترى أين أذهب وألا تبحث عنه على ضوء أوصافه فقال الأمير: لك ذلك؛ فقال الرجل: أنا صاحب النقب وخرج مسرعًا فلم يتحرك الأمير وراءه حتى لا ينقض العهد لكنَّ مسلمة بعد ذلك لم يصل صلاة إلا دعا بعدها وقال (اللهم احشرني في زمرة صاحب النقب). لمَا رأى من شدة حرصه على إخفاء عمله ليظل خالصًا مخلصًا لوجه الله الكريم.

وعلى الجملة فقد حافظ مسلمة وجنوده على دولة الإسلام واحتملوا في سبيل الله برد تلك التخوم وافتتحوا قصوراً وقلاعًا محصنة تقرباً إلى الله العظيم وتفوق مسلمة في الجهاد على إخوانه المنحدرين من أمهات عربيات وقد استغرق الجهاد في

سبيل الله من عمر مَسلمة معظمه وكان يلقى في جهاده عناءً من ثبات البيزنطيين الذين كانوا يعتبرون مدينة القسطنطينية بابًا لكرامة صليبهم وكان رحمه الله يستهدف المدن الحصينة فإذا تمكن منها دمرها كما فعل بمدينة باب الأبواب التي دمّرها ثم عاد فشيدها بعد تسع سنين وفي أثناء حصاره للقسطنطينية تمرَّد الصقالبة فتوجه إلى مدينتهم ودمرها وهزم ملكهم واسمه البرجان ثم عاد من عندهم لإكمال حصار القسطنطينية، وكان رحمه الله شديد الحذر فقد كان أثناء مغازاة الروم يصيبه صداع شديد لا يكاد ينهض لشدته فبلغ ذلك ملكَ الروم فبعث إليه بقلنسوة وقال له: ضعها على رأسك يذهب صداعك فخشي الأمير مسلمة أن تكون مكيدة ووضعها على رأس بهيمة فشفاها الله ثم وضعها على رأس أحد رجاله فلم ير إلا خيرًا ثم وضعها على رأسه فشفاه الله ولما فضَّ القلنسوة إذا الملك الرومي قد كتب فيها آية وكررها في كل الصفحة إلى أن بلغت الكتابة سبعين سطرًا وهي بعض آية من سورة فاطر قوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إن الله كان حليمًا غفورا﴾. وقد توفي مسلمة رحمه الله عام مائة وعشرين فبكاه الصالحون ورثاه الأخيار وكان ممن رثاه ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك حيث قال فيه:

لقد كنت نورًا لنا في البلاد ... مضيئًا فقد أصبحتْ مظلمهْ

كتمنا مَمَاتك خوف اليقين ... فأبدى اليقين لنا الجمجمهْ

رحم الله الأمير مسلمة بن عبد الملك وأكثر أمثاله في قادة المسلمين.



موسى بن نصير

لقد أعجبني في موسى رحمه الله أنه كان رجلاً صاحب دين وكان حريصًا على وحدة المسلمين وكان إلى كل ذلك قدوة للقادة يقتدون برجولته وصدقه ومواقفه.
ينتمي موسى رحمه الله إلى بطن من بطون قحطان هم قبيلة لخم ويبدو أن أباه نُصيرًا كان من رجالات بني أمية وكان في خدمة معاوية بن أبي سفيان لكن نصيرًا كانت له شخصية مستقلةفلم يخرج رحمه الله لقتال علي رضي الله عنه وقال لمعاوية قولته المشهورة: إذا كان شكري لك لا يتم إلا بكفراني لله فإن شكر الله أولى بي من شكر عباده فاغتفرها له معاوية بما عرف من حلمه.

وكان لموسى صديق من بني أمية هو حاكم مصر عبد العزيز بن مروان الذي أجاره من غضبات عدَّة حتى تسلّم رحمه الله أول منصب كبير له وهو ظيفة والي أفريقية وهنا تجلَّت عبقريته القتالية حين فرَّغ نفسه لقتال البربر وهم قبائل جريئة كانت في الشمال الأفريقي. لقد وجد موسى رحمه الله أن أفريقيا تخضع للعرب المسلمين إسميًا أمًا فعليًا فكانت ثورات البربر متفجرة في كل مكان لكن موسى رحمه الله جمع جيشه ولم يزل يقاتل به قبائل البربر حتى استرد الشمال الأفريقي وثبَّت حكم المسلمين في بلاد تونس في جبل زغوان بالقرب من تونس في قاعدة القيروان وأخضع قبائل زناته وهواره وكتامه وصنهاجه واستعان على القبائل التي

في الجزائر بالمجاهدين الأبطال من أبناء عقبة ابن نافع الشهيد المجاهد رحمه الله فقتلوا من القبيلة التي تآمرت على أبيهم أكثر من ستمائة رجل وشفوا غليلهم وكان موسى رحمه الله مفوَّهًا إذا خطب ألهب العزائم فقد خطب في مقدمة قتاله خطبة في جنوده كانت موجزة لكنها شافية قال فيها :

إنما أنا رجل مثلكم فمن رأى مني حسنة فليشجعني ومن رأى سيئة فلينكر عليّ هذا وقد ضاعفْنا عطاءكم ثلاث مرات فخذوا أموالكم هنيئًا وقد فتحت بابي لأصحاب الحاجات لمواساتكم ولا حول ولا قوة إلا بالله . من أجل ذلك كان موسى محبَّبًا لجنوده فتتابعت الانتصارات حتى لقد قال عن نفسه : (ما هُزمت لي راية قط ولأفض لي جمع ، ولا نكب المسلمون معي نكبة جائحة منذ اقتحمت الأربعين إلى أن أقبلت على الثمانين . ولقد كان لموسى أبناء شجعان منهم عبد العزيز وعبد الله ومروان وكانوا جميعًا في صفوف جيشه المظفر حتى تم له فتح طنجة وإسكان القبائل الموالية له فيها ومن ثمَّ فلم يبق على الشاطىء الأفريقي مدينة لم تدن له إلا منطقة سبتة التي كانت يحكمها حاكم إسبانيّ اسمه جولويان وقد هاجمه موسى فوجده قويًا ووجد النجدات تتدفق عليه بسرعة لقرب إسبانيا من سبتة ومن ثم ترك موسى قتال جوليان وظل متحرِّقا لغزو الأندلس حتى أراد الله له ذلك على أثر قصة حصلت بين جوليان حاكم سبته ورودريك أو لذريق طاغية إسبانية الذي استبد بحكم الأندلس وخلع الملك الشرعي غيطشة وتفصيل القصة كالآتي :

أنَّ ملوك أسبانيا كانوا ربما جمعوا في قصورهم أبناء الأشراف وبناتهم ليربوهم على حب ا لملك والدولة وفداء الوطن فأراد جوليان أن يكسب ذلك الشرف فأرسل ابنته إلى قصر لذريق وكانت بارعة الجمال فأعجب بها الطاغية ويبدو أنه لم يزل بها حتى وقع في الفاحشة مغتصبًا لتلك البريئة ومستهينًا بالأمانة والشرف فأخبرت البنت أباها سرًا ولما حضرت إلى أبيها أقسم أن يسعى بكل قوته لهدم عرش لذريق .
وبالفعل فاوض موسى بن نصير أن يُمده بالسفن التي ينقل عليها الجنود لغزو

الأندلس وقد اختبره موسى فلما تبين له صدقه أرسل مولاه طارقًا بن زياد فنزل على سواحل الأندلس وكانت معركة فتح الأندلس التي خاضها طارق وأنجزها موسى ودخلت الأندلس حكم المسلمين حيث ازدهر فيها العلم والدين والآداب ثمانية قرون .

كان موسى رحمه الله من أفذاذ الرجال علمًا وأدبًا ودينًا وقد جاء في سيرته أن أفريقيا أصابها قحط فجمع موسى الناس وصلى بهم صلاة الاستسقاء ولم يذكر اسم الوليد في دعاء خطبة الاستسقاء فلما روجع في ذلك قال : هذا موقف لا يجوز أن يذكر فيه إلا الله الذي عنده خزائن كل شيء ولم يكد يفرغ من الصلاة حتي كانت سقيا مباركة أخصب الله بها الديار فلم يُعرف عام كان أعظم بركة من ذلك العام . وكان موسى رحمه الله لا يملُّ القتال وقد فتح جميع الأندلس ما عدا منطقة وعرة لجأ لديها بعض متعصبي الروم والقوط ومنها حل البلاء بالمسلمين فيما بعد لأن الروم لم يزالوا يوسعونها كلما قوَّاهم المدد وأردفهم العَدَد . وبينما موسى في قمة انتصاره جاءه رسول من الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك يستدعيه إليه وهنا يبرز موقف عظيم من موسى رحمه الله فقد كان في إمكان موسى أن يرفض العودة إلى الشام وكان رحمه الله محاطًا بقادة وجنود مخلصين له وكان رحمه الله يعلم أن الخليفة الأموي ربما يصيبه بشر لأن خلفاء بني أمية كانوا لا يحبون أن تتوجه الأنظار بكليتها إلى رجل غير الخليفة لكن موسي انصاع لأمر الخليفة ورجع إليه يحمل معه مولاه طارقًا ولقد سئل موسى في أمر استجابته لأمر الخليفة مع أنه كان يمكنه أن يعتصم بأفريقيا والأندلس فقال (لقد آثرت الله ورسوله . وتقربت إلى الله بألاَّ أخرج على الطاعة ولا أشذ عن الجماعة) ولقد حمل موسى معه من غنائم الأندلس مالا يكاد يصدق العقل وجوده محمولاً على العجلات وظهور الحيوان وحمل معه من السبي ثلاثين ألفًا والمائدة الذهبية العجيبة ومن الجواهر والذخائر وفاخر الأثاث مالا يوصف . وكان مع كل هذا آسفًا على أن حيل بينه وبين مواصلة الجهاد وحمل

موسى معه مائة رجل من وجوه البربر ومائة رجل من أحفاد المهاجرين والأنصار وملوك المناطق التي فتحها ومائة وثلاثين عربة محملةً بالجواهر النفائس. ولما وصل إلى الوليد وهو في أواخر مرضه أنبه الوليد بدلاً من أن يقيم له استقبالاً عظيمًا ومات الوليد بعد وصول موسى بأيام فتولى الملك سليمان ولما قابل موسى سليمان وبخه سليمان وغرَّمه مبلغًا كبيرًا متهمًا إياه أنه نهب الأموال لكن الأمير عمر بن عبد العزيز رحمه الله والقائد يزيد بن المهلب توسطا له عند سليمان فعفا عنه سليمان ولكن موسى ظلَّ متخوفًا من غدر سليمان. وفي وادي القُرى جاء أجل موسى رحمه الله فأسلم الروح إلى خالقها بعد أن ترك في سجل الخلود قدوات تصلح أن تكون معالم على طرق البطولات، وبعد أن أحرز من الانتصارات ما أوصل دولة الإسلام إلى حدود فرنسا وإذا كان البعض قد أخذ على موسى أنه كان يحبُّ الظهور وأن يظلَّ الأول في كل من حوله فإن موسى لم يكن يطلب شيئًا لا يستحقه إذ لم يكن في كل من حوله من يستحق أن يقدم عليه وحسبه أنه ظل محافظًا على أهدافه السَّامية من الفتح وهي خدمة الإسلام ونشر دعوة الحق في مشارق الأرض ومغاربها وحسبك من موسى ذلك الأسلوب البليغ المؤثر في الحث على الجهاد تدلك على هذا خطبته البليغة الرائعة التي استهل بها رحلة جهاده حين أعلن أنه سيدمر الأعداء الذين في جواره ولن يسمح أن يترك وراءه حصنًا لا يدمره بل لابد أن ينظف كلَّ حصن يمرُّ به قبل أن ينتقل إلى غيره فقد كان مما قاله في بدء انطلاقته: إن أكثر من انبروا إلى القتال في أفريقيا كانوا بين مسالم يرضى بالدون وبين إنسان ضعيف العقيدة شديد الخور لكنني إن شاء الله سأرجو من الله حسن الخاتمة لأن العاقبة للمتقين وقد كان من قبلي يتخطون العدو الأدنى ويعمدون إلى العدو الأقصى. أما أنا فلن أترك هذه القلاع المنيعة التي حولي حتى يضع الله أرفعها ويدكَّ أعلاها ويذل سكانها من الكافرين أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين. رحم الله القائد المسلم موسى بن نصير وسلام عليه في المجاهدين الخالدين.



علي زين العابدين بن الحسين ابن علي بن أبي طالب

علي بن الحسين بن أبي طالب رحمه الله حباه الله من أخلاق جدّه المصطفى صلى الله عليه وسلم مالم يجتمع إلا لعظماء الرِّجال وعَبد الله فأخلص العبادة حتى لقبه أهل زمانه زين العابدين أبوه الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب وجده عليٌّ الخليفة الراشد زين أبطال الإسلام وجدته أم الحسين فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أما والدته ففي أشهر الأقوال أنها سلمى بنت يزدجرد ملك الفُرس حضر رحمه الله محنة كربلاء وكان مريضاً فنجاه الله من القتل وكان الرَّجل الوحيد الذى نجا ذلك اليوم ثم لم يلبث يزيد بن معاوية أن أرسله إلى المدينة هو وآل بيته من الأطفال والنساء وعاملهم فيما بعدُ بالإكرام وكان يومَ كربلاء فى الثالثة والعشرين من العمر وعاش بعد ذلك اليوم خمسًا وثلاثين سنة ملأها بالكرم والإحسان والعبادة الصادقة حتى لقد قال عنه الزهري وكان يألفه : ما رأيت قرشياً أفضل من زين العابدين بن الحسين • كان رحمه الله من العلماء العاملين ومن فضلاء التابعين وكان يجالس بعض الموالى ممن له سابقة في الإسلام ويقول : إنما يجلس العاقل حيث ينتفع وكان كثير المجالسة لزيد بن أسلم يحضر درسه في حلقته فقيل له تجالس هذا العبد؟ فقال : العلم يُطلبُ حيث كان • وكان خلفاء بنى أمية الكبار يحبون زين العابدين ويحترمونه وبخاصة مروان وعبد الملك• وكان رحمه

الله معتدلاً يقول لمن يحاول الوقيعة بينه وبين بني أمية : ياأهل العراق أحبونا حبّ الإسلام ولا تحبونا حبّ الأصنام ، فإن حبكم لم يزل بنا حتى كرّه فينا الناس • وكان في أول أمره قليل الذرية فأقرضه مروان مالاً فتسرَّى عدة سُرِّيات وأنجب أولاداً وأحفاداً كثيراً وجميع نسل الحسين المنتشر في الدنيا هو من ذرية علي زين العابدين رحمه الله وروي أن مروان أعفى زين العابدين مما أقرضه . وكان قليل الرواية للحديث ولعل من أصح الأسانيد ما جاء عن الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن عليّ (وهو زين العابدين) عن أبيه عن عليّ . وكان رحمه الله لا يستغل قرابته برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال معاصروه : ما أكل زين العابدين بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم درهمًا قط . وسجد مرةً فشبت نار في بيته فلم يقطع صلاته حتى انتهى وكان إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة وإذا توضأ اصفر لونه ويقول أتدرون بين يدي مَنْ سأقوم ومن الذي سأناجيه؟ وحجَ مرَّة فقيل له مالك لا تلبي فقال أخاف أن أقول لبيك فيقال لي بذنوبي لا لبيك ولا سعديك وروى ابن عساكر أن زين العابدين كان في بعض أوقاته يصلي في اليوم ألف ركعة .

وروى طاوس أنه سمع عليًا بن الحسين وهو ساجد في الحجر يبكي . ويقول مناجيًا ربه عُبيدك بفنائك مسكيُنك بفنائك . سائلك بفنائك . فقيرك بفنائك وروى صاحب الحلية أن زين العابدين قاسم الله ماله مرتين وقال إن الله يحبُّ المؤمن التواب . وكان يحمل الخبز بالليل على ظهره يتتبَّع به المساكين ويقول إنَّ صدقة سواد الليل تطفىء غضب الرَّب . وكانت عائلات من أهل المدينة يؤتى إليهم برزقهم ومعاشهم ولا يدرون من يأتيهم ذلك فلما مات زين العابدين انقطع ما كان يأتيهم فعرفوا أنه هو الذي كان يحمله إليهم . ولما غَسَّله مغسَّله بعد موته وجد بظهره آثارًا من كثرة ما كان ينقل الطعام إلى منازل الأرامل والأيتام وكان يخفي إنفاقه فظن أهله أنه يدّخر فلما مات لم يجدوا ذخيرة وراءه وتبيَّن لهم أنه كان يعول أكثر من مائة أسرة من فقراء المسلمين . وأعتق مرَّة غلامًا له سيم بعشرة آلاف درهم

وقال : ما عند الله خير وأبقى ومن أنباء جوده وإيثاره أنه دخل على محمد بن أسامة بن زيد فجعل محمد يبكي فقال له لم البكاء؟ قال من الديون. قال له وكم ديونك؟ قال بضعة عشر ألف درهم. فقال له : هي علي. وكان يقول أستحي أن أقول لأخي أسأل الله لك الجنة ثم أبخل عليه بالمال وهو عرض زائل. وكان إذا أعطى الفقير دعا له وقبل رأسه. وسُئل مرَّة كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وكان سائله يحسب جهلاً أنه سينقص من منزلة الراشدين فقال رحمه الله ما يليق بمثله من المؤمنين (كانت منزلتهما منه كمنزلتهما في كل أوان). وسأله مرَّة أحد جهلة القوم فقال له حدثني عن أبي بكر فقال ويحك تسألني عن الصديق قال وتسميه الصديق؟! فقال له هذه القولة الرائعة : (لقد سماه الصديق من هو خير مني رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والأنصار فمن لم يسمه صديقًا فلا صدق الله قوله اذهب يارجل فاحبب الصديق والفاروق وتولهما فما أصابك من أمر ففي عنقي). وجاءه عراقي فسأله متى يبعث عليٌّ بن أبي طالب أمع الناس أم وحده فقال رحمه الله يبعث والله يوم القيامة مع الناس ويكون كل همِّه نفسَه وحصلت بين زين العابدين وابن عمه حسن بن الحسن موجدة فما ترك حسن قولاً إلا قال لكن زين العابدين جاءه ليلاً واعتذر إليه مع أنه لم يسُب فعانقه حسن وبكى حتى رثينا لبكائه وكان يقول أشهد أن عثمان قتل على غير وجه حق. وكان يصلي خلف بني أميَّة ويراهم خلفاء المسلمين وكان أحيانًا يتأنق في ملابسه وربما اشترى الكساء بخمسمائة درهم فيلبسه ثم يتصدق به .

وكان رحمه الله رفيقًا روي أنه لم يكن يضرب بعيره من المدينة المنورة إلى مكة المكرَّمة ولو سوطًا وكان يقول إن قومًا يعبدون الله رهبة فتلك عبادة العبيد وعبده آخرون رغبة فتلك عبادة التجار أما عبادة الأحرار فهي أن تعبده حبًا له وعبودية لجلاله. وكان رحمه الله يكثر أن يروي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ أين أهل الصبر؟ فيقوم ناس من الناس فيقال علامَ صبرتم

فيقولون صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله . فيقال لهم : صدقتم ادخلوا الجنة» . وكان في نقش خاتمه (القوة لله جميعًا) . وكان لزين العابدين رحمه الله منزلة ومهابة في عيون الناس تدلُّ عليها القصة التي حدثت له مع هشام بن عبد الملك فقد حج هشام في إحدى السنين وتقدَّم ليستلم الركن وهو الحجر الأسود وكانت تلك الحجة في عهد أخيه الوليد فلم يستطع استلام الحجر حتى نصبوا له منبرًا قرب الركن فاستلم وجلس أهل الشام على يمينه يحرسونه وفي أثناء ذلك أقبل زين العابدين رحمه الله فلما تسامع الناس باسمه فتحوا له الطريق طوعًا وهشام على منبره ينظر وأراد هشام أن يتجاهل عليًا فقال لمن حوله في أسلوب لا يخلو من الاستهانة : من هذا؟ وإذا الفرزدق قريب فقال إن كنت لا تعرفه فأنا أعرفه وأعرفك به : وأنشد قصيدته الشهيرة فبعث إليه زين العابدين اثنى عشر ألف درهم مكافأة فردها الفرزدق وقال : إنما قلت ما قلت ابتغاء وجه الله وحبًا لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن زين العابدين لم يزل به حتى قبلها . وحبسه هشام فلم يأبه . وهذه بعض أبيات القصيدة يردُّ بها على هشام حين قال من هذا ؟

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرمُ
إذا رأته قريش قال قائلها	إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	بجده أنبياء الله قد ختموا
إن عُدَّ أهل التقى كانوا أئمتهم	أو قيل مَن خيرُ أهل الأرض قيل همُ
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقي النقي الطاهر العلم
يُنمى إلى ذروَة العز التي قصُرت	عن نيلها عرب الإسلام والعجم
من معشَر حبُّهم دينٌ وبغضُهُمُ	كفر وقربُهُم منجيً معتصم
وليس قولك من هذا بضائره	العرب تعرف من أنكرت والعجمُ

وكان رحمه الله إذا أصبح قال : اللهم إني أبيح كلَّ من ينالني وأتصدق على من استحل غيبتي بغير حق . وروى أن سفودًا من الحديد المحمي سقط من يد غلام كان

عبدًا لزين العابدين فوقع على رأس ولد له فمات حالاً فأسرع إليه علي وقال: لا تخف إنما سقط منك على غير عمد وأعتقه. ومات لأحد الناس ولدٌ عاق فجزع عليه أبوه خشية النار فعزَّاه زين العابدين قائلاً لا تجزع فوراء ابنك شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ووراءه رحمة الله وعفوه ووراءه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته. رحم الله زين العابدين إمامًا اقتدى بأخلاق جده صلى الله عليه وسلم فَشَرَّفَه الله فقال الناس فرعٌ زكي من أصل نبويّ والله أعلم حيث يجعل رسالته.



الإمام الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي

ما قرأت سيرة العترة النبوية من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا استروحت لسيرتهم شذاً عطراً ونزاهةً عن كل قول مهين وعن كل فعل يشين وقد اخترت سيرة العالم التابعي محمد الباقر بن علي زين العابدين رحمه الله لأبيّن مقدار حبه للإمامين الجليلين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ولأدحض ما يخوض فيه بعض الغلاة من افتراء خلاصته أن أبناء عليٍّ رضي الله عنه وأحفادهم كانوا يكرهون الخليفتين الراشدين أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما. إن بعض الغلاة يعتقدون أن محمداً الباقر من الأئمة الاثنى عشر المعصومين لكنهم ينسبون إليه أقوالاً في صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالها بل تبرأ منها. كان محمد الباقر رحمه الله يروي الحديث في تحرُّج وروايته قليلة ومثله كان ابنه جعفر الصادق رحمه الله فقد روى الباقر عن عائشة وعلي وعن الحسن والحسين وعن أبيه زين العابدين وروى عن ابن عباس وسعيد بن المسيب وعن أبي هريرة وعن كبار التابعين كعطاء والزهري والأعمش والأوزاعي وآخرين. وكان إلى جانب علمه وروايته من العاملين بعلمهم فقد جمع النبل والكرم والتواضع وكلَّ صفات الخير والمعروف.

ولقب الباقر من قولهم بقر العلم أي شقَّه واستخرج خفاياه. والحق أن أبا جعفر الباقر كان إماماً تقياً مجتهداً عفّ اللسان وقد سأله مرة سالم بن أبي حفصة

وكان معه ابنه جعفر الصادق سأله عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال ياسالم : أحببهما وابرأ إلى الله من عدوِّهما فإنهما كانا إماميّ هُدى . وهذا قول ساطع يكشف عن إيمان عميق لهذا الإمام العالم العامل ولكن بعض الغلاة يقولون إن هذا الكلام كان الباقرُ وابنه يقولانه تقيَّة وقال الصيرفي : سألت الإمام محمداً الباقر عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال : والله إني لأتولاهما واستغفر لهما وما أدركت أحدًا من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما -أي يعدُّ نفسه حلفًا لهما وشيعة لهما ونصيراً . والحق أن محمداً الباقر رحمه الله ذو منزلة رفيعة في علماء عصره اتفق الحفاظ على الاحتجاج به وعدّه المحدِّثون من فقهاء التابعين وكان جدُّه الحسين بن علي رضي الله عنه ربما أجلسه في حجره وقال له : جدُّكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رحمه ا لله صبوراً على العبادة وقيام الليل روي أن ورْدَه من صلاة الليل وصلاة النهار كان مائةً وخمسين ركعة وقيل بل كان خمسين ركعة وكان يقول : هل الدنيا إلا مركب ركبته وثوب لبسته وقال يومًا لجلسائه أجمع بنو فاطمة أن يقولوا في أبي بكر وعمر أحسنَ ما يكون القول وقد تزوج من ذرية أبي بكر تزوج بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر . وقال وهو يعاني سكرات الموت رحمه الله : اللهم إني أتولى أبا بكر وعمر . اللهم إن كان في نفسي غير هذا فلا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم . وسألوه يومًا عن تفسير قوله تعالى في سورة المائدة ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ فقال هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يقول البعض هو علي رضي الله عنه فقال : عليٌّ واحدٌ منهم . وقال مرَّة يزعمون أنني المهدي وإني إلى أجلي أقرب مما يدعون . ومرض يومًا ولد لمحمد الباقر فجزع عليه وهو مريض فلما توفي الابن كفَّ عن الجزع وصبر فلما سُئل في ذلك قال : كنت في مرضه أدعو الله له فلما توفي لم أخالف الله فيما أحبُّ . فصبرت ورضيت وسُئل مرةً عن حلية السيَف من الذَّهب فقال نَعم كان الصديق رضي الله عنه يحلي سيفه فقال له السائل ويبدو أنه كان من الغُلاة : أتقول الصديق قال نعم الصديق .

نعم الصديق. نعم الصديق. من لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً في الدنيا ولا في الآخرة. وكان يحتقر المتكبرين ويقول ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر إلا نقص من عقله مقدار ذلك. ومن أقواله : الصواعق لا تُصيب الذاكر وكان يقول قولاً موجزاً شافيًا يحارب به البذاء : سلاح اللئام قبح الكلام.

ومن أقواله رحمه الله الإيمان ثابت في القلب أما اليقين فخطرات تمُرُّ وترجع فإذا سكنت في القلب صار كأنه في قوّته الحديد وإذا خرج عاد القلب كالخرقة البالية ويبدو أن محمدًا الباقر رحمه الله كان عميق الفهم لكتاب الله موهوبًا في اللغة العربيَّة. فقد دخل عليه يومًا عدد من أهل العراق من رجال الفكر فسألهم : ماذا يقول فقهاؤكم في قوله تعالى : ﴿ولقد همَّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربِّه﴾ قالوا رأي أباه يعقوب عليه السلام عاضًا على إبهامه فقال لهم حدثني أبي عن جدّي عن والده عليّ بن أبي طالب أنها قامت إلى صنَم لها فسترته فسألها يوسف ماذا فعلت فقالت أسترُ الفَعْلة عن إلهي لأنني أستحي منه فقال لها تستحين أنت من صنم لَا يأكل ولا يشرب ولا ينفع ولا أستحي من ربٍّ عظيم قائم على كل نفسٍ بما كسبت فهذا هو بُرهانُ ربه الذي رآه. وقال يومًا لأحد جلسائه واسمه جابر الجعفي ياجابر : إنَّ المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا ولم يأمنوا الآخرة ولم تنسهم الفتن ذكر الله ولم تعمهم زينة الدنيا عن نور الله. إن أهل التقوى أخف الناس مئونة وأكثرهم للخلق معونة، وهم إن نسيت ذكروك وإن ذكرت أعانوك. قوالون بحق الله. قوامون بأمر الله، قطعوا محبتهم بمحبة الله، وأحبُّوا الله بقلوبهم، ورأوا الدنيا كأنما نزلت بمنزل وارتحلت عنه أو كأنها مالٌ أصبته في منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء. لقد حفظوا الله تعالى ما استرعاهم من الدين والحكمة.

وكان رحمه الله يقول والله لموت عالم أحبُّ إلى إبليس من موت ألف عابد. ومن أقواله : إن شيوخنا أصناف ثلاثة : صنف يأكلون مال الناس بعلمهم وصنف هشٌّ كالزجاج من أول صدمة يتهشم. وصنف كالذهب الأحمر كلما دخل النار

ازداد جودة ومن حكمه رحمه الله قوله : أوصاني أبي فقال : يابني خمسة لا تصاحبهم ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق لا تصحبن فاسقًا فإنه يبيعك بأكلة فما دونها . ولا تصحبنَّ البخيل فإنه يقطعك من ماله وأنت أحوج ما تكون إليه . ولا تصحبن الكذاب فإنه كالسراب يبعد منك القريب ويقربك من البعيد ولا تصاحب الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك . ولا تصحب قاطع الرحم فإني وجدته ملعونًا في كتاب الله .

وقد بلغ من علم محمد رحمه الله أن كثيرًا من العلماء كانوا يرون في أنفسهم فضلاً وتحصيلاً فإذا جلسوا إلى محمد الباقر أحسُّوا أنهم تلاميذه . ومن جوامع كلمه رحمه الله قوله : ما من شيء أحبُّ إلى الله من الدعاء . وإن أسرع الخير ثوابًا البر ، وأسرع الشر عقوبة الظلم . ومن أحاديثه التي رواها رحمه الله قوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من نقله الله من ذل المعاصي إلى عز التقوى أغناه بلا مال وأعزَّه بلا عشيرة . وآنسه بلا أنيس . ومن خاف الله أخاف الله تعالى منه كلَّ شيء ومن لم يخف الله أخافه من كلّ شيء . ومن رضي من الله تعالى باليسير من الرزق رضي الله منه باليسير من العمل . ومن لم يستحي من طلب المعيشة خفَّت مئونته وأخرجه الله من دنياه سالمًا إلى دار الخلود ونعّم عياله ومن ترك طمع الدنيا ثبت الله الحكمة في قلبه وانطلق بها لسانه» .

وقد ولد رحمه الله سنة ست وخمسين في خلافة معاوية ومات سنة أربع عشرة ومائة . رحم الله أبا جعفر إمامًا بليغًا يبلغ كلامه شغاف القلوب .



القاضي إياس بن معاوية المزني

القاضي إياس بن معاوية المزني يُعدُّ من مفاخر قبيلة مُزينة ولم نقرأ عن قاض في الذكاء والفطنة والفراسة وحسن التصرُّف في القضاء ما قرأناه عن إياس . وكان رحمه الله مضرب مثل في الذكاء يقول الشاعر أبو تمام من قصيدته السينية في مدح المعتصم :

إقدام عمرو في سماحة حاتم　　　في حلم أحنف في ذكاء إياس

كان إياسٌ رحمه الله عفًا نزيهًا طيب الطعمة وكان يودُّ لو اختار عمر بن عبد العزيز رجلاً غيره للقضاء ولما رشَّح عمر بن عبد العزيز إياسًا للقضاء رشح معه قاضيًا آخر اسمه القاسم بن ربيعة الجوشني ووجه رجلاً ليجمع بينهما ويختار فقال إياس للرجل : اسأل عني وعن القاسم فقيهي البصره الحسن وابن سيرين فمن زكياه منَّا وأشارا عليك بتوليته فولّه . وكان إياسٌ قلّ أن يجالسهما في حين كان القاسم من جلسائهما وعندئذ أدرك القاسم أن إياسًا سينجو من القضاء بهذه الحيلة فقال للرَّجل : ليس بك حاجة أن تسأل عني وعن إياس فأنا أقسم لك بالله إن إياسًا في القضاء أعلم مني والمهم أن الرَّجل اختار إياسًا بعد جُهد جهيد من القاسم ولما تولَّى إياس القضاء زاره في عمله الحسن البصري رحمه الله فبكى إياس بحضور الحسن فقال له الحسن ما يبكيك قال يا أبا سعيد لقد علمت أن القضاة ثلاثة رجل

اجتهد فأصاب فله الجنة فقطع الحسن عليه الحديث وقال له إن الله جلّ جلالة أثنى على داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث فقد قال فيهما ﴿وكلاً آتينا حكمًا وعلما﴾ فأثنى على سليمان ولم يذم داود ثم قال الحسن إن الله عزَّ وجلَّ أخذ على العلماء ثلاثًا : لا يشترون به ثمنًا قليلاً ولا يتبعون الهوى. ولا يخشون غير الله أحدًا فطابت نفس إياس وقد قرأنا في سيرة القضاة ذكاءً ولكن ما قرأنا كالذي قرأناه من ذكاء إياس وسنورد هنا من أخبار إياس ما يؤيد عظمة فكره. وقد وثقه يحيى بن معين وله شيء في مقدمة صحيح مسلم وقد استوعب أخباره الشيخ المزّي في كتابه التهذيب وكتب عنه ابن عساكر كتابة وافية في تاريخه. وقد اقتبست في الكتابة عنه من كتاب (أخبار القضاة) للقاضي وكيع الشاعر المصري المتوفى ببغداد عام ثلاثمائة وستة للهجرة.

جاءته امرأتان تختصمان في كبة غزل فقال لأولاهما على أي شيء كببت غزلك حين أنجزته. قالت على كسَر خبز وقال للثانية على أي شيء كَببت غزلك قالت خرقه. فقلب الكُبَّة بإمعان فرأى عليها فُتات خبز فسلم الغزل لصاحبته التي ذكرت كسَر الخبز فلما علم محمد بن سيرين بذلك قال: ويحًا له ما أفهمه.

وترافع رجلان إلى إياس في قطيفتين إحداهما حمراء والأخرى خضراء فقال أحدهما إني دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي فجاء هذا ووضع قطيفته في جوارها ثم إنه خرج قبلي فلبس قطيفتي ومضى بها فلم أزل أتتبعه حتى وجدته فادعى أنه ما لبس إلا قطيفته وسأل إياس المدعي أمعك شهود أنها قطيفتك قال لا. ففكر مليًّا ثم أمر أن يحضر مشط وأمر بتسريح رأسيهما بالمشط وإحضار المُشاطة إلى القاضي فلما تأمل الشعر الذي خرج في المشاطة وجد أنه قد علق بالمشط من أحدهما شعر أحمر ومن الآخر شعر أخضر فسلم كلاًّ منهما قطيفته على حسب ما أخرجه المشط.

وتنازع رجلان إلى إياس ادعى أحدهما أنه أودع الآخر مالاً فجحده فقال

إياس للمدعي في أي مكان أودعته المال قال في موضع من البر فيه شجرة كبيرة فقال له إياس اذهب إلى المكان الذي أودعت صاحبك فيه المال وابحث تحت الشجرة وتذكر لعل الله عزَّ وجل يفتح عليك بشيء من أمر مالك وأمر إياس الرجل الآخر أن يجلس إلى جانبه فلما مضت ساعة من الوقت وإياسٌ يحكم بين الناس قطع المحاكمة وفاجأ الرجل فسأله : أتظن أن صاحبك وصل الشجرة قال الرجل : لا إن الشجرة بعيدة فقال له القاضي : أيها الخائن رد على الرجل ماله لأنك أدعيت أول الأمر أنك لا تعرف مكانًا ولا شجرة فأحضر المال وعزَّره إياس بما يقضي به الشرع الشريف في حق أمثاله .

وجاء رجل إلى إياس فادعى أنه أودع عند رجل كيس نقود ملأه بالدنانير وأنه غاب عن المؤتمن خمسة عشر عامًا ولما رجع طلب الكيس من المؤتمن فسلمه إليه بختمه ولما تأمله الرَّجل وضح له أن الرَّجل قد فتق الكيس من أسفل ليظل ختمه في الأعلى سليمًا وأنه قد فرَّغ الكيس من الدنانير ووضع بدلها دراهم فدعا إياس المدعى عليه فقال : إنما سلمته الكيس الذي أودعني إياه بذاته فأخذ إياس الكيس من الرَّجل وأفرغ كل ما فيه أمامه وأخذ يتفقد كل قطعة من النقود فيه حتى جمع منه عددًا من الدراهم وأخذ يتأملها : ثم سأل الرَّجل المودَع فقال له : يقول صاحبك إنه أودعك الكيس قبل خمسَ عشرة سنة؟ قال الرجل نَعَمّ. وفي الحال قال إياس أيها الخائن ردّ على الرجل دنانيره . إن هذه الدراهم مضروب بعضها قبل سنتين وهذا قبل خمس سنين وهذا قبل عشر سنين فكيف تسلمت هذا الكيس قبل خمس عشرة سنة وكثير من الدراهم التي فيه لم يُصنع ويضرب إلا قبل سنتين . فامتقع وجه الرَّجل وعاد إلى بيته فعاد بالدنانير وأمر القاضي أن يُحَذِّر الناس من أمثاله وكان إياس رحمه الله جوادًا باع مرة أرضًا له بعشرة آلاف فكان يقسم من ثمنها كلّ يوم أربعمائة في بعض بيوت العرب في سنة من سنوات القحط . وكان إياس صاحب فطنه وتجربة ورأي سئل مرة عن المروءة فقال مروءة الرجل في بلده حيث يعرفه

الناس هي التقوى أما مروءته عند من لا يعرفه فهي ذوقه في لباسه ومظهره. وكان رحمه الله ربما مَزِحَ سأله رجل مَرَّة: ما دينك فقال ديني على دين أمرأتي. ومن ذكائه أن رجلاً جاء يشكو إليه أنه أودع رجلاً مالاً فأنكره فقال له إياس: صف لي الرجل الذي ائتمنته فأنكرك فقال رجلٌ غني يتردد على دور الحكومة والناس يحترمونه ولا يصدقونني إذا اتهمته وكأن إياسًا عَرَف المتهم فقال للمدعي عُدْ إليَّ بعد يومين وفي أثناء اليومين استدعى المدعى عليه وقال له: لقد اجتمع عندي مالٌ للدولة وأنا بحثت عن أمين فوُصفْتَ لي وأريد أن أضعه عندك فحصِّن أقفالك وأعدّ موضعًا للمال وقومًا يحملونه وعاد المدعي بعد يومين فقال له إياس الآن اذهب إلى صاحبك واطلب منه مالك الذي أودعته فإن أحضره لك فقد قُضي أمرك وما أظنه سينكرك لأني فتحت أمامه باب طمع كبير فذهب المدعي إلى الرجل المؤتمن وقال له رد علي مالي فقال: ليس لك عندي مال. قال الرَّجل إن لم تردّ مالي عليّ فسوف أشكوك إلى إياس فخاف الرَّجل إن شكاه إلى إياس أن يعدل إياس عن ائتمانه على مال الدولة فردّ على الرجل مبلغه وبعد لأي ذهب إلى إياس ليتسلَّم مال الدولة فقال له إياس ياعدو الله أنكرت على الرجل أمانته وهي دراهم معدودة أفنأتمنك على مال الدولة وهو مال عظيم وزجره وقال له لا تقربني بعد اليوم فإنك خائن. وكان إياس ذا فراسة قل أن تخطىء: نظر مرة إلى جنازة فقال للقوم صاحبكم حيٌّ فوضعوا الجنازة وعضوا الرجل فتململ وإذا هو حي فقالوا لإياس كيف عرفت فقال رأيت أصابع قدميه منتصبة والميت لا تنتصب أصابع قدميه. ونظر إلى رجل متأبط شيئًا فقال هذا رجل معه سُكَّر وقد ولد له غلام. فسألوه كيف عرفت ذلك فقال رأيت الذباب يلاحقه فعرفت السكر ورأيته نشيطًا فرحًا فعلمت أنه رزقَ غلامًا. وتقدم رجل إليه من عنزه أعمش تخاصمه امرأة كالقلعة ومعهم نفر فيهم فتى شاب وسيم له منظر ورواء فأقبلت المرأة تتكلم بلسان سليط فقال لها الرجل أجملي ولا تغيظي زوجك فقالت إنه لا يستحق وكانت تكثر أن تنظر إلى الشاب وتقول لزوجها ما

عرفتك إلا كسلان نئوما وسأل إياس الرَّجل ما شأن زوجتك فقال الزوج :

نبت عـــينهـــا عني وراق فـــؤادها　　　فـــتى من بني دحـــلان رخـــو المكاســـر
فـــتى لـو أجـــاريه إلى المجـــد فُتَّه　　　وقـــصّر عـــــن إدراك حـــرٍّ المــــآثـــر
رأته جـــمـــيـــلاً ذا رواء فـــأذعنت　　　إليـــه بجـــسم مـــثل إحـــدى القـــناطر

فالتفت إياس إلى الغلام وأخذ بأذنه وقال له إربأ بنفسك عن مثل هذا الموقف المخزي. وإلا أطلت حبسك وكأن ضمير الغلام استيقظ وإذا زوجها يقول لها أنت طالق ثلاثًا غير فقيدة ولا حميدة قبحك الله ونَفْسَك الأمارة بالسوء. وعادت الزوجة مطلَّقة والغلام ينظر إليها شزراً. وقد خسرت الزوج وفتى حُلمها وعادت بخُفّي حنين .



القاضي شريك بن عبد الله النخعي

اشتهر في أمة محمد قضاةٌ شرفت بسيرتهم مهنة القضاء لما اتصفوا به من عدالة ووقوف مع الضعيف حتى يأخذ حقه وكنت قد تحدَّثت عن شريح القاضي وأتحدث الآن عن القاضي شريك بن عبد الله النخعي كما تحدثت عن القاضي إياس وما روى عنه من حذق واستقامة ومن ذكاء ومهارة. وقد أخذ بعض القوم على شريك رحمه الله أنه كان يبيح النبيذ ويروي حديثًا عن عمر رضي الله عنه بإباحته والنبيذ الذي أباحه الفقهاء هو عصير العنب يطبخ ولا يُسكر. وأخذوا عليه أنه كان فيه تشيع وقد دافع عن نفسه حول هذه التهمة واقتنع بكلامه أبو جعفر وثالث ما أخذوا عليه أنه كان إذا أمره الخليفة بأداء عمل أدّاه ولو كان فيه انتقاد. كان مثلاً قاضيًا للكوفة فأمر أن يستقبل الخيزران زوجة المهدي حين قدمت إلى الكوفة فأقام ينتظرها ثلاث ليال ويبس خبزه فجعل يبله في الماء ويأكله فهجاه شاعر يقال له العلاء الغنوي بقوله :

فإن كان الذي قالوه حقًا	بأن قد أكرهوك على القضاء
فمالك مسرعًا في كلِّ يوم	تلقَّى من يحج من النساء
مقيمًا في قرى شاهي ثلاثًا	بلا زاد سوى كِسَر وماء

والحق أنَّ شريكًا لم يطلب مهنة القضاء ولكنَّ الثابت أن أبا جعفر دعاه لما سمع

من حسن بديهته وقال له قد وليتك قضاء الكوفة فقال : لا أحسنُ ذلك. فقال أبو جعفر للفضل بن الربيع يكون عندك حتى يقبل. فقال له الفضل : الخليفة لن يعفيك فاقبَل !! الأمر طوعًا أحسن من أن تقبله كرهًا فقبل القضاء وعد بعض خصومه ذلك شبه رغبة منه والله أعلم. ومع ذلك كان شريك قوي الإجابة عَيَّره يومًا أمير عباسي يقال له موسى بن عيسى فقال له : يا أبا عبد الله عزلوك عن القضاء وما رأيت قاضيًا قبلك عزل فقال شريك : هؤلاء ملوك يعزلون ويخلعون. وكان بتلك الكلمة يُعِّرض أن والد موسى بن عيسى كان قد خلع من ولاية العهد. وروي عن شريك أنه جاءه بعض ولد المهدي فسأله سؤالاً وهو مضطجع فلم يلتفت إليه وتجاهله. فقال له : كأنك تستهين بولد الخليفة فقال معاذ الله ولكنك مضطجع فجلس معتدلاً على رُكبتيه وسأل فأجابه شريك وقال هكذا يُطلب العلم. وقد مدح الإمام أحمد شريكًا فقال : كان عاقلاً صدوقًا محدثًا شديداً على أهل الريب والبدع واشتهر شريك بالزهد فكان يلبس الثوبين لا يساويان عشرة دراهم وربّما دخلت بيته فلم تجد فيه سوى شاة يحلبُها ومطهرة وحصير. وكان إذا جلس للقضاء أخرج من جيبه رقعة وقرأ ما فيها ثم يدعو بالخصوم وسُئل ابنه عن الرقعة ماذا كان مكتوبًا فيها فقال : مكتوب فيها ياشريك اذكر الصراط وحدّته ياشريك اذكر الموقف بين يدي الله تعالى.

وكان شريك كثيراً ما يتعرض لوشايات فقد وشى به الربيع مرة إلى المهدي فلما وصل أخذه الحرس بعنف وأدخلوه عند الخليفة فلّما دخل سلم فقال له المهدي : لا سلم الله عليك. قال شريك فقلت يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول : ﴿وإذا حييتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو ردوها﴾ فوالله ما حييتني بأحسن منها ولا رددتها. قال المهدي : لقد أوطأتُ الرجال عقبيك وأنت رافضي ملعون. قال يا أمير المؤمنين مثلك لا يمنُّ بمعروفه. أما قولك إني رافضي فإن كان الرافضي هو الذي يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة وعليا والحسن والحسين صلوات الله عليهم

أجمعين فأنا أحبهم. وأشهد الله وأشهدك على حبهم. فرجع المهدي ثم قال له: أعطوه بدرة فحملها شريك على عاتقه وخرج فمر بالربيع فقال له: بارك الله لنا في وشايتك. ولشريك مواقف في القضاء تدلُّ على جرأته وشدته في الحق وأكتفي بذكر موقفين من تلك المواقف:

كان للخيزران ورشة تطريز يعمل فيها بعض من يجيدون التطريز ولكي يكون التطريز جميلاً أرسلت خبيراً نصرانيًا في التطريز وأوصت الأمير عيسى بن موسى أن يطلق يده ولا يعصي له أمراً. وكانَ ذلك النصراني ظالمًا لمن تحت يده من أهل الصنعة يسخرهم ولا يوفيهم أجورهم وكان من بين المطرزين رجل ظلمه النصراني فأكل أجره وحبسه أن يعود إلى بيته ويستريح من التطريز وكان يحاول أن يفلت من دار الطراز والورشة فلا يستطيع وفي ذات يوم هرب من المطرزة وتوجه صوب دار القضاء فتبعه النصراني على برذون فاره ومعه سوط يضربه به والمسلم يستغيث ويقول استغيث بالله ثم بالقاضي حتى وصل إلى دار القضاء ودخل على شريك فسلم على القاضي وهو يلهث وأثر السياط على ظهره. فقال له شريك اجلس وهدىء روعك واحك لي قصتك فقال: أنا رجل أصنع الوشي أي التطريز وأجرة مثلي مائة درهم في الشِهر وقد جاءني هذا وأشار إلى النصراني وأخذني لأعمل في مشغل السيدة وأجري على طعامي وظلت أسرتي بلا عائل يعولهم وقد مضى عليّ الآن أربعة أشهر وعيالي ضائعون فهربت اليوم من العمل فلحقني وطفق يضربني بالسوط حتى فعل بظهري ما تري. فقال القاضي شريك رحمه الله: يانصراني اجلس مع خصمك. فقال يا أيها القاضي: هذا الرجل من خدم السيدة وهو الآن هارب من عملها. قال القاضي: ويلك أقول لك اجلس مع خصمك وأنت تقول خدم السيدة. قم فاجلس كما أمرتك. فسأله القاضي: هذه آثار السياط أنت الذي أحدثتها في ظهر هذا الرجل: قال لقد ضربته أسواطًا قليلة بيدي وهو يستحق أكثر من ذلك. فدخل القاضي بيته وأحضر سوطه ورجع به وقال للرجل عُدْ إلى أهلك

وسيأتيك حقك من عملك في الطراز كاملاً وسلم السوط لشرطي فضرب النصراني والشيخ يقول له لن تضرب بعد اليوم مسلمًا إن شاء الله والنصراني يقول سيعلم من ضربني ماذا يحدث له. وهجم بعض أعوان النصراني ليستنقذوه فأمر الشيخ بهم إلى الحبس وقام النصراني يجرُّ أذيال الإهانة فقال أحد أعوان الشيخ : أنا خائف من عاقبة هذا الأمر قال شريك : اسكت من أعزَّه الله عَزّ. وذهب النصراني إلى عيسى بن موسى فشكا إليه وبكى وقال : ضُربت بالسوط فقال عيسى : لا أتعرض لغضب شريك ومضى النصراني إلى بغداد ولم يعد من تلك السَّفرة أبدًا .

أما الحادثة الثانية فهي أن امرأة دخلت على شريك وقالت له : أنا امرأة من نسل الشاعر جرير وكررتها فقال لها شريك اتركي هذا عنك ليس المهم من أنت ولكن المهمَّ من ظلمك فقالت الأمير عيسى بن موسى يا أيها القاضي كان لي بستان على شاطىء الفرات ورثته عن آبائي وفيه نخل قسمتُه بيني وبين إخوتي وجعلت له سورًا عليه حارس يحفظ النخل واشترى الأمير عيسى حصص إخواني ثم ساومني فرفضت بيع بستاني فأرسل عددًا من العمال فقلعوا الجدار وغيَّروا منار الأرض وأصبحت لا أعرفُ مكان بستاني. فختم القاضي على قطعة طين بتوقيعه وقال لها : خذي هذه وامضي بها إلى باب الأمير حتى يأتي معك. فدخل الحارس بالقطعة فأمر الأمير أحد غلمانه أن يحمل رسالة إلى القاضي يشرح فيها الأمر فلما وصل الغلام إلى القاضي وسلمه الرسالة قرأها فأمر بإلقاء القبض على الغلام وإيداعه السجن حتى يحضر سيده وإذا الغلام قد أحضر معه فراشه متوقعًا ذلك الإجراء وبلغ الأمر الأمير فأرسل حاجبه في هذه المرَّة يقول للشيخ تسجن الرسول؟ ما على الرسول إلا البلاغ فقبض على الحاجب وأدخله السجن. فأرسل الأمير جماعة من الوجوه ليردُّوا القاضي عن تشديده فأمر القاضي بإلقاء القبض على أولئك الوجوه وإيداعهم السجن فذهب الأمير عيسى ليلاً وأطلق السجناء وفي الصباح بلغ القاضي ما فعل الأمير فحمل القضية وتوجه إلى بغداد ليستعفي أمير المؤمنين من القضاء

وجدّ الأمير في السير وراء القاضي حتى أدركه عند قنطرة الكوفة فاستشفعه وقال له تسجن وجوه الناس؟ قال نعم لأنهم مشوا في الظلم وراء الظالم وخضع الأمير للأمر وجلس مع المرأة المتظلمة صاحبة البستان وأعاد السجناء إلى السجن وعندئذ أمر الشيخ بإخراج كل السجناء وحكم عليه برد حائطها فلما امتثل وقف الشيخ وسلم على الأمير ودعا له وأجلسه إلى جواره رحم الله شريكًا القاضي وألهم قضاتنا العدل والسداد .



الإمام شعبة بن الحجاج البصري

لقد أعجبت بسيرة الإمام المحدث شعبة بن الحجاج البصري رحمه الله لأنه كان لا يروي الحديث إلا متألقًا مشرق الإسناد فكان ذلك ثقةً في الصادقين وحربًا على المدلسين حتى كأنما خلقه الله مدافعًا عن صفاء السُّنة النبوية المطهرة. وأعجبت به لأن شيوخه أعجبوا به ورووا عنه فقد روى عنه منصور بن المعتمر وأيوب السختياني والأعمش وغيرهم وقال عنه حماد بن زيد: إذا خالفني شعبة في حديث صرت إليه. وأخيراً فقد أعجبت به لالتزامه الزهد والعفاف ولعيشه على الحلال الكفاف ثم لجوده الذي جعل حلقة درسه باب رزق لطلاب العلم. كان رحمه الله يجمع من رواد درسه ما ييسره الله فيعول به التلاميذ الفقراء وكان لا يدخر من المال شيئًا لكثرة ما كان يتعاهد طلاَّبه وأصحابه. لقد كان رحمه الله إلى هذا عظيم الفهم لحديث رسول الله رأسًا في العلم والعمل قانعًا بقوت يومه منقطع القرين في مكارم الأخلاق حتى لقد كان الإمام سفيان الثوري رحمه الله يخضع له ويجله ويقول: شعبة أمير المؤمنين في الحديث وقال عنه الشافعي لولا شعبة لما مهدت طريق الحديث بالعراق. كان رحمه الله يخشى أن يكون الإقبال على رواية الحديث على حساب القرآن الكريم خصوصًا وأنه كان يعلم أن عمر رضي الله عنه كره الانقطاع لكتابة الحديث خوفًا أن يشغل ذلك الناس عن حفظ كتاب الله فقد كتب عمر مَرَّة إلى

بعض المكثرين لرواية الحديث كابن مسعود وأبي الدرداء وأبي مسعود البدري فقال لهم : ما هذا الحديث الذي تكثرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبسهم بالمدينة ولم يسمح لهم بالتجول في الأقاليم حتى استشهد . لكن شعبة رحمه الله عَوَّض عن ذلك بالدقة المخلصة في التعامل مع الحديث . وأكثر الاطلاع على أحوال الرواة حتى لقد روى أنه سمع من أكثر من أربعمائة شيخ . وقد نال شعبة تلك المنزلة العظيمة بين أشياخه مع أنه كان مولى ولم يكن ابن قبيلة شهيرة . كان مولى للأزد وكان له أخ وصهرٌ يغدقان عليه ويقدران انقطاعه للعلم لكنه كان بدوره يغدق على تلاميذه وأصحابه الفقراء وكان يقول لتلاميذه الزموا السوق واطلبوا الرزق ولا تكونوا مثلي عالة على أقاربكم . لقد كان شعبة رحمه الله منقطعًا إلى تدريس العلم وعبادة الله حتى لقد قال فيه أحد تلاميذه ما رأيت شعبة قط راكعًا إلا ظننت أنه نسي نفسه وما رأيته قاعدًا بين السجدتين إلا ظننت أنه نسي نفسه . وكان واسع العطاء لفقراء تلاميذه يجود بكل ما يسوقه الله إليه وكان كثيرًا ما يهيب بتلاميذه الأغنياء أن يتفقدوا أحوال زملائهم الفقراء ويَسُنُّ هو القدوة الحسنة فيبدأ بإنفاق ما معه ويكتفى بأقل القليل من المطعم والملبس وكان كثيراً ما يسأل الأغنياء لجيرانه الفقراء وكان من أرق الناس مع السائلين يعطي السائل ويكثر النظر إليه كأنما يلتمس البركه بمشاهدة الفقراء • دخل عليه مرة سليمان بن المغيرة وكان من الحفاظ فذكر له أن حماره مات يوم الجمعة فانقطع عن التنقل في حوائجه وضاعت عليه صلاة الجمعة فأخرج من جيبه ثلاثة دنانير وقال له : ليس معي غيرها فاشتر لك حماراً ودفعها إليه . ووهبه المهدي مره ثلاثين ألف درهم فقسَّمها في الفقراء وكان سفيان إذا سأل عنه قال : ما فعل أستاذنا شعبة ولقد لقّب في مجال الحديث بأمير المؤمنين وكان كثيرًا ما يزهد في طعامه وشرابه ليؤثر الفقراء حتى جَفَّ جلده على عظمه واسود وكان يصوم أيام عمره إلا قليلاً وكان يحسُّ بعظمة المسئولية على راوي الحديث وكان كثيرًا ما يقول : وددت لو أنني كنت وقَّادَ حمام وأني لم أعرف

الحديث وقد فتح الله على شعبة فروي له أكثر من ألفي حديث. وكان رحمه الله يكره المظاهر سأل مرة أحد أصدقائه بكم هذا القميص الذي عليك قال بثمانية دراهم فقال له ويحك ما ضر لو اشتريت قميصًا بأربعة وتصدقت بأربعة فقال له صديقه إنا نماشي قومًا نحبُّ أن نتجمل عندهم قال ويلك ما معنى أن تتجمل عندهم تجمَّل عند الله. وكان يقول لولا حوائج لي عند التلاميذ ما درستهم ويعني بذلك أنه كان يجمع من التلاميذ دراهم وطعامًا فيفرقها في الفقراء. وحدث القاضي يحيى بن سعيد أنه كان يكون عند شعبة فإذا جاء سائل ولم يكن عند شعبة شيء قال يا يحيى أما معك شيء فإذا أخرج له نقودًا سلمها للسائل وكان صبورًا في طلب الحديث. اختلف إلى عمرو بن دينار رحمه الله خمسمائة مرة فما ظفر منه إلا بمائة حديث يعني حديثًا واحدًا في كل خمسة مجالس. وكان في أخذ الحديث ونقله آية في الدقة ذهب مرةً يطلب حديثًا عند رجل فوجَده يزنُ عند تاجر ويسترجحُه ويلحُّ في ذلك فترك الأخذ عنه لما رأى من طمعه. وكان رحمه الله يضن بالحديث أن يبذله لمن لا يحفظه ويقدره سأله رجل عن حديث فامتنع عن الإجابة فقيل له لم لا تحدثه؟ فقال هذا رجل من القصاصين وهؤلاء يتزيَّدون ولا يتقيَّدون بالنص والسَّند. وكان يكره المبتدعين حتى لقد قال مرَّة لولا الحياء من الناس ما صليت على أبان بن عياش. وقال أيوب السختباني مرة لتلاميذه خذوا عن شعبة لأنه فارس الحديث ولأنه يضنَّ بالحديث على من لا يقدره مع أن قومًا من المحدثين قد يحدثونك تسعين حديثًا بفلس وكان شعبة يقول حدثوا عن الأشراف لأنَّ ذوي الأخلاق لا يكذبون. ثم قال إن الذين يطلبون الحديث على الدواب لا يفلحون.

وكان رحمه الله يقول لولا المساكين ما حدثت يشير بذلك أنه يجمع لهم قوتهم من أغنياء جلسائه وكان إذا وجد حديثًا يسترقص المستمعين يبدأ يشك في سنده ويتحرَّى وكان يروي الأحاديث الهادفة كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تستبطئوا الرزق فإنه لم يكن ليموت عبد حتى يبلغ آخر رزق له. وأجملوا في

الطلب. خذوا الحلال واتركوا الحرام». ورأى وهو في سفره رجلاً يظللون عليه فقال ما شأنه قالوا: صائم. فقال ليس من البر الصيام في السفر. وكقوله صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل الجنة قاطع». (يعني قاطع رحم) وكالحديث الشريف أن الرَّسول صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي وكبر عليه أربعًا. وهذه أحاديث كان يرويها شعبة ويكررها: ألا يخشي أحدكم إذا رفع رأسه والإمام ساجد أن يجعل الله رأسه رأس حمار. «لا يشكر الله من لا يشكر الناس». كان عليه الصلاة والسلام إذا صلى بالحجر قام عمر على رأسه بالسيف (يحرسه) وعاش الإمام شعبة رحمه الله ثمانين عامًا ما حمل فيها يومًا واحدًا همَّ رزقه مع أنه كان يحمل هموم الرزق لعدد من تلاميذه وعائلاتهم. ولما مات رحمه الله رآه أحد أصحابه في المنام بعد سبعة أيام من وفاته رآه أخذًا بيد الإمام عمرو بن كُدام فسأله ما فعل الله بك أبا بسطام فقال غفر لي بصدقي في رواية الحديث ونشري له وأدائي الأمانة فيه. ثم أنشأ يقول أبياتًا منها:

حبـاني إلهي في الجنان بقـبَّة ... لهـا ألفُ باب من لجين وجـوهر

شـرابي رحـيق في الجنان وحليـتي ... من الـذهب الإبريـز والتـاجُ أزهرُ

ونُقلـي لثـام الحـور والله خـصني ... بقـصـر عـقـيق تربة القـصـر عنبـرُ

وكانت فيه دعابة تظهر أحيانًا في إجاباته. سُئل يومًا عن ابن عون وهو محدِّث فقال: سمْنٌ وعسل وسئل عن هشام بن حسَّان فقال: خلٌّ وزيت. وسئل عن أبي بكر الهذلي فقال: دعوني حتى لا أقيء. وجاءَه مرَّة رجلٌ وهو جالسٌ في المسجد فلما تبينه ركَلَه وقال: اعلم أنك فتشت عن فلان وفلان فلما لم تجدهم تصبَّحت بي. وكان يذكر بعض أيام فقره فيقول: إذا شئت أن تفلس فاطلب الحديث لقد طلبت الحديث فأفلست حتى لقد بعت طست أمي بسبعة دنانير. وحدث حمَّاد بن زيد أنه رأى شعبة يومًا وقد خنق أحد المبتدعين واسمه أبان بن أبي عياش وهو يقول سوف أجرُّك إلى السُّلطان لأنك تكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال

حماد فخلصته من شيخنا شعبة بأعجوبة. وذهب يومًا ليأخذ حديثًا عن رجل يقال له ناجية فوجده يلعب الشطرنج فعاد ولم يأخذ عنه. رحم الله شعبة مدافعًا عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عاملاً به مجاهدًا لإعلاء كلمة الله .



الإمام سليمان بن طرخان التيمي

الإمام سليمان بن طرخان التيمي من أعلام العلماء في البصرة قال عنه شعبة ما رأيتُ أحدًا أصدق من سليمان التيمي رحمه الله كان إذا حدث عن النبي صلى الله عليه و سلم تغير لونه من مخافة الله. ووصفه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والنسائي بأنه ثقة وقال فيه عليّ بن المديني: له نحو مائتي حديث روى رحمه الله عن عدد من علماء الحديث منهم أنس رضي الله عنه وعن طاوس وقتادة وربما نزل فروى عن الأعمش وكان من أبرز صفاته أن عمله وعبادته كانا يسبقان قوله. قال فيه ابن سعد : سليمان من العباد المجتهدين صادق الحديث ثقة كان يصلي صلاة الليل بوضوء العشاء الآخرة وكان هو وابنه يدوران بالليل على المساجد فيصليان في هذا المسجد مرة وفي ذلك مرة أخرى لتشهد لهم بيوت الله. كان من كبار العباد بالبصرة ومن الحفاظ الصادقين حتى لقد قال فيه يحيى بن سعيد ما جلست إلى أحد أخوف لله من سليمان التيمي وحدث عنه أحد تلاميذه فقال رأيت ربي في المنام فقال : لأكرمَنَّ مثوى سليمان التيمي صلى لي الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة وحدث عنه حماد بن سلمة فقال : ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله عزَّ وجل فيها إلا وجدناه إما يتوضأً أو يعود مريضًا أو يشيع جنازة أو ينتظر الصلاة في المسجد فكنا نراه أنه لا يُحسن أن يعصيَ الله ولا تنبغي له المعصية وروي عنه أنه ما

مرت عليه ساعة إلا تصدق بشيء فإن لم يتهيأ لديه شيء صلى ركعتين، وكان إذا أكل طعامًا طيبًا تصدَّق وتلا قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا.﴾ وقرأ ليلة ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ فلما بلغ قوله تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ جعل يرددها ويبكي إلى أن طلع الفجر. وقال عنه حَماد بن سلمة: كان سليمان التيمي رحمه الله طوى فراشه فلم يضع جنبه على الأرض عشرين سنة وكانت له امرأتان. وكان يقول الحسنات نور في القلب وقوَّة على العمل. وكان سفيان الثوري لا يقدم على سليمان أحدًا من علماء البصرة. وكان إلى جانب عبادته لا يرى نفسه شيئًا. قال له يومًا بعض تلاميذه: أنت أنت ومن في العبادة مثلك فقال: لا تقولوا هكذا. فإني لا أعلم ما سيبدو لي من ربي وهو الذي يقول: ﴿وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون﴾ ولما سقط مرة بيته لم يُعد بناءَه وإنما بنى فيه خيمة وقال الأمر أعجل من ذلك وغدًا الموت. ومع أنه عُمِّر سبعًا وتسعين سنة فقد كان يُرى قويًا حين يأخذ في العبادة حتى كأنه غلامٌ حدث في نشاطه. وروي أن رجلاً نازعه واعتدى عليه فمد يده ليؤذيه في بطنه فجمدت يد الرَّجل. وقال لابنه حين حضره الموت يا معتمر اقرأ لي عن الرُّخص فإني أحبُّ أن ألقى الله وأنا واثق بسعة رحمته حَسَنُ الظنِّ بعفوه. وقال مرَّةً ما ذكر أحدٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قمت مدافعًا عنه بكل ما أملك من الحجة. وكان يعدل بين سائليه من طُلاَّب الحديث فلا يحدث أيًّا منهم بأكثر من خمسة أحاديث ويخشى إذا زاد ألاَّ يُتقَنَ حفظُ الحديث وكان يروي حديث معاذ: خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعاذ بالباب فقال يامعاذ. قال معاذ: لبَّيك يارسول الله قال: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة» قال معاذ: أفلا أخبر الناس؟ قال: «لا دعهم فليتنافسوا في الأعمال فإني أخاف أن يتكلوا». وكانت الأحاديث التي يرويها من النوع الهادف كقوله صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وكقوله: «ما تركت بعدي فتنة أضر على

الرجال من النساء» ومن الأحاديث التي رواها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيكون في آخر الزمان ذؤبان القُرَّاء «أي العلماء» فمن أدرك ذلك الزمان فليتعوَّذ من شرهم». ومما رواه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا توجه المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار. قيل يارسول الله: هذا القاتل. فما بال المقتول: قال: أراد قتل صاحبه). وكان يعجبه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يجمع الله هذه الأمة على ضلالة أبدًا». وقوله عليه الصلاة والسلام «يد الله مع الجماعة. اتبعوا السَّواد الأعظم فإنه من شذَّ شذّ في النار» وكان يكره القدرية (أي الجبرية) ولا يحدثهم إذا سألوه أن يروي لهم شيئًا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. مرض مرة فبكى واشتد في البكاء فقيل له ما يبكيك فقال: مررت على قدَريٍّ فسلمت عليه. فأخاف الحساب على ذلك.

وكان رحمه الله يحبُّ عليًّا بن أبي طالب رضى الله عنه وعترته الطيبين الطاهرين في غير غُلوٍّ ولا بغض لأي من الصحابة ويروي حديث أسامة بن زيد. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني والحسن ويقول اللهم إني أحبُّهما فأحبَّهما.

وقد رزق الله عزَّ وجل الإمام سليمان عمرًا طويلاً مباركًا فقد عُمر رحمه الله سبعًا وتسعين سنةومات في أوائل دولة بني العباس سنة ثلاث وأربعين ومائة وكان إمام الجامع بالبصرة أربعين سنة. وكان رحمه الله عظيم التواضع قال لابنه المعتمر يومًا نحن ياولدي لسنا من تيم وإنما أقمنا في بني تيم مُدَّة فقال الناس سليمان التيمي. إن أبي كان مولى مكاتبًا لبني مُرَّة وأمي كانت مولاة لبعض بني سُليم وكان ربما توضأ دون أن يُحدث ليظل وضوءُه جديدًا وكان يقول إن الرجل إذا أذنب الذنب أصبح وعلى وجهه أثر المذلة. وكان يكثر الاستغفار فقيل له لو استكثرت من الدعاء فقال إن الله عزَّوجل إذا غفر لي قضى كلَّ حوائجي يشير بذلك إلى قوله تعالى في سورة نوح ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفَّارا يرسل السماء عليكم

مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾ وكان يحرم النبيذ ولا يتساهل في ذلك. وسُئل مرة عن الذي يحجُّ فيسقيه أهل السقاية نوعًا من النبيذ يقال له نبيذ السقاية؟ فقال سليمان ما يسرني أن أحجَّ حجَّة فأشرب جرعةً واحدة من نبيذ السقاية. وعاش حياته رحمه الله يصوم يومًا ويفطر يومًا واشتهر رحمه الله بحبه للطيب اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم. استعار مرَّة فروة من صديق فلما ردَّها ذكر صديقه أنه ظل يجد فيها ريح المسك وبلغ من صدقه في الرواية أن شعبة قال فيه: إنَّ شكَّ سليمان التيمي يُعتبر يقينًا.

رحم الله أبا المعتمر سليمان التيمي إمامًا من أئمة الحديث وعابدًا لله قضى معظم عمره قانتًا آناء الليل ساجدًا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربِّه.



محمد بن شهاب الزهري

كان أهل الشَّام يشاهدون شيخًا عالمًا يميل إلى القصرَ خفيف العارضين يصبغ لحيته بالحناء وفي عينيه عمش قليل. كانوا يرونه كثير التردد على قصر الخلافة حتى كأنه بعض أتباع القصر.

كان ذلك العالم محمداً بن شهاب الزهري القرشي الشريف الذي يرجع نسبه إلى بني زهرة بن كلاب وهم أهل آمنة بنت وهب وأخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان للزهري وجهةٌ في مخالطة الحكام فقد كان يري أن مخالطتهم أفضل من اعتزالهم لأن العالم إذا خالط الحاكمين أمكنه أن يعظهم وينتزع ثقتهم ثم إن المال الذي قد يُهدونه إليه شيءٌ طيب يعينه على مساعدة الفقراء البائسين ويمكن العالم من صلة رحمه وإكرام ضيفه ويفرج كربة المكروب لقد خالط الزهري الخليفة عبد الملك بن مروان وكان عبد الملك رحمه الله فقيهًا محدثًا ذكيًا قوي الحجة ويقول ابن شهاب إنه استفاد من صحبة عبد الملك فقد شجعه على العودة إلى المدينة والتماس العلم عند علماء الأنصار وقد لازم الزهري عبد الملك وكان مسجلاً في سجل المكافآت والرواتب كموظف في القصر ولما مات عبد الملك لازم الزهري ابنه الوليد بن عبد الملك الخليفة الفاتح ثم لازم سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ثم

يزيد بن عبد الملك الذي عيَّنه قاضيًا ثم لازم من بعده هشام بن عبد الملك فنال عنده حُظوةً إذ كان معلم أولاده والمشرف عليهم يحج معهم ويراقب صلاتهم وفلتات ألسنتهم وقد رزقه الله من صحبة الخلفاء آلاف الآلاف من الدراهم ولكنه كان ينفقها على قاصديه وطلاب العلم. وكانت في الزهري صفة جعلته أوسع أهل زمانه علمًا إنها صفة الاجتهاد في التحصيل وحفظ العلم بالكتابة. كان الزهري ربما حمل ألواحَهُ وصحفه ومشى فإذا مر على ثقة من أهل الحديث سمع منه ونسخ ما يسمعه في ألواحه وصحفه وكان ربما ضحك منه طلابه وأساتذته حين يرون الصحف والألواح على ظهره وهو يكتب كل حديث بإسناده في تلك الألواح. وكان إذا رجع إلي بيته طفق يذاكر الأحاديث وأسانيدها حتى أصبح من أوسع رجال الحديث رواية وفهمًا وكان إذا سمع من أمثال عروة وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب وعطاء بن رباح رجع إلى البيت يقرؤه ويعيده. ويروى أنه رجع ذات يوم وقد سمع عدة أحاديث فأراد أن يذاكرها فأيقظ جارية له من نومها وقال لها حدثني فلان بكذا وفلان بكذا فتقول ولكن مالي أنا ولهذا فيقول لها قد علمتُ أنك لا تنتفعين به ولكن أردت أن استذكره لأثبته فلم أجد إلا أن أعيده على سمعك. وبهذه الخاصة جمع من الحديث ما لم يستطع غيره أن يجمعه.

ولقد كان الزهري رحمه الله أشدَّ الناس إهانة للدراهم يراها أرخص من القمامة. كان يعطي حتى ينفد كلُّ ما عنده فيتسلَّف من عبيده يقول يافلان أسلفني وسأرد القرض لك ومثله معه صدقةً تُصلح بها شأنك. وكان يجمع الناس في بيته فيطعمهم ويسقيهم العسل وكان يكثر شرب العسل يرى فيه الصحة إيمانًا بقوله تعالى في سورة النحل ﴿فيه شفاء للناس﴾ وكانت تحل به الضائقة فيصبر عليها ثم يأتيه المال فربما نصحه بعض خاصته أن ينتبه لنفسه كي لا يحتاج إلى الناس فيقول لهم إن الكريم لا يستفيد من تجارب المال.

وللزهري مع سليمان بن عبد الملك قصة تبين معدن ذلك العالم الجليل، كان

سليمان ربما سأل العلماء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان يحلو لسليمان أن يسمع من يذمُّ عليًا وفي يوم سأل سليمان شيخنا محمداً بن شهاب الزهري مسألة فيها ذكر لعلي رضي الله عنه فكان الشيخ كلما ذكر عليًا قال (رضي الله عنه) فقال له سليمان ارحل عنا فوالله ما كان لنا أن نحمل على مثلك فقال الشيخ للخليفة: ولم تقول هذا أأنا اغتصبتك على نفسي أم أنت اغتصبتني عليها؟ قال سليمان : لكننا نعلم أن ديونك الآن ألفا ألف درهم قال الشيخ : لقد علمتَ وأبوك قبلك أني ما استدنت هذا المال عليك وعلى أبيك ولكنني استدنته وأنفقته واثقًا بما عند الله . فلما سمع سليمان ذكر الله انعطف إلى الشيخ وأمر بسداد دينه ونزل الزهري رحمه الله بماء فرأى فقراء محتاجين حوله وحاول أن يتسلَّف فلم يجد من يُسلفُه فنحر راحلته ودعا أهل الماء ليأكلوها فمرَّ به عمُّه فدعاه إلى الغداء فقال له عمه مستهزئًا: تذلُّ وجهك ساعة فتتصدَّر للمروءة سنة فقال الشيخ انزل ياعم فكل أو انصرف راشداً . وحدث أحد جلسائه واسمه عُقيل ابن خالد أن الزهري رحمه الله كان يقف في بعض أماكن المدينة إلى الأعراب يفقههم فجاء أعرابي وقال له يا أيها الشيخ لقد نفدَ ما بيده ولم يكن مع الزهري شيء من النقود فمد يده إلى عمامة عقيل وناولها للبدوي وقال ياعقيل سأعطيك خيراً منها وروي أن الزهري قال يومًا لهشام بن عبد الملك يا أمير المؤمنين اقض ديني قضى الله عنك ديون الدنيا والآخرة . قال هشام وكم دينك قال ثمانية عشر ألف دينار فقال هشام أخشى إن قضيتها عنك أن تعود فتستدين قال الشيخ يا أمير المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» . فقضى سليمان دينه . لكن الزهري ظلَّ على طريقته في الاستدانة حتى لقد بيع بستانه في بلدة شَغْب بعد موته لسداد باقي دينه .

وقصارى الأمر أن الزهري رحمه الله كانت له حليتان : علم واسع بحديث رسول الله جعله أجمع أهل عصره للحديث حتى لقد قال عنه الإمام أحمد : الزهري أحسن الناس حديثًا وأجودهم إسناداً . أما الحلية الأخرى فكرمٌ لا تنهض

الريح لمسابقته . وقد مدحه رحمه الله شاعر يقال له فائد بن أقرم فقال :

وإذا يقال مَن الجواد بماله ... قيل الجواد محمد بن شهاب

أهل المدائن يعرفون نواله ... وربيع ناديه على الأعراب



قتيبة بن مسلم

رب إنسان شرَّف أجداده وقبيلته ثم لم يفتأ أن شرَّف شعَبهُ وأمَّته ثم لم يلبث أن شرفت به الدنيا كلُّها وطابت الحياة كما كانت الحال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين شرَّف عدنان ثم علا به ذكر قريش والعرب ثم طابت بدينه الحياة والناس حين أظلهم الإيمان والأمن. والأمير المجاهد قتيبة بن مسلم شرفت به باهلة وكان الناس ربما نالوا منها ظُلمًا وعلوًا ثم شرفت بسيرته ودينه وأخلاقه سيرة العرب ثم كان المثل الأعلى للجناح المشرقي من الجهاد الإسلامي حيث ضرب أروع الأمثال في الجهاد الصامد المحتسب.

عاش قتيبة بن مسلم رحمه الله سبعًا وأربعين سنة منها ثلاث عشرة سنة عاشها واليًا لخراسان. ولما تسلم ولاية خراسان وجدها بلادًا تموج بالفتن إذ لم تهدأ ولم تهنأ منذ أيام البطل الخليجي المهلب بن أبي صفرة. وقد وجدها قتيبة رحمه الله زاخرة بالقلاقل فأخمد ثوراتها وأخضع قلاعها وكان رحمه الله يأبى إباءً شديدًا أن يمر على حصن لم يستسلم دون أن يخضعه لسلطان المسلمين ودولة المسلمين. وكانت لياقته البدنية بحيث كان ربَّما مشى عشرات الأميال ليتعقَّب عدوًا معتصمًا بجبل ثم هو لا يعقد صلحًا إلا من منطلق الغلبة والقوَّة. وحسبك دليلاً على قوته الحازمة وحزمه القوي أنَّ إقليم سمرقند وما حوله من بلاد السُّغد لم يفتح باب

مدينته لغاز ولا لمقتحم وكان الفاتحون قبل قتيبة يكتفون أن يمرُّوا على سمرقند فيتعجبوا من وعورتها ومناعة أسوارها وتحصيناتها وسلاسل جبالها المتفرعة من جذور هضبة التبت. فلا يفكرون في احتلالها ولكن يصالحون ملكها من منطلق العجز. وكان ملكها غدّاراً شرساً لا يصالح إلا ليخون ويغدر ولكن حينما تولي قتيبة رحمه الله بلاد خراسان جرَّد للأمر عزماً لا تعوقه شوامخ الجبال ولا تنهض له فوادح الأهوال. وسوف أختم سيرة قتيبة رحمه الله بعد قليل بأن أمتع القارىء بقصة فتح سمرقند بيد أني قبل ذلك لابد أن أعطي فكرة عن بعض مواطن القدوة في سيرة هذا المجاهد الأمين. لقد كان المشهد الأول لظهور قتيبة أن الحجَّاج بن يوسف جمع الجيش في قصره بالكوفة وقال لهم: إن زعيم الخوارج شبيب بن ورقاء قد احتلَّ معظم الكوفة بعد أن قتل معظم المقاتلة وروَّع الحريم فأشيروا عليَّ في أمر قتاله وطرده من الكوفة. فصمت الناس إلا شاباً قد جاوز الثلاثين نهض وقال للحجاج إنَّ هزيمتك أمام شبيب إنما كانت بظلمك لأنك ما راقبت الله ولا حفظت أمير المؤمنين ولا نصحت الرعية. قال الحجاج: من هذا المتكلم؟ قال قتيبة بن مسلم: أنا قتيبة بن مسلم الباهلي رددها مرتين. قال الحجاج وهو يكظم غيظه فكر لي في معسكر مناسب نتصدى لهم فيه واحضر إليَّ غداً مبكراً. وبات الحجاج متململاً وصلى الصبح من غده ثم لم تكد الشمس تطلع وإذا قتيبة بكامل عدَّته الحربيَّة على بابه. وأذن لقتيبة فدخل على الحجاج وحادثه في أمر المعسكر الذي اختاره. وكان الحجاج ماهراً في معرفة الرجال فأعجب بقتيبة ولم يخرج قتيبة من عنده إلا وهو يحمل لواء القيادة لخراسان. وتبعه الحجاج ليرى المعسكر وإذا هو وسط سبخات شديدة فقال الحجاج: تختار هذا المكان الوسخ؟ فقال قتيبة الهزيمة أوسخ. إنما اخترته لقربه الشديد من خصاص جنود شبيب.

والتفت الحجاج وإذا الخصاص فأعجب بالاختيار. وفي الحال كلف قتيبة بعض خفاف الشباب وشجعانهم بحرق الخصاص والتحم هو بدوره مع مقدمة

الخوارج فلمَّا علت النار ولى الخوارج إلى خصاصهم لينقذوا ذراريهم وتعقبهم قتيبة وجنوده فأثخنوهم وهربت فلول الخوارج وأحسَّ الحجاج أن مرحلة من التخطيط السليم قد بدأت فكتب إلى عبد الملك بن مروان يبشِّره بهزيمة الخوارج ويقترح عليه تأمير قتيبة على خراسان وبلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) وبذلك وضع قتيبة في غمار تجربة شديدة لا يقوم لها إلا عظماء الرجال ودهاة الأبطال ومن تلك اللحظات تجلت مواهب قتيبة رحمه الله. كان قتيبة يتميز بمواهب جعلت كلّ أعماله ظفرًا وكلَّ هجماته نصرًا. كان شجاعًا لا يعرف الخوف. وكان صادق النوايا في ميدان الجهاد. وكان إلى ذلك عظيم البلاغة إذا خطب. ولعل هذه النبذة من إحدى خطبه توضح تلك الدرجة الرفيعة من روعة البيان الصادق قال من خطبة له: ياجنود الإسلام لقد اختاركم الله لإعزاز دينه والدفاع عن حرماته وليزيدن الله المسلمين بكم غنىً ويزيدُ العدو ذلاً وقد وعد الله نبيكم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾. ووعدكم بكل مصيبة تتحملونها عملاً صالحًا متقبَّلاً ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوّ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ ووعد الله جل جلاله أن يخلد من يقتل منكم مجاهدًا فقال: ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾ فاستنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم لأقصى مشقة وأمضِّ ألم وإياكم والهوينا (أي التراخي والتهاون).

هذا وقد وعدت القارئين أن أحدثهم عن معجزة فتح سمرقند تلك الديار الوعرة التي لم يفكر قبل قتيبة قائد مسلم أن يقتحمها ليفتحها. وكان قتيبة رحمه الله قد فتح مدينة يقال لها بيكند وبينا هو يومًا في تلك المدينة اقترب منه فارسٌ من بني سليم يقال له المجشر السلمي وهمس في أذنه قائلاً إن سمرقند وبلاد السُّغد التي استعصت عليك بوعورتها وحصونها أصبحت الآن مهيّأة (مهيَّئة) لجندك أن

يفتحوها وذلك لأنَّ أهلها أمنوا الآن من كلِّ غاز ولا يتوقعون قدومك أبدًا فإذا باغتَّهم بهجوم مفاجىء فتحها الله عليك إن شاء الله. ونشط قتيبة رحمه الله لكلام الفارس السُّلمي فجمع جيشه وخطبهم فقال إن أهل سمرقند الذين خانوا الله ورسوله والمؤمنين مرات ولم يرقبوا في مسلم إلاً ولا ذمة أصبحوا الآن منكم قريبي المنال وليس بينكم وبينهم سوى عشر ليال. وإني لأرجو أن ينزلهم الله من صياصيهم فيصيبهم مثلُ ما أصاب بني النضير وبني قريظة. وفي الحال أنفذ أخاه عبد الرحمن في عشرين ألف مقاتل ثم تبعه قتيبة فأدركه في ثلاث ليال وشرع الجميع في حصار سمرقند وإذا هي وعرة وعالية كهضبة الجولان فضرب قتيبة الحصار حولها لمدة شهر فلما أحسَّ ملكها غوزك بضيق أوضاعه كتب إلى ملوك الديار المجاورة لسمرقند وهم ملك الشاش وملك فرغانه وملك الترك يقول لهم إن العرب إذا ملكوا سمرقند اتخذوها قاعدة للاستيلاء على جميع دياركم وأصبحتم لهم لقمة سائغة فالتهموكم فاستجاب أولئك الملوك حالاً وجردوا جملة جميعها من أبناء الملوك ذوي التدريب العالي ورسموا خطتهم أن يعقروا جيش قتيبة من الخلف وكان قتيبة رحمه الله ماهراً بفنون القتال فتنبه لتلك الخطة المحكمة عن طريق جواسيسه وعلم من الطلائع الخلفية أنَّ جيش المدد أصبح على بعد ميلين من مؤخرة الجيش المسلم فاختار قتيبة أشجع أربعمائة فارس من المشهود لهم بقيادة أخيه صالح فأوقعوا الجيش المنجد في كمين من مائة فارس وباغتوهم على حين غرَّة ثم لم يكد العدو المصطدم يفيق وإذا بكمين آخر من ثلاثمائة فارس ينقض عليهم كالصواعق من يمين وشمال فوقع جيش الدهاقين في مصيدة وتكدَّست الجواهر وأصنام الذَّهب فوزعها قتيبة في الحال على جنوده رفعًا لمعنوياتهم وسيق الأسرى وحيزت الغنائم فتوجه قتيبة بهم إلى سور سمرقند وتلفت جنود المسلمين وإذا قتيبة في مقدمتهم وكانوا يظنُّونه لم يصل بعد وكانت معركة الدهاقين في الظلام فلم يتبين أي مجاهد وجه قتيبة إلى أن عرفه أحدهم فقال: (جعلت فداك) قال قتيبة للجندي المسلم

(اسكت دق الله سنك) وبرز غوزك من فوق الأسوار فقال: ياقتيبة قاتلنا بجنود المسلمين الجبناء ولا تقاتلنا بفرساننا واختار قتيبة عددًا من المبارزين الشجعان فلما التحموا فرّ جنود الكفار وتعقبهم المسلمون إلى أسوار مدينتهم ثم هدموا مقدمة السُّور وتعقبوا جنود غوزك واستسلمت سمرقند وأسر المسلمون ثلاثين ألفًا ثم طردوا القادرين على القتال وتفرق الجيش في أنحاء سمرقند حيث اتخذ قتيبة سمرقند قاعدة مدَّ منها فتوحاته إلى أقصى ديار المشرق .

رحم الله قتيبة بن مسلم الباهلي قائدًا مقدامًا قاتل في سبيل الله ثم لم يستفد من جهاده شيئًا من العرض وإنما نال ثواب الله والله عنده حسن الثواب .



الفضيل بن عياض

إني محدث الإخوة القراء عن عالم تقي زاهد صاحب مواقف بطولية كان في شبابه لصًا يقطع الطريق ويروع السَّابله لكنَّ الله جل جلاله أخذ بيده إلى طريق السَّعادة وإذا هو بفضل الله إمام المسجد الحرام وشيخ علماء عصره وصاحب المواعظ الحكيمة والشمائل الكريمة إنه الإمام التقي الفضيل بن عياض ذلك العالم العامل بعلمه الذي كان لا يخشى في الحق لومة لائم. كان يلقي بمواعظه إلى عظماء الملوك والأمراء فتقشعر من روعتها قلوبهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ثم إذا أرسلوا إليه بهداياهم ردها إليهم وهو يقول : لدينا من رزق الله ما يفضل عن مئونتنا وحوائجنا .

ولتوبة شيخنا الفضيل قصة تستحق الوقوف عندها تدل على أن القرآن الكريم هو نور الله الهادي ومعجزتَه العظمي إلى يوم القيامة .

الفضيل بن عياض من قبيلة تميم من بني يربوع رهط جرير لكنه كان خراساني المولد والنشأة إذ ولد بسمرقند ونشأ في مدينة أبيورد وكان في شبابه كما أسلفنا يقطع الطريق بين أبيورد ومدينة سرخس. وفي ذات ليلة واعد جارية كان يعشقها أن يجيء إليها في الظلام فلما وصل إلى بيتها تسلق الجدار وبينما هو يرتقي إليها سمع قارئًا من بيت قريب يقرأ من سورة الحديد قوله تعالى ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن

تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق. ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون. اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ وتوقف الفضيل حالاً عن التسلق وأعاد الآية فشعر أن قلبه يحيا بعد موته فنزل عن الجدار وهو يقول (بلى والله لقد آن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق).

ولكي تتأكد التوبة أراد الله له أن يعرج على قرية يستريح فيها فإذا فيها مسافرون فأصغى لما يقولون وإذا بعضهم يقول نرحل الآن وآخرون يقولون بل نرحل بعد طلوع الشمس لأن الفضيل يقطع الطريق علينا بالليل. قال الفضيل ففكرت وقلت في نفسي ياويلتا من غضب ربي: أسعى بالليل في معاصي الله ويخافني المسلمون على أموالهم وأنفسهم ما أرى ربي ساقني إلى هذا المكان إلا لأرتدع ثم قال (اللهم إني تبت إليك وجعلت توبتي أن أقرأ العلم وأجاور المسجد الحرام). وكان كثيراً ما يردد قوله تعالى: ﴿اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها﴾ فيأتنس بهذه الآية الكريمة ويمتلىء قلبه يقيناً أن الله يحيي النفوس بالتوبة كما يحيي الأرض بالماء. وكانت الكوفة في أيامه مركزاً علمياً في الفقه واللغة والحديث فتوجه الفضيل إليها وقرأ على عشرات الأشياخ وكان من أشياخه الأعمش والليث وجعفر الصادق هذا إلى جانب أشياخه في الحجاز ففتح الله عليه وصار من أغزر أهل زمانه علماً وأصبح له تلاميذ يروون عنه كعبد الله بن المبارك الإمام المجاهد. وسفيان بن عيينة وبشر الحافي والسَّري السَّقطي وسفيان الثوري الذي كان من شيوخه وإذا هو يروى عنه. واشتغل رحمه الله بالعبادة مع العلم فكان أورع أهل زمانه حتى لقد قال عنه عبد الله بن المبارك رحمه الله ما بقي على ظهر الأرض عندي أورع من الفضيل بن عياض لقد صدق اللهَ فأجرى الحكمة على لسانه ونفعه بعلمه. ولما أحسَّ أنه نهل من معين العلم في الكوفة قدراً طيباً انتقل إلى مكة المكرمة ليوفي بعهد الله الذي عاهده ليلة التوبة. وفي مكة المكرمة شاع له فضل فصار شيخ الحرم الشريف وإمامه والله يؤتي

فضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وللفضيل بن عياض رحمه الله كلمات في الوعظ تشعر وأنت تسمعها كأنها توحي إليه إلهامًا كقوله لهارون الرشيد رحمه الله : ياحسن الوجه . احرص على هذا الحسن أن تلفحه نار جهنم . ولمس كف هارون الرشيد رحمه الله فقال يالها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله . وكان رحمه الله ثقة في الرواية وثقه سفيان بن عيينة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني ووصفه صديقه إبراهيم ابن الأشعث فقال : ما رأيت أحدًا كان الله أعظم في صدره من الفضيل . كان إذا ذكر الله أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن وفاضت عيناه حتى يرحمه من يجالسه . وكان لا يبتغي إلا وجه الله في علمه وعمله . وفي أخذه وعطائه وفي حبه وبغضه .

وهذه قصة من سيرة الفضيل أختم بها ترجمته عسى أن تكون درسًا لي ولكل طالب علم . حدث الفضل بن الربيع وزير الرشيد قال : حج أمير المؤمنين الرشيد فقال لي : انظر لي رجلاً أسأله ليشفي غليلاً في نفسي . فذهب به إلى سفيان بن عيينة فحدثه سفيان ساعة والرشيد يصغي ثم قال له : هل عليك دين ؟ قال نعم . فقال لي اقض دينه . فلما خرجنا قال لي هارون ما أغنى عني صاحبك شيئًا . وفي اليوم التالي ذهبنا إلى عبد الرزاق فحادثه ساعة ثم سأله الرشيد أعليك دين؟ قال نعم . فقال لي الرشيد : اقض دينه . ثم قال لي عندما خرجنا : ما أغنى عني صاحبك شيئًا . وفي الليلة الثالثة مضيت بالرشيد رحمه الله إلى الفضيل بن عياض فلما دخلنا على الرشيد سلم عليه الإمام الفضيل ثم قال يخاطب الرشيد : يا أمير المؤمنين إن عمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة اتخذ أعوانًا ثقات صالحين لا يغشُّون ولا يكذبون . منهم سالم بن عبد الله ورجاء بن حيوة ومحمد بن كعب وقال لهم : إني ابتليت بهذا الأمر فأشيروا عليّ . لقد عدّ الخلافة بلاءً وعددتها أنت وبطانتك غنيمةوقد نصحوه أن يزهد في الدنيا ويرغب في رضاء الله . ونصحوه أن يوقر المسلمين فيعامل الكبير كأبيه والوسط كأخيه والصغير كابنه ونصحوه أن يحبَّ

لكل فرد من الرعية ما يحبُّ لنفسه ويكره لهم ما يكرهه لنفسه فبماذا أشارت عليك بطانتك. ومضى يقول له: ياحسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق كله فهل أعددت الجواب؟ إذا استطعت أن تقي هذا الوجه الحسن حر النار فافعل وما إخالك تستطيع ذلك إلاَّ إذا أخليت قلبك من أي غش للرعية. فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أمسى وهو غاش لرعيته لم يَرح رَوح الجنة». فبكى هارون حتى كاد يغشى عليه فقال الفضل للفضيل. ارفق بأمير المؤمنين فقد كدت تقتله فقال الفضيل: ارفق به أنت وأصحابك فقد قتلتموه. ثم قال الرشيد للفضيل رحمه الله: أعليك دين. قال الفضيل: عليّ دين لربي والويل لي إن لم أوفه. قال الرشيد: خذ هذه الألف من الدنانير فأنفقها على عيالك فقال الفضيل: سلمك الله ووفقك. أنا أدلك على طريق النجاح والسَّعادة الخالدة وأنت تكافئني بهذا العرض الأدنى سامحك الله. وخرج أمير المؤمنين الرشيد وهو يقول لوزيره: إن دللتني فدلني على هذا وأمثاله. وجاءت إحدى نساء الفضيل فقالت له: لو قبلت المال لنصلح به من شأننا؟! فقال لها: إنما مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما قل كسبه قالوا ننحره ونأكل من لحمه.

لقد عاش الفضيل رحمه الله أكثر من ثمانين عامًا قضى معظمها في مكة المكرمة مجاورًا لحرم الله يقضي فيه معظم لياليه معتكفا لله في بيته الحرام/ ومع ذلك فقد كان يقول: وددت والله لو أنني من بعض الأنعام ولا أرى البعث والحساب. يقول ذلك والعلماء يجلُّونه حتى لقد كان سفيان بن عيينة يقبل يده رحم الله الفضيل بن عياض وأكرمنا بالاقتداء به في الدنيا وبجيرته في الجنة.



عبد الله بن المبارك

لو كنت متمنيًا أن يرزقني ربي الاقتداء بعالم جليل ومجاهد بطل نبيل لتمنيت على الله أن يرزقني القدوة الصالحة بعبد الله بن المبارك رحمه الله لأنه اقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم في أعظم خصلتين : في العلم الذي ينور طريق الإيمان وفي الجهاد الذي هو ذروة الإسلام. وصفه صاحب الحلية فقال فيه : هو أليف القرآن والحج والجهاد فعله مُبارك وقوله مبارك. وقال فيه الحافظ الذهبي هو شيخ الإسلام وأمير الأتقياء قضى عمره في الترحال يطلب العلم ويغزو ويتاجر وينفق من ماله الكثير على إخوانه طلاب العلم فيجهزهم إلى الحج ويعينهم على طلب العلم والثبات على منهج الحق. كان رحمه الله تركي الأصل وأمه من خوارزم ولكن علمه وجهاده رفعاه إلى أعلى مدارج السالكين. قدم الرشيد الرقة فاجتمع الناس لرؤيته ثم أقبل عبد الله بن المبارك فانجفل الناس إليه وكانت زوج الرشيد تنظر من شرفة قصره بالرقة فسألت من هذا الذي انجفل الناس إليه فقال لها من حولها هذا العالم المجاهد الإمام عبد الله بن المبارك فقالت : هذا هو الملك لا مُلكُ هارون الذي لا يجمع الناس إلاَّ بشُرط وأعوان. وقال فيه إسماعيل بن عياش : ما أعلم أن الله عز وجل خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك وقال فيه العمري : ابن المبارك هو خير من يصلح لهذا الأمر فقال أحد الحاضرين

أي أمر تعني؟ فقال : الخلافة وخرج مرَّةً إلى ثغر في الشام يقال له المصيصة فنادى في الناس من أراد الرباط والجهاد فليرافقنا فاجتمع لديه خلق كثير ولما هم بالمسير قال لهم : حتى لا تستحوا أن يُنفق عليكم أعطوني ما تريدون إنفاقه وأحضر وعاءً فأخذ كلٌّ منهم يُلقى من نقوده في الوعاء فجمعها ابن المبارك ولما وصل المصيصة جمعهم وقال لهم لقد وصلنا بلاد الرباط فنقسم إذن ما بقي معنا وأخذ يناول الرجل عشرين ديناراً فقالوا له إنما دفعنا دراهم فقال لهم أو تستكثرون على الله أن يبارك نواياكم وأعمالكم فيبارك لكم في أموالكم التي دفعتموها للجهاد؟ وكان في موسم الحج يستصحب عدداً من فقراء الحجاج فيجمع منهم أموالهم القليلة ثم ينفق عليهم في المدينة ومكة ويشتري لهم هدايا لعيالهم في مرو ثم إذا وصل إلى مرو أمر بترميم بيوتهم وتجصيصها ثم يقيم لهم وليمة ويعطي كلاً منهم صُرَّة نقود ينفق منها على زائريه .

إن سيرة الشيخ عبد الله بن المبارك تدلُّ على أن الرَّجل كان ذا مواهب سنيَّة اشتغل بالعلم حتى كانت حلقة درسه من أجلِّ حلقات العلم وأعظمها تشويقًا وانبرى للجهاد في سبيل الله فكان من أشجع المقاتلين وعمل أثناء ذلك في التجارة فكان من أكثر الناس صدقات وكرمًا وغنىً. ثم إنه أتقن المرابطة بشقيها وأعنى مرابطة العزم المجاهد والقلب المجاهد. سأله مرة رجلٌ عن الرباط فقال : رابط بنفسك على الحق حتى تبعدها عن الباطل فذلك أفضل الرباط وكان كثيراً ما يروي عن رسول الله الأحاديث التي تثبِّتُ العلماء وتقوي شخصياتهم روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقطع ألسنتهم بمقاريض من نار فقلت من هؤلاء ياجبريل؟ فقال هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بما لا يفعلون» . وكان إلى جانب تلك المواهب شاعراً مجيداً ومتكلمًا قوي العارضة وكان ممدحًا بجوده مدحه عمَّار بن الحسن فقال من قصيدة :

إذا سار عبد الله من مروَ ليلة ... فقد سار منها نورها وجمالُهَا

إذا ذكر الأخيار في كل بلدة فهم أنجمٌ فيها وأنت هلالها

وكان رحمه الله ثبتًا ثقة في رواية الحديث أجمع علماء الحديث على صدقه وتوثيقه قال عنه ابن معين: كان عبد الله رحمه الله كيسًا مستثبتًا ثقة وكان عالمًا صحيح الحديث وكان يحدث من عشرين أو واحد وعشرين ألف كتاب وسُئل مرَّة (أعني يحي بن معين) أيهما أثبت في الحديث عبد الرزاق أم مَعْمَر أم ابن المبارك وكان متكئًا فاستند وقال كان ابن المبارك خيرًا من عبد الرزاق وجميع أهل قريته. لقد كان ابن المبارك سيدًا من سادات المسلمين. وشرب ابن المبارك ماء زمزم فسمع وهو يقول وقد استقبل القبلة اللهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ماء زمزم لما شرب له وهذا أشربه لعطش القيامة. ثم شرب. وكان رحمه الله في ساحة الجهاد كالأسد حدث عنه سليمان المروزي فقال خرج من صف العدو رجل فدعا إلى المبارزة فخرج إليه رجل فقتله وآخر فقتله حتى قتل أربعة ثم دعا إلى المبارزة فخرج إليه رجل من المسلمين فطارده ساعة حتى طعنه فقتله وغطَّى وجهه كي لا يراه الناس فازدحم الناس وإذا هو عبد الله بن المبارك قال سليمان فجذبت القناع عن وجهه فقال لي يا أبا عمرو لا تشنع علينا.

وكان رحمه الله إمامًا يقتدي به المتقون في الشجاعة والكرم والزهد والأمانة حدث مرة أنه استعار قلمًا بالشام ونسي أن يرده إلى صاحبه ولم يذكر ذلك إلا وهو في خراسان فرجع إلى الشام وردّ القلم من أجل ذلك كان الناس يعدُّون من يغمز ابن المبارك متهمًا في دينه. وكان يروى حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أكثر منافقي أمتي قرَّاؤها) ليظل بعيدًا عن النفاق. وكان جميل الشعر كتب مرَّة لإسماعيل عُليَّة حين ولي القضاء:

ياجاعل العلم له بازيًا	يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذَّاتها	بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنونًا بها بعدما	كنت دواء للمجانين

أين رواياتك فيما مضى　　في ترك أبواب السلاطين
إن قلتَ أرهتُ فذا باطلٌ　　زل حمار العلم في الطين

وكان الفضيل بن عياض يحبُّ الاعتكاف في المسجد الحرام فكتب إليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات وفيها إشارة إلى الحديث الشريف (لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدًا)

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا　　لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه　　فنحورنا بدمائنا تتخضَّبُ
أو كان يتعب خيله في باطل　　فخيولنا يومَ الكريهة تتعب
ريحُ العبير لكم ونحن عبيرنا　　رهج السَّنابك والغبار الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نبينا　　قول صحيح صادق لا يكذبُ
لا يستوي وغبارُ خيل الله في　　أنف امرىء ودخان نار تلهبُ
هذا كتاب الله ينطق بيننا　　ليس الشهيد بميت لا يُكذَبُ

وكان رحمه الله كثيراً ما ينشد :

كيف القرار وكيف يهدأ مسلمٌ　　والمسلمات مع العدو المعتدي
الضاربات خدودهن برنَّة　　يبكين بالحسرات دين محمد
القائلات إذا خشين فضيحة　　جهد المقالة ليتنا لم نولد
ما تستطيع ومالها من حيلة　　إلا لتستتر من أخيها باليد

وكان رحمه الله يقول :

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله　　إذا كنت فارغًا مستريحا
وإذا ما هممت بالباطل　　فاجعل مكانه تسبيحا
فاغتنام السكوت أفضل من خوض　　وإن كنت بالكلام فصيحا

رحم الله الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك وأكثر من أمثاله في علماء المسلمين .



سفيان بن سعيد الثوري

لقد أعجبتني في هذا العالم العامل خصلةٌ هي عندي أعظم مقاييس الزهد والعفاف والورع. خصلة جرت عليه السجن والتشريد واحتمل ذلك كلّه في ذات الله كأنما اقتبسها من أنوار نبي الله يوسف عليه السَّلام حينما فرَّ من أجمل ملاذ الدنيا وهو يقول ﴿ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه﴾ .

كانت تلك الخصلة هي الهروب من المناصب والعزوف عن الشُّهرة كان أبو جعفر ومن بعده ابنه المهدي يبعثان إليه ليتولى عُليا المناصب فإذا علم بوصول رسولهما إلى الكوفة اختفى فيُطلب في كلِّ مكان فلا يوجد حتى إذا انقطع الطلب عاد إلى الظهور. وكان يسهل الاختفاء على الشيخ إذ كان له مئات التلاميذ في بلده الكوفة ومئات المريدين في البصرة. وكان الجميع يحبونه ويُعزُّونه لما كانوا يرون من جُرأته في الحق وإخلاصه في الدعوة إليه وكانت له في الاختفاء طرائف لا تخلو من عبر فقد هرب مرة إلى البصرة ولبس ثياب أجير مزارع فاستأجره أحد البصريين وسلمه بستانه ليعمل فيه ويحرسه فمر به عشَّارٌ ممن يجمعون الزكاة فسأله من أين أنت؟ قال من الكوفة. فقال له : أيهما أحلى رطب الكوفة أم رطب البصرة فقال ما ذقت رطب البصرة حتى أحكم فقال له ويلك كلاب البصرة تأكل الرطب وأنت تزعُمُ أنك لم تذقه وحولك البستان بنخيله فلما ذكر العشار ذلك لوالي البصرة قال

له ارجع إلى المكان واطلب الرجل فهذا لا يُمكن إلا أن يكون سفيان الثوري وهو طَلَبَةُ أمير المؤمنين جعل لمن يحضره عشرة آلاف وعاد العشار مسرعًا إلى البصرة فلم يعثَر على ذلك الأجير الأمير رحمه الله. وقد لامه بعض محبيه في هروبه من أبي جعفر ومن المهدي خشية المنصب وقالوا له علمنا أنه استعد أن يأخذ بعلمك فقال ولكن : أين العمل بالعلم. يعرض بذلك بما كان من شدة أبي جعفر وحرصه على المال وحدته في المجلس وبما كان من الخليفة المهدي من ترف وتنعم ومكافأة للمغنين. ولعل هروبه من تولي المناصب إنما كان لتخوُّفه على نفسه أن ينجرف في حُطام الدنيا ومتاعها الزائل خصوصًا وأن بني العباس قد شاع في عهدهم صنوف من بهرج الدنيا والاهتمام بالقصور والبرك والأثاث والرياش.

كان سفيان رحمه الله كريم الأصل يلتقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في جده أدٍّ بن طابخة بن إلياس بن مضر. وكان في زمانه إمام الحفاظ وشيخ العلماء وملتقى طلاب العلم وكان أنظف الناس يدًا وضميرًا وأعف الناس عن السحت. إذا وجد الحلال أكل وإذا لم يجده صبر على الجوع صبْرًا عجيبًا. وبسبب زهده الحقيقي كان وعظه ينفذ إلى شغاف القلوب لأن أفظع ما يؤثر في الوعظ تعلُّقُ القلب بطمع الدنيا وسفيان رحمه الله صفت نفسه من الطمع ولهذا لم يكن يخشى في الله لومة لائم. وكان علماء زمانه يقدمونه منذ أيام شبابه ومن الأقوال التي قالها فيه العلماء ما قاله فيه ابن المبارك : كتبت عن ألف ومائة شيخ وما كتبت عن أفضل من سفيان. وقال فيه أيوب السختياني ما قدم علينا الكوفة أحدٌ أفضل من سفيان ووصفه شعبة فقال : سفيان أمير المؤمنين في الحديث. وقال سفيان بن عيينة لأحمد بن حنبل لن ترى بعينك مثل سفيان الثوري حتى تموت وقد عدّ الحافظ الذهبي من شيوخ سفيان أكثر من مائتين وسبعين عالمًا وعدَّ من بعض من رووا عنه أكثر من مائة وعشرين فقيهًا.

وقد شد رحله إلى المسجد الأقصى عملاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرَّ على عسقلان فوجدها ميناء الإسلام وأهمَّ ثغوره فرابط فيها أربعين يومًا يحرس ويدرس ويعظ ثم توجه إلى مكة المكرمة ليتم الحج والعمرة لله.

وكان رحمه الله إذا فكر في الحياة والموت والبعث والحساب رُبما يذهل عن نفسه ليلة كاملة وهو يفكر. ومع ذلك كانت له أقوال لا تخلو من نكتة. سأله رجل عن مسأله فقهية وكان واقفًا على باب دكان يشتري فقال للسائل دعني فإن عقلي الآن في الدراهم. ونظر إليه رجل وهو يصرُّ دنانير فقال له يا أبا عبد الله تدَّخر هذه الدنانير وأنت سفيان؟ فقال. اسكت فلولاها بعد الله لاستذلنا الأغنياء. وكان إذا حصل له طعام لذيذ يأكل وربما استزاد بعض الحلوي قبل أن يشرع في العبادة أو الدرس ويقول لمن حوله أحسن إلى الزنجي وكُدَّه (يعني أشبع العامل وبعدئذ شغِّله ما تشاء) وكان يقول: العالِم طبيب الناس فإذا جر العالم الداء إلى نفسه فكيف يداوي غيره. وسأله والي الكوفة عبد الصمد عمّ المنصور اعرض علينا حوائجك فقال لي عندك ثلاث حوائج ألا تزورني في بيتي حتى لا يظنني الناس مهمًا وألا تشهد جنازتي وألا تُريني دراهمك.

وبعثت إليه أخته من الكوفة كعكًا وخُشكنان (وهو شيء من الطعام كالمعمول) فلما وصل إليه رسولها وجده مستلقيًا في المسجد ولما أخبره بالكعك والخشكنان نهض حالاً وقال له عجل به فوالله ما ذقت طعامًا منذ ثلاثة أيام.

ولعل القارىء يُدهش إذا علم أن سفيان رحمه الله توفي وهو مختف من الخليفة في البصرة وكانت سنه ثلاثًا وستين سنة. وكان رحمه الله إذا دخل على الخليفة لم تشغله هيبة السلطان أن ينتهز فرصة الهداية دخل على المهدي في الحج فوجد بذخًا وفخامة فقال يا أمير المؤمنين: أنفق عمر في حجته على نفسه اثني عشر دينارًا وأنت هكذا؟ فغضب وقال له أتريدني أن أنفق كما تنفق أنت فقال سفيان بل أنفق يا أمير المؤمنين فوق ما أنفق أنا وأقلّ مما تنفق أنت. رحم الله سفيان بن سعيد الثوري عاش ومات وما أنفق درهمًا واحدًا في بناء. وأقبلت عليه الدنيا تركض وراءه فصرف وجهه عنها مستعيذًا من فتنتها ما أجمل أن يدرس علماء زماننا سيرة سفيان ليتعلموا من سيرته أن النفوس العالية أسمى من العمائر العالية وأن همّ الأبرار لا تعلقه الأعراض الزائلات وإنما تشدَّه الباقيات الصالحات.



معروف الكرخي

قال عنه الحافظ الذهبي هو علم الزهاد وبركة العصر أبو محفوظ معروف بن فيروز البغدادي وقد نشأ في محلة الكرخ في بغداد من أبوين غنيين وكان أبواه نصرانيين من أتباع مذهب المثلثة الذين يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة ويبدو أن أباه كان يحبُّ أن ينشئه تنشئة نصرانية صافية فأرسله إلى مؤدِّب من القساوسة ليعلمه العقيدة النصرانية لكن الصبي كان يخالطُ بعض فتيان المسلمين وكان يدور بينه وبينهم جدال حول التوحيد والتثليث فيعجبه التوحيد ويراه أقرب إلى منطق العقل وعلى أثر ذلك اقتنع معروف رحمه الله أن السموات والأرض لا تستقيمان إلا باله واحد وفي اليوم التالي جلس معروف إلى أستاذه النصراني فطفق يقول لمعروف. قل : الله ثالث ثلاثة. فيقول معروف إنما الله إله واحد. فضربه المؤدب بالعصا ومعروف لا يعدل عن قوله : إنما الله إلهٌ واحد. وفرَّ معروف من المدرس النصراني ثم فرّ من والديه خوفًا من عُقوبة أبيه. وفي أثناء فراره حنَّ إليه والداه وناشداه أن يعود إليهما وبَشَّراه أن الله هداهما إلى الإسلام فطابت نفسه وعاد إلى بيت والديه ليبدأ فصلاً جديدًا مباركًا من حياته الميمونة السعيدة. حيث أقبل على العلم الشريف وحضور حلقات العلماء الأفاضل. ودراسة القُرآن والسنة المطهرة حتى ارتوى من نبع الإيمان الجميل الصافي. وأتقن القرآن الكريم ودرس كثيراً من الحديث الشريف

وروى عن بعض مشايخ عصره ثم تفجرت ينابيع الحكمة على لسانه ولمس الناس له بركة فكانوا يقولون أبو محفوظ عَلَمُ الزاهدين وقد ذكر يومًا عند الإمام أحمد رحمه الله فقال بعض الحاضرين أبو محفوظ لم يحصل من العلم ما يجعله في مصاف العلماء فقال الإمام أحمد وهو غاضب أمسك أيها الرَّجل فإن أبا محفوظ حصَّلَ كل العلم الذي ينفع أهله وذكره يومًا سفيان ابن عيينه فقال لبعض أهالي بغداد : ما فعل الحبر الذي بينكم ببغداد. إن أهل بغداد سيظلون بخير ما دام فيهم أبو محفوظ ذلك العالم المبارك. وكان رحمه الله يكثر من قول واغوثاه فإذا سُئل في ذلك قال : يقول الله تعالى : ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾ وأنا استغيثه كي يستجيب لي كما استجاب لهم. وفي كتاب تاريخ بغداد أنْ معروفًا رحمه الله استسقى للناس في يوم حار فما وصولا بيوتهم حتى مطروا وكان معروف رحمه الله معروفًا بأنه من مستجابي الدعاء وأنه قريب من نفحات ربه حتى لقد ألف ابن الجوزي رحمه الله كتابًا كبيرًا في مناقب معروف. وكان رحمه الله زاهدًا في دنيا الناس فكان يقول : لو رأيت ليلة القدر وأدركتها ما سألت الله إلا العفو والعافية وهذا ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : لو أدركت ليلة القدر فبم أدعو ربي فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم قولي : «اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعف عنا». وكان شديد الخشية لله وطالما سمعه جيرانه في جنح الليل يبكي وهو ينشد :

أيَّ شيء تريد مني الذنوبُ — أولعت بي فليس عني تغيب

ما يضرُّ الذنوب لو أعتقنني — رحمةً وقد عراني المشيب

وقال له يومًا رجلٌ : انصحني يا أبا محفوظ فقال له : أخرج طمع الدنيا من قلبك فلن تكتب لك سجدة مادمت عبدًا لمطامع الدنيا. وكان رحمه الله إذا بلغه عن إنسان سوء أو معصية دعا له بالهداية وما سُمع وهو يدعو على مذنب. ولما حضرته الوفاه لاحظ الناس على وجه إسفارًا جميلاً فقال لأهله وهو يجود بنفسه : تصدَّقوا

بقميصي هذا الجديد ويكفيني الإزار فإني أحب أن أخرج من الدنيا عُريان كما دخلت إليها عريان. وكان رحمه الله يقول : إذا أراد الله بعبد شرًا أغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل. وكان كثيرًا ما يقول : ما أكثر الصالحين وما أقل الصادقين .

وكان من دعاء معروف : اللهم لا تجعلنا بين الناس مغرورين ولا بالستر مفتونين. اللهم اجعلنا من المؤمنين بلقائك الراضين بقضائك القانعين بعطائك الذين يخشونك حق خشيتك ومن حكمه قوله : كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان له من الله تعالى .

وكان أخو معروف يتاجر في الدقيق فقال لأخيه معروف اقعد عند هذا الدقيق واحرسه حتى أعود إليك فقال : بشرط ألا أرد سائلاً وجلس معروف فلما رجع أخوه وجده قد تصدَّق بمعظم الدقيق فاحمرت عيناه ولكن دهشته عظمت حين وجده قد باع بقية الدقيق وإذا ثمنها لا يقل عما كان يبعُه في العادة. وقال له ابن أخته يومًا : يا خال أراك تجيب كُلَّ من دعاك فقال معروف هذا أمر تعلمته من ربي الذي يجيب من يدعوه ورأى يومًا رجلاً يلبس ثوبًا طويلاً فقال له لو قطعت منه قميصًا لربحت ثلاث خصال : أولها أنك تدرك السنة والثاني يظل ثوبك نظيفًا والثالث تربح منه خرقة . ومر عليه سقَّاء يمدُّ سقاءه إلى المارة ويقول رحم الله من شرب فشرب رحمه الله من السِّقاء وحمد الله فقيل له تشرب وأنت صائم فقال نعم لأني أرجو بركة دعائه .

وكان من ورده أن يقول دوامًا : اللهم أصلح أمَّة محمد اللهم فرج عن أمة محمد اللهم ارحم أمَّة محمد. وكان يقول :

طلب الجنَّة بلا عمل ذنبٌ من الذنوب

وكان رحمه الله يكتم عبادته فقد كان يصبح صائمًا وعلى نية الصوم ولكن إذا دعاه رجلٌ إلى طعام أكل خشية أن يقول إني صائم. فيكون في هذا رياءٌ رحم الله

الشيخ معروفًا الكرخي إمامًا هدته فطرته النقية إلى توحيد الله وأخرجه ربُّه من الظلمات إلى النور حين فكر بعقله المؤمن المتبصر فهداه إلى حقيقة كبيرة وهي أن أمر السموات والأرض لا يستقيم بآلهة متعددين وما أجمل ما توقعه في النفس هذه الآية الكريمة ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة وما من إله إلا إلهٌ واحد. وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾ .



الإمام حفص بن غياث النخعي

الإمام حفص بن غياث النخعي قاضي بغداد ثم قاضي الكوفة صاحب مواقف مشهودة في القضاء وهو من قبيلة ذات أصل كريم وهي قبيلة النخع اليمانية التي ينسب إليها الإمام إبراهيم النخعي رحمه الله . كان رحمه الله محدِّثًا ثقة وقد ولاه الخليفة هارون الرشيد قضاء الشرقية ببغداد ثم نقله بعد حادثة مرزبان إلى الكوفة كما سنقصُّ ذلك بعد إن شاء الله . كان من شيوخه الأعمش وابن جريج وأبو مالك الأشجعي وممن روى عنه أحمد وإسحق بن راهوية ويحيى بن معين وعلي بن المديني وغيرهم . وكان رحمه الله حافظًا ثقة مأمونًا فقيهًا وكان متعففًا نظيف اليد يتحرَّى الحلال .

وكان وكيع إذا قيل له : هذا الحديث رواه أبو عمر (حفص بن غياث) يقول : إذًا ماذا نقول نحن . وبلغ من منزلته أن البخاري رحمه الله اعتمد عليه في أحاديث الأعمش ومن الأحاديث التي رواها حفصٌ عن الأعمش أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ليأتينَّ أقوامٌ يقرءون القرآن يقيمونه إقامة القدح . لا يدعون منه ألفًا ولا واوًا . ولا يجاوز إيمانهم حناجرهم» وكان رحمه الله مبتعدًا أول الأمر عن مهنة القضاء لخطورتها وكان يقول : لأنْ يدخل أحدكم أصبُعه في عينه فيقتلعها فيرمي بها خير له من أن يكون قاضيًا . وكان يقول والله ما وليتُ القضاء حتى حلَّت

لي الميتة. ومع أن مرتبه في القضاء كان جيداً لكن كرمه غلب دَخْلَه فمات مدينًا بتسعمائة درهم وكان رحمه الله إذا كتب جود افتتاحيات الكتابة حتى قال أحد معاصريه من العلماء: ما كنت أقرأ من كتب القضاة أجود أسلوبًا من كتابة حفص بن غياث. ومن الأحاديث العالية التي كان يرويها قوله صلى الله عليه وسلم: «من أقال مسلمًا عثرته (يعني سامحه في زلته) أقاله الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة» وقوله صلى الله عليه وسلم: «ذنبان يُعجَّلان ولا يُغفران: البغيُ وقطيعة الرحم» وقد عاش رحمه الله سبعة وسبعين عامًا وصلى عليه الفضل بن العباس أمير الكوفة. لقد كان رحمه الله شريف السَّمت عفَّ الطريقة حتى لقد كان وكيع رحمه الله إذا سُئل في مسألة يقول: اذهبوا إلى قاضينا أبي عمر وقال عنه يحيى القطَّان: حفص بن غياث أوثق أصحاب الأعمش.

وقد كتب عنه أصحابه بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف حديث وكان يصون الحديث عن بعض من لا يؤتمنون عليه. فقد استفهمه إنسان عن حديث فقال: والله لا سمعت حرفًا مني بعد إذ عرفتك. وكان رحمه الله حريصًا على السُّنَّة المطهرة طلبت منه امرأة أن يزوجها لأنَّ إخوتها يعضلونها فقال لأحد ثقاته ياطلق بن غنَّام اذهب فزوجها لكفء ولا تزوجها لرافضي ولا لمن يشرب حتى يسكر. لأنه إن كان رافضيًا فإن الثلاث عنده واحدة وإن كان يسكر فهو يطلق ولا يدري. وبلغ من كرمه أن كان يقول من لم يأكل طعامنا لم نحدثه.

وهذه هي قصة مرزبان التي وعدت في مطلع الحلقة أن أذكرها للقراء. كان لأم جعفر وكيلٌ يقال له مرزبان وكان محل ثقتها يتاجر لها ويثمر لها أموالها. فقدم رجلٌ خراساني يتاجر في الجمال فباع لمرزبان جمالاً بثلاثين ألف درهم. لكنَّ مرزبان ماطل في الثمن وهدَّد الخراساني ثم استغل نفوذه فحبس الخُراساني ثم أخرجه من السجن فطال ذلك على الخراساني وسئم مماطلة مرزبان حتى بدا له أن مرزبان يريد أن يأكل ماله مستغلاً صلته بالسيدة. وأخيرًا طفق مرزبان يهين صاحب

الحق ولا يأذن له بمقابلته وفي أثناء ذلك تعرَّف الخراساني على صديق للقاضي حفص بن غياث فأخبره بما كان من مرزبان ومحاولته أكل الحق. فقال له (أي صديق القاضي) اذهب إلى مرزبان وقل له أعطني ألف درهم كي أسافر بها إلى خراسان وسوف أوكل من يتسلم منك دراهمي على التراخي والزمن الطويل. وبالفعل طمع مرزبان أن يتمكن من أكل حق الرجل أثناء غيابه فأعطاه ألف ريال وأشهد عليه وبذلك أثبت الرَّجل حقه وعندئذ رفع أمره إلى القاضي حفص بن غياث. وفي الحال أمر القاضي رحمه الله بإحضار مرزبان وسأله: ألهذا الخراساني عندك ثلاثون ألف درهم فلم يجد مرزبان مفراً أن يعترف بالمبلغ لأنه دفع أمس من المبلغ ألف درهم ولكنه قال إن المبلغ على السيدة أم جعفر فقال له الشيخ لكنك أنت الذي أخذت إبل الرَّجل وأمر بحبسه إلى أن يدفع المبلغ. وقال له: يامرزبان أنت أحمق تقرُّ أنك أخذت إبل الرَّجل وتقول إنَّ ثمنها عند السيدة لقد كنت وكيلها في الشراء وعليك أن تكون وكيلها في دفع الحق. وعلمت السيدة بخبر حبس وكيلها فاستشاطت غضبًا وأرسلت ضابطًا يقال له السندي وأمرته أن يُخرج وكيلها مرزبان من السجن وبلغ الخبر إلى القاضي فقال: أحبس أنا ويُخرجُ السنديّ وحمل أدواته الخاصة به من المحكمة وعاد إلى بيته ليعتزل القضاء وقال لتلاميذه والله لا أعود إلى القضاء حتى يعاد مرزبان إلى السجن أو يدفع حقَّ الرجل فأسرع السندي إلى أم جعفر وقال لها ناشدتك الله أن تنقذيني من غضبة الخليفة إذا سألني بأمر من أخرجت مرزبان من السجن. أرجوك أن تردي مرزبان إلى السجن كما أمرت بإخراجه وأعيد مرزبان إلى السجن لكن السيدة أسرعت فقابلت هارون الرشيد رحمه الله وقالت له إن قاضيك هذا أحمق لا ينزل الناس منازلهم لقد حبس وكيلي واستخف به وإني أناشدك أن تعيد لي رضاي ومنزلتي عندك بأن تبعد عن قضاء بغداد حفصًا بن غياث ويبدو أنها كانت غالية عند الرشيد فأمر لها أن تكتب على لسانه ويوقع لها وبلغ حفصًا الأمر فخاف أن يضيع حقُّ الخراساني إذا وكلَ أمره

لمرزبان فاستدعى حفصٌ رحمه الله مرزبان والخراساني إلى المحكمة وأمر بكتابة صكٍّ بحق الخراساني على مرزبان بتسعة وعشرين ألف درهم وبينا الكاتب يكتب الصك قدم خادم الخليفة بكتابه فقال حفص للخادم اجلس حتى نفرغ مما نحن فيه ثم لما أنجز الصَّك أمر مرزبان بالتوقيع عليه ثم قرأ كتاب الخليفة فقال للخادم سلم على أمير المؤمنين وقل له إن كتابكم الكريم وصل بعد أن أنفذنا الحكم وكتبنا الصَّك. فقال الخادم والله لأخبرنه بأنك أكملت كتابة الصَّك بعد أن وصلت بكتاب أمير المؤمنين فقال له الشيخ : قل ما تشاء. ولما عاد الخادم إلى الرشيد أخبره بما فعل القاضي وأنه عجل بإنجاز الصك بعد وصول أمر أمير المؤمنين فضحك الخليفة الرشيد وأرسل إلى القاضي ثلاثين ألف درهم لكنَّه أمر أيضًا بنقله من قضاء الشرقية ببغداد إلى قضاء الكوفة حيث مكث فيها ثلاث عشرة سنة معززًا مكرَّمًا مضروبًا به المثل في العدل والكرم والعفاف رحم الله حفصًا بن غياث قدوةً لكل قاض عادل ومثلاً للشجاعة التي لا تخشى في الحقِّ لومة لائم .



أسد بن الفرات

كم أحبُّ العالم إذا جمع بين العلم والجهاد. وكم أدعو لطالب العلم إذا رأيته في مجالس العلم نهمًا للمعرفة مقبلاً على التحصيل، وأراه في ساحة المعركة أسدًا مقدامًا يرى الموت في سبيل الله غاية المُنى. هكذا كان الشيخ الفقيه البطل القائد المجاهد أسدُ بن الفرات رحمه الله. وقد ترجم له الحافظ الذهبي فقال في مقدمة الترجمة: هو الإمام العَلاَّمة القائد الأمير مُقدَّم المجاهدين.

والحقُّ أن أسدًا رحمه الله كان عالمًا عاملاً ومجاهدًا محتسبًا. وكان مولده في مدينة حران وهي مسقط رأس شيخ الإسلام أحمد بن تيميَّة فيما بعد وتثقف على مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة وروى عن الإمام مالك والإمام أبي يوسف. وقد جمع رحمه الله طائفة من المسائل على مذهب مالك وعرضها على ابن القاسم وهو فقيه مالكي فأجاب بما عرف من مسائلها وعندئذ نظمها أسدٌ وسميت (المسائل الأسدية) ولفقهاء المذهب فيها كلام. وكان لأسد سمعة كريمة في علماء عصره. كان العلماء يحبونه ويكبرون أسلوبه في الدقة والبحث حتى إن الفقيه ابن القاسم قال له يومًا يستحثه على المضي في التأليف: أنا أقرأ في اليوم والليلة ختمتين فأنزل لك عن ثواب ختمة لاشتغالك بأمور المسلمين على أن تمضي في طريق خدمة العلم وكان لكتب أسد دعاية طيبة صادقة. وكان من يريد الدعاية لكتاب يقول في مقدمته

(لقد قوبل هذا الكتاب علي كتب الفقيه الأفريقي- يعني به أسد بن الفرات) . ولما بيعت كتب أحد الفقهاء نودي عليها (هذه الكتب قوبلت على كتب الفقيه الأفريقي أسد بن الفرات فغالى الفقهاء في ثمنها حتى بيعت كل ورقتين بدرهم . وحسبك أن أستاذ أسد هو الإمام رئيس القضاة أبو يوسف الذي درس عليه أسد المذهب الحنفي كما درس عليه الموطأ .

كان رحمه الله متحمسًا لقول مالك ولمذهب مالك وقد قرأ الموطأ على مالك واستشاره مرة فقيه يقال له عبد الرحيم الزاهد فقال له : اتنصحني أن أتبع قول مالك أم أقوال أهل العراق؟ فقال رحمه الله إن كنت تريد الآخرة فعليك بقول مالك . والذي يهمنا من سيرة أسد بن الفرات أنه كان مع توسعه في العلم فارسًا بطلاً وقائدًا متميزًا . وقد بدأ رحلة الجهاد ثم القيادة حين انضم إلى أبيه الفرات بن سنان في القيروان ثم ولاَّه زياد بن الأغلب إمرة المعركة فقاد المسلمين إلى النصر وبعد المعركة احتاج الناس إلى قاض فولي أسدٌ منصب القضاء . فكان من خيرة القضاة كما كان من أشجع القادة . وقد عُرف عنه أنه كان من أشجع من شهدتهم ميادين القتال ، كان إذا التقى الجمعان شديد الحرص على الشهادة لا يعرف الفرار .

زحف إليه مرة صاحب صقلية في مائة وخمسين ألف مقاتل ، فكان رحمه الله في المعركة كأنه العلم الشامخ ولقد شوهد وبيده اللواء ، يقرأ سورة يسن ثم حمل بكل جيشه حملة هائلة فلم يزل ثابتًا حتى هزم العدو هزيمة ساحقة حتى لقد حدث بعض من رآه في المعركة أنه شاهد الدم يسيل من يديه على رمحه وذراعيه بغزارة وهو لا يبالي . كانت تربية أسد رحمه الله تربية عظيمة على منهج السلف الصالح . كان أبوه من سادة الجنود المقدمين فأخذه منذ نعومة أظفاره بتعلُّم القرآن الكريم وسافر به إلى القيروان ثم إلى تونس فحفظ القرآن وهو صغير ثم تتلمذ في ريعان شبابه على الإمام مالك ولما أراد أن يرحل عنه إلى الجهاد قال له في أدب : أوصني أيها الإمام الجليل فقال له مالك : أوصيك بتقوى الله وتعهُّد القرآن والنصيحة

لجميع المسلمين. ولما تولى القضاء شاع في الناس عدله وجُرأته في الحق ثم لما اشتدت الحرب ولاه زيادة بن الأغلب قيادة الجيوش وقال له: لقد زدتك إمرة الجيش وهي أجلُّ وأشرف فأنت الآن قاضٍ وأمير. ويزيدك إعجابًا بأسد أنه حمل عبء القيادة والقضاء بعد أن جاوز الخمسين من العمر وعض على قارحة الحكمة فكان بحق قائدًا مهيبًا جليلاً وقاضيًا عادلاً حكيمًا.

كان رحمه الله يتفاءل باسمه وربما قال أكثر من مَرَّة اسمى أسد وهو خير الوحوش الشديدة وأبي الفرات وهو خير الماء وجدي سنان والسنان أفضل السِّلاح، كانت مسارح البطولات في حياة أسد جزيرة صقلية. كانت أعظم معاقل الصليبيين والنصاري في البحر المتوسط وكان موقعها يؤهلها لاعتراض القوافل البحرية وكان أسد يعلم أن جيش الأعداء كان ربما يصل ثمانين ألفًا وقد يصل إلى مائة ألف في حين كان جيش أسد لا يزيد على خمسة عشر ألفًا ولكن حين كانت المعركة الفاصلة استنجز أسد وعد الله وخرج بالجيش ووراءه العلماء مسلحين رافعين أيديهم إلى الله أن يؤتيهم ما وعدهم على رسله ولما التفت رحمه الله وألقى نظرة على الجيش عمومًا بدا الاستبشار على وجهه لما رأى من إشراق وجوه المجاهدين واستبشارهم بوعد الله وهم يرددون قوله تعالى ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾ وقد قدم عدد من النصارى إلى أسد وقالوا له نحن أعجبنا بعدلك وأنت في منصب القضاء ونحن قد بلونا أخلاق الصليبيين وغطرستهم فأذن لنا أن نقاتل معك فشكرهم وقال لهم كنت أعرف كثيرًا منكم أنهم من محبي العدل وإني أبشركم أن في المؤمنين كفاية ونحنُ نؤمن من قلوبنا بقوله جل جلاله ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ وبدأ أسدٌ هجومه برًا وبحرا، وكانت له صَرخة مدوية هدمت معنوية النصارى حين سمعوه يقول هؤلاء الكفار من هباء الشيطان وهم عجم السَّواحل إن عددهم لا يزيدهم إلا خبالاً. وهم عبيدكم عما قليل بإذن الله ثم لم تكن إلا بضعة أيام حتى انتهت المعركة بفوز أسد وجنوده

المؤمنين فانبهج بذلك الأمير زيادة الله بن الأغلب وزف البشرى إلى المأمون بأن الله جل جلاله فتح صقلية على عباده المؤمنين ولقد شوهد أسدٌ في المعركة تسيل من وجهه الدماء فيهيج كالأسد الجريح . وعلى الرغم من جراحات أسد لم تكتب له شهادة في المعركة لكنه توجه بعد النصر إلى مدينة سراقوسه على مقربة من الميدان ليفتحها فمرض من جراحات وهو يحاصرها ثم مضى إلى رحمة الله وعفوه وهو في السبعين من عمره عام ثلاث ومائتين وقد وصف المؤرخون أسداً بأعظم صفات التقوى والشجاعة والاحتساب وقال فيه أبو بكر المالكي : ولاه إبراهيم بن الأغلب قضاء أفريقيا فقضى بكتاب وسنة رسول الله وولاه زيادة الله بن الأغلب مع القضاء إمرة الجيوش فلم يزل تحت الراية الظافرة حتى كان النصر المؤزر والشهادة إن شاء الله . رحم الله أسداً بن الفرات فقيهًا أحبه الفقهاء وعالمًا أحبه العلماء وقائداً بطلاً من أبطال الإسلام الغر الميامين .



ذو النون المصري

ذو النون المصري اسمه ثوبان بن إبراهيم ولقبه الذي عُرف به هو ذو النون المصري ولد في أواخر أيام أبي جعفر المنصور ومات قبل وفاة الخليفة المتوكل وبذلك كان ممن عُمّروا إلى سن التسعين. روى عن مالك بن أنس والليث بن سعد وفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة وكان أبوه نوبيًا عاش في قرية أخميم من قرى الصعيد وحصلت لذي النون يوم موته كرامة إذ أظلت الطيرُ جنازته فترحم الناس عليه واعتبروها كرامة ولما كثر حُسَّادُه وأرجفوا من حوله في مصر رأوا أخيرًا أن يبلغوا الخليفة المتوكل أن الرجل يتشبه بأحوال الصوفية وكلامهم فدعاه الخليفة المتوكل ليمتحنه ويمتحن اعتقاده وسيق إلى الخليفة وفي يده الغُل وفي رجليه القيد وهو يساق إلى سجن يُقال له المطبق والناس من حوله يبكون وهو يقول: هذا من مواهب الله ومن عطاياه وكل فَعال ربي عَذْبٌ حسن طيب فلما دخل على المتوكل وعظ المتوكل بكلام مؤثر فبكى المتوكل ثم أمر بامتحانه فثبت للممتحنين صدق عقيدته فأفرج عنه المتوكل وخيره أن يكون قريبًا منه أو يعود إلى مصر فاختار العودة إلى مصر وكان المتوكل إذا جرى ذكر ذي النون عنده يقول: إذا ذكر أهلُ الورع فحيهلا بذي النون. وبالمناسبة فالخليفة المتوكل هو الذي ألغى مذهب المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن ونكل بأتباعه وأعاد إلى الإمام أحمد اعتباره ولهذا فإني أطمئن

إلى امتحان المتوكل لذي النون وما دام قد أكرم ذا النون وأشاد به وردّه إلى وطنه سالمًا فذلك دليل على أن ذا النون ذو عقيدة سليمة صحيحة إن شاء الله .

ولقد أعجب الخليفة بذي النون لما رأى فيه من زهد ورجاحة رأي وحكمة وكان يُعدُّه من أغلى الفقهاء في عصره . وحسبك أن تعلم أن ذا النون كان من أصلب الأئمة عودًا في فتنة خلق القرآن وكان يقول : لماذا لا نقول إن القرآن كلام الله ونقف عند هذا الحد حتى لا نقع في بدع القول وكان رحمه الله صادق القصد ثابت الإيمان ومن كلامه في العقيدة قوله : كلُّ ما يمكن أن يتصوره عقلك أو خيالك لا يمكن أن يكون الله لأنك عندئذ شخصته .

ومن قوله في آداب الاستغفار : إذا استغفرت ربك تائبًا من ذنبك فاستحضر هذه المعاني الستة " الندم على ما مضى . والعزم على تركه . وأداء ما ضيعت من حق الله . وردُّ مظالم الخلق وأن تتخلص من كل لحم ودمٍ نبت من سحت . وأن تجرِّب صعوبة الطاعات كما تذوقت حلاوة الشهوات والمعاصي . وسأله أحد مريديه : كيف خلصت من المتوكل حين استدعاك ليقتلك؟ فقل : لما سرتُ مع الغلام متوجهًا إلى الخليفة دعوت بهذا الدُّعاء : اللهم يامن شهدت بوحدانيته كل قطرة من قطرات البحار واعترفت بقدرته الرياح ودلت على علمه خبيئات الأرض ، وتحدث في أسرار عظمته خطرات القلوب أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تصرف قلب الخليفة عن كل شر يريده بي . وأضاف ذو النون قائلاً : ولشد ما كانت دهشتي حين أقبلت على المتوكل فقام يعتنقني وهو يقول : لقد أتعبناك يا أبا الفيض . وقد ترجم له الحافظ الذهبي فقال : هو شيخ الديار المصرية روى عن كبار التابعين وروى عنه فضلاء الأمة . وقد زالت أراجيف المرجفين عليه حين توفي فحصلت له كرامة يوم وفاته حين رأى مشيعوه أسرابًا من الطير تظلل جنازته . وروي أنه مات بالجيزة فلما رأى أهله اجتماع الآلاف لتشييعه خافوا أن ينهار الجسر بهم فحملوه في مركب وأسرعوا به إلى وسط الفسطاط حيث سار في

جنازته آلاف مؤلفة من الخلائق ومن أقواله : إذا أردت أن تنال معرفة الله فانظر كيف دبر الأمور. وكيف قدر المقادير، وكيف خلق الخلائق، وكان سريع الدمعة يبكي من خشية الله فيبكي لبكائه الناس حدث يومًا فقال : كنت يومًا أسير بين جبال بيت المقدس وإذا رجل جالس على صخرة وهو يقول : واوحشتاه بعد الأنس وافقراه بعد الغنى، واذلاه بعد العز. فبكيت حتى لم أعد أمسك نفسي وسألته يرحمك الله لقد أبكيتني بكلامك فقال :

كان لي قلب أعيش به فرماه الشوق فاحترقا

(والبيت للعباس بن الأحنف) وسأله بعضهم كيف نميت في قلبك حب الله حتى أحببته كلَّ هذا الحب فقال : رأيته أعظم حبيب وأرأف حبيب إن تقربت إليه أدناني. وإذا غفلت رغبني ومناني، وإذا عصيته صبر عليَّ وعافاني فعلمت أني لن أجد حبيبًا أجلَّ من ذلك الحب وأكرم.

وأوصى قبل موته أن يكون قبره على مستوى الأرض ليكون متواضعًا بين القبور يستدرُّ الشفقة. وكان يقول : تدور رحي المحبة على ثلاث : الثقة بما عند الله، والرضاء بقضاء الله، ودوام قرعك لباب الله، وقال رحمه الله من أجمل ما سمعتُ من مناجاة الله قول أحد الحجاج وهو متعلق بأستار الكعبة : إلهي كتمت بلائي غيرك وبحت به إليك، وعجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك، ولمن ذاق حبك كيف ينصرف إلى غيرك. وكان يُروى أنَّ ضيفًا نزل على والي البلقاء فقدَّم إليه الوالي طعامًا، وكانت القصعة تتحرك على المائدة فأسندها الوالي برغيف حتى لا تتحرك فقال الضيف في الأثر : أكرموا الخبز فإن الله سخر به بركات السماء والأرض. ولا تهينوا الخبز فإنه ما أهانه قومٌ إلا ابتلاهم الله بالجوع وسُئل يومًا ما أعظم ما يؤنس العبد بربه فقال : الصَّلاة والقرآن وطلب العلم وكان كثيرًا ما يروي حديث مالك عن الزهري عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن لله أحَّبةً من خلقه. قيل من هم يارسول الله فقال : هم أهل القرآن أهل الله وخاصتَّه».

وكان في حلقته يذكر الناس بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يتبع الميت ثلاث. فيرجع اثنان ويبقى واحد. يتبعه أهله وماله وعمله. فيرجع ماله وأهله ويبقى عمله. وكان لا يفتأ يروي حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «تجافوا عن ذنب السخي». وكان إذا اغتاب الناس في حضوره قومًا صمت مفكرًا وتمثل :

ومالي سوى الإطراق والصمت حيلةٌ ووضعي كفي تحت خدي وتذكاري

وسأله المتوكل يومًا : صف لي أولياء الله. فقال: أولئك قومٌ ألبسهم الله النور الساطع بمحبته وجللهم بالبهاء من كرامته ووضع على مفارقهم تيجان القبول.



العالم الأديب
القاسم بن سلاّم

أحببت القاسم بن سلاَّم لثلاثة أسباب أولها أنه لم يصل إلى المجد بقبيلة ولا نسب فأبوه سلاَّم كان مملوكًا روميّاً لرجل عادي، وأحببته لأنه كان يحب الجهاد في سبيل الله ويبذلُ المال لحماية ثغور الإسلام. وأحببته لأن محصوله الأخلاقي كان كمحصوله القلمي موفوراً رائعًا. وأخيراً فقد أحببت القاسم بن سَّلام لأنه أفاد بعلمه ومؤلفاته طلاب اللغة وطلاب علوم الدين وأنا أحبُّ العالم والمحدث والفقيه إذا تحلَّى مع هذه باللغة والأدب وأجاد قواعد النحو والصرف والقراءات .

والقاسم بن سلام جمع كل هذا وصنَّف في ذلك تصانيف موفقة سارت بها الركبان فمن مؤلفاته كتاب في القراءات وكتاب الأموال وكتاب غريب الحديث، وكتاب فضائل القرآن وكتاب الطَّهور وكتاب الناسخ والمنسوخ وكتاب المواعظ وكتاب الغريب المصنف في علم اللسان وهو كماوصفه ابن درستويه من أجل كتب اللغة . وله أيضًا كتاب الأمثال وكتاب معاني القرآن الذي حدث بنفعه في درسه ومات قبل أن يتمَّه .

وهذه حادثة من سيرة القاسم بن سلام رحمه الله تبيِّن مدى شرف نفسه ونظرته إلى المال. روي أنه كان إذا ألف كتابًا كتب منه نسخة أنيقة وأهداها إلى القائد المعروف عبد الله بن طاهر فيكافئُه عبد الله بن طاهر مكافآت سنيَّة حتى غدا في

الأدباء ذا نعمة طائلة مكنته أن يجود ويتصدَّق. وقد وجه إليه مرَّة أبو دلف بثلاثين ألف درهم لكنَّ القاسم ردها ومعها كتاب شكر قال فيه إنني يا أبا دلف في جَنَبة رجلٍ كريم لم يحوجني إلى صلة غيره. فلما عاد ابن طاهر من حملته بلغه ما صنع القاسم من رد صلة أبي دُلَف فعوَّض ابن طاهر الشيخ ابن سلاَّم ثلاثين ألف دينار بدل الثلاثين ألف درهم فقال الشيخ أيها الأمير قبلتُها ولكني أستأذنك أن أشتري بها سلاحًا وخيلاً وأوجه بها إلى الثغر ليحمي الله بها حوزة الإسلام ويكون لك ثواب فاعل الخير ولي ثواب المتسبب فيه ولما ألف كتابه المعروف (غريب الحديث) بعث بنسخة منه إلى ابن طاهر فلما طالعه استحسنه وقال: إن عقلاً صدر عن مثل هذا الكتاب لجدير ألاَّ يتعب نفسه في طلب المعاش وأجرى له في الشهر عشر آلاف درهم ليتفرغ للتأليف.

وكتاب الغريب المصنف كتاب جليل القدر ذكر مؤلفه رحمه الله أنه مكث في تصنيفه أربعين سنة. وقال يومًا لتلاميذه كنت أتصيد الفوائد من أفواه الرجال وأفرح إذا حصلت فائدة فأضمها إلى كتابي حتى استغرق معظم عمري واليوم يجيئني أحدكم فيمكث أربعة أشهر أو خمسة فيقول لقد طال اغترابي. إن كتاب الغريب المصنف كان مما عرض على الإمام أحمد فاستحسنه وقال جزاه الله خيرًا وعلى الرغم من أن عبد الله بن طاهر غمر القاسم بن سلاَّم بعطاء كبير فقد كان القاسم يحترم العلماء أكثر من القادة وذوي النفوذ فقد روي أن طاهر بن عبد الله بن طاهر دعا القاسم ليقرأ عليه من كتابه (غريب الحديث) فقال القاسم بل قدومك أنت إلى الدرس أفضل ولكن حين بعث إليه المحدث الفقيه علي بن المديني أن يقرأ عليه الكتاب نفسه حمل كتابه وذهب إلى بيته ليقرأه عليه. وكان في أسلوبه يجمع بين حلاوة اللفظ وظرافة المعنى ويقول: الألفاظ الشريفة والمعاني الظريفة مثل القلائد اللائحة في الترائب الواضحة وكان القاسم رحمه الله حريصًا على السُّنة لا يحيد عنها ولا يتأول وكان يقول: المتبع السُّنَّة كالقابض على الجمر وهو اليوم عند أفضل

من الضارب بسيفه في سبيل الله. وقد شهد القاسم اسحق بن راهويه فقال في جمع من الناس: الحقُّ يحبُّه الله عزَّ وجلّ. أبو عبيد القاسم بن سلاَّم أفقه مني وأعلم مني. وقال فيه القاضي أحمد بن كامل كان أبو عبيد فاضلاً في دينه وعلمه ربانيًا متفننًا في علوم القرآن والعربية حسن الرواية صحيح النقل لا أعلم أحدًا طعن عليه في أمر دينه. وقال فيه الشيخ إبراهيم بن الحربي كان أبو عبيد كأنه جبل نفخ فيه روح العلم. وأتاحت ظروف مسعفه لأبي عبيد أن يتصل بالمسئولين الذين أدَّب أولادهم فولاه ثابت بن نصر الخزاعي قضاء طرسوس ثماني عشرة سنة وقال فيه الأصمعي لن تضيع الدنيا وفيها مثل هذا. وقال فيه الإمام أحمد أبو عبيد ممن يزداد عندنا كل يوم خيرًا أبو عبيد أستاذ. واشتهر رحمه الله بتحري التوحيد الخالص في الأسماء والصفات كالرؤية، والكرسي موضع القدمين، وضحك ربُّنا، وأين كان ربنا فقال: الصفات حقٌّ لا نشكُّ فيها ولكن إذا قيل كيف يضحك؟ قلنا لا نفسر هذا ولا سمعنا أحدًا يفسره.

ولما ورد نعيُّ القاسم رحمه الله في مجلس عبد الله بن طاهر أنشأ يقول:

ياطالب العلم قد مات ابن سلاَّم وكان فارس علم غير محجام

مات الذي كان فينا ربْعَ أربعة لم يلقَ مثلهمو أستاذ أحكام

وقد ذكره صاحب طبقات القرَّاء أبو عمرو الداني فقال: ابن سلام إمام أهل دهره ثقة مأمون صاحب سنة أخذ القراءة عرضًا وسماعًا عن الكسائي وغيره.

ومن روايته أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى العصر بين المغرب والعشاء يوم قريظة وقال: «شغلونا عن الصلاة الوسطى. ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارًا». ولما قرأ سورة الحج سجد أثناء قراءتها سجدتين وقال عن عمر رضي الله عنه أنه سجد في الحج سجدتين وقال: إن هذه السورة يعني الحج فضلت على السور بسجدتين. وكان القاسم رحمه الله ذا جلد على العبادة حتى لقد كان يقسم الليل ثلاثة أثلاث فيصلي ثلثه وينام ثلثه ويصنف الكتب ثلثه وقد كتب الله له موتة مباركة إذ ذهب إلى

الحج سنة أربعة وعشرين ومائتين فتوفي بمكة المكرَّمة وعمره سبع وستون سنة وعلى كثرة الخلاف بين أهل الحديث في الرجال فقد أجمع كل من ذكر القاسم بن سلاَّم أنه كان ثقة صالحًا ثبتًا في الحديث وما علم أن معاصراً له قال فيه إلا خيراً. رحم الله القاسم إمامًا في اللغة والفقه محبًا للجهاد في سبيل الله رفعه علمه إلى أسمى مجالس العلماء والقادة. رحمه الله وأكثر في علمائنا أمثاله .



الأوزاعي

رأيت أهل بيروت يلهجون بذكر الأوزاعي رحمه الله . وقد سمَّوا حيًا من أحيائها باسمه وربما رأيت بقالة أو محلاً تجاريًا أو مكتبة أو شارعًا قد سميت باسم الأوزاعي وذلك لأن الأوزاعي رحمه الله كان عالمًا بيروتيًا وقد قرأنا في سيرته أنه نشأ في مدينة بعلبك وكان يتيمًا فتحولت به والدته رحمها الله وهو طفل إلى بيروت وفي بيروت عرف منذ طفولته بالذكاء ومكارم الأخلاق واعتياد المساجد وحب مجالس العلماء وقد رآه أحد المشايخ الأجلاء يلعب مع الصبية ورأى عليه مخايل النجابة والنباهة فناقشه فأعجب بكلامه ثم استأذن أمَّه لتسمح له أن يكفل ابنها إلى أن يكبر ويبلغ فوافقت فنشأ رحمه الله في ذلك البيت التقي الكريم يتردد على المساجد ويجالس الأشياخ حتى إذا بلغ أشده إذا هو شابٌّ جلدٌ جيد الصحة فيه طولٌ فنصحه الشيخُ كافله أن يحترف الجندية مرابطًا في سبيل الله ووافق ذلك الاقتراح منه هوى فرابط أوَّلاً في بيروت ثم نقل من بيروت مع بعث من البعوث ليرابط في اليمامة فلما استقر فيها رآه الناس أعظم المرابطين خشوعًا وأخلاقًا.

وكان الفقيه العالم يحيى بن كثير من أهل اليمامة فجعل الأوزاعي يتردد على مجلسه ولما رأى ذكاءه وبديهته وصلاحه وحسن تلقيه نصحه أن يطلب العلم في البصرة عند الحسن البصري وابن سيرين . فلما وصل إلى البصرة سأل عن الحسن

فأخبره الناس بوفاته ثم سأل عن ابن سيرين فعلم أنه توفي بعد الحسن بمائة يوم. فلم ييأس وطفق يتتبع العلماء ويعتاد مجالسهم حتى صار إمام ديار الشام وقد أسعفه في طلبه للعلم أخلاقه الكريمة وشمائله العظيمة فقد كان رحمه الله خيراً واسع المعرفة مأمونًا ثقة حجة معروف الفضل حتى لقد كان شيوخه يروون عنه كالزهري ويحيى بن كثير وابن المبارك ومالك بن أنس وسفيان الثوري ثم طلابه الكثيرون. ومع أنه نشأ يتيمًا تنتقل به أمَّه ليطلب العلم والمعيشة فقد أكرمه الله بنصيب من الأدب يعجز الملوك أن يؤدبوا أبناءهم بمثله وقد سمي الأوزاعي لأنه سكن مدة بدمشق في حي يقال له حي الأوزاع. واسمه عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ويقال إنه كان مولى وقيل بل من قبيلة يقال لهم الأوزاع وأنه كان منهم وليس مولى لهم.

وقد اشتهر رحمه الله بأخلاق عظماء العلماء فما رُئي رحمه الله ضاحكًا بصوت مرتفع وتلك كانت من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان الأوزاعي لا يتكلم بكلمة إلا رأى جلساؤه أنها تستحق أن تكتب وكان إذا ذكر القيامة لم يبق في المجلس مستمع إلاَّ بكى لما يرى من صدق لهجة الشيخ رحمه الله وخشوعه. وكان بحراً في الفقه والحديث حتى لقد روى بعض تلاميذه أنه أجاب في حياته عن سبعين ألف مسألة.

وبلغ من معرفة العلماء بفضله أنه حج سنة قادمًا إلى مكة من لبنان فلما أقبل على مكة كان في انتظاره ليستقبله سفيان الثوري رحمه الله وقد استقبله في ذي طوى ولم يسمح به بالنزول عن بعيره فأمسك بزمام البعير وفصله عن قطار الجمال وطفق سفيان يقوده ومالك بن أنس يسوقه وسفيان يقول للناس افسحوا الطريق للشيخ وكان للأوزاعي رحمه الله جَلَدٌ على العبادة فكان بعد الفجر يثبت في مصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس ويقول إن هذا كان من هدي السلف وكان له في كتابة الرسائل أسلوب كأنه السحر الحلال يكاد يكون معجزاً وكان إذا كتب إلى أبي جعفر المنصور أعجب بالكتاب وقرأه وكرره. وقال مرة لكبير كتابه: إذا كتبت إلى

الأوزاعي فاجعل أسلوبك تامًا ليكون من جنس أسلوبه فقال كبير الكتاب : إن للأوزاعي أسلوبًا لا أظن أحدًا من الناس يقدر على نظمه وأنا أحفظ كتبه واستعين بألفاظه حين أكتب إلى أهل الآفاق. وكانت للأوزاعي رحمه الله إجابات في العلم ذكية دقيقة. سُئل مرة عن آثار الخشوع في الصلاة فقال تعرفه في غض البصر وخفض الجناح ولين القلب والخوف من الله. وسئل عن إمام ترك سجدة ساهيًا ولم يذكر حتى قام الناس وتفرقوا فقال : إذا ذُكِّر المصلون سجد كلٌّ واحد منهم سجدة وهم متفرقون. وقد أراد الخلفاء الأوزاعي أن يعمل في القضاء فاعتذر ببلاغه وأدب فقبل الخلفاء اعتذاره. ومن غرائب فتاواه قوله : (إن الفخذ تكون عورة في المسجد ولكن إذا نزل رجال يسبحون في بحر أو بركة فإذ ذاك لا تكون الفخذ عورة).

وكانت للأوزاعي رحمه الله منامات مبشرة. رأى في منامه ملكين يحملانه حتى وضعاه بين يدي الله تعالى فسأله جلَّ جلاله عبدي عبد الرحمن الذي يأمر بالمعروف فقلت : بعزتك أنت أعلم فهبطا بي حتى ردَّاني في مكاني. وقد لطف الله بالأوزاعي من قتلة كان يمكن لو حصلت أن تكون رهيبة. كان ذلك عند زوال الدولة الأموية وقيام دولة بني العباس وكان عمر الأوزاعي إذ ذاك ستًا وأربعين سنة فقد دعاه إليه عبد الله بن عليّ عم السَّفاح وكان فتاكًا قاسي القلب سريعًا إلى الفتك وسأله ثلاثة أسئلة محرجة حقًا فأجاب عنها مستندًا إلى صحيح السُّنة وهو ثابت القلب رابط الجأش وقد حدث عن نفسه أنه كان كلما أجاب عن سؤال يلمس رأسه ليرى أين يسقط ولكن الله سلم.

سأله أوَّلاً : ما تقول في خروج بني العباس على دولة بني أمية هل تعتبره جهادًا ورباطًا في سبيل الله فقال الأوزاعي : صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله». فنكت الأمير بخيزرانته في الأرض كأنما يريد أن يخرق الأرض. ثم رفع رأسه وقال يا أوزاعي : ما تقول في دماء بني أمية

وكان عبد الله بن علي قد قتل من بني أمية مئات بالسياط وهنا أخذ عدد من الجالسين من محبي الأوزاعي يغمزونه أن يقول كلامًا ينجيه لكن الأوزاعي رحمه الله قال في ثبات : صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس . والتارك لدينه الخارج على الجماعة» فنكت عبد الله بن علي بخيزرانته الأرض بعنف ثم سأله : ما تقول في أموال بني أمية . وكان بنو العباس قد صادروا أموال الأمويين حتى الجئوهم إلى الشحاذة فقال الأوزاعي : إذا كان بنو أمية اكتسبوها من حرام فهي عليكم أحرم وإن اكتسبوها من خلال فهي محرَّمة عليكم وعلى غيركم . فظهر في وجه الأمير غضب شديد لكنه كظمه وقال يا أوزاعي : هممت أن أوليك القضاء . فقال الإمام لقد أكرمني جميع سلفك من الخلفاء من بني أمية وبني العباس فقبلوا عذري وأذنوا لي وأعفوني . فإن شئت أن تتم ما بدءوه من المعروف فافعل لأن ورائي حُرَمًا أسعى عليها وأصونها . فقال وهو غضبان . إذن فانصرف .

قال الأوزاعي فركبت دابتي والكل يعجبون كيف نجوت من ضرب العنق . ولما وصلت إلى بيروت إذا عامل البريد يتعقبني ويطلبني . فقلت في نفسي هذا الرجل يبدو أنه قد بدا له في أمري رأي آخر . وإذا عامل البريد يقول لي : لقد غفل الأمير عن جائزتك وهذه مائتا دينار بعث بها إليك فأخذها الأوزاعي ثم وزعها في نفس الجلسة في الفقراء والأيتام والأرامل .

ولما تولى أبو جعفر المنصور كتب إليه الأوزاعي عليك بتقوى الله . وتواضع يرفعك الله يوم يضع المتكبرين في الأرض بغير الحق وأعلم أن قرابتك من رسول الله تزيد حق الله عليك . وكان بنو العباس يلبسون السَّواد فاستأذن الأوزاعي أبا جعفر أن يُعفيه من لُبس السَّواد لأنه كما قال لا يُحرِم به مُحرِم ولا يكفَّن به ميت ولا تُزَيَّن به عروس .

وقد توفي رحمه الله وهو في حوالي السبعين من عمره وكانت قصة وفاته لا

تخلو من مأساة فقد دخل الحمام ليستحم ولشدة البرد أدخلت معه زوجته كانونًا فلما اشتعل الفحم انتشر غازه ووجدته زوجته مضطجعًا على جنبه مستقبلاً القبلة ولم يترك مالاً سوى ستة دنانير من راتبه لأنه كان موظفًا بالجيش وقد سار في جنازته كل أهالي بيروت من مسلمين ونصارى ويهود إذ كان الجميع يحترمونه لما عرفوه من عفافه وطهر لسانه وأدبه وسماحته رحمه الله الأوزاعي إمامًا عابدًا رسم للعلماء قدوة صالحة في الأخلاق والزهد والصدق والثبات .



الإمام أحمد رحمه الله

هذا الشيخ الجليل الصالح كان بحراً من الفضائل والقدوات عجز الزمان أن يأتي بمثله ولهذا لن يتسع المقام لعرض سيرته بطريقتنا الحالية إلا باستعمال أسلوب موجز : يُغني فيه اللَّمحُ عن الشرح وتكفي فيه الإشارة الخاطفة عن العبارة الوارفة . فأقول وبالله التوفيق :

- هو شيخ الإسلام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني بن بكر بن وائل نشأ في خراسان واستقر ببغداد .
- نشأ يتيمًا وطلب العلم وهو فتىً وتعب في الرحيل إلى الأشياخ حتى لقد بلغ عدد من روى عنهم في المسند مائتين وثمانين شيخًا منهم عبد الرزاق الذي تتلمذ عليه أحمد في صنعاء .
- وروى عنه عدد كبير من الفضلاء منهم البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجة ووكيع بن الجراح ويحيى بن معين .
- ورحل رحمه الله في طلب العلم إلى الكوفة والبصرة واليمن ومكة المكرَّمة حيث حجَّ خمس مرات منها ثلاث حجها ماشيًا .
- وكان رحمه الله طويل البنية أسمر اللون يخضب بالحناء يجلس في بيته متربعًا خاشعًا وفي بيوت الناس مؤنسًا مبتسمًا وقلَّما دخل عليه في بيته طالب عالم إلا

رأى في يده دفتراً يدرِّس منه أو يقرأ فيه .

- ولانشغاله بالعلم لم يتزوج إلا بعد الأربعين وتزوج زوجتين وجارية ورزقه الله من الزوجتين عبد الله وصالحًا ومن الجارية زينب والحسن والحسين توأمين ماتا بعد ولادتهما ثم ولدت له الحسَن ومحمداً وسعيداً .
- وكان رحمه الله شديد الورع والتقوى منذ كان في الرابعة عشرة من عمره وكان يشبه أستاذه سفيان الثوري في ورعه وتقواه .
- وكان إذا افتقر لا يقبل عطاءً من أي إنسان ولكنه قد يكتُب بالأجرة ليسد رمقه ويسلَمَ من ذل السُّؤال .
- وقد عرض عليه أصدقاؤه أموالاً في أيام شدَّته فكان يرفضها حتى لقد رفض عشرة دنانير عرضها عليه عبد الرزاق أستاذه ومائة درهم من يزيد بن هارون وعرض عليه شيخ من مكة مائة درهم حين ضاعت ثيابه فرفض أن يأخذها وأخذ منها عشرة فقط كتب بها للرجل ملزمةً بخطه الجميل واشترى لنفسه بها ثوبين كان يفعل ذلك ويردُّ عطاء إخوانه وربما يكون جائعًا. فقد صلى عبد الرزاق يومًا وراء أحمد فأخطأ أحمد في القراءة فعلم عبد الرزاق أنه أخطأ لأنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام. وحدث إسحق بن راهويه أنه سكن في غرفة فوق غرفة أحمد في بيت عبد الرزاق فكان ربما سمعه ليلاً وهو سهران يصنع حبالاً وأشياء ليبيعها ويأكل من عمل يده يكف بهذا وجهه عن قبول هدايا الناس .
- وكان بعض الأشياخ من أهل المنصب والثراء من أمثال ابن عُلَيَّة ويزيد بن هارون إذا دخل عليهم الإمام أحمد لا يضحكون طوال المجلس ولا يسمحون لأضيافهم أن يضحكوا ما دام أحمد جالسًا .
- كان رحمه الله شجاعًا صُلبًا في الحق أرخص ما لديه روحه وقد أعزَّ الله به الإسلام في فتنة خلق القرآن فصبر على الضرب والسجن والإهانة واقتدى به عدد من العلماء وظل ثابتًا ما وهن ولا استكان إلى أن رأى بعينه أقطاب الفتنة

وهم يضربون ويعذَّبون في عهد الخليفة المتوكل الذي قمع الفتنة ونكَّل بمشعليها وفي مقدمتهم أحمد بن أبي دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزَّيات وغيرهم .

- قال بعض تلاميذ أحمد إني لأتقرب إلى الله بذكر سيرة أحمد بن حنبل فما ذكر أحمد في مجلس إلا امتلأ المجلس بذكر الله وخشعت قلوب الناس واقشعرت جلودهم وهم يذكرون ما تحمله في سبيل الله من عذاب .
- وقيل لبشر الحافي وكان من كبار الزاهدين حين ضُرب الإمام أحمد وسجن : لماذا لا تُعلنُ أنك لا تقول إلا بقول أحمد فقال : أَقولها وأنا أتوقع العذاب والموت؟ هَذه منزلة لا يقدر عليها إلا الأنبياء . وكان العلماء السُّجناء الذين أودعوا السجون في الفتنة يسألون من يزورهم في السجن : كيف حال سيدنا يعنون أحمد بن حنبل الذي كان قدوتهم في الصبر والاحتساب .
- قال أبو داود كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يذكر فيها شيء عن تجارة أو أعراض زائلة وما رأيته ذكر الدنيا قط . وقال عنه ابن النحاس : عرضت عليه الدنيا فأباها والبدعُ فنفاها . وقيل في أحمد : لسوطٌ ضُربه أحمد في الله أكرم على الله من أيامنا كلِّها . لقد قام أحمد في الفتنة مقام الأنبياء وامتحن بالسَّراء والضَّراء فما كان فيهما إلا معتصمًا بالله .
- بلغ من ورعه أنه رهَنَ سطلاً عند بائع حمص في مكة في مقابل شيء يقوته فلما أحضر أحمد الثمن قال له البائع هذان سطلان فخذ أيهما شئت فقال أحمد لقد امتحنتني خذ السطلين والنقود فركض الرجل وراءه يعطيه سطله ويطلب دعاءه .
- ساءت حال الإمام أحمد أيّام الخليفة الواثق فبعث إليه أحد المحسنين أربعة آلاف درهم ومعها خطاب يقول فيه بلغني يا أيها الإمام ما أنت فيه من ضيق وما عليك من دَيْن ووالله إن هذه ليست من الصدقة ولا من الزكاة فكتب إليه أحمد بارك الله فيكِ وصل كتابك ونحن في عافية . الدينُ لرجل لا يرهقنا وعيالنا في

نعمه وردها الرجل مرتين وأحمد لا يقبلها مخافة أن يتعود قبول عطاء العبيد .

- وحضر إليه غني محسن أيام فقره فقال له أحضرت إليك ميراثًا تركه لي أحد الأقارب وأنا في غنى عنه وما هو بصدقة مني ولا زكاة فلم يقبله أحمد فقال له الغني واسمه ابن الجروي : إنه ثلاثة آلاف دينار وكأنه يغريه بكثرتها فما كان من أحمد إلا أن قام وتركه في المجلس عند ابنه صالح . وبعد مدة قال له ابنه صالح لو أخذناها لسددنا بها ديننا . فقال أحمد لو أخذناها لنفدت كأي مال وكتب علينا فضل الرجال .
- ورهن رحمه الله نعاله عند خباز باليمن فأسف لذلك شيخه عبد الرزاق وأهداه هدية من المال فردها ولما رحل من اليمن اكترى نفسه عند بعض الجمالين ليحصِّل مئونة الطريق .
- وبعث الخليفة المتوكل يوم موته كفنًا وحنوطًا فردها ابنه صالح فراجعه الوزير ابن طاهر فقال صالح إن أمير المؤمنين أكرم أبي فأعفاه من كل أمر يكرهه وأبي يكره أن نقبل هذا لأنه أعدّ كفنه وحنوطه قبل موته .
- وكان إذا ذكر الدنيا قال قليلها يكفي وكثيرها لا يكفي وإذا ذكر الفقر والغنى قال أكثر ما يأتي الخير والتقوى مع الفقر .
- وكان رحمه الله لا يحبُّ أن يُذكر عند الوزراء كي لا يطلبوه . كتب مرَّة خطابًا بليغًا إلى زميله اسحق بن راهويه فأعجب به إسحق وعرضه على الوزير عبد الله بن طاهر لشدة إعجابه به فلما بلغ ذلك أحمد انقطع عن الكتابة إلى إسحق .
- كان يتأنق في ملبسه ونظافته وطيبه أما في الطعام فكان يتخشَّن مخافة أن تبطر نفسه وكان ربما جمع كسَر الخبز فنفض عنها الغبار ثم نقعها في ماء وأكلها بشيء من الملح وما كان يشتري الفواكه الكمالية كالرمان والسفرجل إلا أن تكون بطيخة فيأخلها بخبر أو عنبًا أو تمرًا . وكانت زوجته أم صالح تغزل ليلاً وتبيع .

- وكان النصارى يحبونه لحلاوة منطقه دخل عليه راهب وقال له إني لأشتهي أن أراك منذ سنين وليس من أصحابنا أحد إلا وهو راض بك. وسُئل رحمه الله : أيجوز أن يقول المسلم للكتابي : أكرمك الله. فقال نعم إذا نوى أن يكرمه الله بالإسلام.
- وكان يصلي في كل يوم ثلاثمائة ركعة فلما ضُرِب بالسياط ضعف فكان ورده في نافلته مائة وخمسين ركعة.
- وجاءه رجل فقال له : إن أمي مريضة وقد أرسلتني لأطلب لها منك الدعاء فأجابه غاضبًا تظنُّ بنا والدتك هذا الظنّ ونحنُ والله أحوج إلى دعائها منها إلى دعائنا ما نحن إلا خَلْقٌ مقصر مذنب. ولما خرج الرجل أخذ أحمد يدعو لها ولشدّ ما كانت دهشة الرَّجل حين وصل إلى البيت فوجدها في خير عافية. وإنما فعل أحمد ذلك حتى لا يقال شفيت بدعاء أحمد.
- كان رحمه الله على فقره سمحًا كريمًا يأتيه السَّائل لا يردُّ وكان كثيرًا ما يتصدَّق بنصف ما في بيته وكان يستحي من الله أن يرجع السائل خائبًا من بيته. وكان إذا قبل هدية ردها بعد وقت بأغلى منها.
- وأرسل إليه الخليفة المتوكل مبلغًا ليفرقه على الفقراء فلم يأخذ شيئًا لنفسه وجاءه رجل من جلسائه معسر يقال له هارون المستملي فأعطاه أحمد مائتي درهم فقال هارون إنها قليلة فقال له ليس لك غيرها ولكن خذ هذه الثلاثمائة ففرقها قال هارون والله سآخذها لنفسي ولا أفرق. فضحك أحمد إشارة الرضا.
- كان رحمه الله صديقًا حميمًا للشافعي فقال له الشافعي وهو في الثلاثين من عمره أنت تحبُّ أن تقابل عبد الرزاق في صنعاء وقد طلب إليّ الخليفة الأمين أن ألتمس له قاضيًا لليمن فاقبل الوظيفة لأنها تمكنك من الأخذ عن عبد الرزاق فقال للشافعي : إن سمعت هذا منك ثانية لم ترني عندك. اعفني وإلا تركت البلد.

- وقال له يومًا بعض جلسائه كيف أصبحت فقال كيف يصبح من ربُّه يطالبه بالفرائض ونبيه يطالبه بأداء السَّنة وعياله يطالبونه بالنفقة والملكان يطلبانه بتصحيح العمل ونفسه تطالبه بهواها وملك الموت يراقب قبض روحه؟
- وهذه قصة المحنة الشديدة التي تعرَّض لها أحمد رحمه الله فخرج منها وهو إمام العلماء في الصبر والاحتساب والوقوف مع الحق ولو تحوَّلت كل القوَّة والسلطة والمال مع الباطل .

امتحان الإمام

ظلَّ المسلمون في عافية من المذاهب المنحرفة والفرق الضالَّة، وظلَّت شراذمُ الجهمية والمعتزلة وغلاة الشيعة خانسين في أوكار الريبَة والذُّل خائفين من الخلفاء الأقوياء كالسفاح وأبي جعفر والمهدي والهادي والرشيد. وكان أولئك الخلفاء لا يتسامحون في من يدعو إلى ضلالة حتى إن الخليفة الرشيد رحمه الله أهدر دم بشر المريسي وقال : لله علي لئن أظفرني به لأقتلنَّه .

فلما كان عهد الخليفة المأمون بدأ عهد انفتاح على الثقافة اليونانية والرومانية وفتح عصر الترجمة فعَرب كتب الإغريق والروم واستعان على ذلك بنصارى العرب فاختلطت الثقافة والتف عدد من الروافض والمعتزلة والمنافقين والجبناء وأصحاب المصالح حول المأمون فزينوا له مذهب الاعتزال وهو الذي يقول بأن القرآن مخلوق وبأن الإنسان مطلق الاختيار بلا حدود فاعتنق المأمون المذهب المنحرف وجعله مذهب الدولة وعاقب من لم يوافقه عليه وسار على خطوات المأمون خليفته المعتصم وتبعه على ذلك هارون الواثق فاشتد الكرب على علماء السُّنة وأئمة الحنيفية القيِّمة وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر .

ومات المأمون بعد إعلانه ذلك المذهب البدعي بسنة واحدة فانتقلت الخلافة

إلى المعتصم ونجا الإمام أحمد من المأمون وذلك لأن المأمون طلبه إلى مدينة طرسوس ليمتحنه فلما وصل إلى طرسوس على الساحل السُّوري بشره الناس بموت المأمون فأعيد إلى بغداد هو وزميل له من خيرة العلماء يقال له محمد بن نوح. وكانا في قيودهما فتوفي محمد بن نوح وفُكَّ قيده وصلى عليه أحمد رحمهما الله وقال أحمد بعد أن صلى عليه رحم الله محمد بن نوح استراح من الفتنة وأرجو أن يكون قد ختم الله له بخير. لقد كُنا معًا في طريقنا لامتحان المأمون وهو طول الطريق يوصيني يقول لي يا أحمد أنت لست مثلي أنت إمام يقتدى بك ألوف العلماء فاصبر ولا تقل إلا ما يرضي ربّك فإن قتلوك فلك الجنة إن شاء الله عند الله ولك في الدنيا ثواب كلٍّ من يثبت على الحقِّ إلى يوم القيامة...

فلما استتبَّ الأمر للمعتصم ظلَّ أحمد رحمه الله في قيوده في السجن حتى مضى عليه في سجنه أكثر من سنتين ونصف كان أثناءها يصلي بالمساجين وهو في قيوده ويقرأ علينا فصولاً من كتب العلم.

وأرسل إليه عالمان من المعتزلة يجادلانه في السجن فغلبهما فأضيف على رجليه قيدان آخران فأصبح في أربعة قيود. ومن طريف ما غلبهما به أنه سألهما تقولان إن القرآن مخلوق فماذا تقولان في علم الله؟ أهو مخلوق أم قديم قالا: هو مخلوق فقال لهما أنتما كافران بالله لأن كلامكما يعني أن الله جل جلاله مكث وقتًا بلا علم إلى أن خلق له علمًا والمهم أن المعتصم سامحه الله أرسل وزيره بُغا لإحضار أحمد من سجنه إلى دار الخلافة. وقبل أن يُحمل الإمام إلى دار الخلافة حضر إليه إسحق بن إبراهيم نائب بغداد وكان اسحق في مطلع حياته متقشفًا زاهدًا حافظًا للحديث وكان زميلاً لأحمد أيام كانا يلازمان الإمام الشافعي فقال له يا أحمد: إنه ليس أمامك والله إلا القتل ولو كان القتل بالسيف لهان الأمر ولكن المعتصم أقسم أن يقتلك ضَربًا بالسياط وأنت لا طاقة لك بمثل هذه الميتة ولقد أقسم أن يقتلك في موضع لا يرى فيه شمس ولا قمر يا أحمد قال الله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنًا عربيًا﴾

وجعلناه معناها أوجدناه وخلقناه قال أحمد: قال الله تعالى: ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ معناها أوجدهم وخلقهم؟ فسكت اسحق وسار الجنود بأحمد إلى مكان يقال له باب البستان وهناك أحضروا له دابة وحُمل عليها وهو في القيود الثقيلة وكاد مرارًا يسقط لثقل القيد على وجهه حتى أوصلوه إلى دار الخلافة. وهناك رأى أحمد حول دار الخلافة آلافًا من العلماء ومن العامَّة جاءوا ليروا موقف أحمد فعلم أحمد أن الأمر جدّ وأنه إذا انحرف ولو بكلمة واحدة فسوف يقتدى به ألوف الناس فدخل أحمد وقد أجمع أمره أن يتحمل أبشع الموت في سبيل الله وألا يتحمل أوزار هؤلاء الناس الذين ارتضوه قدوة في الدنيا وحجة في القيامة.

وفي صباح اليوم التالي جاء من المعتصم رسول ليدخله مجلس الخليفة فقام والقيود الثقيلة في قدميه فرآه رسول المعتصم يشدُّ تكَّة سرواله إلى أحد الأقياد ويحمل القيد على كتفه فقال له لم تفعل ذلك؟ قالَ أخاف إذا اشتد الضَّربُ أن تسقط سراويلي فأتعرَّى فتعجب الرَّجل. ثم لما دخل به على الخليفة المعتصم إذا عدد كبير من علماء المعتزلة وكان معظمهم من زملاء أحمد ولكنَّ الخوف والتقيَّة وحبَّ المال والمنصب نالت من قلوبهم. ولاحظ أحمد أن المعتصم ينظر إليه برفق وأخُوَّة وأن على وجه المعتصم سيما من الحنو والرغبة في نجاة الإمام بينما رأى الوزير أحمد بن أبي دؤاد وعلى وجهه غبرة حقد يمازجها تخوُّف وكراهية.

وأشار الخليفة المعتصم إلى الإمام أن يدنو منه حتى قرَّبه جدًا وقال له: إجلس. فجلس وهو في أقياده. ثم قال للخليفة: أتأذن لي أن أتكلَّم وأخاطب هؤلاء. قال المعتصم: تكلَّم. فقال أحمد يخاطبهم: إذا جئتموني بكلمة من كتاب الله وسنة رسوله تؤيد ما تمذهبتم به فإني أتبعكم فانبرى إليه أحد علمائهم وقال له يقول الله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ والقرآن شيء قال أحمد يقول الله تعالى عن الريح التي أهلكت قوم هود ﴿تدمر كلَّ شيء بإذن ربها﴾ وهي لم تدمر إلا ما أراد الله لها أن تدمّره فقال المعتصم: لولا أني وجدتك في قيد مَنْ قبلي ما عرضت لك ثم قال

لمدير الشرطة ياعبد الرحمن ألم آمرك برفع المحنة؟ فاستبشر أحمد لكن أحمد بن أبي دؤاد قال للخليفة: هو والله يا أمير المؤمنين كافر مبتدع وهو يُسَفّه رأي الدولة فقال إذن ناقشوه فطفق علماؤهم يجادلونه وهو يجيبهم أجوبة مسكتة كأنما يصفعهم بالإجابة صفعًا. ثم أراد ابن أبي دؤاد أن يناقش الإمام فلما كلمه لم يلتفت الإمام إليه فقال له الخليفة لماذا لا تجيب الوزير؟ فقال يا أمير المؤمنين هذا ليس من أهل العلم فقال الخليفة يا أحمد والله لئن أجبتنا إلى ما ندعوك إليه ورجعت إلى آراء زملائك أهل العلم لأطلقن عنك بيدي ولأركبن إليك بجندي. وقال للإمام يا أحمد والله إني لأشفق عليك كشفقتي على ابني هارون فالتفت إلى الخليفة وقال أريد يا أمير المؤمنين أي شيء من كتاب الله وسنة رسوله. ومكث المعتصم أربعة أيام يحضره كل يوم إلى المجلس ويرسل إليه في السجن من يرجوه أو يقنعه أن يقول كلمة واحدة تنجيه فلم يزد أحمد على قوله أريد شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله وعندئذ حنق المعتصم وقال أحضروا العُقابين والسياط والعقابان خشبتان يوضع المضروب بينهما ليظلّ واقفًا للعذاب فلما أوقف بين الخشبتين لان المعتصم له فقال ابن أبي دؤاد: إن تركته استهان الناس برأي أخيك المأمون رحمه الله وهانت عليهم أوامر الدولة وعندئذ أمر المعتصم بضربه على أن يضربه كل جلاّد سوطين يرجو بذلك أن يعود أحمد لمقال الخليفة بين دور الجلاد والذي يليه حتى انخلعت يدا أحمد وعلماء المعتزلة يقولون له إمامك وإمام المسلمين على رأسك وتردُّ رجاءه وتعصي قوله وهو يقول بل كتاب الله وسنة رسوله ثم لم يزل الجلادون يتعاورونه حتى لم يعد فيه فائدة وذهب عقله فلم يُفق إلى نفسه إلا والقيود محلولة عنه فجاءه رجل بشراب فقال الإمام أنا صائم لا أفطر وحضرت صلاة الظهر فصلاها والدم ملء ثيابه فقال له القاضي ابن سماعه تصلي والدَّمُ ملء ثيابك فقال لقد صلى عمر يوم قتل والدّم يثعب من جرحه. ثم أمر الخليفة أن يُخلَّى سبيله فعاد إلى بيته في نفس بغداد وهو بين الحياة والموت واستغرقت محنته بين السجن والقيود والتعذيب

ثمانية وعشرين شهراً خرج منها ممزَّق الجسم شامخ الروح إماماً لكل عالم في الصبر على البلاء في الله .

ومنذ عاد إلى بيته ثبَّت الله به السُّنَّة وقوَّى شوكة الجماعة وجمع به شمل الصابرين وأصبح الناس يرون في أحمد وليّاً من أولياء الله إذا سأل الله أجابه وإذا استعانه أعانه وأرسل إليه أغنياء المسلمين بالعطايا الجزيلة فما عُرف عنه أنه قبل من الناس درهماً واحداً ينفقه على نفسه وعاش رحمه الله حتى جاوز الخامسة والسبعين وقدر الله له أن يرى أحمد بن أبي دؤاد في أشدّ العذاب وكلّ رؤوس المعتزلة ولما توفي رحمه الله سارت بغداد خلف جنازته على بكرة أبيها وبكى عليه المسلمون والنصارى واليهود حتى لقد قدر من حضروا جنازته بمليون وأوصل البعض عددهم إلى مليونين رحم الله الإمام أحمد وجزاه عن الإسلام خير ما يُجزى عالم عامل مجاهد بذل في الله روحه وراحته .



يحيى بن معين

هذا العالم الجليل آتاه الله قدرة على الكتابة فاستغلّ عمره المبارك الطويل في كتابة الحديث وكان ربما كتب الحديث الواحد خمسين مرَّة في مناسبات مختلفة. شرع في كتابة العلم وهو في العشرين ولم يزل يكتب حتى قبيل وفاته في الخامسة والسبعين. حتى لقد روي أنه خلّف بعد وفاته مائة وأربعة عشر دُرجًا من الكتب كلُّها بخط يده. وقد تفرَّغ رحمه الله للحديث وكتابته والتنقُّلَ في طلبه. وكان من حُسن حظه أن ورث عن أبيه مالاً يُقدَّر بأكثر من ألف ألف درهم فمكَّن له ذلك المال أن يعكُف على التحصيل والكتابة إلى أن أنفق جميع ماله وكان ربما مرت عليه ظروف من الفاقة لا يستطيع معها أن يحصل على نعال يلبسها. ولكنه ظلّ على كافة أحواله معروفًا في بغداد بحسن سمته وإكرامه لنفسه ولضيوفه وتلاميذه وإذا خرج إلى مجلس الدرس ركب بغلته الفارهة ولبس ملابسه الأنيقة. وكان الإمام أحمد رحمه الله يجلُّه ويحترمه لأنه كان أكبر من أحمد بست سنين فكان أحمد يتأدب معه ويعترف له والحقُّ أن الإمام أحمد رحمه الله كان يُجلُّ جميع علماء عصره الأتقياء ويشيد بأفضالهم مما جعله إمامًا حقًا ووليًا من أولياء الله يتبرك أهل زمانه بكلامه وسيرته ومجلسه وعلمه وتقواه.

ثم لما كانت فتنة خلق القرآن استُدعى يحيى في خلافة المعتصم ليتكلم كلامًا فيه

فيه تقيَّة فنجا من الموت والتعذيب ولم يستطع أن يقف وقفة الإمام أحمد الذي أعلنها صريحة فأذاقه الخليفة ووزيره من العذاب مالا تنهض له الجبال. وعلى كلّ حال فقد أكرمه يحيى فقال ما قال وقلبه مطمئنٌ بالإيمان والله جلَّ جلاله غفور رحيم. وعفوٌ كريم.

ولقد ثبت في السيرة أن عمار بن ياسر رضي الله عنه وهو إمام من أئمة الصبر والثبات حين رأى نفسه يكاد يموت تحت وطأة السياط قال ما أمره المشركون أن يقولوه في رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الصحابة لقد كفر عمار فنزل قول الله تعالى يبرىء عماراً من الكفر ويبين أن الكافر هو الذي ينشرح صدره للكفر ويُقبل على الكفر باختيار ورضى وحماسة يقول ربُّنا عزَّ وجل في سورة النحل ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبُه مطمئن بالإيمان. ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم﴾ ثم يقول في مثل عمار ﴿ثم إنَّ ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾.

ولقد قدر الإمام أحمد ظروف يحيى بن معين لأن بريق السيف على الرقبة ليس بالأمر الهين قال أبو سعيد الحداد كنت عند أحمد بن حنبل رحمه الله فجاءه رجلٌ قال له: يا أبا عبد الله أرجو أن تصحح لي بعض الأخطاء في هذه الأحاديث. فقال أحمد رحمه الله: عليك بأبي زكريا فإنه يعرف الخطأ (يعني يحيى بن معين)، وإن السماع من يحيى بن معين شفاء لما في الصدور. ومن أقوال الإمام أحمد في يحيى: إن هذا الرجل خلقه الله ليظهر كذب الكذابين على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد ا شتهر يحيى بن معين بالذوق في معاملة العلماء إذا أخطأوا قال رحمه الله ما رأيت على رجل خطأ إلا سترته وأحببت أن أعذره وأزين أمره وما بيَّنت خطأ رجل إلا سراً بيني وبينه فإن قبل ذلك وإلا تركته ويبدو أنه رحمه الله كانت فيه روح

نكته فقد جاءه رجلٌ مستعجلٌ فقال يا أبا زكريا حدثني بشيء أجعله تذكاراً أذكرك به فقال له يحيى اجعل تذكاري لديك أنك سألتني أن أحدثك فرددتك ولم أحدثك.

ومن دعاباته أنه قال يومًا : كنت بمصر فرأيت جارية بيعت بألف دينار ما رأيت أجمل منها صلى الله عليها وعلى كل وجه مليح .

ومن طريف ما حصل ليحيى وأحمد بن حنبل رحمهما الله أنهما صليا في مسجد الرصافة فقام أحد القصاصين بعد الصلاة واعظًا وقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيي بن معين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من قال لا إله إلا الله خلق الله من كلِّ كلمة منها طيراً منقاره من ذهب وريشه من مرجان) ومضى يروي حديثًا طويلاً لا أساس له من الصحة فلما فرغ أشار إليه يحيى فجاء. فقال له : من حدثك بهذا الحديث فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فقال له يحيى أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل وما سمعنا بهذا الحديث إلا هذه السَّاعة فقال القصاص : كنت أسمع عن يحيى بن معين أنه أحمق والآن اتضح لي حمقه أليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل إلا أنت وهذا. أنا حدَّثت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل وسبعة عشر يحيى بن معين فوضع أحمد كُمَّه على فمه حتى لا يرى الناس ضحكه فقام الرَّجل وهو يهزُّ رأسه كالمستهزىء بهما وهما يتبادلان ابتسامات في استغراب. وكان رحمه الله يُكثر أن ينشد بيتين من الشعر :

المال يذهبُ حلُّه وحرامُه ... يومًا وتبقى في غدٍ آثامه

ليس التقي بمتقٍ لإلهه ... حتى يُطيبَ شرابه وطَعامه

وتوفي رحمه الله بالمدينة المنورة سنة مائتين وثلاث وثلاثين للهجرة وجاء في أمر وفاته رحمه الله أنه خرج حاجًا ومعه بعضُ أصحابه فلما وصل إلى المدينة المنوَّرة مرض فجأةً واشتدَّ عليه المرض وخشي أصحابه أن يؤخرهم مرضه عن الحج لكنه رحمه الله لم يمرض سوى ليلة واحدة أصبح في صباحها وقد فارق الحياة فلما سمع أهل المدينة بموته اجتمع خلقٌ كثير فقال بنو هاشم نخرج له الأعواد التي غسِّل عليها

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوها له وغسّلوه عليها وحمل على أعواد النبي صلى الله عليه وسلم ورجل ينادي بين يديه : هذا الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان رحمه الله من أعظم علماء عصره بركة لأنه ترك قدراً مباركًا من الحديث مكتوبًا بخط يده فاستفاد منه خلق كثيرون. وكان ربما استقل ببعض الفتاوي عن علماء عصره فقد أفتى أنه يجوز أن تخرج زكاة الفطر من الفضة. وسئل عن الرجل يصلي خلف الصفوف وحده فقال : يعيد صلاته. وسئل في إمام صلى بقوم على غير وضوء فقال: يعيد هو ولا يعيدون. وأفتى أنه لا يجوز لرجل أن يهب ابنته بلا مهر. ورئي رحمه الله في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال : أدخلني ربي عليه في داره. رحم الله يحيي بن معين وجزاه عن خدمة الحديث الشريف خير الجزاء .



عليّ بنُ المديني

كان للإمام أحمد رحمه الله ثلاثة زملاء من كبار علماء الحديث ومن أفاضلهم. وقلما ذكر الإمام أحمد إلا ذكر معه علي بن المديني ويحيى بن معين وإسحق بن راهويه. وكان بين الأربعة رحمهم الله احترام متبادل فما سُئل أحد منهم عن آخر إلا أثنى وأطنب وذلك لأنهم لم يكونوا زملاء في الحديث فحسب وإنما كانوا زملاء في عبادة الله وطاعته. لقد كانوا رحمهم الله أولياء لله. وكانت أعمارهم متقاربةً جدًا إذ كان بين أكبرهم وهو يحيى بن معين وبين أصغرهم وهو الإمام أحمد ست سنوات أما ابن المديني وإسحق بن راهويه فكانا في سن واحدة يكبران الإمام أحمد بثلاث سنين.

وقد ينتقدني بعضُ أهل العلم في إشادتي بابن المديني رحمه الله لأنه حين تعرَّض للقتل في فتنة خلق القرآن طلب مقابلة المعتصم وتكلم كلامًا جامل فيه أحمد بن أبي دؤاد فنجا من التعذيب ولم يصمد كما صبر الإمام أحمد رحمه الله الذي تحمل السجن والأغلال والضرب حتى لقد ضُرِبَ ثلاثمائة سوط وانخلعت يده بعد أربعة سياط وهو ثابت كالجبل الشامخ يُسأل فيجيب : لا أقول إلا ما قال الله ورسوله. وسأعود إلى موقف علي بن المديني رحمه الله في وقت لاحق فأحكي قصة تلك المجاملة.

كان علي رحمه الله من أكابر علماء البصرة وينتمي إلى جده سعد المديني الذي كان مولى لبني سعد. وقد برع علي رحمه الله في الحديث وعلم الرجال حتى لقد ترك قرابة مائتي كتاب وعاش رحمه الله قرابة سبعين عامًا قضاها بين متعلم وعالم ومعلم وعرف له فضل حتى لقد كان الإمام أحمد لا يسميه إجلالاً له وإنما يكنيه فيقول حدَّثنا أبو الحسن وقال عنه شيخهُ سفيان بن عيينه تلومونني في حب تلميذي علي بن المديني. والله لقد كنت أتعلم منه أكثر مما يتعلم مني.

ورأى عليٌّ رحمه الله في المنام أن الثريَّا تدلت حتى أمسكها بيده فقال له معبرو الرؤيا تبلغ في العلم مالم يتيسَّر لسواك. وقال عنه النسائي: كأنَّ الله خلق عليًّا بن المديني ليصون الحديث من كلِّ علَّة. وقال البخاري رحمه الله ما استصغرت نفسي في مجلس عالم إلا عند علي بنَ المديني وكان إذا قدم بغداد تصدر الحلقة وحضر درسه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما من الأئمة وإذ تناظر طلاب العلم في أمر ترك الفصل إلى علي بن المديني.

وكان في البصرة يتحدَّث كثيراً عن مناقب علي بن أبي طالب وفي بغداد يكثر أن يشيد بفضائل عثمان بن عفَّان ليثق الكلُّ بكلامه ويحبُّوا الإمامين الجليلين إذ كان أهل بغداد فيهم غُلوٌّ في علي كما كان أهل البصرة يغالون في عثمان. وبلغ من إجلال زملائه له أن رآه بعض تلاميذه يومًا مستلقيًا والإمام أحمد عن يمينه ويحيى ابن معين عن شماله وهو يملى عليهما وهما يكتبان. وكان ربما رأته جاريته وهو يقوم في الليل فُجاءَةً فيكتب بضعَ دقائق ثم ينام خوفًا من أن ينسى الحكم الذي ذكره أو خطر بباله.

وكان رحمه الله كريمًا وربما تكدَّست عليه الديون لكرمه ولهذا كان ربما قبل هدايا الخلفاء ليؤدي ديونه وقد عاب عليه يومًا قومٌ أن يقبل هدايا الخلفاء فاعتذر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ويثيبُ عليها ولا يقبل الصَّدَقة.

وكان كثير الشفاعة للفقهاء كثير العطاء لهم وربما ضاقت بتلاميذه الأحوال

فأنجدهم بماله وشاركهم حياته ومن أجل ذلك كان يخالط المسئولين وذوي النفوذ من رجالات الدولة وذلك لتكون له دالةٌ تمكنه من الشفاعة الحسنة للناس . أما عن موقفه الذي عابه العلماء عليه في فتنة خلق القرآن فإلى القارىء تفصيله .

ثارت في أيام المأمون والمعتصم والواثق فتنة كلامية جدلية عقيمة حول سؤال سأله بعض المتنطعين المبتدعين : هل القرآن مخلوق أم هو قديم كقدم الله؟ وقد تمكَّن الأدعياء بجدلهم أن يجعلوا مذهب الدولة (أنَّ القرآن مخلوق) واعتنق المذهبَ الخلفاء الثلاثة المذكورون آنفًا وتولى كِبْر الفتنة بعض المنحرفين من طلاب العلم وعلى رأسهم الوزير أحمد بن أبي دؤاد وبشر المريسي وعُذِّب في تلك الفتنة مئات من أكابر العلماء وكان من أشدهم بلاء الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله . وقد نجا الشافعي من تلك الفتنة بأعجوبة .

وفي أثناء تلك العماية استُدعيَ عليٌّ بن المديني رحمه الله وغفر له فاستقبله جلاوزة المعتزلة وناقشوه مناقشة تمهيدية فوجدوا منه تمسُّكًا فأودعوه السجن وحبسوه في غرفة مظلمة ووضعوا في رجليه قيدًا أثقل من ثمانية أمناء (جمع منٍّ والمنُّ أكثر من خمسة عشر كيلو جرام) فمكث في السجن ثمانية أشهر خاف خلالها أن يفقد بصره لأنه نحُلَ من ثقل الحديد ومن عدم رؤيته للنور ومن رداءة التغذية . فطلب مقابلة المعتصم فأخرج من السجن وكان من حُسْن حظه أن سأله أحمد بن أبي دؤاد عن إسناد حديث فأفتاه في إسناده وإذا ذلك الحديث بالنسبة لابن أبي دؤاد كان قضية مهمة جدًا . فقال ابن أبي دؤاد لابن المديني عندئذ إلزمنا لنستفتيك في بعض الأسانيد والأحاديث وبعد أيام سألوه عن ديونه وإذاً هي مبالغ ضخمة فسدَّدها الخليفة المعتصم وكان راتبه مقطوعًا منذ سنتين فردّوه عليه وكان يصلي مع الخليفة ويدرس بين يديه ولا يتعرض إلى خلق القرآن وكتب الله على يديه شفاعات لعدد من العلماء والمظلومين لكنَّ الناس عرفوا عنه أنه لازم الخليفة المعتصم وأحمد ابن أبي دؤاد وروي عنه أنه كان يبعث إلى العلماء الذي سيُطلبون أن يختفوا ويقول

لهم إن كتاب الله قديم غير مخلوق وإن المعتزلة ليسوا على شيء وعلى الجملة فقد أكره الأستاذ ابن المديني على ملازمة البلاط وقلبه مطمئن بالإيمان نسأل الله أن يسامحه ويتوب علينا وعليه .

وقد لام بعض الناس الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في شدة إجلاله لعلي بن المديني ورووا له أن بعض الشعراء هجوه وكان من بينهم القائل

يابن المديني الذي شرعت له	دُنيا فجاد بدينه لينالها
ماذا دعاك إلى اعتقاد مقالة	قد كان عندك كافراً من قالها
أمرٌ بدا لك رشدُه فقبلته	أم زهرة الدنيا أردت نوالها
فلقد عهدتك لا أبالك مَرَّةً	صعب المقادة للتي تُدعى لها
إن الخُوَيْسرَ من يصاب بدينه	لا من يرزأ ناقةً وفصالها

فقال الإمام أحمد لقد هُجي خيارُ الناس فما هدم الهجاء حقًا ولابنى باطلاً وقد قام عليٌّ في مواقف يرجى له فيها ثواب الله والشاعر الذي قال هذه الأبيات لم ير بريق السيف فوق رأسه . لقد كان الإمام أحمد إذا ذكرت له غلطة علي بن المديني يعذرُه ويقول فيه خيراً .

فعسى أن يسامح الله عليًا ويجعله من الذين قال فيهم : ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ .



آل قلاوون الناصر محمد والأشرف خليل

مدينة عكا على السَّاحل الشمالي لفلسطين كانت معقل الصليبيين العاتي وحصنهم الحصين. لأنها كانت محاطة بسور هائل يسدُّ شمالها وشرقها حتى يلتقي جنوبًا بماء البحر ولأن السفن الصليبية كانت ترسو في مينائها وخليجها حاملة المؤن والأسلحة للجنود الصليبيين على السَّاحل وفي القدس وفي الرُّها وأخيرًا لأنها تتوسط السَّاحل الشرقي للبحر المتوسط وتتحكم في ذلك السَّاحل من أقصاه إلى أقصاه. ولم يستطع صلاح الدين رحمه الله طرد الصليبيين منها بعد معركة حطين وهُزِم فيها جيش المسلمين وكانت مذبحةٌ وحشية مروعة وبذلك قاسى المسلمون في عكا مذبحتين: الأولى في مطلع الحروب الصليبية والثانية بعدها بحوالي تسعين سنة في عهد صلاح الدين.

ودار الزمن بعد صلاح الدين دورته واختلط المسلمون بالصليبين يتعاهدون ويتاجرون ويختلطون مؤاكلة ومشاربه حتى كانت في عكا سوق يلتقي فيها تجار المسلمين وتجار الصليبيين وتمشي السفن من أوروبا إلى عكا حاملة بضائع أوروبا إلى الشرق وراجعة إلى أوروبا ببضائع الشرق وامتد الزمن على هذه الطريق مائة سنة بعد صلاح الدين كان الصليبيون فيها يسيطرون على القلاع الساحلية ومنها عكَّا وطرابلس وبيروت وصور وصيدا وقلعة الروم غربيَّ الفرات لكن الصليبيين ظلُّوا

يضمرون الغدر ويتطلعون إلى احتلال القدس والتوسع في السَّاحل الفلسطيني ويجمعون الأموال لذلك ويهاجمون مصر وحسبك برهانًا لذلك حملة لويس التاسع التي انتهت بهزيمته وأسره وسجنه في دار ابن لقمان في المنصورة فلما رأى سلاطين المماليك بمصر سوء نوايا الصليبيين واتصالهم المريب بأوروبا ظَلُّوا على حذر وإعداد. وكان الصليبيون ماهرين في النفاق والخديعة. كانوا يفرقون بين أمراء المناطق ويهدون لهذا ويعاهدون هذا ويقاتلون هذا وكانوا يتذللون ويخضعون إذا رأوا أنياب القوة ثم ركنوا إلى أنهم لن يخرجوا من عكا لقربهم من المدد الأوروبي فتصارعوا في عكا على النفوذ وكان أهل جنوا وأهل البندقية وأهل بيزا في صراع بينهم لا ينقطع. لكنهم كانوا يتحدون ضد المسلمين.

وفي غمرة تلك الانقسامات تولى حكم مصر أحد السلاطين من المماليك الجراكسة وهو السلطان الناصر محمد بن قلاون رحمه الله وكان رحمه الله من عظماء السَّلاطين واشتهر من أبنائه مساعده الذي خلفه وهو السلطان خليل بن محمد بن قلاون وقد كتب الله على يد هذين العظيمين نهاية الصليبيين في الشرق ومحو خرافة الحروب الصليبية إلى الأبد إن شاء الله. كان الصليبيون في أثناء ذلك أخلاطًا مختلطة ومعظمهم من الفاسدين وكان بينهم وبين السلطان الناصر محمد بن قلاون هدنه ولكنَّ قدوم عدد من الإيطاليين إلى السَّاحل واستهتارهم بالناس أشاع الفوضى فاغتر الإيطاليون واعتدوا على التجار المسلمين في منطقة عكا فأقسم السُّلطان رحمه الله أن يفتح عكا إذ لم يبق غيرُها ملجأ للصليبيين واجتمع سُكان عكَّا من الصليبيين وتشاوروا وخرجوا من مشاورتهم أنَّ السلطان الناصر قلاون لا يمكن أن يهاجم عكا لأنها سوق عظيمة يستفيد منها المسلمون والنصارى وأرسلوا إلى السلطان من يسترضيه لكنه ردهم خزايا وسار بجيشه من القاهرة نحو عكا ولكنه رحمه الله مرض مرضًا مفاجئًا توفي على أثره وتولى مكانه في الحال ابنه السلطان خليل بن قلاون رحمه الله. فأرسل إليه الصليبيون وفدًا ليهنئوه بالخلافة

ويطلبوا منه تجديد الهدنة لكنه قابلهم بغضب وأدخلهم السجن حتى ماتوا فيه وسار إلى دِمشق حيث جمع الرجال وأدوات الحصار التي بلغت مائة منجنيق ومائة وستين ألف جندي ثم انطلق نحو عكًا بعد أن مضى على بداية الحروب الصليبية مائتا عام لكن الصليبيين الآن معنوياتهم منهارة وناصرهم قليل ومع أنهم استنجدوا بأوروبا الحاقدة فإنه لم يصل إليهم سوى خمس وعشرين سفينة وثلاثة آلاف قطعة ذهبية من البابا وهذا كله شيء زهيد ولهذا انهارت معنوية الصليبيين في عكا وفي أثناء ذلك داهمهم جيش المسلمين بقيادة سلطانه المجاهد المحتسب رحمه الله ورحم أباه فحاصر عكًا آخر قلاع الصليبيين في بلاد الشام فاجتمع شتات الصليبيين حول ملكهم املريك وكانوا من أهل جنوا والبندقية وبيزا والفرسان التيوتون والاسبتارية والداوية ونُصبت خيمة السلطان بالقرب من الشاطىء وأعملت المنجنيقات واستمر الحصار ثمانية عشر يومًا طاحت في خلالها الأسوار وتمزق شمل الكفار وتدفقت العساكر المسلمة داخل عكا فقتل كثيرون وأسر قلائل وهرب الصليبيون كأنهم أشتات عصابة من اللصوص لم تَرُدّ وجوههم إلاَّ قبرص ثم أكملوا رحلتهم إلى مُدن إيطاليا وهم يحدثون قومهم عن المسلمين والمنصور بن قلاون والمنجنيقات والهزيمة السَّاحقة وسجل تاريخ المسلمين الخالد أن الإسلام حين يجتمع أبناؤه تحت لواء التوحيد لا يقهر. وترتب على سقوط عكا أن استسلمت كل موانىء الساحل ثم لم تقم للصليبيين بعدها قائمة. وكان للصليبيين قلعة بالداخل محصنة يسمونها قلعة الروم فخشي السلطان خليل أن يتخذها الصليبيون مرتكزًا لعودتهم فحاصرها ثلاثين يومًا فانهارت وسماها قلعة المسلمين ودخل دمشق وسط أفراح المسلمين وزيناتهم ثم توجه إلى القاهرة -قهر الله أعداءها الكافرين- فابتهج بوصوله المسلمون وأقاموا الأفراح لأن عكا كانت كالشجا في حلوق المسلمين وكانت تخزن الحقد للمؤمنين منذ مذبحة القدس، وكانت كإسرائيل في وسط العرب تتهددهم وتدَّعي أنها على البحر لا تقهر وكان بها من الأرمن جماعات تقطر حقدًا وكان

متعصبوا العصابات الدينية كالاسبتارية والداوية يتفجرون غيظًا على المسلمين فلما رأوا اجتماع الصف الإسلامي أيقنوا بالفناء واجتاحهم البلاء وأخذت أوروبا درسًا أن المسلمين إذا اتحدوا لا يقهرون فغيَّروا سياسة القتل والتخريب واستبدلوا بها سياسة الغزو الفكري وتفريق شمل الدين والاستكثار من العملاء وإخالهم وصلوا إلى شيء مما يطلبون لكنهم إن شاء الله إلى فشل ودمار. وقد تسابق الشعراء إلى وصف معركة عكا وانتصار المسلمين بها فقال الشيخ الشاعر شهاب الدين محمود في ذلك الفتح :

الحمد لله زالت دولة الصُّلُب ... وعزَّ بالتُّرك دين المصطفى العربي
ما بعد عكا وقد هُدَّت قواعدها ... في البحر للترك عند البرِّ من أربِ
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت ... سوى الهزيمة والخذلان والهربِ
يايومَ عكا لقد أنسيت ما سبقت ... من الفتوح وما قد خُط في الكتب
فتح أجلُّ من الوصف الجليل فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والأدب
تميز الكفر من فرساننا غضبًا ... لله أي رضىً في ذلك الغضب
واستبشر المصطفى الهادي البشير على ... ما أسلف الأشرف السلطان من قُربِ
فقر عينا لهذا الفتح وابتهجت ... وازدانت الكعبة الغراءُ في الحجبِ
في البر والبحر صار الشأن مختلفًا ... فالبر في طرب والبحر في حَرَبِ

وإذا كان اليهود قد وضعوا أنفسهم في إعصار الدمار فإن مصيرهم لن يختلف عن سائل الكفَّار لأن للقدس قصة عرفت عبر التاريخ خلاصتها أن الكفر دوامًا لا يجتمع فيها إلا ليدمر ويزول .



سعيد بن جبير

العالم الشهيد الذي صدَع بالحقِّ عند سلطان جائر فنال منازل الشهداء لدى الرفيق الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُنَ أولئك رفيقا . إمام علماء الكوفة كان رحمه الله حافظًا مجوّدًا لكتاب الله وقافًا عند معانيه وحدوده روى عنه أنه دخل الكعبة فانتهز الفرصة وقرأ القرآن في ركعة وكان يختم القرآن في ليلتين وكان كثيراً ما يدعو فيقول اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك .

وقد اختفى سعيد بن جبير من بطش الحجاج بعد ثورة القُرَّاء وألقى الحجاج القبض على كثير منهم وقال لهم الحجاج من أقرَّ على نفسه بالكفر عفوت عنه ومن أصرَّ قتلته وقد اعتذر كثيرٌ من العلماء عن خروجه على الدولة فقبل الحجاج عذره ومن بينهم عامر الشعبي رحمه الله وغيره . أما سعيد بن جبير رحمه الله فقبض عليه وجيء به الحجاج بعد اختفاء وهرب استمر أكثر من خمس عشرة سنة فلم يقر سعيد على نفسه بالكفر ولم يلن في كلامه للحجاج فأمر بقتله فذبح رحمه الله على النطع وفصل رأسه وهو يقول لا إله إلا الله يكررها الرأس مفصولاً عن الجسد وكان عمره عند مقتله سبعًا وخمسين سنة . ويروي المؤرخون أن الحجاج ما رأى خيراً بعد قتل سعيد رحمه الله وأصيب بحالة نفسية واكتئاب فمات بعد مقتل سعيد بأسبوعين بعد

أن أصابه تمزقٌ في أحشائه وظلَّ سعيد بن جبير مثلاً للثبات على الحقّ والشجاعة الأدبيَّة تحتذيه الأجيال من العلماء إلى يوم القيامة .

وكان سعيد رحمه الله محدثًا مؤثِّرًا في النفوس يُبكي السَّامعين إن شاء ويُضحكهم إذا أراد وكان يقول لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيتُ أن يَفْسَدَ عليَّ ومن جلالة قدره أن ابن عباس رضي الله عنه دعاه أن يحدِّث وهو بحضرته فقال رحمه الله أحَدث وأنت هنا؟ فقال له ابن عباس أليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد؟ فإن أصبت فذاك وإن أخطأت علمناك. وكان ابن عباس رضي الله عنه بعدما عمي إذا أتاه من يستفتيه من أهل الكوفة يقول له تسألونني وفيكم سعيد بن جبير. وسأل رجل ابن عمر سؤالاً في الفرائض فقال له : ائت سعيد بن جبير فإنه يفرض فيها مثل ما أفرض ولكنه أعلم بالحساب مني. ولما ألقى خالدٌ القسري القبض على سعيد بن جبير استأذن سعيد في الطواف فأذن له أن يطوف وهو مقيِّد ولما شرع في الطواف سمع خالد صليل الحديد في رجليه فقال اقطعوا عليه الطواف. ولما جيء بسعيد إلى الحجاج رآه بعض تلاميذه في القيد فبكى فقال له سعيد كيف تبكي وأنت تعلم أن هذا الأمر مكتوب في علم الله؟ ثم تلا قوله تعالى من سورة الحديد ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ وكان سعيد يسأل الله الشهادة ويدعو بها وهو في جنح الليل ساعة حلاوة الدعاء والتجلي فيه وهذا يفسر لنا شجاعة سعيد بين يدي الحجاج وعدم مجاملته له ولو بكلمة واحدة • ولما قتله الحجاج تدفق منه دم كثير جدًا حتى روّع الحجاج فدعا طبيباً وقال له : ما بال دم هذا كثيراً فقال الطبيب إن أمَّنتني أخبرتك فأمّنه فقال هذا رجل قتل وهو غير خائف فظلت دورة الدم فيه قوية ولو اشتد خوفه لوقف دمه في جسده • وكان لا يروي الحديث في كلِّ وقت ولكلِّ إنسان ولا يرويه إلا إذا رأى المقام مناسباً سأله رجلٌ عن حديث فصرف سعيد الكلام وقال له : كم أسعار الحنطة في هذه الأيام؟

وإتماماً للفائدة أثبت هنا الحوار الذي دار بين سعيد بن جبير وبين الحجاج في لحظات قتله لتكون فيه عبرة لكل داعية إلى الخير .

طلب الحجاج أن يدخل عليه سعيد بن جبير فأحضره سجانه وهمس في أذنه قبل دخوله على الحجاج وقال له أستودعك الله وبكى عدد ممَّن كانوا يشرفون عليه في السجن وذلك لما رأوا وسمعوا من أدبه ويقينه وكلامه الثابت . قال له الحجاج ما اسمك فقال سعيد بن جبير فقال له الحجاج بل أنت شقي بن كُسير فقال سعيد بل أمي كانت أعلم باسمي منك قال الحجاج شقيت أنت وشقيت أمُّك فقال سعيد الغيب يعلمه غيرك . قال الحجاج لأبدّلنك بدنياك ناراً تلظى فقال سعيد لو علمت أنَّ ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا . قال فماذا تقول في محمد صلى الله عليه وسلم قال : نبي الرحمة وإمامُ الهُدَى . قال الحجاج : فما قولك في عليّ في الجنة هو أم في النار قال الإمام سعيد : لو كنت دخلتها فرأيت أهلها عرفت . قال الحجاج : أي الخلفاء أعجبهم إليك؟ قال أرضاهم لله . ثم أراه الحجاج سفطًا كبيراً فيه لآلىء ويواقيت وحجارة كريمة وقال : ما تقول في هذا فقال سعيد إن كنتَ جمعته لتنفقه في سبيل الله وتفتدي نفسك من العذاب فهذا عمل صالح وإلا ففزعة واحدة تذهل كلَّ مرضعة عما أرضعت وكلُّ ما جمع للدنيا فهو إلى زوال . ثم قال الحجاج الويل لك ياسعيد : فقال الإمام : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار . قال الحجاج : اختر لنفسك ياسعيد قتله . فقال الإمام بل اختر أنت لنفسك ياحجاج فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلتُك مثلها في الآخرة ثم قال الحجاج خذوه فاقتلوه فابتسم سعيد فقال له الحجاج : ما يضحكك فقال عجبت من جرأتك على الله ومن حلمه عنك . ولما توجه سعيد إلى النطع ليقتل قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله خذها مني ياحجاج حتى أحاجَّك بها يوم تلقاني في القيامة ودعا قائلاً اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي . وقتل سعيد رحمه الله شهيداً يضيء طريق الثبات لركب الدعاة ويعلم الدنيا كيف تنال الشهادة في كلمة حق عند سلطان جائر .



إبراهيم النخعي

هذا العالم كان عالم العراق وكان مفتي الكوفة وقاضيها يشاركه في الإفتاء والقضاء عامر بن شراحيل الشعبي. يعود نسبه إلى قبيلة يمانية أصيلة هي قبيلة النخع وخاله هو الأسود بن يزيد الصحابي الجليل رضي الله عنه. أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يدخل على أمَّنا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وهو صبي ولكنه لم يرو عنها لصغر سنه. وصفه بعض معاصريه رحمه الله أنه كان إمامًا صالحًا فقيهًا بصيراً بحديث ابن مسعود وأنه كان عظيم الشأن كثير المحاسن متعمقًا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقد سماه الأعمش (صيرفي الحديث) أي أنه ينقده كما ينقد الصيرفي الذهب.

وكان رحمه الله لا يكتب الحديث ولكن يحفظه حفظًا ويمليه إملاءً وكان يقول: ما كتب إنسان كتابًا إلا اتكل عليه يعني بذلك أن العالم إذا نشر له كتاب قلَّت همته في الوعظ متكلاً على أن الناس سوف يقرءون كتابه فيستغنون عن السماع بالقراءة.

وكان سعيد بن جبير رحمه الله على جلالة قدره وسعة علمه يقول لأهل الكوفة أتستفتونني وفيكم إبراهيم؟ وكان رحمه الله يجمع إلى العلم الواسع جَلَدًا على العبادة فكان له في جبهته غُرَّة من أثر السجود وحدثت عنه زوجته أنه أمضى عمره يصوم يومًا ويفطر يومًا.

كان إبراهيم حكوميًا يخالط السلطان وإذا أهدى إليه المسئولون هديَّة قبلها كما كان يفعل الشعبي وابن شهاب الزهري وكان يرى أن المال الصالح مبارك به تُقضى الحقوق وبه توصل الأرحام ويكرَمُ الضيوف ويُعان على صنَائع المعروف وقد وفد مرة على أمير حُلوان فأعطاه جائزة سنية برذونًا وأثوابًا وألفَ درهم فقبلها إبراهيم .

وكان له في صلاته خشوعٌ يظهر على وجهه حتى لربما صلى ثمَّ أتى أصحابه فيجلس بينهم وكأنه مريض يتألم . وكان يكره الحجاج منذ قتل سعيد بن جبير وقد اختبأ إبراهيم رحمه الله من الحجاج ولم يظهر إلا بعد موت الحجاج ولما جاءه أحد الفقهاء وبشَّره بموت الحجاج سجد شكراً لله وبكى من الفرح . وكان الناظر إلى وجه إبراهيم يرى له إشراقة قد كتب الله له رؤية عدد كبير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كعمه علقمة بن قيس وخاله الأسود بن يزيد وأم المؤمنين عائشة وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك وخاله عبد الرحمن رضي الله عنهم . قال إبراهيم أدخلني خالي الأسود بن يزيد على أم المؤمنين عائشة وأنا طفل عليَّ أوضاح (يعني حليا من الفضة) وكان لإبراهيم عدد كبير من التلاميذ المخلصين ولذا كان يقول له الشعبي أنا أفقه منك حيًا وأنت أفقه مني ميتًا- يشير بذلك أن علم إبراهيم سينشره تلاميذه في الأرض بعد موته .

وكان رحمه الله أمينًا على الحديث إذا روي له حديث لم يسعه رده حتى يحققه ويطمئن إلى تحقيقه . وعلى الرغم من سعة محصوله في العلم كان رحمه الله متواضعًا وكان كثيراً ما يقول متصاغراً (إنَّ زمانًا أكون فيه فقيهًا لهو زمان سوء) .

ولم يعمر إبراهيم رحمه الله طويلاً فقد مات وهو دون ستين عامًا وفي قول أنه عاش تسعًا وأربعين سنة لكنها سنوات حفلت بالهداية والدعوة ومجالس العلم والإفتاء والقضاء وبذلك كان عمر إبراهيم رحمه الله عمراً عريضًا وإن لم يكن عمراً طويلاً .

وكان رحمه الله في وَعظه يتبع أسلوبًا لينًا مقنعًا جاءته ذات يوم امرأة من بني

أسد كانت تقرأ القرآن يقال لها أم يعقوب فقالت له بلغني يا إبراهيم أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمِّصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. فقال لها لقد لعنت من لعنه الله ورسوله والمسألة مذكورة في كتاب الله. فقالت له: والله لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته. (تعني أنها لم تجد في القرآن الكريم ذكرًا للواشمة والنامصة) فقال لها إبراهيم رحمه الله والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه في قوله تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ والحقَّ أنَّ حديث لعن الواشمة والمستوشمة ذو إسناد مشرق إذ هو حديث متفق عليه.

وكان إبراهيم رحمه الله شديد الخوف لله جل جلاله سريع الدمعة وكان كريمًا كثير الزائرين وإذا طرق بابه إنسان لا يحب لقاءه قال للجارية قولي لهذا الطارق اطلبوه في المسجد. ولما حضرته الوفاة جزع جزعًا شديداً وبكى فقيل له هون عليك فقال وأي خطر هو أعظم مما أنا فيه إنني الآن انتظر رسولاً يأتيني من ربي إما بالجنة وإما بالنار والله لو ددت أن روحي تلجلج في حلقي إلى يوم القيامة.

وكان إبراهيم يروي أحاديث هادفة يرددها في الناس لتكون فيها موعظة وقدوة فمن تلك الأحاديث. كان رجلٌ على حال حسنة فأذنب ذنبًا فرفضه أصحابه ونبذوه. فبلغ إبراهيم ذلك فقال تداركوه وعظوه ولا تدعوه. وروى رحمه الله عن علقمه عن عبد الله بن مسعود قال: اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فأثر الحصير بجلده فجعلت أمسحه وأقول: بأبي أنت وأمي يارسول الله آلا أذنتنا فنبسط لك شيئًا تنام عليه. فقال صلى الله عليه وسلم: «مالي وللدنيا إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» ومن روايته قوله صلى الله عليه وسلم (ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللَّعان ولا الفاحش ولا البذيء» ومن الأحاديث التي كان يرددها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصَّدقة. وأعدُّوا للبلاء الدعاء» وكان يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى يومًا فوجد قَرًا (أي أحسّ ببرد) فقال لعائشة ألقى عليّ مِرطك

(يعني ثوبك) فقالت له : إني حائض. فقال : علةً وبخلاً؟ إن حيضتك ليست في ثوبك .

رحم الله إبراهيم النخعي إمامًا قدوة رسم للعلماء والدعاة طريق الكرم والزهد والإيثار .



سلمة بن دينار
(أبوحازم)

يعجبني في العالم صفة هي أعظم صفات العلماء وأقوى سياج حول أخلاقهم وهي أمنع سدّ يحجز العالم عن دروب الدنايا والصّغار إنها صفة تبعث في وجه العالم ألقًا ونورًا يظهران على الوجه والقلب واللسان هذه الصفة هي عفة النفس عن أطماع الدنيا وزهدها في الحطام الفاني وصون العلم عن أطماع الشهوات. إنها صفة تجعل العالم بطلاً من جنود الحق يهابه الخلائق -حتى السّلاطين- حين يرونه وقد هان في عينه الغنى والجاه والمنصب فتحوّل مجاهدًا ربانيًا لا يخشى في الحق لومة لائم. وهذا ما كان من شأن الإمام أبي حازم سلمة بن دينار المخزومي رحمه الله. ذلك الإمام المدنيُّ المحدّث الثقة. كان ذلك القاضي الجليل قميء المنظر تقتحمه العيون. فقد كان أعرج بين العَرَج وكان أحدب -له في ظهره عظمة بارزة- لكنه كان رحمه الله قويًا في دينه عظيمًا في نفسه رائعًا في حكمته يتدفق العلم من نواحيه وتتفجر البلاغة والحكمة من كلامه. كان رحمه الله من أهل الصدق والصلاح شهد له الإمام أحمد ويحى بن معين وأبو حاتم وابن خزيمة أنه كان ثقة. وكان يقول: اشتدت على الناس مئونة الدنيا والدين أما الدين فلا يعينك عليه أحد وأما الدُّنيا فلا تمد يدك إلى شيء منها إلا رأيت فاجرًا قد سبقك إليه. وكان عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يشيد بحكمة أبي حازم فيقول: ما رأيت أحدًا الحكمة أسهلُ على فمه من أبي

حازم. وما أجمل قوله الموجز المعجز : عند تصحيح الضمائر تهون الكبائر وتُغْفَر. وإذا عزم العبد على ترك الآثام فليبشر بفتوح العارفين. ومن حكمه التي يتجلى فيها الصدق والجمال قوله : ابتعد عن الرجل إذا رأيته لا يخاف الله بظهر الغيب، ولا يستحي من دروب العيب، ولا يصلح عمله عند الشيب. وكان يقول: كل نعمة لا تقربّك من ربك فهي بلية. ومن أقواله المفيدة قوله : إبليس عند المؤمن حقير الشأن لأن كثير من الناس أطاعوه فما نفعهم وكثيرون عصوه فما أضرَّ بهم. وكان يقول : إنَّ الرَّجل السيءَ الخلُق تشقى به نفسه التي بين جنبيه. ثم زوجته وولده، وكل من يطاعمه ويشاربه ويساكنه. وثمة كلمة قالها لوالي المدينة حين طلب منه موعظة موجزة فقال له : إذا قرَّبت أهل الخير ذهب من حولك أهل الشر وإذا قربت أهل الشر ذهب من حولك أهل الخير .

ووعظ يومًا أحد الأمراء فقال : إن خير الأمراء من يجعل أكبر همه العلماء، وإن شرَّ العلماء من يجعل أكبر همه الأمراء. ومن نصائحه قوله لبعض تلاميذه : إذا رأيت ربك يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره. ومن وصاياه في الصداقة : إذا أحببت أخًا في الله فلا تشاركه في مصالح الدنيا. ومن كلامه الطريف : إن المرء ليعمل الحسنةيفرح بها تكون عليه أشدَّ من السيئة. قالوا له وكيف ذلك؟ فقال : ربما عمل العبد الحسنة فيُسَرَّ بها سروراً يوصله إلى الغرور ثم تراه يتجبَّر بها ويرى أن له فضلاً بها على عباد الله فيحبطها الله ومعها حسنات أخرى. وإن العبد ليعمل السيئة تسوءُه حين يعملها فيستحي منها ويحتقر نفسه ويضاعف العمل الصالح فتكون له أفضل من حسنة .

وإلى القارىء هذا الحوار العجيب الذي دار بين أبي حازم وبين الخليفة سليمان بن عبد الملك وكان سليمان مخيفًا شديد البطش وهذا هو الحوار كما جاء في كتب السِّيَر : حج سليمان بن عبد الملك فعرَّج على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ليصلي في مسجده ويزور قبره الزكيّ وكان يصحب الخليفة عدد من العلماء والقرَّاء

والمحدثين والقادة وأمراء بني أميَّة. فقال سليمان ذات ليلة : إن القلوب لتصدأ كما تصدأ المعادن، ولا يصقلها ويجلوها إلاّ الذكرى التي ينتفع بها المؤمنون. التمسوا لنا من علماء المدينة عالمًا يذكرنا. فقالوا له : نأتيك بأبي حازم قاضي المدينة. الذي شاهد بعض الصحابة وروى عن سهل بن سعد السَّاعدي وأم الدَّرداء. فقال سليمان ادعوه ولا تُروّعوه وتلطفوا في دَعوته. فلما حضر أبو حازم أدناه سليمان ورحب به وقال له : إني قد دعوتك لأعرض عليك أموراً في نفسي أرجو لها عندك إجابات صحيحةً مريحة. ثم وجه الخليفة لأبي حازم أسئلة تتطلب الصراحة والصدق.

قال سليمان : يا أبا حازم مالنا نكره الموت؟

قال أبو حازم : لأننا عمرنا دنيانا وخرَّبنا ديننا وآخرتنا. فنكره الخروج من العمران إلى الخراب .

قال سليمان : فما لنا عند الله غداً؟

قال أبو حازم : أعد لنا ما ذكره في سورة الانفطار ﴿إنَّ الأبرار لفي نعيم . وإنَّ الفجّار لفي جحيم﴾ .

قال الخليفة : فأين إذن رحمة الله .

فقال أبو حازم : ﴿إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين﴾ .

قال الخليفة : فكيف يكون قدومنا على الله؟

فقال أبو حازم : أما المحسن فكالغائب العزيز يعود إلى أهله. وأما المسيء فكالعبد الآبق يُساق إلى مولاه سوقًا

قال سليمان : بمَ يصلح السُّلطان يا أبا حازم؟

قال أبو حازم : بترك الصَّلَف وبالتحلي بالمروءة.

قال هشام : وهذا المال كيف نتقي الله فيه ؟

قال أبو حازم : خذوه بحقه، وضعوه في أهله. واقسموه بالسوية واعدلوا فيه بين الرعية .

قال الخليفة : فمن أفضل الناس؟ وما أفضل الكلام؟

فقال أبو حازم : أفضل الناس من يجمع التقوى والمروءة. وأفضل الكلام كلمة حقٍّ في موقف عصيب .

قال الخليفة : هل لك أن تصحبنا فنفيد منك وتفيد منا؟

قال أبو حازم : أخاف.

قال الخليفة : ارفع إلينا حوائجك

فقال أبو حازم : لي حاجة واحدة. أن تبعدني عن النار وتدخلني الجنة .

قال سليمان : ليس هذا إلي .

فقال أبو حازم : مالي حاجة غيرها.

قال سليمان : ادعُ الله لي يا أبا حازم .

فقال أبو حازم : اللهم اهد سليمان إلى ما فيه خير المسلمين .

وهنا ناول سليمان الشيخ صُرَّة من الذَّهب فردها الشيخ وهو يقول : إن كانت هذه مقابل علمي فهي أشد حرمة من الميتة والخنزير. وإن كانت حقًا لي من بيت المال، فهل سوَّيت بيني وبين الناس؟

وقد توجه أبو حازم رحمه الله إلى الجهاد والمرابطة ولكنه مات على فراشه قبل أن يصل وكان آخر ما قال ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًّا﴾ ولم يزل يكررها حتى فاضت روحه .

وكان أبو حازم رحمه الله ربما يتكلم كلامه العابر فيخرج حكمًا رائعة كما يتألق الدرُّ في أعماق البحار فقد كان رحمه الله يمرُّ على الفاكهة في السوق فيشتهيها فيقول لها : موعدنا الجنة إن شاء الله. وكتب إلى الزهري كتابًا لما رآه يبذل من عطايا الأمراء فشاع له ذكرٌ في الناس وسمعه. كتب إليه أبو حازم كتابًا طويلاً يتدفقُ أدبًا وبلاغة وقد جاء فيه : عافانا الله وإياك يا أبا بكر من الفتن ورحمك من النار. لقد

أصبحت شيخًا كبيرًا قد أثقلتك نعم الله عليك بما أصحَّ من بدنك، وأطال من عمرك. تقول إنك ماهر في الجدل وأنك ماجادلت الناس إلا جدلتهم. فأين تذهب عن قوله تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ إنك لست في دار مُقام وقد أوذنتَ بالرحيل. ما بقاء المرء وقد ذهبت أقرانه طوبى لمن كان من الدنيا على وجل. ويابؤس من يموت وتبقى آثامه.

تذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا وإذا شهدوا لم يُعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى. يخرجون من كل فتنة سوداء» فهؤلاء أولياء الله الذين قال فيهم ﴿أولئك حزبُ الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾) هلا إذ عرضت لك فتنة الدنيا ذكرت أمير المؤمنين عمر حين كتب إلى سعد: أعرض عن زهرة الدنيا حتى تلقى الماضين الذين دفنوا في أسمالهم، لاصقة بطونهم بظهورهم، ليس بينهم وبين الله حجاب. رغبوا فطلبوا فما لبثوا أن لحقوا.

رحم الله أبا حازم إمامًا صادق القلب صادق اللسان خرج من الدنيا وقد نجا من إغراء زينتها واختار طريق المصطفّين الأخيار.



الأعمش سليمان بن مهران رحمه الله

قال عنه الحافظ الذهبي هو شيخ الإسلام وشيخ المقرئين وشيخ المحدثين وقال عنه أبو نعيم في الحلية الإمام المقرىء والراوي المفتي كثير العمل قصير الأمل كان مع ربه راهبًا ناسكًا ومع عباده مبتسمًا ضاحكًا .

كان رحمه الله من موالي قبيلة أسد نشأ بالكوفة وأصله رازي وروى عنه كثيرون جدًا لأنه كان من أحفظ الحفاظ في عصره ويبدو أنه كان رحمه الله خفيف الظل عذب الروح مرحًا وكان سريع البديهة حاضر الجواب . وكان يضنّ بعلمه ولا يحدث إلا بقدر وإذا لم يجد فرصَ التلقي مهيأة لا يحدث ومع أنه كان أعمش يعني شبه أعمى فقد بلغ بعلمه وحفظه في الناس منزلة عالية وكان الناس يتزاحمون على بابه وربما ازدحموا وتكاثروا فتراه يلقاهم أحيانًا بتوتر وضيق . وكان يتشدّد مع طُلاَّب الحديث ولكنه كان يلين مع طلاب الفتيا ولعل تشدّده مع طلاَّب الحديث كان خَوْفًا أن يحرف بعضهم ما يرويه عنه أو أن يلقوا الحديث إلى من لا يقدرونه من العامة . وبلغ من فضله أن قال له شيخ القرّاء مجاهد : لو كنت أطيق المشي لأتيتك بدلاً من أن تأتي إليّ .

وكان الناس يدعونه سيد المحدّثين وقد قال عنه الإمام أحمد : الأعمش وأبو إسحق إماما الكوفة وقال عنه يحيى بن معين : إمامٌ ثقة واتهمه البعض أنه مدلس

وهي تهمة اتهم بها من قبله الحسن البصري والحق أن كلمة مدلّس في مصطلح الحديث لا تعني ذلك المعني الصَّارم وقد أطلقت على بعض الفضلاء من المعلمين الفضلاء وكان في مجلس علمه ربما قدَّم الفقراء على الأغنياء حتى لقد قال عنه عيسى بن يونس ما رأيت الأغنياء عند أحد أهون منهم عند الأعمش مع فقره واحتياجه. وكان عزيز النفس قنوعًا وقد فرض له رزق من بيت المال خمسة دنانير في الشهر. وكان الناس يحبونه لظرفه وخفة روحه جاءه مرَّة وكيع ابن الجراح وقال له: علمني بعض الحديث فقال له الأعمش أبوك مسئول في بيت المال أحضر لي منه عطائي (يعني راتبي) وأحدثك بخمسة أحاديث فقط.

وقيل له يومًا لو تموت لعرف الناس فضلك فقال: كم من جرَّة عتيقة أصفهانية انكسر على رأسها كيزان كثيرة. وأرسل إليه مرَّة أمير الكوفة ألف درهم وصحيفة ليكتب عليها أحاديث فرد الدراهم وكتب في الصحيفة سورة الإخلاص فبعث إليه الأمير تظن أني لا أقرأ كتاب الله؟ فرد عليه الأعمش وأنت تظنُّ أني أبيع الحديث كبيع السلعة وداهمه ذات يوم ضيوف فقدم إليهم كل ما عنده من الطعام فأكلوه ولم يشبعوا ثم قدم إليهم حزمة برسيم وقال لهم أكلتم طعامنا وهذا قوت عنزاتنا. وقدم إلى مجلسه مرة رجل في غاية الوجاهة والوسامة فطفق يسأله اسئلة تافهة فقال انظروا إلى هذا. لحيته تحتمل أربعة الآف حديث ومسائله مسائل صبي في الكُتَّاب. ورآه بعض تلاميذه يلبس فروة فقال له يا أبا محمد لو لبستها وصوفها إلى داخل لكان ذلك أدفأ لك فقال له ولماذا لم تُسْد هذه النصيحة إلى الخروف الذي صُنعت الفروة من جلده. وقرأ عليه رجلٌ من تلاميذه رُبعًا من القرآن ثم سأله كيف ترى قراءتي يا أبا محمد فقال له ما رأيت علجًا أعجميًا يقرأ أحسن منك. وجاء إليه أحد طُلاَّب الحديث فكشر في وجهه فقال له الطالب يقول طلابك إنك دائمًا مقطب سريع الملال تستخف بحق الزائرين. ومع كل كزازته وخشونته فقد كان من كبار النسَّاك حريصًا على الصف الأول وكان علاَّمة الإسلام على دُعابة كانت فيه وكان

إذا روى لطالب ثلاثة أحاديث يقول له . قم قبل أن يجرفك السَّيل . والحقُّ أن الأعمش كان قارئًا حافظًا للسُّنة والفرائض وكان الناس تحلو لهم فتاواه بسبب ما يُضفي على الفتوى من روحه الظريف قال له يومًا أحد المعجبين به ما أشد إعجابي بقراءتك فقال الأعمش الحمد لله لولا القرآن وهذا العلم الذي أكرمني الله به لكنت أحسنَ بقال في الكوفة . وكان إذا رأى محدِّثًا يروي أحاديث عالية المفاهيم همس في أذنه لا تنثر الدُّر تحت أظلاف الخنازير وكان لا يحبُّ من الأسانيد إلا أسناها وأسماها سمع رجلاً يروي حديثًا في سنده أحد الخوارج فقال له تريد أن تكنس الطريق بثوبك فلا تمر ببعرة ولا خنفس إلا حملتها في جنبيك . وحدَّث يومًا أن رجلاً جاءه فقال له يا أبا محمد : إني لم أمرضّ وأشتهي أن أمرض فقال له اقعد في الشمس واستمرض الله يمرضك . وقرىء عليه حديث (إذا نام الرَّجل حتى يصبح ولم يصلِّ بال الشيطان في أذنيه) فقال رحمه الله أخشى أن عينيَّ قد عمشتا من بول الشيطان . قالها رحمه الله مع أنه كان من أهل التهجد الطويل وما علم أنه فاتته الجماعة . وكان الأعمش إذا عرض القرآن أمسك الناس مصاحفهم فيمضي في القراءة لا يخطىء في حرف واحد . وكان تلاميذ الأعمش ربما تآمروا عليه فأخذه بعضهم إلى مكان ثم مشى به بعيدًا فيضل الأعمش في المكان ولا يستطيع العودة فيقول له التلميذ لا أعيدك إلا أن تملأ ألواحي حديثًا فيملي عليه مرغمًا .

وسأله مرَّة أحد تلاميذه ياسيدي ما يمنعك من تقصير شعرك؟ فقال الأعمش كثرة كلام الحلاقين وفضولهم فقلت له أنا آتيك بحلاق لا يروي الحديث أبدًا وأحضر له حلاقًا فحلق له نصف شعره ثم سأله يا أبا محمد كيف حديث حبيب بن أبي ثابت في المستحاضة فصاح الأعمش صيحة وقام يعدو بنصف شعره وظل النصف الآخر من شعره غير مجزوز لشهر آخر .

ولقد عُمّر الأعمش طويلاً فمات وهو في الثامنة والثمانين في أوائل دولة بني العباس . وكان رحمه الله يسرُّ الناس وهو كبير ويحدث الناس عن قصص كانت

تحدث له وهو شاب قال يومًا لأصحابه اعترضني جندي عن نهر فأمرني أن أحمله على كتفي في الماء سُخرة فلمَّا ركب على كتفي قال ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ قال الأعمش فألقيت نفسي في النهر وأنا أقول: ﴿رب أنزلني مُنزلاً مباركًا وأنت خير المنزلين﴾ فسقط الجندي بملابسه في الماء ووليت هاربًا. على أن أبا محمد الأعمش رحمه الله كان لحلقة درسه بشاشة يعرفها العلماء الكبار وحسبك أن ممن رووا عنه رحمه الله أبا حنيفة والأوزاعي وحفصًا بن غياث ووكيعًا وسفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك رحم الله أبا محمد الأعمش إمامًا يُجمّل العلم بروحه العذب وخُلقه الكريم ويملأ المجلس علمًا وأدبًا وسرورًا.



عمرو بن عبد الله السبيعي

أبو إسحق عمرو بن عبد الله السَّبيعي الهمذاني الإمام المحدث الحافظ شيخ الكوفة وعالمها. كان من أجلاَّء التابعين ومن العلماء العاملين. ولد قبل مقتل عثمان بثلاث سنوات وروى عن عدد من الصحابة الأجلاء منهم معاوية وعدي بن حاتم وابن عباس والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو جحيفة ورأي أسامة بن زيد والنعمان بن بشير وجرير بن عبد الله ورافع بن خديج وسراقة بن مالك وغيرهم.

وقرأ على الأسود بن يزيد وقد وصفه الحافظ الذهبي بأنه كان كبير القَدْر طلاَّبةً للعلم. وممن حدث عنه محمد بن سيرين والزهري وقتادة والأعمش. وكان ثقة حجةً بلا نزاع. وكان رحمه الله يغزو ويرابط في سبيل الله وما أجمل العالم حين يمزج العلم بالجهاد. وكان عطاؤه أول الأمر ثلثمائة درهم كانت كافية له مع ما كان يحصُل عليه من الغنائم وقد نما عطاؤه مع المرابطة فبلغ ألف درهم. وقد أدرك عليًا بن أبي طالب وقال: قال لي أبي قم وانظر إلى عليّ أمير المؤمنين فرأيته على المنبر شيخًا أبيض الرأس واللحية ربعة وقد بلغ من شدة قيامه للعبادة أن أصابه في رجليه ما يشبه الفالج فكان لا يقوم في الليل إلا إذا أقيم فإذا قام قرأ في القومة الواحدة ألف آية. وقد حثَّ الشباب يومًا وهو شيخ فقال يامعشر الشباب اغتنموا قوتكم

فإني على شيخوختي أقرأ البقرة في ركعة وأصوم الأشهر الحُرم وثلاثة أيام من كل شهر والاثنين والخميس. وكان الأعمش يحرص على زيارة أبي إسحق السبيعي ويقول له والله إنك لأفضل مني وأسنُّ في الإسلام وكان يطيل الجلوس إليه حتى قال ولده يونس كنت أرحم أبي لكثرة ما يطيل الأعمش جلوسه إليه وقال فيه مغيرة كنت إذا رأيت أبا إسحق السبيعي أحسُّ كأني أرى عليًا وأتذكر الجيل الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عنه شعبة : كان أبو إسحق أحسن حديثًا من مجاهد وقال عليٌّ بن المديني : حفظ العلم على الأمة ستة فلأهل الكوفة أبو إسحق السبيعي والأعمش. ولأهل البصرة قتادة ويحيى بن كثير ولأهل المدينة الزهري ولأهل مكة عمرو بن دينار. وكان من أصحابه المقربين شعبة وسفيان الثوري. وقد توفي أبو إسحق السبيعي عن عمر يقارب مائة سنة وفي يوم وفاته دخل الضحَّاك بن قيس البصرة فلما رأى عظمة الجنازة قال : هذا لعمر الحقُّ عالمٌ ربَّاني.

وقد وصفه صاحب الحلية فقال عنه المعمر الثابت المشمِّر القانت تبصَّر فعقَل وتصبر ففعَل. وحسبه شرفًا أنه روى عن أربعة وعشرين من أصحاب رسول الله وشاهد غيرهم. وكان يقول عنه الأعمش كنت إذا جلست عند أبي إسحق أسمعني حديث ابن عباس غضًا ليس عليه غبار وحدَّث عنه نفسه أنه غزا مع زمن زياد ست غزوات أو سبع ولابد أنه غزا بعدها لأن زيادًا توفي قبل معاوية. وحدث عن نفسه رحمه الله أنه قال منذ أربعين سنة لم أعذر عيني أن تغمض إذا انتبهت ليلاً. وكان أصحاب ابن عباس إذا رأوا أبا رسحق عمرو السبيعي قالوا هذا عمرو القاريء الذي لا يلفته في الصلاة شيء وكان يقول يرى أصحابنا السَّعة عون على الدين. وكان يتقن رواية ما يشاهده من سلوك الصحابة قال يومًا عن عليّ رضي الله عنه : كان يصلي الجمعة إذا زالت الشمس. وكان ابن عمرو يأتزر إلى نصف ساقيه. وكان يروي الأحاديث ذوات الإشارات العالية كقوله بينما رجل من أصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم يصلي وفرس له حصان مربوط في الدار، فجعل الفرس ينفر ويمرُّ الرَّجل فلا يرى شيئًا فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال: تلك السكينة تنزلت للقرآن. وكان يروي حديث النبي صلى الله عليه وسلم في مناقب سعد بن معاذ: ونصُّه: أتي النبي صلى الله عليه وسلم بثوب حرير فجعلوا يتعجبون من لينه فقال النبي الكريم أتعجبون من لينه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خيرٌ من هذا وألينُ من هذا وكان يكثر أن يروي قوله صلى الله عليه وسلم: (إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا) وكان يذكر الناس فيكثر أن يروي قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ أهون أهل النار عذابًا رجل في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه) وكان يروي حديث ا بن عمر: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزدلفة المغرب ثلاثًا والعشاء اثنتين. صليتهما معه في هذا المكان بإقامة واحدة ومن أحاديث الأحكام التي رواها أبو إسحق قوله خرج عبد الله بن يزيد الأنصاري يستسقي وخرج معه البراء بن عازب وزيد بن أرقم قال أبو إسحق: وكنت معهم فقام عبد الله على رجليه من غير منبر فاستسقى واستغفر ثم صلى بنا ركعتين ونحن خلفه فجهر بالقراءة ولم يؤذن يومئذ ولم يُقم. وكان يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رخص في البكاء من غير نياحة.

ومن أحاديث الآداب التي رواها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يترك دينارًا ولا درهمًا ولا شاة ولا بعيرًا ولا أوصي بشيء إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضًا تركها صدقة.

ومن الأحاديث التي كان يرويها أبو إسحق قول النبي صلى الله عليه وسلم في أعقاب غزوة الأحزاب: اليوم نغزوهم ولا يغزوننا. ولا شك أن اختيار الحديث النبوي يتطلب ملابسة الفرصة وانتهازها وكان أبو إسحق في هذا الأمر مبدعًا فمن الأحاديث التي رواها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (المعْكُ «يعني المطل» طرف من الظلم).

وكان يروي قصة الأعرابي : أن رجلاً أعرابيًا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرني بعمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار فقال له النبي الكريم : أوهما أعملتاك؟ يعني أهاتان هما اللتان شغلتاك قال : نعم. قال : تقول العدل وتعطي الفضل. قال ما أستطيع أن أقول العدل كل ساعة ولا أن أنفق فضل مالي. قال فتطعم الطعام وتفشي السَّلام. قال هذه أيضًا شديدة قال : فهل لك من إبل؟ قال نعم. قال فانظر إلى بعير لك وسقاء فاعمد إلى أهل بيت لا يشربون الماء إلاَّ غبًّا فأسقهم. فلعلك لا يهلك بعيرك ولا يتخرق سقاؤك حتى تجب لك الجنة. فانطلق الأعرابي يكبر فما انخرق سقاؤه ولا هلك بعيره حتى هلك شهيداً.

ومن تلك الأحاديث التي كان أبو إسحق السبيعي يذكر الناس بها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قضى الله منيَّة عبد بأرض جعل له إليها حاجة. ومنها (لغط قوم قرب النبي صلى الله عليه وسلم فقال بعض أصحابه : يارسول الله لو بعثت إلى هؤلاء بعض من ينهاهم عن هذا فقال : «لو بعثت إليهم فنهيتهم ألا يأتوا الحجون لأتاه بعضهم وإن لم تكن لهم حاجة» يشير بهذا إلى أن بعض الناس مولعون باستكشاف الأمر ولو بمخالفة. وحديث البراء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع لم يحن أحد منا ظهره حتى يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن مرويات السبيعي الحديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا دعا ثلاثًا وإذا سأل سأل ثلاثًا. ومن الأحاديث : من رآني في المنام فأنا الذي رأى لأن الشيطان لا يتمثل بي. ونختم تلك الأحاديث الجليلة بحديثين : جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابناها فسألته فأعطاها ثلاث تمرات فأعطت كل واحد تمرة فأكلاها ونظرا إلى أمهما فشقت التمرة باثنين فأعطت كل واحد نصف تمرة. فقال صلى الله عليه وسلم رحمها الله برحمتها ابنيها. ومسك الختام أن أبا بكر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أراك قد شبت. فقال : (بل شيبتني هود والواقعة والمرسلات عرفا وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت) وفي رواية شيبتني هود وأخواتها. رحم اللّه عمْرًا السبيعي وجزاه عن نْشره للحديث الشريف أفضل الجزاء.



الحسنُ البصري

كان الداخل إلى جامع البصرة يرى إمام الجامع عالمًا مهيب الطلعة رائع الصورة تام الخلقة كأنه مصارع محترف يؤمُّ الناس ثم يجلس في حلقة درس عامرة فيعلم كتاب الله وسنة رسوله ويعظ فتلين القلوب لوعظه لأنه لم يكن مجرَّد وعاء للعلم لكنه كان أعظم أهل زمانه علمًا وكان أعظم أهل زمانه عبادة لله وخوفًا لمقَامه.
وصفه محمد بن سعد في الطبقات فقال كان الحسن البصري رحمه الله جامعًا عالمًا رفيعًا فقيهًا ثقة حجة مأمونًا عابدًا ناسكًا فصيحًا جميلاً وسيمًا أما عن تمام خلقته فقد وصفه الأصمعي فقال: ما رأيت زندًا أعرض من زند الحسن كان عرضه شبراً ووصفه الحافظ الذهبي بأنه كان بهيًا مليح الصورة موصوفًا بالشجاعة وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يقول فيه أسألوا الحسن فإنه حفظ ونسينا .

وقال قتادة شيخ المفسرين والمحدثين ما جالست عالمًا بعد الحسن إلا رأيت للحسن فضلاً عليه غير أنه كان إذا أشكل عليه شيء كتب إلى سعيد بن المسيِّب يسأله .

ولعل القارىء يظنُّ أن الحسن البصري كان يستمد مهابته من نسب عريق وقبيلة مشهورة لكنه لا يلبث أن يدهش حين يعلم أن الحسن بن يسار البصري كان عبدًا متحدراً من عبدين من أبيه يسار الذي كان من سبي ميسان بين البصرة وواسط

ومن أمه التي سبيت وهي حامل به ثم ولدته في المدينة عبدًا لزيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه .

الله أكبر كيف يرفع العلم أهله وكيف يرفع الله الذين أتوا العلم درجات وكيف يتحوَّل العبد بالعلم الصادق والعمل الصالح إمامًا مهيبًا يجلس بين يديه كبار التابعين فينهلون من علمه أروع الحكم ويشتارون من صلاحه أسمى القدوات .

وكان من أقدار الله المسعفة لذلك الطفل أن نشأ في بيت النبوَّة إذ كانت أمُّه أمةً لأم المؤمنين أم سلمة المخزومية رضي الله عنها فنشأ الحسن في تلك الرحاب الطيبة المباركة وكانت أمُّ المؤمنين ربما أرسلت والدة الحسن لتحضر لها شيئًا فإذا طالت غيبتها ألقمته أم المؤمنين ثديها فدر عليه ونهل الطفل من ذلك المنهل الوضيء الصالح وهو شرف كتبه الله للحسن والله يؤتي فضله من يشاء . وكانت أم سلمة رضي الله عنها ربما أرسلت ذلك الطفل إلى أصحاب رسول الله في المسجد فمن ماسح على رأسه ومن داع له ومن مداعب له . ألا ما كان أجملها من نشأة بين بيت رسول الله وبين مسجده وبيته وكان ممن احتضن الطفل وقبّله ودعا له عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ كان مولد ذلك الطفل المبارك قبل وفاة عمر بسنتين وعلى الجملة فقد أراد الله لذلك الطفل المولى أن تعتبره أمُّنا أمُّ سلمة كأنه ابن لها أو حفيد . ولقد فتح الله عليه كأنما كان لبن أمنا رضي الله عنها نورًا لجسمه وعقله ثم أكرمه الله بلقاء عدد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستروح منهم نفحات النبوَّة وصفاء العقيدة وكان متقنًا لكتاب الله وبالاضافة لروايته المباشرة عن عدد من الصحابة فقد روى عن كبار التابعين . وكان شديد الحنين إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وأصحابه . وكان إذا روى حديث الخشبة التي حنت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكت هجره لها يبكي ويقول لمن حوله تحنُّ الخشبة إليه وتبكي بعده فأنتم والله أحقُّ أن تشتاقوا إليه . وبالمناسبة فالحديث الذي يذكر حنين الجذع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث جيد رواه البخاري والنسائي عن جابر ورواه

الترمذي والبخاري أيضًا عن ابن عمر وخلاصته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب على نشز ويركز ظهره على خشبة فلما أقيم له منبر هجر المكان الأول والخشبة فسُمع للخشبة حنين كأنه حنين الواله . . . إلى آخر الحديث .

وبلغ من علو منزلة الحسن رحمه الله أنه حين قدم مكة وفرغ من طوافه وصلاته حضر إلى مجلسه كبار التابعين العلماء كعطاء وطاوس ومجاهد وعمرو بن شعيب وجلسوا إليه . ورُوي عنه رحمه الله أنَّ منظره كان يذكر من يراه بالصحابة وأن رزانة رأيه كانت تذكر بعمر وكان إذا جلس في حلقة درسه يحدث عن اليوم الآخر في يقين كأنما كان في ساحة القيامة فهو يحدث عمَّا شاهده عيانًا .

ولما سمع قتادة بموت الحسن قال لمن حوله لقد نبت الحسن في العلم وتشرَّبه والله لا يبغض الحسن إلا كلٌّ فاسد العقيدة وأضاف قائلاً ربما كان الحسن رحمه الله من الذين بطاعتهم يسقينا ربُّنا ويدفع عنا . وقال عنه الربيع بن أنس ترددت على الحسن عشر سنين فكنت أحسُّ أني أسمع منه كلّ يوم شيئًا جديدًا . وكان رحمه الله يلبس أغلى الثياب وأجملها وأنظفها ويقول المؤمن يتخذ من ثيابه ما يغري الناس بسماع وعظه . وكان إذا قرأ القرآن يُرى في وجهه حُزنٌ وبكاء حتى كأنه حديث عهد بثكل . وكان يقول الفقيه هو البصير بدينه العابد لربه الزاهد في دنياه . ووصفه خالد بن صفوان لمسلمة بن عبد الملك فقال : كنت جاره إلى جنبه وجليسه في مجلسه كانت سريرته كعلانيته وقوله كفعله إذا أمر بأمر كان أول من يعمل به وإن نَهى عن شيء كان أترك الناس له . ورأيته لا يسأل الناس شيئًا ورأيت الناس يسألونه محتاجين إليه وكان كريمًا يكثر أن يقول ما أعزَّ أحد درهمه إلا أذلَّه ربُّه . ويقول إنك لا تنتفع بالدينار والدرهم إلا إذا فارقتهما .

وقال رحمه الله عن نفسه شهدت يوم الدار مقتل عثمان وأنا ابن أربع عشرة سنة وكنت حافظًا للقرآن . وقال حماد بن سلمة رأيت سعيد بن المسيب وعروة والقاسم فما رأيت مثل الحسن البصري . وقال قتادة دخلنا على الحسن فوجدناه

نائمًا وعند رأسه سلة فيها خبز وفاكهة فطفقنا نأكل منها فانتبه فرآنا نأكل فتبسَّم وتلا قوله تعالى من سورة النور ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ (إلى أن قال) ﴿أو صديقكم﴾ ثم قال كلوا فلا جناح عليكم وكان كلامه كأنه الدر إذا تكلم بعده أيُّ متكلم لا يستساغ كلامه وكان كثير الصوم يصوم الاثنين والخميس والبيض والأشهر الحرم. ولم يحجَّ رحمه الله إلا حجتين ومما يدلُّ على سعة فضله أنه كان في درسه يُسأل عن علوم متنوعة فما يعييه الجواب في الفقه وعلوم القرآن واللغة والأدب والبلاغة وربما سُئل عن التصوف أما في مجلسه في بيته فكان لا يتحدث إلا في الزهد وقصص الصالحين وإذا سُئل في الفقه أو الحديث أو الأصول قال إنما اجتمعنا لنسمر ويذكر بعضنا بعضًا .

ويبدو أنه رحمه الله كان يجيد السباحة فقد تعقبه جنود ابن الأشعث حتى أدركوه بين الجسرين فألقى بنفسه في غمار الماء ونجا منهم. وكان كريمًا يلتذ الناس بطعامه. ومات رحمه الله عن ثمانية وثمانين عامًا فبكاه ابن سيرين ومات بعده بمائة يوم رحم الله الحسن وسلام عليه في العلماء الأبرار .



الإمام محمد بن سيرين رحمه الله

العالم الذي نعرض لسيرته عالم ذو سيرة طريفة ظريفة. فقد كان رحمه الله لا يكادُ يرى إلا مبتسمًا. وكان خفيف الظل عذب الروح ذكيًا ذكاءً مفرطًا وبخاصة في تفسير المنام وله نكت لطيفة تدل على سرعة بديهته ولطف أدبه يظهر كثيرٌ منها في كتابه. تفسير المنام.

ولد رحمه الله في أوائل خلافة عمر رضي الله عنه ورزقه الله عمرًا مباركًا طويلاً بلغ ثمانين عامًا ملأها رحمه الله بالعلم والأدب والقُدوات الصالحات.

كان أبوه سيرين مولى لأنس بن مالك رضي الله عنه فأعتق نفسه منه مكاتبة ودفع لأنس ألوفًا لأنه كان ماهرًا في التجارة. وأنجب رحمه الله سبعة بنين من أربع نساء كان منهم محمد بن محمد وكانوا جميعًا صالحين رحمهم الله.

وقد سمع من كثير من معمري الصحابة كأبي هريرة وأنس بن مالك، وابن عباس، وعمران بن حصين وعبد الله بن عمر وقيل إنه أدرك ثلاثين صحابيًا. أما من حيث وصفه الجسماني فقد كان رحمه الله ربعة يميل إلى القصر. وكان يعتني بشعره ويفرقه. وكان يمزح ويَسُر جليسه ولم يكن في عصره أعلم بالقضاء منه وكان إلى جانب القضاء متقنًا للفرائض وعلم الحساب.

وكان رحمه ا لله يعمل في التجارة ليصون ماء وجهه عن المسألة . وكان في تجارته موَّفقًا لو لا أن حادثة حدثت له في تجارته خرج بعدها مدينًا فقيرًا يلاحقه الغرماء حتى لقد قضى حياته وهو يسدد الديون في كدح ومشقة . وخلاصة الحادثة أنه تاجر في الزيت واشترى منه كميات كبيرة في موسم ودفع بعض الثمن وظل الباقي في ذمته وكان يرجو أن يبيعه في الشتاء بضعف ثمنه ولكنَّ شيئًا من ذلك لم يحدث فقد رأى رحمه الله في الزيت فأرًا ميتًا وكان في إمكانه أن يكتم الأمر ولكن أمانته وورعه وخوفه من الله جعلته يكبُّ كل ما عنده من الزيت فألحت عليه الديون وضاع رأس ماله وتركته تلك الحادثة فقيرًا لكنها جعلت منه أسوة لكل تجار الدنيا في الأمانة . وقد روى من عرفوا الإمام رحمه الله أن الناظر إلى وجهه كان يرى فيه تألقًا يبعث الهيبة والإيمان كان يمشي في السوق فلا يراه أحد إلا ذكر الله تعالى وكان إذ ذكر الموت خشي يوم الحساب فكاد يموت من الأسى . وكان الحسن البصري رحمه الله مختبئًا من الحجاج فتوفيت له ابنة صالحة ولم يستطع أن يخرج من مخبئه ليصلي عليها فأوعز إلى بعض من يزوره من خاصته أن يصلي عليها الإمام محمد بن سيرين وفي هذا إشارة من الحسن أن ابن سيرين في رأيه هو أعظم أهل عصره وأورعهم وأشَدُّهم خوفًا من الله تعالى والحسن رحمه الله كان أعرف الناس بالعلماء وكان يعلم أن ابن سيرين رحمه الله كان بشهادة علماء عصره صدوقًا إذا حدث فقيهًا إذا أفتى ورعًا إذا راوده المال ، فصيحًا إذا أفتى . وقد وصفه ابن شبرمة أنه كان يتحرَّج من الفتيا ولكنه كان يطرب لتأويل المنام . وكان رحمه الله عيوفًا أبيًا إزاء عطايا الخلفاء . أرسل إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز هدية وإلى الحسن البصري فقبل الحسن الهدية وردها ابن سيرين . ولما سُجن ابن سيرين في بعض ديونه قال له السجان إذا كان الليل فاذهب إلى أهلك وإذا طلع النهار فارجع إلينا . قال ابن سيرين : لا والله لن أكون عونًا على خيانة السلطان . ومن طريف فتاواه أن حضرت إليه امرأة ومعها زوجها فقالت له : أيها الإمام إن زوجي هذا حلف بالطلاق أن

الحجاج في النار- وأهل السنة لا يحكمون على مسلم بنار أوجنَّة ولكن يكلون الأمر إلى الله مادام قد لقى ربه على كلمة التوحيد. فقال لها ابن سيرين رحمه الله أيتها المسلمة عودي إلى زوجك فإن بعث الله الناس يوم القيامة وأدخل الحجاج النار فإن يمين زوجك لم تقع وإن أدخله الجنة فثقي أنَّ الذي غفر للحجاج مائة ألف رقبة لن تضيق رحمته بيمين زوجك. والحق أن فتيا ابن سيرين صحيحة لأن كثيراً من الأشياخ لا يوقعون يمين الطلاق طلاقًا ولكن يعتبرونه مجرَّد يمين كفارته كفارة يمين.
أما في تفسير ابن سيرين للأحلام فإن تأويلاته تدل على ذكاء ثاقب حقًا كأنما أوتي قبسًا من تأويل يوسف عليه السلام. سأله رجل فقال: رأيت في المنام كأني مع قوم يحملون جنازة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له ابن سيرين أنت تصاحب قومًا همهم أن يطمسوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم. وفعلاً كان للسائل بطانة سوء فتخلص منهم.

وسأله رجل: رأيتُ في المنام كأن الجوزاء تقدمت على الثريا فقال ابن سيرين: تأويل ذلك أن الحسن يموت قبلي ثم أتبعه. وهو أرفع مني. وسأله سائل: رأيت عزرائيل في المنام فسألته كم بقي من عمري فأراني كفه وقد فرق بين أصابعها الخمس. فقال له الإمام يقول لك الملك الكريم أنت تسأل عن أمر من الأمور الخمسة التي انفرد الله بعلمها والمذكورة في قوله تعالى ﴿إن الله عنده علم السَّاعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت. إن الله عليم خبير﴾ ومن أطرف تأويلاته التي دلت على ذكاء خارق أن رجلاً أتى إليه في بيته وسأله: رأيت في المنام أني آكل أنا وجاريةً سوداء سمكة في قصعة فقال له ابن سيرين: هيّئ لي طعامًا وادعني إليه. فلما وضعت المائدة إذا جارية سوداء هي التي تعدُّها وتخدم فتأمل الإمام ابن سيرين الجارية وسأل الرَّجل يهمس في إذنه أهذه الجارية السوداء تخدمك وهي لك؟ قال نعم فقال له: إن هذه الجارية السَّوداء رجل وهو يخفي نفسه في زي أنثي والسَّمكة زوجتك وهو يشاركك

فيها. وعرف الرجل الأمر وتصرَّف بما يلزم إذ طلَّق زوجته وسلمها هي والأسود إلى القاضي ليقضي فيهما بحكم الله. والحق أن الإمام ابن سيرين كانت له في الرؤيا فتوحات مشهودة. وكان رحمه الله ذا جلد على العبادة والذكر وكانت له سبعة أوراد لا يزال يرددها وببركة نواياه رزقه الله ولداً سماه عبد الله أغناه الله فضمن ديون أبيه. وكان الإمام ابن سيرين رحمه الله لا يستهويه المال حتى لقد قال فيه أحد معاصريه: من أراد أن ينظر إلى أورع من أدركنْا فلينظر إلى محمد بن سيرين. وكان في تجارته لا يقبل مالاً فيه ريبة فإذا ارتاب في صفقة ألغاها مهما عظم ربحها. وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا ويتأنق في ثيابه ويلبس الحلل الثمينة ويحب أن يظهر أثر نعمة الله عليه. وكان إذا أدخل عليه دينار مزيف حبسه عنده حتى لا يُخدع به الناس حتى اجتمع عنده أكثر من أربعمائة دينار مزيف. وكان يرغِّب من لم يَعُقّ عنه أهله أن يَعُقَّ هو عن نفسه. وعقَّ هو عن نفسه وهو كبير بختيّة. وهي الناقة الطويلة العنق. وكان يرى أن يُجعل لقميص الميت أزرار ويُكفّ حتى لا ينحسر عن جسده ولما حضرته الوفاة أوصى أولاده أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله وأوصاهم أن يكونوا في خدمة الأنصار إخوانًا لهم وموالي في الدِّين. ومات رحمه الله بعد الحسن البصري بمائة يوم وكفَّنه أيوب السختياني وزرَّر عليه القميص كما كان يأمر رحمه الله في الموتى الذين يحضرهم. ورآه بعض إخوانه في المنام مسروراً ورجل يشير إليه ويقول: هذا فيما شاء واشتهى من نعيم الله مسروراً رحم الله الإمام ابن سيرين ذكيًا تقيًا. وتاجرًا أمينًا وعبدًا مشكوراً يؤدي واجب ربه في السَّراء والضَّراء.



الإمام محمد بن جرير الطبري

إذا قرأت سيرة الإمام المفسّر المؤرخ محمد بن جرير الطبري أحسست بقيمة الأعمار المباركة التي يجعل الله من ساعاتها ودقائقها أنوارًا هادية تضيء معالم الطريق للأبرار، وترسم مناهج السَّعادة للأخيار وتحيل الحياة عطرًا وشذا وعبقًا منبعثًا من خمائل العلم الطهور النافع ورياض الأدب الممتع الرفيع. كان الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله مبارك العمر وحسبك أنه ترك لمكتبات العلم كتابين قد لا تخلو منهما مكتبة محترمة وهما تاريخ الطبري في عشرين مجلدًا وتفسير الطبري في عشرين مجلدًا. كلها من الكلام الموثق. ولما أراد الإمام ابن كثير أن يترجم له نقل هذه النبذة عن الخطيب البغدادي فقال: كان من أكابر الأئمة. يُحْكم بقوله ويُرجع إلى معرفته وفضله. جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره.

كان رحمه الله حافظًا لكتاب الله. عالمًا بالقراءات كلها. بصيرًا بالأدب فقيهًا في الأحكام. عالمًا بالسنن عارفًا بأقوال السلف من الصحابة والتابعين. متقنًا للأخبار والآثار والأيام والوقائع. وله تاريخه المشهور الذي سماه تاريخ الأمم والملوك وتفسيره العظيم وكتاب ثالث سماه (تهذيب الآثار) لم أر سواه في معناه.. انتهى ما قاله الإمام ابن كثير.

وقال عنه الحافظ الأسفراييني : لو سافر رجل إلى الصين لينظر في تاريخ ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً عليه وقال عنه الحافظ الذهبي : هو الإمام العالم المجتهد. عالم العصر أبو جعفر صاحب التصانيف البديعة وهو من أهل آمُل بطبرستان ولقب الطبريّ نسبة إليها. وقد اشتهر رحمه الله بالورع عن كل مال فيه شبهه كما اشتهر بالسخاء وعظمة المروءة. وهذه قصة حصلت له في مطلع حياته فيها دلالات أخلاقية جليلة. لما دخل بغداد رحمه الله كانت معه بضاعة يبيع منها ويتقوت، فسرقت منه بضاعته وساءت حاله. حتى باع ثيابه ثم باع كُمَّي قميصه. وكان له صديق صالح من أهل بغداد وكان ذلك الرجل من جلساء عبيد الله بن الفتح بن خاقان. فقال له : يا أبا جعفر أتحب أن تؤدب ولد الوزير عبيد الله. قال نعم. فمضى به الصديق إلى بيت الوزير بعد أن ألبسه ملابس نظيفة حسنة وأوصله إلى بيت الوزير فقربه الوزير ورفع مجلسه وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر فقال أبو جعفر أرجو أن تأذن لي بأوقات طلبي للعلم وصلواتي وراحتي كما أرجو أن تسلفني رزق شهر فلبى الوزير مطالب الشيخ وكان ولد الوزير واسمه يحيى أول ولد يكبر ويطلب العلم ففرح به كلٌ أهل القصر فلما كتَّبه الشيخ أخذ لوحه وفرج على كتابته أهل القصر فلم تبق جارية إلا وأهدت إلى الشيخ صينية عليها دنانير فرد الشيخ على كل واحد منهم ماله. فلما دري الوزير سأله فقال : لقد شارطتني على شيء فلن آخذ سواه وهؤلاء عبيد مالهم مالك فسر الوزير بالشيخ لما رأىٰ من صدقه وورعه وعفافه. ومن فضائله رحمه الله أنه كان يقبل هدايا الفقراء ثم ينتهز المناسبات ليجازي الفقراء بأعظم من هداياهم حتى لقد كان يعطيهم ما يكفيهم كلٌ على حسب حاله . وروي أن الخليفة المكتفي قال للوزير أريد أن أقف وقفًا فخذ وزع هذه الألف فأعطاها الوزير الإمام الطبري وذكر له أنها وقف فأبى الإمام أن يأخذها فقال له الوزير خذها واقسمها في الفقراء فقال الإمام رحمه الله : أنتم أعلم بفقرائكم. وكان الإمام ابن جرير رحمه الله ذا دأب عظيم في خدمة الإسلام عن طريق خدمة

العلم حتى لقد كان يكتب كل يوم أربعين ورقة من تأليفه وأنه دأب على ذلك أربعين سنة .

ولعلك تظن أن تفسيره العظيم وتاريخه القيم هما الكتابان الوحيدان اللذان ألفهما الإمام ابن جرير والحق أنه ألف غيرهما فقد عدد له الفرغاني أكثر من عشرة كتب أخرى منها كتاب تاريخ الرجال . وكتاب لطيف القول في أحكام الشريعة في ثلاثة وثمانين جزءاً وفي هذا الكتاب بسط لمذهب ابن جرير . ومن كتبه رحمه الله (اختلاف علماء الأمصار) وله كتاب (تهذيب الآثار) وقد مات قبل أن يتمه ولو عاش لأتمه في مائة مجلد وله أيضًا كتاب البسيط في الفقه وقد أتم منه مجلدين مجلد الطهارة ومجلد الصلاة . وله كتاب (المحاضر والسجلات) وكتاب ترتيب العلماء ولم يتمه وكتاب (شرح السُّنة) وكتاب (المسند المخرَّج) .

وكان يعجبك في الإمام أبي جعفر بن جرير رحمه الله جرأته في الحق مهما تألب عليه الأعداء والحسدة كما كان تعجبك فيه قناعته بالكفاف حتى لقد كان يعيش على ما تنتجه له حصته من قطعة أرض ورثها عن أبيه بطبرستان . وكان رحمه الله في مطلع عمره شافعيًا فلما تبحر في العلم اختط لنفسه مذهبًا جديداً خاصًا به . وكان إذا وجه إليه الحكام مالا دعا لهم ورده في أدب وشكر وكان رحمه الله آية في الصبر على العبادة وآية في مخافة الله وتقواه ، حتى إنه في يوم وفاته قالوا له لو أخَّرت الظهر وجمعته مع العصر لكان أيسر عليك فأبى وصلى الظهر وحده ولما جاء العصر صلاه أحسن صلاة وظل يذكر الله حتى فاضت روحه الطاهرة عن ست وثمانين سنة .

هذا وكان الإمام ابن جرير رحمه الله أديبًا وشاعراً له نثر من السهل الممتنع وله شعر رصين محكم ومن شعره رحمه الله قوله :

خلقان لا أرضى فعالهما ... بطر الغنى ومذلة الفقرِ

فإذا غنيت فلا تكن بطراً ... وإذا افتقرت فتهْ على الدهرِ

ومن شعره أيضًا هذه الأبيات العذبة :

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمحت بماء وجهي لكنت إلى الغنى سهل الطريق

وتفسيره رحمه الله ملتزم لما ورد عن الصحابة والسلف التزامًا شديدًا وخصوصًا فيما يتعلق بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا كقوله تعالى ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم يضحك الله تعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة. يقاتل هذا في سبيل الله فيستشهد فيتوب الله على القاتل فيسلم فيقاتل في سبيل ا لله فيستشهد وكقوله تعالى ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ وكقوله جل جلاله ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ .

ولما توفي ابن جرير رحمه الله حزن عليه العلماء ورثاه الشعراء ومنهم ابن دريد الذي رثاه بقصيدة جميلة يقول فيها :

إن المنيّة لم تتلف به رجلاً بل أتلفت علمًا للدين منصوبا
لو تعلم الأرض من وارت إذن خشعت أقطارها لك إجلالاً وترحيبا

ومنهم أبو سعيد بن الأعرابي الذي رثاه بقصيدة جاء فيها قوله :

حدث مفظع وخطبٌ جليل دق عن مثله احتمال الصبور
نُعيَ العلم كلهُ اليوم لما قام ناعي محمد بن جرير

رحم الله الإمام المفسر محمدًا بن جرير الطبري مثالاً للعالم الورع المجتهد رحمه الله عالمًا مجتهدًا جريئًا لا يخشى في الحق لومة لائم .



القاضي أبو يوسف

كان من يحضر درس الإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله يرى في الحلقة فَتىً حَسَن السمت جيِّد البنية ذكي الملامح عليه سيما الجدّ والاجتهاد كان ذلك الفتى هو أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري. ومع أنه كان كريم الأصل من قبيلة بجيله من حلفاء أنصار رسول الله ومع أن أحد أجداده وهو سعد بن بُجير كان من الصحابةوممن شهدوا الخندق إلا أن ذلك الفتى الذي من ذريته نشأ فقيرًا جدًا. كان أبوه شيخًا مسنًا يجلس في دكان يبيع فيه ولا يكادُ يحصُل على الكفاف وقد وضعه عند قصار أي صبّاغ يغسل الملابس ثم يضرب بها على حجر صلب ضخم حتى يليِّنها ثم يصبُغها لكنه كان في أثناء ذلك يَفرُّ من دكان القصار ويلازم حلقة الدرس عند أبي حنيفة عالم بغداد وإمام العلماءَ في عصره. ثم لم يلبث أبوه أن مات فاجتمع على الفتى اليتم والفقر وكانت أمُّه تحثُّه أن يكسب عيشه بعملٍ يدويّ كالقصارة أو الحراثة لكنَّها تتفقَّده فلا تجده إلا في المسجد في حلقة الدرس عند أبي حنيفة وفي يوم رجع إلى أمّه بعد العشاء فقال لها أما لديك من طعام؟ قالت له بلى. اكشف عن ذلك الطبق تجد تحته طعامًا وكشف عن الطبق وإذا فيه كتاب وكرّاسة فقال لها ما هذا قالت ما تشتغل فيه طول نهارك فكل منه حينما تجوع في ليلك فبكى رحمه الله لأنه يتعطش إلى العلم والعجوز تهزأ به رحمها الله وفي اليوم التالي رآه

شيخه أبو حنيفة ساهمًا شارد الذهن حزينًا فسأله عن شأنه واستحلفه أن يصدقه فحكى للإمام قصة الوالدة فقال الإمام: تهزأ الأم من اشتغالك بالعلم فوالله لئن مدَّ الله في عمرك لتأكُلَنَّ بهذا الفقه اللوزينح بالفستق المقشر. واللوزينح حلوى تُرقَقُ من أجود البُر وتُحشى باللوز ثم أعطاه مائة درهم وقال له سأعطيك مثلها كل شهر وكان أبو حنيفة رحمه الله تاجر بزٍّ أي قماش وكان ماهرًا في التجارة يربح كثيرًا وينفق من ماله على فقراء تلاميذه وجيرانه ومعارفه وفرحت أمُّ يعقوب بما منَّ الله عليهم من كرم الإمام وذهبت إليه تشكره وتدعو له وقُدِّر ليعقوب فيما بعد أن يأكل اللوزينج بالفستق المقشَّر حين أعجب الخليفة الرشيد بعلمه وذكائه وأخلاقه فعيَّنه رئيسًا للقضاة وكان إذا قُدِّم اللوزينج بالفستق المقشر في حضرة الرشيد يبكي أبو يوسف على شيخه الراحل أبي حنيفة ويتذكر تلك البشرى التي كانت نبوءة صالحة من ذلك الإمام الجليل .

نعم لقد أنعم الله على ذلك الفتى اليتيم الفقير وإذا هو الإمام أبو يوسف محيي مذهب أبي حنيفة وناشرُه في الآفاق الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري رحمه الله. وكان رحمه الله أحد أشياخ الإمام أحمد بن حَنْبَل وتخرَّج على يديه تلميذه وزميله الإمام محمد بن الحسن الشيباني وعدد من فضلاء العلماء من بينهم أسد بن الفرات ذلك الإمام المجاهد وقد قال الإمام أحمد عن أبي يوسف كان أبو يوسف قاضيًا عالمًا منصفًا في قضائه وحكمه وفي رأيه وعلمه .

وقال عنه يحيى بن معين كان أبو يوسف أثبت من رأيتُ في الحديث وأقواهم حافظة وأصحهم رواية ووصفه بعض أصحابه فقال كان متقنًا للتفسير والمغازي وأيام العرب وكان الفقه عِلْمًا واحدًا من عدة علوم أتقنها وكان هارون الرشيد رحمه الله يحبُّ حديثه وأدبه وعلمه ويُسرُّ بالاستماع إليه ويصحبه في الحج حتى صار أقرب العلماء إليه وكان يطيع نصحه لما لمسه فيه من تقوى ولم يُغير المنصب شيئًا من تقواه وتواضعه فقد رُوي عنه أنه كان له وردٌ يومي من الصلاة مائتا ركعة

وكان قليل الجدل يحبُّه جميع العلماء وقد استقبلوه لما قدم إلى البصرة في صحبة الرشيد استقبالاً أجمعوا فيه على إجلاله .

ولم يكن يخوض في آيات الصفات التي أحدثت انقسامًا بعده في علماء المسلمين وسببّت فتنة الاعتزال والقول بخلق القرآن وكان يقول من طلب الدِّين عن طريق علم الكلام تزندق ومن أولع بالغريب من الحديث كذَّبه الناس . وبلغ من حب الرشيد له أنه دخل على الرشيد وفي يده درّتان ينظر إليهما الخليفة معجبًا فنظر إليهما أبو يوسف وأعرض عن النظر إليهما فقال له الرشيد والله لتأخذنهما وأهداهما إليه .

ولما حضرته الوفاة جمع العلماء وحمَّلهم أمانة أن يدرسوا حديثه وفقهه وينفوا منه أي قول يخالف كتاب الله أو سُنة رسوله أو إجماع العلماء الثقات .

وتوفي رحمه الله وقد ناهز السبعين من عمره وكان عُمْرًا عجيبًا حفل أوله بالكفاح المرير والفقر الشديد وبورك آخره بغنىً كريمٍ سمح فاض على معتفيه ومعارفه . والله يرزق من يشاء بغير حساب .



أبو إسحق الفزاري

إني محدثكم إن شاء الله عن عالم جليل القدر كثرت في حياته المواقف البطولية فما من قارىء يقرأ سيرته أو سامع يسمع بمواقفه إلا ويشعر بحبٍّ وإجلال لذلك العالم المجاهد العامل. ولعل الأسباب التي تحبب هذا العالم إلى النفوس تتلخص في ثلاثة من الأمور: أولها أنه قضى أكثر حياته مجاهدًا مرابطًا في ثغور الشام وبخاصة في ثغر يقال له المصيصة من ثغور الشام. وقد كان رحمه الله في ذلك الثغر كأنه النور الموقظ الباعث الهادي يرشد الجنود إلى أدب الجهاد وشرف الاحتساب وأخلاق الإسلام كما يعلمهم السُّنة. وكان لما عرف به من جهاد له هيبة وأمرٌ ونهي وطاعة وكان لا يقبل في ثغور المسلمين المجاهدين مبتدعًا ولا تارك صلاة.

أما ثاني الأسباب التي تحببُ إليك هذا الشيخ وأعني شيخنا أبا إسحق الفزاري فهو أنه كان ثقة في المحدِّثين وقد أجمع على توثيقه أهل العلم وشهدوا له فقال عنه أبو حاتم: هو الإمام الثقة المأمون. وقال فيه الشافعي: لم يصنف أحد في السِّير مثل كتاب أبي إسحق وقال فيه الإمام النسائي: أبو إسحق هو الإمام الثقة المأمون. وقال فيه علماء عصره: أبو إسحق إمام يُقتدى به بلا مدافعة. وذكر رحمه الله عند سفيان بن عُيينة فقال: إذا سمعتم من أبي إسحق فلن يَضُرَّكم ألا تسمعوا مني.

أما ثالث الأسباب التي تحببك في الإمام أبي إسحق الفزاري فهو أنه كان قويًا في دينه لا يبالي أن يمسَّه العذاب في سبيل الله حين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ويطالب بالتزام السنة النبوية وقد ضُرب بالسياط من أجل الثبات على منهج الصلاح فما تنازل عن طريق السنة النبوية ولا غيَّر ولا بدَّل. وقد ذكره الإمام الأوزاعي فقال: الإمام أبو إسحق صادق مصدوق. وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: ربما اشتقت إلى المصيصة وليس في نيتي الرباط ولكن شوقًا لرؤية أبي إسحق.. وكان رحمه الله من أصل كريم ومن جلساء هارون الرشيد رحمه الله. وكان الخليفة الصالح ربما ذكره بأصله وذكر أجداده ولا غرو فهو من قبيلة فزارة التي كانت من أكرم بطون غطفان ومن ذؤابة قيس عيلان وكان جدّه خارجة بن حصن من الصحابة أما أخو جده عيينةَ بن حصن فكان من المؤلفة قلوبهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبره والأقرع بن حابس من المؤلفة قلوبهم. وربما لقبه الأحمق المطاع. وكان هارون الرشيد رحمه الله عظيم الثقة في أبي إسحق وصدق معلوماته. قبض يومًا على أحد الزنادقة الملحدين فقال الملحد للخليفة: إن استبقيتني كشف لك ألف حديث وضعتها كذبًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الخليفة: لا نحتاج في هذا الأمر إليك وسوف يكشف أحاديثك المكذوبة أبو إسحق وابن المبارك وقد عاش رحمه الله قرابة ثمانين عامًا قضاها كلها بين علم وجهاد ومرابطة وقد ذكره الإمام الأوزاعي عالم لبنان فقال إنَّ أبا إسحق والله خير مني. وكان يقال إذا رأيت شاميًا يحبُّ الأوزاعي وأبا إسحق فاطمئن إلى علمه. ومع شرفه وشعبيته كان رحمه الله عظيم التواضع قال له هارون الرشيد يومًا: إنك من قبيلتك في موضع شرف فقال: يا أمير المؤمنين ليت ذلك يغني عني من الآخرة شيئًا. وكان رحمه الله يقبل هدايا الرشيد لكنه كان يأخذ حاجته منها ثم يوزعها على ذوي الحاجات. وقد رحل رحمه الله في طلب الحديث والعلم وقرأ على شيوخ أجلاء حتى لقد أحصى له علماء الرجال قرابة تسعين شيخًا وخمسين تلميذًا وكان

عبد الله بن المبارك ربما جلس بين يديه في ثغر المصيصة ويقول ما أراني تاركًا مجلسه حتى أموت. وكان رحمه الله يعدُّ من أقران مالك بن أنس وسفيان الثوري وسفيان ابن عيينةَ وشعبة بن الحجاج وهم من أعيان أهل الحديث وأمنائهم.

وشهد له الخليفة الصالح هارون الرشيد أنه كان من مدافعي الصف الأول عن الإسلام كتابًا وسنَّة وكانت له آراء في الفقه في غاية الاتباع المستنير والجودة كما كانت له آراء عسكرية في غاية الصواب والرأي والمكيدة ولا غرو فقد كان يلقب بشيخ الثغور لكثرة مرابطته عليها في سبيل الله.

استشار أمير الشام عبد الملك بن صالح في موضوع أهل قبرص فقد كانوا يؤدّون جزية المسلمين لكن قلوبهم وولاءهم معلقة بالروم وكانوا يدفعون للروم جزية أخرى تبرعًا فأراد عبد الملك بن صالح أن يبطش بهم فأفتى الشيخ أبو إسحق بغير رأي الأمير وقال بل يعاقبون على قدر ما يقترفون من شر وما يحدثون من حَدَث وأما عهدهم الذي أبرم من عهد معاوية فلا يُنكث. واستشاره الرشيد في إحدى الغزوات هو وزميل له اسمه ابن مخلد سأل كلاً منهما على حدة: هل نبدأ بحصن هرقله فنحاصره ونفتحه إن شاء الله أم نبدأ ببعض المدن الكبرى فقال ابن مخلد بل اغزُ هرقله لأنها أعتى حصون الأعداء. أما أبو إسحق فقال إن حصن هرقله فيه من السلاح والمنعة ما جعله قلعة هائلة ويخشى ألا يفتح إلا بخسائر هائلة ثم إن غنائمه قليله جداً لا تكفي المجاهدين وإني أرى أن تبدأ بفتح مدينة كبيرة لأن فتحها أجلُّ سمعة وأعظم ذكرًا وأسهل طريقًا وأعظم مغنمًا. واتبع الرشيد رأي ابن مخلد وحاصر هرقله فعظم القتل في المسلمين وطالت مدة حصار الحصن. فعاد الرشيد يسأل أبا إسحق ويستشيره أيعدل عن حصار هرقله ويهاجم مدينة كبيرة فقال الشيخ أبو إسحق أما الآن فلا لأن الأمر أصبح كرامة ولكن يمكنك اجتناب الخسارة ببناء مدينة إسلامية بجوار هرقله ثم لا ترفع الحصار عن هرقله حتى تدمرها وتستريح منها. وفي نفس معركة هرقله كان الشيخ في الصف الأول فبرز بين

الأعداء علجٌ ضخم الجثة يطلب المبارزة ويتحدى عشرين متلاحقين من أبطال المسلمين فاستشار الرشيد أبا إسحق فقال: لا تأمر قائداً من قوادك بمبارزته ولكن أرسل إليه رجلاً يجيد المصارعة ورمي الحبل ولُعبَ القوة لأن القائد إذا قتل نال مصرعه من روح المسلمين أما المصارع فغيره كثير وبالفعل وقع اختيار الخليفة على رجل يقال ابن الجزري فبرز إلى العلج وطال بينهما النزال فأخرج ابن الجزري حبلاً له عروة واسعة وقذفه بمهارة فدخل رأس العلج في عروته فجره ابن الجزري بعنف والمسلمون يهللون ويكبرون .

وكانت لأبي إسحق مناقب وفضائل يقتدى بها الصالحون. وصفه أبو نعيم في الحلية. وأبو نعيم كاتب مؤرخ يحبّ السجع فقال تارك القصور والجواري نازل الثغور والبراري. أبو إسحق الفزاري كان لأهل السنة إمامًا. ولأهل البدعة زمامًا. وكان رحمه الله زاهداً في عرض الدنيا. عرضت عليه إقطاعية بالثغر فرفضها وقال: إن الثغر للقتال والأجر وليس لإحراز الدنيا. وكان يزوره في المصيصة الإمام الناسك إبراهيم بن أدهم فيقاتل معه ويتعلم منه ويؤاكله ويشاربه وكان كثيراً ما يدعو إبراهيم بن أدهم إلى منزله بالمصيصة وربما اشترى لفرس إبراهيم مقوداً جيداً

وكان زميله وصاحبه الفضيل بن عياض يحمل له من الود والوفاء ما يُجَمِّلُ طلعة الصداقة ويزين ساحة الود وقد حدث الفضيل رحمه الله أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يومًا ورأى بجواره فرجة فمضى ليجلس فيها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مجلس أبي إسحق الفزاري. وقد سئل أحد معاصري أبي إسحق : أي الرجلين أفضل: أبو إسحق أم الفضيل بن عياض فقال : الفُضيل رجل نفسه أما أبو إسحق فرجل المؤمنين. رحم الله أبا إسحق ونفعنا بعلمه العامل وعمله الصالح وجهاده المحتسب .

٨٤

الإمام مالك بن دينار

كان هذا الإمام الزاهد المتبتِّل يحترف كتابة المصاحف. كان يكتب في كلِّ أربعة أشهر مصحفًا حتى إذا أتمَّه جلَّده وباعه وأعطى ثمنه لصاحب دكان وظلَّ ينفق من ثمنه أربعة أشهر ويكون في أثناء هذه المدة قد أتمَّ كتابة المصحف الثاني وهكذا.

وكان ذلك العالم الزاهد لا يقتني في بيته ما يخاف عليه. دخل بيتَه يومًا لصٌّ فما وجد في البيت ما يأخذه فناداه شيخنا الكاتب الجليل مالك بن دينار يا أخانا أما وقد أخفقت في الحصول على شيء من حُطام الدنيا فخذ لك شيئًا من ثواب الآخرة قال اللص: وكيف هذا؟ فقال مالك خذ وعاء وتوضَّأ وصلِّ ففعل اللصُّ ما اقترحه عليه الشيخ فقال مالك: جاء ليسرقنا فسرقناه.

وكان مالك بن دينار ينحدر من أسرة فارسية وكان ملازمًا لمسجد البصرة يحضر مجلس الحسن البصري وابن سيرين ويروي عن القاسم بن محمد وأنس بن مالك وسعيد بن جبير. وكان في شبابه شرطيًا غاويًا ثم هداه الله حين رأى في المنام طفلته تشفع له في الموقف العظيم ثم تتلو عليه آية من كتاب الله من سورة الحديد. قوله تعالى: ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾ وصحا وهو يكررها ثم صلى الصبح مع الحسن البصري فقرأ الحسن في الصلاة سورة الحديد وكرر الآية الكريمة ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله

وما نزل من الحق﴾ ولما مات الحسن رحمه الله خَلَفه في إمامة مسجد البصرة شيخنا مالك بن دينار. وكان يقول وددت لو أن رزقي في حصاة أمتصُّها لا ألتمس غيرها حتى أموت. وكان جريئًا في وعظ الحكام والمسئولين مرَّ عليه يومًا القائد المشهور المهلب بن أبي صفرة وكان يتبختر في مشيته فقال له مالك أما علمت أن هذه المشية (أعني التبختر) يكرهها الله ورسوله إلا حين تكون بين الصفين في الجهاد؟ فقال له المهلَّب : يبدو أنك لا تعرفني. قال مالك بل والله أعرفك أليس أولُك نطفة وآخرك جيفة قال المهلب بلى ؟ الآن اتضح لي أنك تعرفني حق المعرفة. ومن أقواله الحكيمة رحمه الله قوله : خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها. قالوا وما هو: قال : معرفة الله تعالى. وزار يومًا هو وبعض زملائه العلماء الصحابيَّ الجليل أنس بن مالك فقال لهم أنس : ما أشبهكم بأصحاب محمد إني لأدعو لكم بالأسحار. وكان يقول إني لتأتي عليّ السنة لا آكل فيها لحمًا إلا من لحم أضحيتي يوم الأضحى. ومن أقواله : وددت أن الله يجمع الخلائق ثم يأذن لي أن أسجد بين يديه فأعرف أنه قد رضي عني ثم يقول لي : كن تُرابًا. وكان ربما ائتدم في السنة بفلسين ملحًا فتكون هذه كلَّ غموسه. وحاول يومًا أن يقتصد فخلط الدقيق برماد فلاحظ أن تلك العملية أضعفت جسده عن الصلاة فعاد عن تلك الطريقة المضرَّة.

وكان يدعو الناس أن ينصتوا للقرآن ويطربوا له ويقول : كيف لا تطربون إلى قول الصادق من فوق عرشه. وكان يروي أنَّ موسى عليه السَّلام قال لربّه ياربَّنا أين أبغيك (أي أطلبك) فقال له الله تعالى : ابغني عند المنكسرة قلوبهم. وجاءه رجلٌ غنيٌّ صالح فقال له يامالك إن عندي بنتًا نفيسة يخطبها الناس وقد هويتك لصلاحك مع أنها لم ترك وإني أعرضها عليك فقال مالك بارك الله فيها وقسمَ لها أبرَّ الأزواج، ولكن أما علمت أنني منذ مُدة قد طلقت الدنيا ثلاثًا لا رجعة بعدها وابنتك هي من عموم هذه الدنيا واشترى مرَّة رغيفًا وصبَّ عليه لبنًا رائبًا وشمه وإذا هو ذو نكهة لذيذة فخاطبه قائلاً: لقد اشتهيتك منذ سنين وغلبت نفسي وتريد اليوم

أن تغلبني ثم خرج فأعطاه لسائل. ووقع مَرَّة حريق في بيت مالك بن دينار فأخذ المصحف وقطيفة له فأخرجهما فقيل له يا أبا يحيى البيت احترق فقال أبعدوا لكي أجرّ كسائي الويلُ لأصحاب الأثقال. ومن أقواله رحمه الله : لأن أتصدّق بتمرة من حلال أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف من حرام. وكان يقول إذا دخل رجل بين متخاصمين فجبن عن كلمة الحق وتكلَّم بهواه فإن الله يبدّد عظامه يوم يجمع عظام الناس.

وقيل له مرَّة لماذا لا تدعو قارئًا يقرأ عليك القرآن فقال: إن الثكلى لا تحتاج إلى نائحة وطلب منه بعض الناس أن يستسقي لهم فقال لهم : أنتم تستبطئون المطر لكني أستبطئ الحجارة وأحمد الله على أن لم يكن عجلها.

وكان إذا زاره القُرَّاء والعلماء يحذرهم ويذكرهم بعظم مسئوليتهم ويقول لهم إنَّ الشيطان ليلعب بالقُرَّاء كما يلعب الصبيان بالجوز. وكان رحمه الله يحذر من كثرة المنافقين في دنيا الناس ويقول : أقسم لو نبت للمنافقين أذناب ما وجد المؤمنون أرضًا يمشون عليها يشير إلى أن أذناب المنافقين ستفرش الأرض كلها. وكان يحذر الخطباء وأهل البلاغة والقول فيقول : ما من خطيب يخطب إلا عُرضت خطبته بين أعماله فإن كان صداقًا صُدِّق وإن كان كاذبًا قرضت شفتاه بمقراض كلما قرضتا نبتتا ومن حكم أقواله قوله : لقد نظرت في آثام أهل العلم فلم أجد لها سببًا إلا حبّ المال فمن ألقى عنه حب المال فقد ظفر بدينه. وحدّث يومًا فقال أتيت على قبر فقرأت كتابة عليه فإذا هي :

يا أيها الركبُ سيروا إن غايتكم	أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا
كنا أناسًا كما كنتم فغيَّرنا	دهرٌ وسوف كما كنا تكونونا

ومرّ يومًا على رجل يغرس فسيلاً ثم غاب عنه مُدَّة فمر بالفسيل وقد أثمر وسأل عن صاحب الأرض الذي غرس الفسيل فقيل له : لقد مات فأنشأ يقول :

مؤمّل دنيا لتبقى له	فمات المؤملُ قبل الأملْ

يـــــربي فـــسيــــلاً ويُعـــنى به فـــعـــاش الفـــسيـل ومـــات الرَّجُلْ

ورأى يومًا رجلاً يصلي ويسيء صلاته فقال اللهم ارحم عياله فقيل له الرجل هو الذي يسيء وأنت تدعو لعياله فقال : أدعو لعياله لأنهم يقتدون به وكان من بعض ذكره لربه أن يقول يارب أنت تعلم ساكن الجنّة وساكن النار ففي أي الدارين عبدك مالك. واشتهر رحمه الله بأنه كان يكرم الكلاب فسئل في ذلك فقال هؤلاء الكلاب أحسن من جلساء السُّوء. وسأله يومًا موظّف في الحكومة أن يدعو له فقال له مالك كيف أدعو لك وعلى بابك مظلومون يدعون عليك، وسُرق من بيته ذات يوم مصحف وكانت المصاحف غالية في ذلك الوقت وسأل عن المصحف فلم يجده فوعظ الحاضرين حتى أبكاهم جميعًا ثم قال : كلكم تبكون فمن سرق المصحف. أحسب أنه يبكي معكم، ومن أحاديثه التي رواها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على يهودي وكان مع النبي الكريم عمر وكان على النبي قميصان فسأله اليهودي قميصًا فأعطاه النبي أحسن القميصين فقال عمر لو كسوته الذي هو دون فقال ياعمر إن ديننا هو الحنيفية السمحة ليس فيه شح وقد كسوته أفضل القميصين ليكون أرغب له في الإسلام. رحم الله مالكًا بن دينار وسلام عليه إمامًا للزاهدين .

٨٥

أيوب السختياني
رحمه الله

أيوبُ السختياني بن كيسان العنزي إمام حافظ وسيد من سادة العلماء وهو من التابعين بإحسان. من أشياخه سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والحسن وابن سيرين وممن حدث عنه الزهري وشعبة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة ولد في السنة التي توفي فيها ابن عباس وهي سنة ثمان وستين للهجرة والغريب أنه أدرك أنس بن مالك وهو في سن يمكن أن يروي عنه ولكنه لم يرو عنه .

وكان لأيوب في صدور علماء البصرة منزلة عظيمة وصفه الحسن البصري رحمه الله فقال (أيوب سيد شباب أهل البصرة) وقال عنه سفيان بن عيينة (ما رأيت مثل أيوب) وذكره مالك رحمه الله فقال : كنا ندخل على أيوب رحمه الله فكنا إذا شرعنا في ذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى حتى نرحمه .

وكان من أبرز صفات أيوب أنه كان يخفي أعماله فيلبس ثيابا لا تخلو من أناقة ولا يظهر صلاة النافلة ويقوم الليل كلَّه فيخفي ذلك فإذا كان الصبح رفع صوته كأنما قام تلك السَّاعة. وكان قلّما يُرى إلا مبتسِّمًا في وجوه الرجال. وكان يحتقر المتسبين للعلم ممن تخالف سيرتهم أقوالهم فكان يقول : لا خبيث أخبثُ من عالم فاجر وكان يقول (الحمد لله الذي عافاني من الشرك ليس بيني وبينه إلا أبو تميمة. يعني والده) وكان شعبة يدعو أيوب سيد الفقهاء. وكان أيوب إذا وقف على آية تلا

قول الله تعالى ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلموا تسليما﴾ وقال شعبة ما وعدت أيوب موعدًا قط إلا إذا جئتْ وجدته قبلي قد سبقني. وكان يحترم اللغة لحن مَرَّة في حرف فقال أستغفر الله.

وروي أنه رأى في المنام أنه رأى الحسن وابن سيرين مقيدين فاستبشر لهما أنهما سينطلقان من قيودهما إلى الجنة. ومن كتمانه لعبادته أنه كانت ربَّما تغلبه دمعة فيمسح أنفه وهو يقول ما أشد الزكام. وكان يصلي بقومه إمامًا في رمضان فإذا صلى بهم التراويح قرأ في الركعة قرابة ثلاثين آية ثم يوتر بالناس ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: اللهم استعملنا بسُنَّته، وأوزعنا بهديه. واجعلنا للمتقين إمامًا.

وكن يحتقر أصحاب الأهواء لقيه أحدهم مَرَّة فقال له يا أبا بكر أسألك عن كلمة؟ فولى وهو يقول ولا نصف كلمة. وقد روي عن أيوب رحمه الله أنه حج أربعين حجة ومع ذلك كان يقول: إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل. وكان في صباه صديقًا ليزيد بن الوليد بن عبد الملك فلما ولي يزيد الخلافة كان أيوب يدعو الله ويقول اللهم أنسه ذكري. وقد ذكرت أنه كان يبعد عن كلٍّ ما يُظهر للنَّاس زهده. كان يلبس قميصًا مُذيَّلاً فإذا سُئل في ذلك قال الشهرة اليوم في التشمير ولم يكن أيوب إذا رأيته يوحي إليك منظره بأنه ناسك كان له شعر وافر وقميص جيد يكاد يشم الأرض، وقلنسوة جيدة وطيلسان جديد ورداء عدني ولا ترى عليه شيئًا من سيما النساك ولا شيئًا من تصنُّعهم. وكان يجتنب الطرق المكتظة حتى لا يعرفه الناس فيشيروا إليه وكان رحمه الله مستجاب الدعوة روى أنه كان في طريق مكة حاجًا فأصاب الناس عطش حتى خافوا على أنفسهم فشكوا إلى أيوب فناشدهم أن يكتموا عليه فقلب قميصه وصلى مستسقيًا بالناس ودعا الله فأمطرت وشربت الجمال. وقد حدث الفقيه المحدِّث حماد بن زيد رحمه الله فقال: رأيت في المنام أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقلت لهما ما جاء بكما؟ قالا جئنا نصلي على أيوب

السختياني وكان الإمام ابن سيرين إذا حدث عن أيوب قال : حدثني الصَّدوق. وإذا حدث عنه شعبة قال : حدثني سيد الفقهاء. وقال عبيد الله بن عمر والله ما أفرح في سنتي إلا أيام الموسم حين ألقى أقوامًا قد نور الله قلوبهم بالإيمان فإذا رأيتهم ارتاح قلبي. منهم أيوب السختياني. وكان من كلامه لأحد أصدقائه : إنّ الناس يحمدون الله على ما يكلؤهم به من عافيته وستره. أما عَمَلنا كلّه فهو والله لا يقاس بجزاء شربة ماء باردة يسقينا الله إياها على ظمأ. وكانت جلسة صغيرة عند أيوب رحمه الله تملأ قلب الجليس رهبة لله حتى ولو لم يتكلم أو يدرس، وكان إذا هنَّأ بمولود قال : جعله الله مباركًا عليك وعلى أمة محمد وكان من دعاء أيوب : اللهم إني أسألك الإيمان وحقائقه ووثائقه وعمله الذي ننال به حُسن الثواب اللهم اجعلنا ممن يتقيك ويخافك ويستحييك. اللهم استرنا بالعافية وكان رحمه الله كريمًا لا ينصرف من سوقه إلا ومعه شيء يوسع به على عياله. ويقول : إن المؤمن يقتبس من الأدب الإلهي فإذا وسع الله عليه وسَّع هو على أهل بيته والناس من حوله. وكان إذا قدم مكة أمر بخبز وشواء وأطعم زواره وأكل معهم .

وكان أيوب رحمه الله يكرِم أهل السنة ويكره أهل البدعة وكان يقول إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة فأحسُّ كأنما سقط عضو من أعضائي. أو كأني أفقد حاسة من حواسي وكان يقول لإخوانه الزم حرفتك فإنك لا تزال كريمًا على الناس مالم تحتج إليهم .

وكان يروي حديث النبي صلى الله عليه وسلم : لا تفخروا بآبائكم الذين ماتوا في الجاهلية فوالذي نفسي بيده لما يدحرج الجعل بأنفه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية .

ومن أحاديثه التي رواها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة مضمونون على الله عزَّ وجل : الحاج والمعتمر والغازي في سبيل الله حتى يردهم الله بالأجر

والغنيمة أو يتوفاهم فيدخلهم الجنَّة . ويروي حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا كفَّن أحدكم أخاه فليُحسنْ كفنه .

ولقد وصفه صاحبُ الحلية رحمه الله فقال أيوب السختياني فتى الفتيان سيد العباد والرهبان الذي نوَّر الله قلبه باليقين والإيمان الذي كان عن الخلق آيسًا وبالحق آنسًا .

رحم الله أيوب إمامًا احتسب أعماله لوجه الله وزهد في كلّ رياء وسمعة وفي كلِّ جاه ورتبه .



الإمام إبراهيم الحربي

قلت في المقدمة التي قدمت بها لهؤلاء الشخصيات المباركات إنَّ الذي يهمني من العالم مواقفه الشجاعة في كلمة الحق وأخلاقه العظيمة في التزام الصدق وقلت إني لا أهتم كثيراً بعلم العالم وعلوّ درجته في الوظيفة وكثرة مؤلفاته . ولكن الذي دفعني للكتابة عن الإمام إبراهيم الحربي إنما هو شخصيته العظيمة المتميزة . تلك الشخصية التي تميَّزت بعفة النفس وعظمة الأخلاق والاستغناء بكفاف الحلال عن كثرة العَرَض وأخلاط الحرام. هذا بالإضافة إلى شجاعة أدبية عند الخلفاء منقطعة النظير . وتزيد عندنا منزلة شيخنا إبراهيم الحربي إذا تذكرنا أن الخليفة المعتضد الذي عاصره كان من أعظم خلفاء بني العباس جدد الله به عزَّ الخلافة وهزم في عهده الخبيث القرمطي بعد أربع عشرة سنة من القتال الدامي . ولهذا فإن مواقف الشيخ إبراهيم الحربي مع ذلك الخليفة القوي تكشف من أخلاق العالم وأخلاق الخليفة مُثلاً عليا جديرة بالاقتداء .

إبراهيم بن إسحق الحربي كان حافظ زمانه وعلامة عصره وشيخ الإسلام في أيامه وصفه الخطيب البغدادي أنه كان رحمه الله إمامًا في العلم ورأسًا في الزهد. عارفًا بالفقه بصيرًا بالأحكام حافظًا للحديث مميزًا لعلله قيمًا بالأدب جمَّاعة للغة صنف كتابه غريب الحديث وهو كتاب ذو أهمية كبيرة في الحديث واللغة معًا . كان

إبراهيم عارفًا بأقدار زملائه العلماء اجتمع مرة بالقاضي إسماعيل بن إسحق وكان من كبار علماء العراق فلما افترقا سُئل إبراهيم الحربي رحمه الله عن إسماعيل فقال: إسماعيل جبل من العلم نفخ فيه الروح. وسُئل إسماعيل عن إبراهيم فقال: ما رأيت في حياتي مثل إبراهيم. ويروى أن إبراهيم حين دخل على القاضي إسماعيل كان في مجلس إسماعيل قاض فاضلٌ هو أبو عمر محمد بن يوسف فبادر رحمه الله إلى نعلي إبراهيم فأخذهما وطفق يمسحها من الغبار فدعا له إبراهيم وقال: أعزَّك الله في الدنيا والآخرة. فلما توفي أبو عمر محمد بن يوسف رئي في المنام فقيل له ما فعل الله بك؟ فقال: أعزَّني في الدنيا والآخرة بدعوة الشيخ الصالح إبراهيم الحربي. وكان لإبراهيم أجوبة حلوة قال له يومًا زميله القاضي أبو عمر محمد بن يوسف لو أردنا أن نوفيك حقك علينا لوجب أن نزورك في كل أوقاتنا فقال إبراهيم: ليس كلُّ غيبة جفوة. ولا كلُّ لقاء مودة والعبرة بتقارب القلوب. وكان إبراهيم رحمه الله يكره أسئلة التنطع والإيغال والفذلكة.

سأله يومًا رجل فقال: يا أبا إسحق حدثنا عن الاسم والمسمَّى. فقال له إبراهيم لي سبعون سنة أجالس العلماء فما سمعت أحدًا منهم يتكلم في الاسم والمسمى. ثم سأله هل عرفت العلم كله؟ قال لا قال فإذا سُئلتَ عن الاسم والمسمَّى فقل هذا من العلم الذي لم يصل إلى علمي. وكان رحمه الله حريصًا على مجالس النحو والأدب حتى لقد قال عنه الأديب اللغوي أبو العباس ثعلب. ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغة ولا نَحْو من خمسين سنة. وكان رحمه الله لا يقبل هدايا الخلفاء ولذا كان يقاس في هذا الأَمر بالإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله. في الزهد والعلم والورع. وروي أن الخليفة المعتضد أرسل إليه مرَّة عشرة آلاف درهم فردَّها ثم سير إليه مرَّة أخرى ألف دينار فردها وقال للرسول: قل للخليفة المعتضد لا تحرجْني وفقك الله ولا تفتني إن في رعيتك من هو محتاج إلى فِلْس وأنا بفضل الله مُستَغْنٍ بالكفاف. وسُئل إبراهيم مرَّة من الغريب؟ فقال: الغَريب هو العالم

الذي كان له إخوة يعينونه على الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فماتوا وتركوه وحيداً في فساد الزمان. وقال له رجل يوماً يا أبا إسحق أنت تكتب الأخبار وتحدث بها فحدِّثنا عن بعض مواقف الكرم فقال: خرج عبد الله بن جعفر إلى بستان لنسيب له. وإذا في البستان عبد أسود يأكل رغيفاً وكلما أكل لقمة ألقى لكلب لقمة فلما رأى ذلك استحسنه وسأل العبد: لمن أنت؟ قال: لمصعب بن الزبير. قال لقد رأيت منك عجباً تأكل لقمة وتطرح للكلب لقمة. فقال العبد: إني لأستحيي من عين تنظر إليَّ أن أوثر نفسي عليها. فرجع عبد الله بن جعفر إلى المدينة فاشترى الضيعة والعبد ثم رجع وإذا العبد في البستان فقال له: لقد اشتريتك من مصعب فوثب قائماً وقال: جعلني الله عليك ميمون الطلعة. قال عبد الله بن جعفر: وإني اشتريت هذه الضيعة. فقال: أكمل الله لك خيرها. قال: وإني أشهُدك أنك حرٌّ لوجه الله تعالى فقال العبد: جزاك الله خيراً وأدام عليك نعمتك. قال وإني أشهد الله أن الضيعة مني هدية إليك. فلم يبد على العبد أي انفعال أو فرحة بالغنى بل قال: أحسن الله جزاءك وإني أشهد الله أن هذه الضيعة وقف مني على الفقراء. فرجع عبد الله بن جعفر وهو يقول: إن هذا العبد لا تكرثه الدنيا أقبلت أم أدبرت وهو والله أكرم من عبد الله بن جعفر. وبلغه أن قوماً ذكروه ففضَّلوه على الإمام أحمد فقال لهم لقد ظلمتموني بتفضيلي على هذا الولي. والله لا أسمعكم شيئاً من العلم أبداً. وكان إبراهيم الحربي رحمه الله على علمه وعبادته جواداً عفيفاً وكان مع ذلك ظريفاً ضاحك السنّ لا يعرف التكبر ولا التجبر يمازح إخوانه مزاحاً عذباً مُهذَّباً وكان له مجلس في الجامع الغربي ببغداد يوم الجمعة. وكان رحمه الله يقول: ما غممت أهلي وعيالي بخبر سيء ولقد أصابتني حُمَّى شديدة فكتمتها وما شكوتها إلى أهلي ولي عشر سنين أبصرُ بفرد عيني وما أخبرت بذلك أحداً وأفنيت من عمري ثلاثين سنة أعيش على رغيفين كل يوم. وكلفني كلُّ إفطاري في رمضان درهماً ودانقين ونصفاً.

وما كنا نعرف من أصناف الطبائخ شيئًا وكنت أجيء من عشاً إلى عشًا فأجد أمي قد هيأت لي باذنجانة مشوية أو باقة فجل. وعرف رحمه الله أن الله كان يرزقه من حيث لا يحتسب وقد أخذ بعض معاصريه عليه أنه كان في صغره يصاحب أحمد بن أبي دؤاد وكان أحمد مبتدعًا في موضوع خلق القرآن. ولما أرسل إليه الخليفة المعتضد عشرة آلاف درهم وردّها غاضبًا لامته امرأته فقال لها أتخشين الفقر؟ قالت نعم. فقال لها: في تلك الزاوية اثنا عشر ألف كتاب بين حديث ولغة كتبتها كلها بخطي فبيعي منها كلّ يوم جزءًا بدرهم وأنفقي على نفسك. ومن أقواله المليحة قوله : الناس أربعة: مليح يتملّح وهذا هو أمنيَّة الروح وغاية المنى. ومليح يتبغَّض وهذا الصنف تشفع له ملاحته فيتحمل الناس دلاله. وبغيض يتملّح وهذا الصنف أرحمه لأنه لم يرزق ملاحة تخفف ظله وهناك الصنف الرابع وهو بغيض يتبغض وهذا الصنف أفرُّ منه فراري من الموت .

وتوفي الشيخ إبراهيم الحربي في الجانب الغربي من بغداد فكانت له جنازة مشهودة سار الناس فيها خاشعين بعد أن صلى عليه إمام عصره يوسف القاضي. رحم الله أبا إسحق إبراهيم الحربي وجعل أخلاقه قدوةً لعلماء المسلمين .



القاضي منذر بن سعيد البلوطي

إن كلمة الحقِّ عند السَّلاطين هي من أعظم الجهاد وهذا أهمُّ ما شدَّني وأنا أقرأ سيرة القاضي المنذر بن سعيد البلّوطي رحمه الله. كان من إحدى القبائل النبيلة بالأندلس ومن موضع يقال له فحص البلُّوط وكان كما وصفه الحافظ الذهبي فقيهًا محققًا وخطيبًا مفوَّها وكان لا يخشى في الحق لومة لائم ومما حُفظ من أخباره أن أمير المؤمنين الأندلسي في عهده أعاد بناء الزَّهراء وجعل من بعض سطوحها قُبة من خالص الذهب والفضة وجلس في تلك القبة والأعيان يهنئونه بذلك الإنجاز العمراني الهائل وكان رئيس القضاة في ذلك العصر هو القاضي المنذر بن سعيد البلوطي رحمه الله فدخل على الخليفة في ذلك اليوم فقال له الخليفة في زهو : هل رأيت أو سمعت أن أحداً من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا فصمت القاضي وكم كانت دهشة الخليفة حين رأى عيني القاضي تتدفقان بالدموع فقال له الخليفة أراك تبكي ونحن اليوم في فرح فقال المنذر رحمه الله : والله ما ظننت يا أمير المؤمنين أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ أن أنزَلَكَ منازل الكفار قال : وكيف أنزلني منازل الكفار؟ فقال الشيخ : أما قرأت قول الله الجليل في سورة الزخرف ﴿ولولا أن يكونَ الناسُ أمَّةً واحدةً لجعلنا لمن يكفرُ بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبوابًا وسُرراً عليها يتكئون. وزخرفًا. وإن كلُّ ذلك لمّا

متاعُ الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ فنكس الخليفة الناصرُ الأندلسي رأسه طويلاً ثم قال : جزاك الله عنا خيراً وعن المسلمين . إذ قلت لنا الحق وأمر بنفض سقف القبة حيثُ حَسَّن بثمنه أحوال المسلمين وجنودهم . وقد اشتهر رحمه الله بمواقفه وهو يخطب خطبًا رائعة تذرف لها العيون وتخشع لها القلوب وكان من تلك المواقف خطبته بين يدي الخليفة المستنصر في حضور رسول ملك الروم (حاكم بيزنطه) وكان بينه وبين حُكام الأندلس مودّة لها أغراض سياسية وعسكرية . في ذلك الموقف حضر في موكب الخليفة الأندلسي رسول ملك الروم وكان الخليفة المستنصر الأندلسي لحاجة في نفسه لا يُحبُّ أن يظهر القاضي المنذر في ذلك الموقف المشهود وكان يزور الأندلس في ذلك الوقت الأديب المشرقيُّ المعروف أبو عليّ القالي صاحب كتاب الأمالي فكلَّفه الخليفة المستنصر أن يخطب في ذلك الموقف الهائل فلما شاهد أبو عليّ ذلك الجمع الحاشد العظيم جَبُن وأرتج عليه فلم تحمله رجلاه ولا أسعفه لسانه وفطن له المنذر بن سعيد رحمه الله فوثب في الحال وأنقذ الموقف وخطب خطبة بديعة أبهت بها الخلائق ودهش منه الخليفة ولكن طابت نفسه حين أثنى القاضي على عهده وما شاع فيه من الأمن وانتصار المسلمين وكان مما جاء في كلام القاضي إن لكل مقام مقالاً ولكل حادثة مقامًا وليس بعد الحق إلا الضَّلال وإني أقف الآن في مقام كريم بين يدي ملك عظيم ومن الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت وإني أذكركم بنعم الله عليكم في ظلال أميركم وفي خلافته المباركة التي آمنت سربكم ورفعت خوفكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقواكم . ومستذلين فنصركم . لقد تولاها والفتنة ضاربة سرادقها على الآفاق، وقد عربد بيننا النفاق فأبدلنا الله بالشدَّة رخاءً . وإني أناشدكم الله : ألم تكن الدماء مسفوكةً فحقنها، والسبل مخوفةً فأمَّنها، والأموال منتهبة فأحرزها، والبلاد خرابًا فعمرها والثغور مهضومة فحماها ونصرها فاذكروا آلاء الله عليكم . ومضى الشيخ كالسيل المندفع حتى ختم بهذه الأبيات التي جعلت الخليفة يعيد النظر

في سلوكه مع الشيخ :

هـذا المقـال الـذي مـا عـابه فَندُ ... لكـنَّ صـاحـبـه أزرى بـه البـلـدُ

لو كنت فيـهم غـريبًا كنت مُطَّـرفا ... لكنـني منهـمُ فـاغـتـالني النكـدُ

لولا الخـلافـة أبـقى الله بهـجـتـها ... مـا كنـت أبقى بـأرض مـا بهـا أحَـدُ

وهنا استحسن الناس الكلام وصلّب رسول ملك الروم بيديه وقال : هذا والله كبش رجال الدولة وكانت للقاضي المنذر رحمه الله مصنفات منها (كتاب الإنباه عن أحكام كتاب الله) وكتاب (الإبانة عن حقائق أصول الديانة)ويبدو فيهما ميله إلى المذهب الظاهريّ .

وذكره أحد علماء عصره فقال : المنذر من أهل النفاذ والتحصيل كان متدربًا للمناظرة، متخلقًا بالإنصاف، جيد الفهم يوالي أهل الفضائل ويلهج بأخبار الصالحين. كان مولعًا بالمسجد الحرام حج في مطلع حياته فأقام في مكة أربعين شهرًا وعاد إلى الأندلس فتقلب في مناصب القضاء حتى أصبح رئيس القضاة. وكان رحمه الله مستجاب الدعوة حدث عنه معاصره الحسن بن محمد فقال : قحط الناس في بعض السنين في أواخر عهد أمير المؤمنين الناصر فأرسل إلى القاضي المنذر بن سعيد البلوطي ليستسقي بالناس فقال القاضي للرسول هأنذا سائرٌ ولكن أخبرني ماذا تركت الخليفة يفعل؟ فقال : تركته منفردًا بنفسه باكيًا لابسًا أخشن الثياب مفترشًا التراب يقول : رب ناصيتي بيدك أتعذِّبنا وأنت أرحم الراحمين فهلل الشيخ عندئذ وقال مُطرنا بإذن الله. ومضى إلى المصَلَّى متخشعًا فبكى ونشج وافتتح الخطبة بقول الله تعالى ﴿سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ وخطب خطبة مبكية فما انفضَّ القومُ حتى نزل غيث عظيم. وحج مرَّة راجلاً فانقطع هو ومن معه وأعوزهم الماء في الحجاز وتاهوا فأووا إلى غار ينتظرون الموت فألصق الشيخ رأسه بحجر يدعو الله ثم عالج ذلك الحجر وخلعه مستعملاً كل قوته فنبع من فوق الحجر ماء شرب منه الناس وتزوَّدوا. ومع ذلك كان الشيخ رحمه الله

يتصاغر جلس يومًا يعظ فقال : حتى متى أعظ ولا أتعظ وأزجُرُ ولا أزدجر أدلُّ على الطريق المستدلين وأبقى مع الحائرين إن هذا لهو البلاء المبين اللهم رغبني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفلت لي به. ويبدو أن القاضي رحمه الله كان صريحًا في مواقفه فاستغرق يومًا في إحدى خُطبه واقتبس قوله تعالى ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ فعين الخليفة الناصر خطيبًا لجامع الزهراء هو أحمد بن مطرِّف .

وكان القاضي المنذر بن سعيد رحمه الله مع علمه البارع ومعرفته الواسعة صاحب دين وورع وزهد وكان جلدًا على الصيام والتهجد وكان يصدع بالحق وقد استسقى غير مَرَة فسقى الله الناس ببركاته. وكان رحمه الله طيب المجلس شاعرًا أديبًا حلو الحديث رحم الله القاضي المنذر بن سعيد البلوطي قاضيًا عادلاً وإمامًا لكل داعية يبتغي بدعوته وجه الله .



إبراهيم بن أدهم

أجَلُّ ما يكون العالم إذا جمع العلم الشريف والخُلُق الطاهر النظيف والقلبَ القنوع العفيف ثم إذا توَّج هذه الفضائل بطموحات الجهاد وحبّ التضحية فهنالك تنفتح أمامه طريق الولاية وتتمهد على يديه سبل الهداية وهذا ما كان من شيخنا العالم الزاهد المجاهد إبراهيم بن أدهم رحمه الله.

نشأ رحمه الله في أحضان النعمة وفي ظلِّ أصل كريم فقد قيل إن أباه كان من سَراة تميم وقال البعض إنه كان من بعض بطون شريفة من قبائل بكر وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب وبُزاة الصيد وكان إبراهيم في صباه مولعًا بالصيد وركوب الخيل وفي إحدى رحلات صيده استغرق في الركوب ومطاردة الصيد فسمع هاتفًا يناديه : يا إبراهيم ألهذا خلقت؟ أم بهذا أمرت؟ فنزل عن فرسه وصادف راعيًا لأبيه فأخذ عباءته وأعطاه ملابسه وفرسه وتوجه إبراهيم إلى بلاد الشام وثغر على البحر يقال له المصيصة حيث رابط وتوجه إلى طرسوس حيث استأجره رجل لينطر له بستانه. فمكث في تلك الحرفة مُدَّة أنست فيها نفسه للعزلة التي فرضتها علية حرفة الناطور ولم يزل رحمه الله يسلك سبيل العلم والعبادة والعفاف حتى نَوَّر الله وجهه حتى لقد كان يشعر من يراه أن الرجل بينه وبين ربّه صلة .

ولقد رآه مرة عالم يقال له ابن عجلان فسجد لله شكرًا على أن رزقه رؤية ذلك الرجل الذي طلق زينة الدنيا وجعل كلَّ همِّه رضوان الله . ولقد سأل رجلٌ عبد الله ابن المبارك رحمه الله : إبراهيم بن أدهم ممَّن سمع؟ ومن أشياخه؟ فقال : إبراهيم ابن أدهم سمع من الناس وهو صاحب فتوحات وسرائر وله فضل في نفسه وما رأيته يظهر عبادة ولا تسبيحًا ولا شيئًا من أفعال الخير . وقال فيه سفيان الثوري كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل ولو كتب الله له صحبة لكان صحابيًا فاضلاً . حدث عنه ولده شقيق فقال قال لي أبي إذا أردت أن تعلو في الصالحين منزلتك فلا تلتمسها بعبادة وحج ولكن احرص على ما يدخل بطنك . يحثه بذلك على التزام الحلال . وقد قال مرة لأحد إخوانه قدمت الشام منذ أربع وعشرين سنة وأقمت محترفًا لأشبع من خبز الحلال . ولقد كان حرص إبراهيم على الحلال عجيبًا وكان رحمه الله كريمًا يشتغل ويدعو أصحابه لطعامه ولقد سُئل عنه مَرَّةً صديق له كان يرافقه . ما أصعب يوم مرّ عليك في صحبة إبراهيم فقال : كنا صيامًا ولم يكن لنا ما نفطر عليه فاكترينا أنفسنا مع الحصادين فاكتراني رجل بدرهم واكترى إبراهيم بأقل من ذلك ثم أقبل إبراهيم على صاحبه يقول له : تُرى هل وفينا صاحب العمل عمله في مقابل الأجر الذي تقاضيناه . ثم باع طعامه وتصدق بثمنه خشية ألا يكون وفى صاحب العمل حقه . وفي كتاب حلية الأولياء يروي صاحب الحلية أن إبراهيم بن أدهم ركب سفينة فهاجت ريح واضطربت السفينة وأشرفت على الغرق وبكى الناس على ظهرها فقال الناس لإبراهيم بن أدهم يا أبا إسحق ادعُ الله لنا فرفع إبراهيم يديه إلى السماء وقال : ياحيُّ حين لاحيّ . وياحيُّ قبل كلّ حي . وياحيُّ بعد كلّ حيّ ياحي ياقيوم يامُحسنُ يامُجْمِل . قد أريْتَنا قدرتك فأرنا عفوك . فهدأت السفينة بقدرة الله من ساعتها . وكان أقدر الناس على قمع شهوات نفسه . كان يجلس على أطايب الطعام فيؤثر أصحابه بها ويقول أخشى والله ألاّ أؤجر في ترك أطايب الطعام لأني بفضل الله لا أشتهيها غابت أو حضرت ويكتفي بعدئذ بالخبز

والزيتون. وحدث سفيان بن عيينة أن إبراهيم بن أدهم سُئل لو تزوَّجت؟ فقال رحمه الله لو أمكنني أن أطلّق نفسي لفعلت. وكان يحصد ويرتجز وهو يحصد:

اجـــعل الله صـــاحـــبًا واطـــرح النـــاس جـــانبًا

وإذا قبض أجرته لم يمسسها وأعطاها أصحابه وقال: كُلوا ما تشتهي أنفسكم وكان يقول كلُّ سلطان لا يكون عادلاً فهو واللص سواء وكل عالم لا يكون تقيًا فهو والذئب سواء وكلّ من ذلَّ لغير الله فهو والكلب سواء. ومرّ مرَّة على قبر فقال رحم الله صاحب هذا القبر إنه قبر حميد بن جابر كان أمير هذه المدن كلها. ثم رزقه الله الزهد فخرج من كلّ ما كان يملك. لقد نام ليلة فرأى فيما يرى النائم رجلاً بيده كتاب ففتحه فإذا فيه كتابة بالذَّهب: لا تغترَّن بمُلك الدنيا فإنه جسيم لولا أنه عديم وإنه مُلْك لولا أنه هُلْك. وهو بعدُ فرح وسرور لولا أنه غرور. وهو يوم لو كان يوثق له بغَد. فانتبه فزعًا وخرج من ملكه وقصد هذا الجبل فعبد الله حتى مات.

وفي أثناء عمله ناطوراً لبستان رُمّان كان يعمل معه خادمٌ لصاحب البستان وفي ذات يوم قال الخادم لإبراهيم اختر لصاحب البستان طبق رُمان من الحُلْو فقال إبراهيم لم أذقه حتى أعلم حلوه من حامضه فقال الخادم والله لو كنت إبراهيم بن أدهم ما عشت طول هذا الزمن في البستان دون أن تذوق منه شيئًا وذهب الخادم في الفجر إلى المسجد فحدَّث الناس عن ذلك الرَّجل الصالح الذي لم يذق رمان البستان وقد قضى فيه ردحًا من الزمن وأعطى الناس صفته فأصبح عدد منهم كبير يطلبون الشيخ وطفق هو أول الأمر يبحث معهم ثم هَرب من بين الباحثين حيث ترك البلد حتى لا يعرفه الناس فيشغلوه عن طاعة ربه. وكان رحمه الله يعمل حصَّاداً وربَّما عمل في الحصاد عمل رجلين ولكن لا يأخذ إلا أجراً عاديًا وكان ربَّما شَغَّل معه بعض الضعفاء فيحصد نصيبه ثم يتحوَّل إليهم فيعينهم فيما بقى من حصتهم وكان كثيراً ما يرابط في الثغور أحيانًا ويغزو في البحر متطلعًا إلى الشهادة. وكان إبراهيم رحمه الله كريمًا يسابق الريح في كرمه. مرّ يومًا على قيسارية وليس

معه إلا دينار وأثناء مروره على بيت ضئيل سمع أنين امرأة فقال ما لهذه؟ قالوا جاءها المخاض وهي الآن تلد. قال وماذا تصنعون للوالدة قالوا يُشترى لها ما يقويها من طعام ومن طحين وسمن وزيت ونشتري لحمًا وعسلاً فصرف الدينار واشترى زنبيلاً وضع فيه دقيقًا وسمنًا وعسلاً ولحمًا وحمله على رقبته إلى بيت المرأة فإذا هم أسرة متعففة تقية فسلمهم الزنبيل وعاد إلى الكرم الذي كان ينطره. وجاءه مرَّة رجل فقال له أنا قادم من عند إخوانك في بلخ وقد أرسلوني إليك ومعي لك أمانة فرس وبغلة وعشرة آلاف درهم بعث بها إخوتك إليك فلم يزد على أن قال له بارك الله فيك على أمانتك قال الرجل أنا عبد عند إخوانك وقد أرسلوني عبدًا عندك فقال إبراهيم زادك الله أمانة أنت حرٌّ لوجه الله وكل ما معك فهو لك. وأرسل إليه مرَّة أحد إخوانه مائتي دينار بعث بها مع عبد من عبيده فلما وصل إلى إبراهيم تفقدها العبد فلم يجدها فقال لإبراهيم أرسل إليك فلان بمائتي دينار فضاعت مني فقال له إبراهيم بارك الله فيك لأنك فقدتها والله إن لله عليّ نعمة كبيرة أن أرضيَ الله من دنانير هذا الصديق وغزا رحمه الله غزوتين في البحر فلما أرادوا إعطاءه سهمه من الغنيمة قال لهم ويلكم وهل يجاهد المرء بسهم؟ وتوفي رحمه الله وهو في الثانية والستين من عمره وخرج من الدنيا غير متعلق بشيء من متاعها الفاني.



محمد بن واسع الأزدي

الإمام محمد بن واسع الأزدي كان يبدو ضئيلاً صغير الجسم قصيراً ولكنه رحمه الله كا يملك من العلم والزهد وبُعد الهمة والعزيمة والصبر والجهاد والتقوى مالو وزّع على بلاد لوسعها. لقد طلب العلم رحمه الله وعشق الحديث النبوي الشريف فكان عالمًا ومحدثًا ثم تاقت نفسه إلى منازل الشهداء فقاتل في الجيش الإسلامي المظفر مع يزيد بن المهلب. ثم قاتل في جيش قتيبة بن مسلم رحمه الله ثم كان مع أبي بردة بن أبي موسي الأشعري مستشاراً يهدي إلى الحق ويحكم به ويرسم لمن حوله أكرم القدوات. ولقد لقبه بعض مريديه ألقابًا شريفة منها عالم البصرة وزين الفقهاء وزينُ القُراء ومن أبرز تلاميذه مالك بن أنس رحمه الله .

وكان في رواية الحديث صدوقًا وصفه علماء الرجال ومنهم الإمام أحمد بأنه كان ثقةً عابدًا صالحًا. ومع أنه كان بين المجاهدين صغير الحجم فقد كان مجردُ وجوده في الجيش يعدلُ آلاف الفُرسان لأنه كان بعبادته مستجاب الدعاء فكان زملاؤه الجنود يشعرون وهو معهم بمعنوية رافعة كلما استجلوا طلعته المشرقة ووجهه الحبيب. ولأن سيرته رحمه الله كانت حافلة بالعلم والجهاد نرى أن نلخص مواقفه الكريمة في نقاط فنقول وبالله العون والتوفيق والسَّداد .

أوّلاً : كان رحمه الله من أعظم الناس عبادة لكنه كان يتصاغر ولا يرى نفسه

شيئًا لتواضعه ورقة شمائله وكان إذا قام لعبادته اختفى وحرص ألا يراه أحد. وتراه أخشع الناس في صلاته. حتى لقد قال عنه جعفر بن سليمان: كنت إذا وجدت في قلبي قسوة زرت محمد بن واسع فيرق قلبي ويلين حين أتملّى تألُّق وجهه وأمارات زهده. وكان إذا قيل له: كيف حالك وكيف أصبحت؟ أجاب في تواضع وأدب: أصبحتُ قريبًا أجلي. بعيدًا أملي. سيئًا عملي. وعلم يومًا أن أحد أولاده فيه افتخار فقال له: تستطيل على الناس وأمُّكَ جارية اشتريتُها بأربعمائة درهم. أما أبوك فمذنب لا أكثر الله من أمثاله. ولقد وصفه موسى بن يسار: صحبت محمدًا ابن واسع إلى مكة فكان يصلي الليل أجمع ويصلي على ظهر الركوبة جالسًا يومىء إيماءً ودعاه القضاة إلى تولي القضاء ولما هُدّد بالضرب قال ما أهون عذاب الدنيا إذا قيس إلى عذاب الآخرة ودعاهُ أحد الولاة إلى وظيفة فرفضها فقال له أنت أحمق فقال له الشيخ الآن قد عرفتني معرفة جيدة فقد عرفني أهلي بهذا اللقب منذ صغري. وكان رحمه الله يوالي الصوم ويخفيه. وسأله يومًا أحدُ الوعاظ فقال: لماذا أعظ الناس فلا أرى قلبًا يخشع ولا عينًا تدمع فقال له: لو خَرَجَ ذكرُك من قلبك لوقع في قلوب مستمعيك ولكنه خرج من فمك ولسانك فلم يدرك قلوبهم.

ثانيًا: في أثناء جهاده في حملة يزيد بن المهلب كان العدوُّ هائل العدد والعدة وكانوا ربما باغتوا المسلمين ويكون الشيخ يقظًا حذرًا دوامًا فيهتف بأعلى صوته: ياخيل الله اركبي فيدوي صوته في فرسان المسلمين فيلهبهم ويسمعه الأعداء فيرهبهم. وفي إحدى المعارك في منطقة دهستان شرقي بلاد فارس تكاثر الأعداء على المسلمين وبرز من الكفار فارس كأنه قطعة الصخر يدعو إلى المبارزة فلم يتقدَّم أول الأمر أحد من المسلمين لمبارزته ولشدَّ ما كانت دهشة القوم حين رأوا الشيخ رحمه الله يتقدَّم لمبارزته فثارت الغيرة في عساكر المسلمين وتقدموا إلى الشيخ أن يترك المبارزة لمن هم أصغر وأشدّ وقالوا له يكفينا دعاؤك لنا بالنصر والتمكين ونزل أحدهم للعلج وطفق الشيخ رحمه الله يدعو للبطل المسلم أن يثبته الله ويمكنه وطالت

بينهما المجاولة والمصاولة وتغطرس العلج في مشيته يتبختر ويتمايل وانتهز الفارس المسلم فرصة الخيلاء فانقض على العلج وضربه بالسيف في رأسه فردّ العلج بضربة مماثلة على رأس الفارس المسلم لكن دعاء محمد بن واسع كان لا يزال يؤنس المسلمين وإذا ضربة العلج لا تتجاوز سطح خوذة الفارس المسلم بينما ضربة المسلم قد نفذت إلى جميع رأس الكافر حتى استقرت في نحره وهنا هلل المسلمون وتهدمت معنوية الكافرين وتفرقت صفوفهم وأخذتهم سيوف المسلمين فاستسلم قائد الأعداء ونزل عن غنائم لم يستطع المسلمون عدَّها فاقتسموها بالبركة وغنم المسلمون تاجًا عظيمًا تمنى كثير من الفرسان لو يحظى به ولكن القائد يزيد بن المهلّب أهدى ذلك التاج إلى الشيخ محمد بن واسع الأزدي فقبله في أول الأمر إحترامًا للقائد لكنه لم يلبث أن ردّه ٠ بحجة أن مثل ذلك التاج لا يلزم لمثله فقال يزيد الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يرفض مثل هذا الكنز العظيم وحاول إعطاء الشيخ ذهباً في مقابل التاج لكن الشيخ رفض قائلاً: أعاهدك إذا إحتجت إلى المال أن أطلب منك دون غيرك ٠ وقد رأى الشيخ أن حدة المعارك خفَّت بعد ذلك النصر فاستأذن قائده أن يتوجه إلى مكة المكرمة لأداء الحج فأذن له وودعه آسفًا على فراقه لأن بركة حضوره كانت كأنها جيش .

ثالثًا : في زمن القائد قتيبة بن مسلم رحمه الله صمّمَ قتيبة أن يفتح بلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) فعسكر قرب مدينة بيلند ولكنَّ الأعداء جمعوا جموعهم من الصين والترك والصغد وسدّوا في وجوه المسلمين الطرق فضاق المكان على المسلمين وكان للعدو غارات انقضاضية يومية على جيش المسلمين يغيرونها ثم يدخلون حصونهم. وهنا كتب قتيبة إلى أمراء الأقاليم أن يبعثوا بالمتطوعين وأن يطلبوا من أئمة المساجد أن يدعوا على منابرهم بنصر المسلمين. وفي الحال أقبل المتطوعون وكم كانت فرحة قتيبة حين رأى الشيخ محمداً بن واسع الأزدي في مقدّمة المتطوعين وهنا أحسَّ أن روائح النصر تفوح من أعطاف ذلك الإمام. وفي

صباح تلك المعركة الفاصلة نظر قتيبة إلى جموع الأعداء فهالته كثرتهم فسأل عن الشيخ محمد بن واسع فقيل له إنه في الميمنة يشير بيديه إلى السَّماء. فابتهج وقال: تلك البنان أحبّ إليَّ من مائة ألف سيف في أيدي مائة ألف فارس. واحتدمت المعركة وصاح الشيخ صيحته المشهودة: ياخيل الله اركبي. واقتتل الجمعان طول النهار واستجاب الله عزَّ وجلّ دعاء محمد بن واسع ودعوات الأئمة والمسلمين وصدقهم الله وعده وولّى العدو الأدبار وأثخن فيهم المسلمون ضربًا وقتلاً وأسراً وكانت تلك المعركة الفاصلة قاصمة الظهر للأعداء حمى الله بها تخوم المسلمين وثغورهم ولم يمض بعدها كبير وقت حتى اختار الله جلّ جلاله الإمام محمداً بن واسع الأزدي فمات رحمه الله وهو يقول: اللهم إني ألقي إلى رحمتك قيادي قبل أن يكون عذابك لزامًا.

ما أجمل أن يتخذ علماء المسلمين من سيرة محمد بن واسع في العلم والجهاد أسوة فيجمعوا في سيرتهم بين الإخلاص في طلب العلم وبين صدق التوجه في العبادة والدعاء، ويضيفوا إلى كلّ ذلك صدق الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.



أبو أحمد الموفق ولي العهد العباسي

أبو أحمد الموفَّق اختاره أخوه الخليفة المعتمد وليَّ عهد له وكلاهما ابنٌ للخليفة المتوكل وكان الخليفة المعتمد ميالاً للهو فترك لأخيه ولي العهد أبي أحمد طلحة الموفق أن يتصرَّف في الحرب والسِّلْم كيف يشاء. وكانت الفتنة العمياء التي أظلت ذلك العهد منذ الأيام الأولى من خلافة المعتمد هي فتنة الطاغية الخبيث صاحب الزنج التي استمرت زهاء خمس عشرة سنة وعلى وجه التحديد استمرت أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وكان بطل تلك الحرب من الجانب المؤمن هو أبو أحمد الموفق الذي نحن بصدد سيرته في هذه الحلقة إن شاء الله. حين رأى ولي العهد أبو أحمد الموفق ولوع أخيه الخليفة المعتمد باللهو فاستشعر عظمة العبء الذي على عاتقه وأنه لن ينقذ دولة الإسلام من ذلك الخطر الداهم إلا رجل مجاهد صدق ما عاهد الله عليه. وقد جاء في سيرة الموفق رحمه الله أنه هجر اللهو طول حياته وما اكترث إلا بالجهاد وحين نهض بالأمر وجد نفوذ صاحب الزنج كأنه الطاعون المدمّر أو الطوفان الجارف. وصاحب الزنج هذا رجل قام في البحرين وادعى أنه من العترة النبوية من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد تبعه عدد اعتقدوا أنه نبي كان معظمهم من الزنج لأنه أطمعهم في المناصب ومناهم الأماني فخرجوا على طاعة أسيادهم ثم أذن للعبيد فضربوا السَّادة وكون منهم جيشًا كان نواة لجيش

الزنج الذي عاث هو وزعيمه الخبيث فساداً في أرجاء البلاد الإسلامية ثم تغلب الزنج على الأبلَّة فأحرقوها وقتلوا معظم أهلها ثم استولوا على عبادان ودخلوا الأهواز فخرَّبوها وفي هذه الأثناء بدأ اسم ولي العهد الموفق يبرز ولكن حدث ما كدَّر الأمور حين هجم الزنج على البصرة وخرَّبوها وأعملوا في أهلها مقتلة عظيمة لكنَّ عزيمة ولي العهد عرفت أن الحرب ستطول وكان من حسن الطالع أن هُزم عدد من الزنج وكانوا مع قائد مهم من قادتهم يقال له يحيى بن محمد فظفر به ولي العهد فقطع يديه ورجليه وقتله ولما بلغ خبره صاحب الزنج أحسَّ أنه في مواجهة قائد عظيم. ولكن الحرب كانت سجالاً فقد دخل الزنج الأهواز وكانت وقعة هزم فيها جيش ولي العهد فما زاده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا. ولما أراد الله تعالى نصر عبده ولي العهد الموفق سار إلى مدينتهم التي سموها المنيعة قادمًا إليها من سوق الخميس فانقض عليها رحمه الله كالصاعقة هو وابنه أبو العباس فهزم جيش الزنج هزيمة منكرة فاعتلى بعسكره سورها وأعملوا السيوف في رقاب الزنج واستباحوا المدينة فقتلوا وأسروا وغنموا واستنقذوا من أسيرات المسلمات قرابة خمسة آلاف امرأة وظفروا من الزنجيات بعدد كبير فأمر أبو أحمد بحفظ النساء وأعادهن إلى أهليهن وبلغ الخبر صاحب الزنج فأحسَّ أن مصيره أصبح وشيكًا. وتعقب ولي العهد فلول أهل طهثا إلى واسط وهناك نصره الله على الخط الثاني للزنج فاستنقذ من أهل واسط أكثر من عشرين ألف امرأة مسلمة بعد معركة ظافرة قتل فيها عدد من قواد الزنج وأسر فيها مقدم منهم اسمه أبو عيسى محمد بن إبراهيم البصري ومع تلك الهزيمة الباهظة كتب أبو العباس ابن ولي العهد إلى زعيم الزنج الخبيث خطابًا يدعوه فيه إلى التوبة والإنابة مما ركب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وتخريب البلدان واستحلال الحرام وادعاء النبوة وبذل له الأمن والأمان فاستنكف الخبيث وأخذته العزة بالإثم ولم يتنازل أن يرد على رسالة الخليفة المسلم وهنا ثارت ثائرة ولي العهد أبي أحمد الموفق فمضى يلم شعث جيشه ويصلح أطرافه وينظم قواده وتوجه إلى

مـدينة صـاحب الزنج فـركب أسـوارها وشب القـتـال من شـارع إلى شـارع وانتصـر عسكر الخبيث في بعض الوقـائع لكن النصـر كان مع الصبر فلم يزل ولي العـهد بعسكر الخبيث حتى طلب كثير من قواده الأمان وفي موقعة أخرى أصيب الموفق بسهم في صدره وإذا جراحه بالغة لكن الله منَّ عليه بالشفاء وهنا تولى القتال الموفق نفسه وجراحه تنزف واقترب من وسط مدينة الخبيث فاحتل دواوينه وبدأت تباشير النصر وتحمل الموفق سهمًا آخر في صدره من رومي يقال له قرطاس فكتم الجرح أبو أحمد الموفق وكتب الله له الشفاء السريع وبعد معارك طاحنة أغار الموفق على شرقي مدينة الخبيث واحتل سوقًا مهمَّة يقال لها المباركة ولكن الخبيث شغل جيشه بإصلاح غربي البلد وأقام حصنًا رهيبًا لكن الموفق رحمه الله صابر فهدم جيشه الحصن حيث قتل من فيه من الزنج واستنقذ عددًا كبيرًا من الأسرى رجالاً ونساء وأصدر عفواً عامًا عن كل من استأمن من قُوَّاد الخبيث وأتمَّ احتلال جميع المدينة فصار الزنج لا ينامون لشدة رعبهم وأدرك الخبيث وابنه وخلاصة قادته أن يومهم قد اقترب ولما أراد الله هلاك الخبيث والقضاء على فتنته سار الموفق إلى آخر حصون الخبيث وقامت المعركة الحاسمة التي شتت فيها جيش الخبيث وانتهى الموفق إلى آخر النهر العريض فطهر الموفق جيوب الخبيث من مقاتليها وقتل أقطاب الفتنة كالمهلبي وسليمان بن جامع وانكلاي ابن الخبيث وفي نهاية المعركة اعتصم عدد من قادة الخبيث ومنهم قرطاس الذي أصاب الموفق بسهم كاد يقتله فأطبق جند الله على آخر أصحاب الخبيث وأبادوهم وعاد ولي العهد الموفق رحمه الله سالمًا غانمًا وقد شفاه الله من كل جراحاته. وتجلّت قرائح الشعراء بمدائح للموفق وجنوده وكان من القصائد الرائعة قصيدة يحيى الأسلمي ويحيى بن خالد بن مروان وأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وقد عاش الموفق بعدها ثماني سنوات عزَّ فيها الإسلام وحمى الله الموفق بالجهاد من كل سوء. في ذلك العصر الذي كان فيه خلفاء بني العباس لعبة في أيدي غلمان القصور حتى لقد مات عدد منهم قتلاً بعد أن تسمل أعينهم

وشوهد بعض الخلفاء وهو القاهر يشحد على باب مسجد بعد الصولجان والسرير لكنّ أبا أحمد الموفق مات موتة هادئة وخلفه على العرش ولده الذي بويع بعده وسمي الخليفة المعتضد. والذي كُتب له جهاد مشرف شبيه بذلك الذي خاضه أبوه وأحياه الله بالجهاد حياة عالية طالت فيها أيام ملكه وسلم من المصائب التي كان يقع فيها الخلفاء اللاهون. وكان ولي العهد الموفق رحمه الله موصوفًا بصفات المؤمنين الأتقياء والموفقين العظماء فقد عزف عن اللهو منذ ولاه أخوه المعتمد ولاية العهد ومن اللحظة الأولى اشتهر بالعدل وحسن السيرة فكان يجلس للناس ومعه القضاة فينصفُ كلَّ مظلوم حتى عمّ الرَّخاء وأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وقد قلنا سابقًا إن وليَّ العهد ظلَّ هو الحاكم الحقيقي وأن أخاه المعتمد ظل شبه محجور عليه. وكان رحمه الله من أهل العبادة يكثر الصلاة ويتوجه إلى الله قبيل المعارك هو وجنده بالدعاء وعرف عنه أنه كان أديبًا وعالمًا بالأدب ومتذوقًا لجيد الشعر وعارفًا بالأنساب متقنًا للفقه وسياسة الملك وكان أوسع الناس كرمًا على جنوده واسع العفو عن أعدائه إذا استأمنوه قبل ولم يغدر وكان في معاملة ضيوفه يتشبه بجده عبد الله بن عباس الصحابي الجليل الكريم وكان يروى عن جده أنه رضي الله عنه كان يقول: إن الذباب ليقع على جليسي فيؤذيني ذلك. وكان يقول والله إني أرى جلسائي بالعين التي أرى بها إخواني وجمع يومًا إخوانه فأنشد:

وأستصحب الإخوان حتى إذا دنوا ... وملُّوا من الإدلاج جئتهم وحدي

رحم الله أبا أحمد طلحة الموفق إمامًا مجاهدًا نصر الله به السنة ودمر البدعة وأشياعها.

٩١

عبد الرحمن الناصر
أول أمير مؤمنين بالأندلس

عبد الرحمن الناصر هو ثامن أمراء الأمويين بالأندلس وأول من سمى نفسه أمير المؤمنين وقد فعل ذلك حين رأى بلاط عصره أجلّ بلاط وأعظمه وحين علم أن الخليفة العباسي في بغداد يُخلع ويُهان متى شاء خَدَمُ القصر حتى لقد خلع وقتل عدد من الخلفاء بعد أن جردوا وسلبوا وسملوا (أي أخرجت أعينهم على مَسلاَّت محميات على النار إلى درجة الإحمرار. ثم رأى الفاطميين في مصر سمّوا أنفسهم أمراء مؤمنين على ما كان عليه ملكهم من فقدان للقاعدة الشعبية ولهذا عمم عبد الرحمن الناصر رحمه الله بعد توليه الملك بسبع عشرة سنة أن لقبه منذ ذلك الوقت هو الخليفة أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله وبذلك أصبح في العالم ثلاثة أمراء مؤمنين وهم أمير المؤمنين العباسي وأمير المؤمنين الفاطمي وأمير المؤمنين الأندلسي. ومما يزيد الدارس إعجابًا بعبد الرحمن الناصر أنه تولى الأمر وبلاد الأندلس في ضعف شديد وقد استقل عدد من حكامها عن قرطبة وخلت خزينة الدولة من المال واستولى النصارى على طليطلة وعدد من الولايات ثم استبد حاكم يقال له ابن حفصون بغرناطة حين ارتد عن الإسلام وأعلن نصرانيته وأثار سكان الجبال على الحكومة المركزية وقد وصف المقَّري في كتابه نفح الطيب حال الأندلس فقال: كانت مضطربة بالعصاة والمخالفين. مشتعلة بنيران المغتصبين فتمكن

عبدالرحمن في بضع عشرة سنة أن يطفىء تلك النيران ويقمع أهل العصيان وبعد نيف وعشرين عامًا من أيام الخليفة عبد الرحمن كانت ديار الأندلس تدين لعبد الرحمن الناصر بالولاء حتى الدول النصرانية وفتحت المدن أبوابها للأمير المتوثب الجديد وانقضَّ عبد الرحمن على حصون ابن حفصون في الجبال فدمّرها على منعتها وأخضع ذلك الثائر المرتد العنيد. ولما دخل الحصن الرئيسي في تلك المناطق الوعرة سجد لله شكرًا على ما أولاه من نعمة النصر وظل طول مدة إقامته في ذلك الحصن صائمًا وعفا عن أعدائه من العرب عفوًا عامًا. وخضع له العرب والأسبان والبربر والثائرون في المناطق الجبليَّة. وفي الشمال هجم على الملك النصراني شانجه وهدم عاصمته وكان عبد الرحمن يتعرض لمصائب وهزائم ولكن الله كلل جهاده بنصر مؤزر عزَّ به الإسلام وذلّ به الكفر وقد أطنب المؤرخ النصراني في صريح أخلاق عبد الرحمن وما تحلى به من رفق وسماحة وعدل شمل به المسلمين والنصارى الذميين معًا على الرغم من أن سياسة النصارى كانت غالبًا ما تقوم على ذبح المدن وتدميرها .

وقد أعلن الأمير عبد الرحمن عن سياسته حين أصدر نداءً للرعية فدعا كلَّ الخارجين أن يخضعوا لسلطانه واشتد على عصابات اللصوص والمجرمين الذين تعوَّدوا أن يقطعوا الطريق ويتلفوا الزروع فوثق الناس في أميرهم الشاب وساروا محبين تحت لوائه حين تعقب المجرمين في كل مكان حتى خضع له بَرُّ الأندلس وبحرُها. وكان عبد الرحمن موفيًا بالعهود يكرم الثائر الذي يستسلم ويتنازل عن حصنه ويقربه ويجزل له الهبات حتى يحبَّه بقلبه. وقد جاء في وصف أخلاق عبدالرحمن أنه بما كان يتحلى به من فضائل أنقذ الأندلس من نفسها ومن أعدائها ووصفه المؤرخ لينبول أنه جعل قرطبة أغنى وأكثر ازدهارًا من أي مكان في الدنيا وعم في عهده الخصب وانتصر على كل فوضى وتسابق إلى بلاطه رسل الملوك النصارى وكان أغرب ما في سلوك عبد الرحمن أنه لم يكن يقعد عن الجهاد أبدًا

ومن الطرائف التي رويت عن ذلك الحاكم المجاهد أنه كتب عن نفسه أنه أحصى أيام السُّرور التي استمتع بها مُدة خلافته وكانت مُدة خلافته خمسين عامًا أحصى أثناءها أيام سروره وكتب تلك الأيام بتواريخها وإذا هي كما كتبها بخط يده أربعة عشر يومًا ويقول المؤرخ الذي نقل النبأ وهو صاحب نفح الطيب فاعجبْ أيها العاقل لهذه الدنيا وبخلها بكمال النعيم. الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي حطم سُدود الشرّ وضرب به المثل في النصر والصعود ملكها خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ولم تصف له سوى أربعة عشر يومًا فسبحان ذي العزة الدائمة والمملكة القائمة لا إله إلا هو.

ولابد لمن يؤرخ لعبد الرحمن الناصر أن يصف تحفته العمرانية التي اعترف من شاهدها وتجوّل فيها أنها لم يكن لها مثيل قبلها في سجل من شيّد وعمّر إلا وهي مدينته التي أنشأها لسكنه وحكمه وكانت المقرَّ الرسمي لملكه ونعني بها مدينة الزهراء التي بناها على بعد اثنى عشر ميلاً في الشمال الغربي لعاصمته قرطبة على جبل العروس مطلة على نهر الوادي الكبير: ومدينة الزهراء هذه نعني بها وجوهها الثلاثة الجامع والقصر والمدينة أما الجامع فقد عمل في بنائه من حُذَّاق أهل المهنة كل يوم ألف نسمة منهم ثلاثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الأجراء وأرباب الصنائع فكمل بناؤه في ثمانية وأربعين يومًا وطوله قرابة مائة ذراع وعرضه قرابة ستين ذراعًا وطول مئذنته في الهواء أربعون ذراعًا. وأما القصر فقد أجمع الناس على أنه لم يُبنَ مثله وكان يدهشك فيه السطح الممرد المشرف على الروضة المباهي بمجلس الذهب والقبة وما اشتملت عليه من المرمر المسنون والذهب الموضون ونقوش كالرياض وبرك وحياض وأمور لا يستطيع الفكر البليغ أن يعبر عنها وقد أجرى إلى القصر المياه العذبة من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة إلى القنوات المهندسة والأقواس الرائعة يجري ماؤها بتدبير وصنعة محكمين إلى بركة عظيمة عليها أسد هائل الصورة شديد الروعة مطلي بالذهب الخالص وعيناه جوهرتان لهما

وميض شديد. والأسد يمج الماء من فمه فتسقى من مياهه رياض القصر وجنانه ويعود الفاضل من الماء إلى النهر العظيم وكان مبلغ ما ينفق لها كل يوم أثناء عملية البناء من الصخر المنحوت المهندس المنجور ستة آلاف صخرة وكان يخدم في بنائها كل يوم ألف وأربعمائة بغل ويأتيها في كل ثالث من الأيام ألف ومائة جمل محمل بما يلزم.

وقدرت النفقة على الزهراء بثلاثمائة ألف دينار سنويًا لمدة خمس وعشرين سنة وكانت الشرفة تنحت من حجر واحد وقسَّمها ثلاثة أقسام فالقسم المسند إلى الجبل وقصوره الثلث والثلث الثاني دور المماليك والخدم وكانوا اثني عشر ألفًا بأحزمة الذهب ويركبون بركوب الخليفة والثلث الثالث بساتين القصر وعمل مجلسًا مُشرفًا على البساتين صفح عمده بالذهب ورصعه باليواقيت والزمرد واللؤلؤ وفرشه بروائع الرخام وصنع قُدَّامه بحيرة مستديرة ملأها زئبقًا فكان النور ينعكس منه إلى المجلس فدخل عليه يومًا قاضيه الشيخ المنذر بن سعيد البلوطي وكان من فضلاء العلماء فبكى حين رأى الأبهة فسألهُ الخليفة لمَ بكيت قال تذكرت قوله تعالى ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون. ولبيوتهم أبوابًا وسررًا عليها يتكئون. وزخرفا. وإنْ كلُّ ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ فقال الخليفة وعظت أبا الحكم ثم قام من المجلس وأمر بنزع الذهب والجواهر. وكان عبد الرحمن رحمه الله إلى جانب ولوعه بالعمران وقافًا عند حدود الله عادلاً عظيم الرأفة ذوَّاقًا للأدب وروائع الشعر وقد رفع طول أيام خلافته الزاهرة علم الجهاد وقمع أهل الظلم والفسَاد وكان فيه صَيَدٌ وسؤدد ومهابة وإقدام وفي سلوكه قدوات صالحات روى أنه أصابهم في بعض السنين قحط شديد. فجاء رسول قاضيه المنذر بن سعيد البلوطي وكان من عظماء القضاة ورعًا وزهدًا وجرأة في الحق ودعاه إلى الخروج للاستسقاء فرآه مستعدًا وقد لبس ثوبًا خشنًا من الصوف وهو يبكي ويستغفر ويتذلل لله يناجي ربَّه

ويقول: إلهي ناصيتي بيدك لا تعذب الرَّعية بي فإنك لن يفوتك مني شيء فلما رجع الرسول إلى القاضي ووصف له ما رآه من أمر الخليفة تهلّل وجه القاضي وقال: إذا خشع لله جبار الأرض رحم جبار السماء أهلها واستسقى القوم يومها فسقوا سقيا عجيبة وقد أحصيت على عبد الرحمن أخطاء منها ولوعه بالترف وقد علق الحافظ الذهبي على ذلك فقال إذا كان الرأس عالي الهمة في الجهاد احتملت هناته وحسابه على الله وأما شر الحكام فهو الذي يميت الجهاد ويظلم العباد إن ربك لبالمرصاد .

٩٢

المنصور بن أبي عامر

محمد بن عبد الله بن عامر عربي من قبيلة معافر القحطانية نشأ في الأندلس في الجزيرة الخضراء قدم في شبابه إلى قرطبة يطلب العلم فظهر عليه نبوغ وطموح. أمه من بني تميم من عرب شمال الأندلس وكان أبوه زاهدًا في مناصب الدولة عاش عيشة لا مغامرة فيها حتى توفاه الله قريبًا من طرابلس الغرب وهو عائد من الحج. أما محمد فنشأ طموحًا لمناصب الدولة وبسبب تفوقه العلمي تقدّم في مناصب الدولة وإذا هو مدير حرس القصر ثم كان قاضيًا في اشبيلية. ولما مات الخليفة الحكم المستنصر الأموي كان ولي عهده المؤيد صغيراً في الثانية عشرة من عمره فخشيت أمه الأميرة صبح أن تضطرب البلاد فضمن لها صاحبنا ابن أبي عامر أن يجاهد جهاداً متصلاً يبث في البلاد الأمن ويحميها من الاضطراب فسمَّى نفسه في وظيفة (الحاجب) ووثقت به الأميرة صبح وأصبح الخليفة المؤيد اسمًا بلا نفوذ وتصرَّف في أمور المُلك كله الحاجب المنصور كما لقب فيما بعد. وبتوفيق الله ثم بالعزيمة والأخلاق والجهاد الشجاع رفرفت رايات النصر على المنصور بن أبي عامر ولم يخلع لأمَةَ القتال ولا عُدَّة الحرب ستًا وعشرين سنة غزا خلالها ستًا وخمسين غزوة ما عرف أنه هُزم في واحدة منها حتى لقد أصبح اسمه رعبًا للنصارى وقد بلغ من حقد المؤرخين النصارى على سيرة المنصور أن مؤرخًا نصرانيًا راهبًا حين أرخ

حادثة موته قال: تُوفي في مدينة سالم وهو راجع من الغزو ليلة الاثنين لثلاث ليال بقين من رمضان سنة ٣٩٢هـ ٨/٨/ ١٠٠٢ توفي بداء البطن كتب ذلك المؤرخ الراهب كما يروي الدكتور فيليب حتى في سنة ١٠٠٢ مات المنصور فدفن في جهنم. وفي سيرة المنصور بن أبي عامر كتب المستشرق رينولد يقول (جال غُزاة المسلمين تحت رايات المنصور في قشتاله وليون وناباره وأرغون وكتلونيه إلى أن وصلوا إلى غسقونيه وجنوبي فرنسا وجاست خيل الإسلام في أماكن لم يكن خفق عليها علم إسلامي وسقطت في أيدي المسلمين مدينة سنتياجو الحصينة وكان فيها أقدس معهد مسيحي) ولما أحسَّ رحمه الله بقرب وفاته أوصى أن يُجْمع غبار المعارك التي خاضها في سبيل الله وكان قد نفض عن ثيابه ترابها وصنع من ذلك التراب لبنة كبيرة وأوصى أن تجعل له وسادة تحت خدّه في مثواه الطهور إن شاء الله.

ومن المعروف أن المؤرخين يحلو لهم نسج القصص الغرامية وقد نسجوا قصة من هذا النوع بين الأميرة صبح أرملة المستنصر ووالدة المؤيد وبين المنصور ولكن الجدية التي اكتنفت أعمال الحاجب المنصور وصدق الجهاد الذي شمل حياته كلَّها والطموحات البعيدة التي كانت تبدر على لسانه كل هذه تجعل القصة تبدو مبالغًا فيها. لقد روي عن المنصور في صغره أنه كان جالسًا يومًا في مدرسته مع زملائه فقال لهم: إذا أصبحت حاكم الأندلس فإني أعدكم إذا كتب الله لكم زيارتي في قصري أن أُلبي لكل منكم ما يطلبه ويتمناه فقال أحدهم أنا أطلب أن تسند إليَّ الحسبة وقال الثاني أما أنا فتسند إليَّ ضمان الخراج وقال الثالث إذا صرت يامحمد حاكمًا للأندلس فرغبتي إليك هي أن تُركبني حمارًا وتجعل وجهي إلى قفاه وظهري إلى رأسه وتزفَّني في الأسواق على تلك الحال ويقال إنهم زاروه ثلاثتهم وحقق لكل واحد منهم ما طلبه. وكان كلُّ أهل القصر يحبون المنصور ويدعون له إذا خرج للغزو أن يكتب الله له النصر والعودة الظافرة. وكان المنصور رحمه الله عالمًا متقنًا للغة والحديث درس اللغة على أبي علي القالي والحديث على أبي بكر بن

القوطية وأبي بكر القرشي ثم أتقن فن الكتابة على يدي القاضي محمد بن إسحق السليم . وكان حول المنصور في القصر رجال من كبراء موظفي القصر يحسدون المنصور منهم غالب الصقلي والمصحفي وابن حمدون والشريف الإدريسي فدبر لكل من هؤلاء مقتلاً وكان يعينه على الغلبة انتصاراته المتتالية في معاركه العنيفة التي ما هزم في واحدة منها مع أنه في بداية عصره رأى حشود النصارى تتقدم وتحاول أن تنقص أرض الدول الإسلامية من أطرافها وبالفعل كان بعض نفوذ دولة الإسلام قد تقلص في بداية عهد المنصور لكن الرجل كان فعالاً ولم يكن قوّالاً ثم إنه كان من عظماء أهل الرأي ومن ذوي الحزم والشجاعة والبأس وكان له رحمه الله شعر وكتابة ونثر وقد شيد الحاجب المنصور مدينة الزاهرة شرقي قرطبة ليخلد لنفسه ذكرًا عمرانيًا يبقى على الزَّمن وأتم بناءها على أروع النماذج العمرانية وانتقل إليها وقد لُقب بالمنصور بن أبي عامر رحمه الله حمى الدولة الإسلاميَّة في الأندلس بجرأته التي لم تعرف الخوف فقد كان سريع الهجوم لا تأخذه في قتال النصارى رهبة ولا تخوُّف. وكان الخليفة الحكم المستنصر يحب كتب الفلسفة فلما جاء المنصور بن أبي عامر جمع كتب الفلسفة وقرأ فيها فوجدها جوفاء فأمر بجمعها وإحراقها وأما كتب الطب والحساب فأبقاها. ولكثرة غزواته توفر السبي من النصرانيات حتى لقد بيعت بنت عظيم ذات حسن بعشرين ديناراً وكان المنصور جواداً ممدّحا معطاءً وكانت له في الأسبوع جلسة علم مع العلماء الفضلاء الذين كان يجلهمً ويكرمهم. وكان إذا غزا غزوة لا يفك الحصار عن عدوه إلا بعد استسلامه غزا مرة غزوة في بلاد أرغون فلما رأى مناعتها أمر أن تبنى مقابلها مدينة للمصابرة ولم يزل بالعدو حتى استسلم فكان من شروطه أن يزوجه ملك أرجون ابنته وخضع العدو وزف الجميلة إليه فقال لها أهلها لا تنسي الرحم والأصل فقالت لهم الوطن لا يُحمَى بالنساء ولكن يُحمى بأسلحة الرجال. وكان المنصوز رحمه الله لا يسأم القتال روى عنه أنه قدم من غزوة فلما دخل قصره عائداً تعرَّضت له امرأة

مسلمة في ساحة القصر فقالت يامنصور يضحك الناس وفي بيتنا مأتم إن ابني أسير في بلاد الروم فأبى المنصور حين سمع شكواها أن يدخل القصر وثنى عنان فرسه عائدًا إلى غزوة جديدة للبلدة التي أسر فيها ولدها . وعصاه يومًا أحد أولاده ولجأ إلى ملك سمُّوره النصراني فحاصر المنصور سموره ولم يفك عنها الحصار إلا بعد أن سلّموه ولده فقتله أمامهم وكان رعبهم شديدًا لما رأوا من شدة بأسه حتى على ولده ومن شجاعته رحمه الله أنه أحيط به مرَّة وهو على رأس جبل في مدينة يقال لها فُتَّة فاحتال حتى وصل حافة الجبل ثم قذف بنفسه من أعلى الجبل وتلقاه رجاله في الوادي فظل مفدَّع القدمين لا يستطيع الركوب وغزا وهو على تلك الحال غزواته الثماني الأخيرة .

وكان المنصور رحمه الله أديبًا ينظم الشعر ويكتب جيد النثر فمن شعره قوله :

ألم ترني بعت المقامة بالسُّرى ... ولين الحشايا بالخيول الضوامر

وبدّلت بعد الزعفران وطيبه ... دروعًا من المستحكمات المسَامرِ

فلا تحسبوا أني شغلت بلذة ... ولكن أطعت الله في كل كافرِ

وهذه أبيات يُبدي فيها طموحه لاحتلال المشرق :

منع العين أن تذوق المناما ... حبُّها أن ترى الصفا والمقاما

لي ديون بالشرق عند أناس ... قد أحلوا بالمشعرين الحراما

إن قضوها نالوا الأماني وإلا ... جعلو دونها رقابا وهاما

عن قريب ترى خيول هشام ... يبلغ النيل خطوها والشاما

رحم الله الملك المجاهد المنصور بن أبي عامر وأكثر الله المجاهدين في صفوف المسلمين .



المعتمد بن عبّاد ملك اشبيلية

المعتمد بن عباد ملك أشبيلية كانت فيه أخلاق الملوك وكان له سمت الملوك وطريقتهم وهيبتهم. كان ممدَّحًا كريمًا، وكان شاعرًا حكيمًا أديبًا وكان ينتمي إلى أصل عربي عريق إذ كان من نسل المنذر بن ماء السماء اسمه محمد بن إسماعيل بن عباد وجدّه عباد كان قاضي اشبيلية ثم قوى نفوذه حتى صار ملكها. ثم جاء بعده ابنه المعتضد وتلاه حفيده المعتمد الذي نحن بصدد سيرته فكان فارسًا مُعْلمًا شجاعًا وعالمًا أديبًا ومحسنًا جوادًا كبير الشأن وكان أفضل ملوك بني عبَّاد الذين حكموا أشبيلية ذكره ابن خلكان فقال : كان أندى الملوك راحة وأرحبهم ساحة. وكان بابه محط الرجال وكعبة الآمال. وله شعر في غاية من الحكمة والرصانة والجمال. وقال عنه الشاعر ابن اللبَّانة ملك المعتمد من الحصون مائتي حصن وولد له مائة وثلاثة وسبعون ولدًا وكان لمطبخه في اليوم ثمانية قناطير من اللحم أي قرابة ثلاثمائة وخمسين كيلوجرام .

وقد عاش ابن عباد في أيام ملوك الطوائف وهم ملوك تقاسموا الدولة الأموية في الأندلس وحكم كل واحد منهم جزءًا أو دويلة حتى بلغ مجموع تلك الدويلات إحدى وعشرين دولة. لكل دولة منها عرش وملك وجيش ضعيف وكان يعيش بين تلك الدول ملك نصراني متعصب شديد العداوة للإسلام وكان خبيثًا نهازًا للفرص

إذا رأى خلافًا بين ملكين من ملوك الطوائف غذّاه بالدسائس حتى أوقع العداوة بين كثير منهم ولما رأى ضعفهم وتفرُّقهم فرضَ على كل واحد منهم جزية يؤديها للدولة المسيحيَّة وكان من ضمن من أدَّوا له الجزية المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ولما رأى ذلك الكافر أن ملوك المسلمين يظهرون له خضوعًا وتذللاً هجم على طليطلة فاجتاحها واحتلها رغم أنف صاحبها القادر بن ذي النون ثم أراد أن يهين المعتمد بن عباد فأرسل إليه رسولاً ومعه خمسمائة فارس يحمل رسالة تهديد من الفونسو بأن على المعتمد أن يتنازل عن حصون منيعة وأن الجزية وحدها لا تكفي وحشد الرسالة بالتهديد الوقح فثارت في المعتمد شهامة الإسلام وجمع العلماء فاتفقوا على الاستنجاد بزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين في الشمال الأفريقي وتم القرار في الحال فأمر المعتمد بقتل الفرسان النصارى جميعًا وضرب الرسول وبصق في وجهه فعاد كاسفًا ذليلاً وفي الحال أصدر ابن تاشفين نداءً بالجهاد فتسابق شباب المسلمين إلى ساحة الشَّرف وأقبل المطوعون من أرجاء البلاد حتى ازدحمت البلاد بالمجاهدين المسلمين وأقبل الفونسو في أربعين ألف جندي وكتب إلى أمير المسلمين ابن تاشفين يتهدده فكتب له على ظهر خطابه (جوابك هو ما سوف ترى) ثم التقي الجمعان في مكان قريب من بطليوس على حدود البرتغال في سهل واسع من الأرض يقال له الزَّلاَّقة. وبالمناسبة فقد كان العالم الذي اتخذ القرار الحاسم بدعوة المرابطين إلى الأندلس هو الشيخ القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم رحمه الله فهو الذي اتصل بزعيم المرابطين واستصرخه لإنقاذ المسلمات من أسر ذلك الكافر وكانت استجابة ابن تاشفين سريعة مُذهلة فقد أقبل في قرابة مائة سفينة ونيف وعشرين ألف جندي واندفع إلى الزلاقه فوجد المعتمد بن عبَّاد قد سبقه وقضى ليلة كاملة يهاجم وتنهشه الجراح وفي اللحظة المناسبة وصل المرابطون وقائدهم إلى قلب المعركة وتكامل عدد الكفار خمسين ألفًا وأرسل القائد الكافر إلى ابن عبَّاد يقول له اليوم الجمعة وهو يوم عطلتكم وغداً السبت يوم اليهود واليهود موظفون عندي

وبعده الأحد وهو يومنا فيكون ملتقانا الاثنين . قالها وهو ينوي الغدر والإيقاع بالمسلمين يوم الجمعة لكن الملك المعتمد أدرك الحيلة فلما هجم الغدار وجد المعتمد يقظًا مستعدًا فقامت معركة يشيب لهولها الولدان وأبلى المعتمد بلاءً عظيمًا ووصل ابن تاشفين في أصعب المواقف فانقض على الجيش الكافر كالصاعقة وشُده النصارى وزلزلوا زلزالاً شديدًا وأخذتهم سيوف المعتمد من خلفهم وسيوف ابن تاشفين من بين أيديهم ووضع فيهم السيف فلم يفلت منهم أحد وهرب القائد الكافر في بضعة رجال وكانت الواقعة في يوم الجمعة الأولى من شهر رمضان حيث قتل جميع جيش الكافر فلم يعد منهم سوى ثلاثمائة رجل ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا﴾ .

وكان أمير المسلمين ابن تاشفين في أول الأمر يحترم المعتمد بن عباد ويقول هو مضيفنا ولكنَّ نفرًا من المغرضين أوقعوا بين المعتمد وابن تاشفين ووشوا إلى ابن تاشفين أن المعتمد يميل إلى التَّرف ولم يزالوا بابن تاشفين حتى أوغروا صدره على المعتمد فتنكر للصداقة والحلف و أمر بقتل ولدي المعتمد ثم قامت معركة عنيفة بين أهالي أشبيلية وبين البربر انتصر فيها المعتمد أول الأمر لكن الدائرة دارت عليه فأسره جيش ابن تاشفين بعد أن أبلى في الدفاع عن مملكته أعظم البلاء ونزل المعركة بدون شيء يصدُّ عنه وقع السِّهام سوى قميص أبيض وقد رماه أحد جنود البربر بحربة فتظاهر أنه أصيب ثم انقض على الرجل فطوَّح به وقتله وقد قال في تلك المعركة أبياتًا حين دعاه أحد المشفقين عليه إلى الخضوع و المصالحة فقال من أبيات :

قالوا الخضوع سياسة	فليبدُ منك لهم خضوعْ
وألذُّ من طعم الخضوع	على فمي السمُّ النقيعْ
قد رمتُ يوم قتالهم	ألاّ تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص	عن الحشا شيءٌ دفوع
أجلي تأخر لم يكنْ	بهواي ذلي والخَشوع

مــــاســــرت قــــط إلى القتـــال وكــــان مــــــن أمــلي رجــوعْ
شـــيَمُ الألى أنــــا منهــــمـــو والأصــــــل تتبَعُــــه الفــروع

وقد انتهى أمر المعتمد رحمه الله أن وقع في قبضة ابن تاشفين فحبسه في سجن أغمات في تونس فقيراً مجرَّدًا من ماله وأظله عيدٌ وهو في السجن فقدم إليه نفر من بناته فرأين سوء حاله في السجن والقيد فقال رحمه الله يصف ذلك المشهد الذي يقطع نياط القلوب :

فيما مضي كنت بالأعياد مسروراً فجــاءك العيــد في أغْمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمــار جــائعــة يغــزلنَ للناس مــا يملكنَ قطمــيـرا
برزن نحــوك للتـسليم خــاشـعــة أبصــارهن حــســيرات مكاسـيــرا
يطأن في التـرب والأقـدام حــافـيـة كـأنهـا لــم تطـــــأ مـسكًا وكـافـورا
من بات بعـــدك في مُلـك يُسَرُّ به فـــإنما بات بالأحـــلام مــغـــرورا

وقد زاره في السجن شاعر ممن كانوا يمدحونه أيام ملكه وألقى على مسامعه قصيدة في مدحه فبحث عن مكافأة يقدمها له فلم يجد سوى عشرين ديناراً فأرفقها بأبيات اعتذار وقدَّمها للشاعر واسمه ابن اللبَّانة لكن الشاعر ردّها تقديراً لظروفه وكن مما ورد من أبيات تلك القصيدة :

بكــــى آلَ عــبّاد ولا كــمــحــمَّد وأبنائه صــوب الغــمــامــة إذ همى
صـبــاحـهــمـو كناً به نحـمـد السُّرى فلمـا عـدمـــناهم سرينا على عـمى
وكنا رعينا العزَّ حــول حمـــــاهمُ فقد أجدب المرعى وقد أقفر الحمى
كأن لم يكن فـيهـا أنيسٌ ولا التقـــى بهـا الوفد جمعًا والخميس عرمرما
تضـيق عليّ الأرض حـتى كــــأنني خلقت وإياها ســواراً ومـعــصــمـا
بكاك الحيـا والريح شـقت جـيـوبهـا عليـك وناح الرعـد باسـمك مـعلما
ســينجـيك من نجّى من الجبِّ يوسفًا ويؤويــك من آوى المسيح ابن مريما

٩٤

آل عبد المؤمن
زعماء دولة الموحّدين

لقد أحببت أن أورد طرفًا من سيرة زعيم الموحدين عبد المؤمن بن علي الذي لقب نفسه أمير المؤمنين ومن سيرة حفيده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لأثبت حقيقة ثبتت عبر التاريخ وهي أن الكفر ما هزم المسلمين يومًا بقوّته وأنه كان يهزمهم بتفرُّقهم وانقسامهم وتفشي الخيانة في أطرافهم وحواشيهم وقد ذكرت في القصة السابقة كيف ديسَ جيش الفونسو تحت سنابك جيش الإسلام في معركة الزّلاقة وكيف جرّ أذياله في هزيمة مخزية عاد الإسلام على آثارها إلى العزّة والمنعة في تلك الربوع النائية . ثم لما عاد النصارى إلى العدوان بعد أكثر من مائة عام وحد الله شمل المسلمين من الشمال الأفريقي والأندلس على يد عبد المؤمن وحفيده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فديس الكفر مرّة أخرى تحت سنابك الجهاد الإسلامي وكان من قصّة تلك المعركة أنّ ملك النصارى تحالف مع ملكة طليطلة فشعرا بقوّة ومنعة واعتديا على ديار المسلمين وأذلّوا كثيراً من ملوكهم بالضرائب وابتزاز الديار فكتب الملك النصراني حفيد الفونسو إلى يعقوب بن يوسف حفيد عبد المؤمن كتابًا وقحًا يتحداه ويتهدده ويتوعده بهزيمة تذلُّه وتذلُّ المسلمين في الأندلس إلى الأبد وقد جاء في ذلك الكتاب : باسمك الله فاطر السموات والأرض . أما بعدُ أيها الأمير إنه لا يخفى على ذي عقل لازب ولبّ ثاقب أنك أمير الملة الحنيفية وأنا أمير الملّة النصرانية

وأنت لا يخفى عليك ما عليه أمراء الأندلس من اللهو والعبث وإهمال الرعية والركون إلى الراحة وأنا على مرأى منك أسومهم الخسف وأخلي منهم الديار وأسبي الذراري وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتكم يد القدرة وأنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد وأن الله قد خفَّف عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفا فأوجب عليكم قتال اثنين منا بواحد ونحن الآن نرسل الواحد فيغلب منكم فريقًا ولا يستطيعون دفاعًا ولا يملكون امتناعًا ثم حُكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال ولكنك تمطل نفسك عامًا بعد عام تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ولا أدري ما الذي يمنعك من مقاتلتي أهو الجبن الذي أبطأ بك أم أنك كفرت بما أنزل ربك عليك من وعود النصر وقد حكي لي عنك أنك تحتج بأنك لا ترى طريقة للحرب فهأنذا أتحدَّاك أن تتوجه إليَّ بحملة من عندك بكل ما أوتيت من قوة في البر والبحر وأنا أجوز إليك بحملتي وأبارزك في أعز الأماكن عندك فإن كان النصر لك فهدية مثلت بين يديك وإن كان النصر لي استحققت إمارة الملَّتين والتقدَّم على الفئتين والله يسهل الإرادة ويوفق إلى السَّعادة بمنه وكرمه لا ربَّ غيرُه ولا خير إلا خيرُه .

فلما وصل خطاب الكافر وقرأه يعقوب لم يتنازل أن يرد بخطاب مطوَّل وإنما كتب على قفا الخطاب هذه الآية الكريمة ﴿ارجع إليهم فلنأتينَّهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلةً وهم صاغرون﴾ وأعاده إلى ملك النصارى وحليفته وشرع حالاً في جمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر المجاز إلى الأندلس وجمع الفرنج من جنودهم ومرتزقتهم والمتطوعين من قبل البابا جموعًا هائلة وانقضوا على المسلمين تقتيلاً وتعذيبًا وعاثوا في الأرض بأفظع الفساد وانتهى ذلك إلى الأمير يعقوب فأسرع بعساكره وعبر المضيق إلى الأندلس في جيش يضيق عنه الفضاء وتسامعت الفرنج بذلك فجمعوا من الجيوش ما ضاقت به الأرض وأقبلوا واثقين بنصر مزعوم وظفر موهوم لكثرتهم والتقوا شمالي قرطبة في التاسع من

شعبان سنة خمسمائة وإحدى وتسعين يوم جمعة في مكان يُعرف بمرج الحديد ودار قتال تشيب لهوله الولدان ودارت الدائرة أول الأمر على المسلمين ولكن ثبت المسلمون وسألوا الله وعده بالنصر وعادت الدائرة على الكافرين فهزموا أقبح هزيمة وأذلها وكان يومًا مبارك الغُرَّة على المسلمين ومشئومًا على الكافرين حيث صدق الله المسلمين وعْدَه وأنزل عليهم سكينته وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا . وقتل يومها كل جيش النصارى تقريبًا حيث قُدِّر من قُتل من العَدُو بأكثر من مائة وستة وأربعين ألفًا وأسر ثلاثة عشر ألفًا ونادى الأمير يعقوب في المقاتلين من غنم مالاً فهو له فكانت الغنائم لا تحصر من الخيام مائة ألف خيمة ومن الخيل ستة وأربعون ألفًا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مثلُ ذلك واستشهد إن شاء الله من المسلمين عشرون ألفًا كتبوا بدمائهم سفر بطولة أعاد في الأندلس عزَّة الإسلام وأركس الكفر والكافرين وحُمل يومها إلى الأمير يعقوب سبعون ألف عُدة سلاح كامل ولما انهزم الفرنج نسوا أنفسهم ومواقعهم الحصينة حتى لقد انسحبت حامية قلعة رياح من شدة الرَّعب وأما ملك النَّصارى فإنه لما انهزم حلق رأسه ونكّس صليبه وركب حماراً وأقسم ألا يركب فرسًا حتى ينتصر الصليب ثانية وأراد ملك النصارى أن يرفع شيئًا من معنويات فلوله فاستنجد سائر مملكته ونصارى جنوب فرنسا واستنجد يعقوب المجاهدين المسلمين في الشمال الأفريقي فالتقوا بعد قرابة سبعة أشهر فصعق الله جيش الفرنج وهزموا هنالك وانقلبوا صاغرين وتعقبهم جيش يعقوب فغنموا الأموال والعتاد والسلاح وانطلق وراءهم يدمرُ قلاعهم فاجتاح طليطلة وسبى نساءها وقتل رجالها وخرَّب دورها وهدم أسوارها فانهارت النصرانية في تلك الحقبة وعظم الإسلام في الأندلس وعاد يعقوب إلى إشبيلية وتجوّل في بلاد الافرنج فذلوا له وقبلوا صلحًا مُهينًا لمدة خمس سنين وأثبت المسلمون للمرة الثانية أن الجيش الإسلامي حين يرفرف عليه علم التوحيد لا يمكن أن ينهض له جيش الكافرين حتى ولو اغتر الكفر بكثرته وتغطرس .

وكانت أيام الإمام يعقوب أيام سعد على المسلمين بعد أن نصر الله أمة محمد وأعلى فيهم علم الجهاد قال المؤرخ ابن حمَّويه : دخلت مراكش أيام يعقوب وإذا الدنيا بملكه مجملة ورأيته يُقصد لفضله ولعدله ولبذله وحسن عقيدته وكانت مجالسه يُجملها حضور العلماء والفضلاء وتُفتتحُ بالتلاوة والحديث وكان يجيد حفظ القرآن ويتكلم في الفقه ويناظر وكان فصيحًا مهيبًا حسن الصورة تام الخلقة يلبس أحيانًا زي الزُّهاد وقدّم له بعض السودانيين فيلاً فكافأهم عليه ورده ولم يتخذه مركبا وقال لا أريد أن أكون من أصحاب الفيل وكان يجمع الزكاة ويوزعها بنفسه وأقام دارًا للأيتام كان فيها نحو ألف صبي ومعلمون وفرّق في أحد أعياده نيفًا وسبعين ألف شاة. وقد أقبل النصارى واليهود في عهده على الإسلام حتى روي أن جميع رعيته تحوّلت مسلمة. وأبقى على كتب الطب والهندسة لكنه أتلف بعض كُتب الفلسفة مما لا طائل من فذلكاته. وقد استنجد به صلاح الدين رحمه الله في حصار عكا لكنه عذّر لأن صلاح الدين لم يلقبه في رسالته بأمير المؤمنين .

وسأل مرَّة فقيهًا من فقهاء الشيعة بمصر فقال له : ماذا قرأت من الكتب فقال : قرأت تواليف الإمام يعني ابن تومرت فقال له ما هكذا يكون جواب الطالب : كان يجب أن تقول قرأت كتاب الله وقرأت سنة رسول الله ثم قل بعد ذلك ما شئت وكان يتفقد الأسواق ويأمر لكل يتيم في مواسم معينة فيأمر لكل يتيم بدينار وثوب ورغيف ورمّانة. وبنى مستشفى قال عنه عبد الواحد المراكشي ما أظن أني رأيت مثله غرس فيه من جميع الأشجار ووفر فيه الأدوية وكان يعود المرضى يوم الجمعة.
عسى الله أن يعيد شباب الإسلام ويجمع المسلمين في ظلال الجهاد والإيمان وأن ينصر الإسلام والمسلمين ويعلي بفضله كلمة الحق والدين .

٩٥

الشاعر الأبيوردي

الشاعر الأبيوردي من نسل أبي سفيان بن حرب ولهذا كان يُلقب (المعاوي) وقد أكسبه هذا النسب الأموي اعتزازًا بنفسه فتطلع مع إبداعه في الشعر إلى علم اللغة حيث أخذه عن عبقري البلاغة عبد القاهر الجرجاني رحمه الله صاحب الكتابين الشهيرين أسرار البلاغة. ودلائل الإعجاز. وللأبيوردي مؤلفات فريدة منها كتاب المختلف وكتاب طبقات الشعراء وكتاب أنساب العرب وديوانه رائع نشره مجمع اللغة العربيَّة في مجلدين وهو من بلاد أبيودر التي فتحها المسلمون في عهد عثمان على يد عبد الله بن كريز وقيل على يد الأحنف بن قيس. وكان الأبيوردي طموحًا شأن بني أميّة وروي أنه كان يدعو في صلاته ويقول اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها وقد وصفه الذَّهبي بأنه كان ريّان من العلوم موصوفًا بالدين والورع مناصرًا للسنَّة جميل اللباس له هيئة ورواء وكان يفتخر بنسبه يكتب اسمه أحيانًا العبشمي وتارة المُعاويّ وكان هذا الاسم الثاني لا يعجب خلفاء بني العباس حتى لقد روي أنه رفع رقعة يومًا للخليفة المستظهر ووقع في أسفلها المملوك المعاوي فكشط المستظهر كلمة المعاوي حتى صارت العاوي لكن ذلك لم يخفف من اعتداده واستعلائه على الشعراء وكلُّهم كما هو معروف عنهم ذوو فخر كثيرًا ما يجاوزون به الحدّ وقد قال عنه السِّلَفي كان الأبيوردي والله من أهل الدين والخير

والصَّلاح حتى لقد قال يومًا عن نفسه (والله مابتُّ يومًا في بيت فيه كتاب الله ولا حديث رسول الله احترامًا لهما أن يبدو مني شيء لا يجوز في حضورهما) وحتى لقد وصفه عبد الغافر صاحب كتاب السّياق فقال : هو الرئيس الأديب الكاتب النسَّابة كان من مفاخر العصر وأكابر الدَّهر له الفضائل الرائعة والفصول الفائقة والتصانيف المعجزة والتآليف المعجبة والنظم الذي نسخ أشعار المحدَثين وتفوق على المُفْلقين. وكان ربما ألقى نظمه في درس إمام الحرمين. في قصائد كبار بديعة. وقد حصَل له عند السلطان منزلة حتى لقد كان البعض يرشحه للإمامة فخَاف من ذلك وفارق بغداد إلى همذان وظل هناك يدرّس ويصنّف ويفيد. وقد وصفه ابن خلكان في وفيات الأعيان فقال كان من مشاهير الأدباء راوية نسابة شاعرًا ظريفًا قسَّم ديوانه إلى أقسام كالعراقيات والنجديات والوجديات.

وقال عنه أبو الفضل المقدسي : كتابه الذي وضعه في الأنساب فيه أمور ثمينة وقال فيه ابن مندة في كتابه تاريخ أصبهان : هو فخر الرؤساء كان جيّد العقيدة جميل الطريقة وافر العقل كامل الفضل لكنه كان تياهًا بنسبه وذلك هو الذي جرّ عليه حسد حساده حتى لقد سمُّوه فمات وهو بحضرة السلطان محمد بن ملكشاه. وقد جمع من الخلال الرضيّة والتبحر في علم العربيّة ومعرفة رجال الحديث والأنساب والمواظبة على الشرع الشريف ما جعله قبلة احترام الشعراء وله رحمه الله قصيدة رائعة يصف فيها الغزو الصليبي لبلاد الشام ويلوم أمراء المسلمين الذين وقفوا متفرجين وتوانوا عن نصرة إخوانهم المنكوبين وعجزوا بتفرقهم عن استرداد ديارهم المغتصبة ومقدساتهم المهدرة وفيها يقول :

مزجنا دماءً بالدموع السَّواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراحم

وشرُّ سلاح المرء دمعٌ يُفيضُه ... إذا الحرب شُبَّت نارها بالصوارم

فيا أمة الإسلام إن وراءكم ... وقائع يُلحقنَ الذُّرا بالمناسم

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على نكبات أيقظت كل نائم

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلُهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتمو تجرون ذيل الخفض فعل المسالمِ
فكم من دماء قد أبيحت ومن دُمى تواری حیاءً حُسْنَها بالمعاصم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ليسلم يقرعْ بعدها سنَّ دم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا رماحَهمو والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفًا من الرَّدَى ولا يحسبون العار ضربة لازم
فليتهمو إذ لم يذودوا حميّةً عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إن حميَ الوغى فهلا أتوه رغبة في المغانم

لقد كانت هذه القصيدة صَرْخة مدوية كأنها انفجار البُركان شاعت في العالم الإسلامي وأثارت عزائم فجرَّت وقائع كمعركة الرها وانتصارات نور الدين ومقدمات صلاح الدين ثم أدت إلى أمجاد حطين على ذكرياتها أزكى التحيات .

وقد يقول قائل : الأبيوردي شاعر وأنت تتحدث عن مواقف البطولة وأقول إن الشعراء عمومًا يلاحقون الغواة والغواة يلاحقونهم والأبيوردي كان من طلاب المعالي .

وصفه مؤرخو عصره أنه كان متعصبًا للسنة محبًا لأهلها مؤلفًا للكتب النافعةمن نحو ولغة وأنساب وكان في معظم أحواله حسن السيرة خفيف الروح متواضعًا فيما عدا نوبات من الكبرياء ضد حسَّاده . وامتاز الأبيوردي بذكاء خارق وقد روي عن ذكائه أمورٌ مدهشة كان يسمع القصيدة الطويلة نوبة واحدة فيعيدها ويرويها . ويتصفح الكتاب فيلخص فوائده وكان عفيفًا يصون كرامته . ولشعر الأبيوردي نغمة من الكرامة تبدو حتى في غزله . وقد رأينا في النموذج السَّابق غيرته على حرمات ديار الإسلام وهذا نموذج من فخره بأمويته :

يامن ينافسني وليس بمدرك شأوي وأين له جلالة منصبي
لا تتعَبنَّ فدون ما أمَّلته خرط القتاد أو امتطاء الكوكب

والمجد يعلم أيُّنا خيرٌ أبًا فاسأل لتعلم أيُّ ذي حسب أبي

جدي معاوية الأغرُّ سمابه أصلٌ كريمٌ منه قد خلقَ النبي

وورثتُه شرفًا رفعتُ مناره فبنو أميَّة يفخرون به وبي

وواضح في هذه الأبيات طموحٌ شريف ونفس وثابة إلى عليا منازل الشرف وهذه مقطوعة من غزله وهو غزلٌ فيه العفاف وفيه الكلمُ الشريف :

لم يُبقِ مني الحبّ غير حُشاشة تشكو الصَّبابة فاذهبي بالباقي

أيعيشُ من جَلب البلاءَ طبيبُه ويُفيق من قتلته عين الراقي

إن كان طرفك ذاق ريقك فالذي ألقى من المسقيِّ فعلُ الساقي

نفسي فداؤك من ظلوم أعطيت رقَّ القلوب وطاعةَ الأحداق

وقال عنه السِّلفي كان في زمانه مالك رقِّ المعاني فلله درُّه حين يتناثر دُرُّه :

من كلِّ معنى يكاد الميتُ يفهمه حسنًا ويعشقه القرطاس والقلمُ

وقد رثاه الطغرائي بقصيدة حلوة يقول فيها :

إن ساغ بعدك لي ماءٌ على ظمأ فلا تجرَّعت غير الصَّاب والصَّبَرِ

وإن نظرت من الدنيا إلى حسن مذ غبت عني فلا مُتعتُ بالنظرِ

سبقتني وشبابًا غير مرتجع وأين أنت فمالي عنك من خبَرِ

تركتماني ولو خيِّرت بعدكما لكنت أوّل لحاق على الأثرِ

وحج رحمه الله فسمع منه أدباء مكة وعلماؤها وتوفي سنة سبع وخمسمائة وأذكر أني كنت مولعًا بهذين البيتين في الصبر وهما للأبيوردي :

تنكر لي دهري ولم يدر أنني أعز وأحداث الزمان تهون

فبات يريني الخطب كيف اعتداؤه وبت أريه الصبر كيف يكون

رحم الله الأبيوردي شاعراً غيوراً وهدى شعراء الحداثة إلى ساحة الشرف والحكمة .



الإمام ابن الجوزي

الإمام ابن الجوزي رحمه الله كان وعظه مطربًا حقًا كأنما أوتي مزمارًا من مزامير داود عليه السلام لقد أكرمه الله بفن قل أن نازعه فيه أحد. إنه فن إلقاء المواعظ بأسلوب يستنزف الدموع ويصدع الضلوع ويهيج في القلوب أعظم الخشوع. ما جُلس في مجلس وعظه إلا وسحت العيون ورأيت كل مستمع لا يستطيع أن يملك قلبه. أو يسيطر على دمعه. وكان ربما تمثل بقطعة من الغزل فإذا انطلقت من شفتيه تحولت حكمة باهرة وموعظة حسنة. وكان رحمه الله يتأوه في درسه تأوه الثاكل ويبكي بكاء المحبّ المفارق. فترى لحيته وقد انهمل منها وابل عينيه. فإذا سقت دموعه تُربةَ القلوب إذا هي روضات فيها من كل زوج بهيج ونسيم أريج. ذلك هو الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله. الذي كان علامة عصره في الحديث والتاريخ. وفي الأدب واللغة. وكان بصدق نيته مبارك العمر حتى لقد ألف زهاء ثلاثمائة كتاب يقع بعضها في عدة مجلّدات. وإذا قرأت عناوين كتبه استروحت في العناوين أرج الذكاء وخفة الروح. ومن تلك الكتب كتاب الأذكياء، وكتاب أخبار الحمقى والمغفلين، وصيد الخاطر، والمدهش، والمقيمُ المقعد، وتلبيس إبليس، والذهب المسبوك في سير الملوك، وكتاب الوفا في فضائل المصطفى، ومن كتبه مناقب عمر بن الخطاب ومناقب أحمد بن حنبل وجامع المسانيد. وقد أسعفه

طول عمره رحمه الله على التأليف فقد عاش قرابة تسعين عامًا استغلها كلّها في التأليف والوعظ وخدمة الإسلام. وكان قرشيًا شريف ا لأصل من نسل أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وقد ولد ونشأ وعاش ومات في بغداد. ونسب إلى محلة في بغداد اسمها مشرعة الجوز ولقد بالغ بعض تلاميذه فقال إنهم جمعوا الكراريس التي كتبها وقسموها على أيام عمره منذ شروعه في التأليف فخصّ كلّ يوم تسع كراريس وقالوا إنه كان يجمع بُراية أقلامه التي كان يكتب بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فحصل منها عدة أكياس كبيرة ولما رأى كثرة البراية أوصى أن يوقد عليها ويُسَخَّنَ عليها الماء الذي يُغسَّل به بعد موته. وكان له شعر أرقى مستوى من شعر زملائه الفقهاء كالحافظ ابن حجر والسيوطي. ومن شعره يشكو أهل بغداد:

عذيريَ من معشر بالعراق	قلوبهمو بالجفا قُلَّبُ
يرون العجيب كلام الغريب	وأما القريبُ فلا يعجبُ
ميازيبهم إن تندت بخير	إلى غير جيرانهم تسكبُ
وعذرهمُ عند توبيخهم	مغنية الحي لا تطربُ

وقد كان لابن الجوزي رحمه الله أجوبة نادرة ونوادر عجيبة مبهجة فقد وقع نزاع في بغداد بين أهل السنة وبعض الغلاة ومن المعروف أنه كان رحمه الله حنبليًا وكان موضوع الخلاف في المفاضلة بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما. قدم على ابن الجوزي وفد مشترك من الفريقين وسألوه السؤال الخطير وكان الموقف حرجًا جدًا لأن القوم كانوا متعصبين وكانوا ربما ضَرَبوا مخالفهم فهدى الله ابن الجوزي إلى إجابة أرضت كلا الطرفين حين قال لهم: أفضلهما الذي كانت ابنته زوجة له. ونهض حالاً من المجلس حتى لا يدور نقاش وسُرَّ الطرفان بالإجابة. لأن كُلاً من الطرفين فهمه على الشكل الذي يرضيه. ومن طريف نوادره أنه كانت له زوجة يقال لها نسيم الصبّا وكان يحبها لتقواها وجمالها. فحصل بينه وبينها خصام غضبت

على أثره وغادرت إلى بيت أهلها. لكنها ظلَّت تتردد على حلقة درسه في المسجد لأن الخلافات الخاصة في نظرها لا دخل لها في تعلُّم العلم. وكان هو يُسَرُّ من حضورها ويرجو لو تجلس قريبًا من منصته بحيث يراها وهي تستمع إليه.

وحضرت الدرس يومًا وجلست قريبًا من منصته لكن امرأتين سمينتين جلَسَتا أمامها فسَدَّتا ما بينه وبينها من فضاء ولم يستطع لشدة سمنهما أن يراها أو يستروح شذاها فتمثل رحمه الله ببيت لمجنون بني عامر :

أيا جبلي نُعمان بالله خلِّيا نسيم الصَّبا يحمل إليَّ نسيمها

فأدركت المرأتان مقصد الشيخ وتزحزحتا فهب عليه نسم من نسيم الصَّبا وفي المساء كانت راضية في بيته.

وكان لابن الجوزي ذوق رفيع في وعظ الملوك وعلية القوم. إذ كان يظهر لهم حبَّه وحرصه على محياهم ومماتهم فيبادلونه حبًا بحب حين يرون الإخلاص يتدفق في كلامه والصدق يفيض من نواحيه.

حضر يومًا أمير المؤمنين مجلسه فأراد ابن الجوزي أن ينتهز تلك الفرصة الذَّهبية فقال : يا أمير المؤمنين لقد كنت أدعو الله لك بظهر الغيب أن ينصرك على عدوك الظالم الذي أوقع بينك وبين أخيك. وسبب لك بإفساده ذلك السجن الذي دام خمس سنين وكان يشير بهذا إلى وزير فاسد العقيدة أفسد ما بينه وبين سلفه وسبب له السجن. ولو أني مثلت الآن بين يدي السُّدة الشريفة لقلت : يا أمير المؤمنين كن لله سبحانه وتعالى مع حاجتك إليه كما كان لك مع غناه عنك. إنه رفع شأنك ولم يجعل أحدًا فوقك فلا ترض أن يتفوق عليك أحد في شكره وذكره. وأدرك الخليفة المرامي الشريفة لهذا القول فلما رجع إلى قصره أمر بصدقات هائلة وأطلق عددًا من المحبوسين ورأى الناس بعدئذ منه مكرمات جليلة ولكي يتصور الأخ القارىء عظمة الأسلوب في دروس الشيخ رحمه الله أورد ههنا نموذجًا من رحلة ابن جبير الذي رحل إلى بغداد وحضر بعض مجالس الشيخ. يقول ابن جبير رحمه الله : ثم

شاهدنا درسًا ثانيًا لابن الجوزي بكرة الخميس بباب بدر في ساحة الخليفة. وكان الخليفة ووالدته وحرمه يرون الحلقة ويسمعون الدرس وهم في بعض غرف القصر لا يراهم الناس. وهذا المكان من حرم القصر خصصه الخليفة لابن الجوزي ليدرس فيه ولم يكن يصل إليه أحد غيره من العلماء. وقد فرش المكان بالحصر وكان يُفتح يوم الخميس للعامة ويتسطر قراء القرآن على كراسي مصفوفة. وشرع ذلك الحبر المتكلم فصعد المنبر وصدع بخطبته الزهراء وكانت الآية التي دار عليها وعظُه قوله تعالى ﴿الله الذي جَعَلَ لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا إن الله لذو فضل على الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ فأرسلت وابلها العيون وأبدت مكنون سرها النفوس وتطارح الناس على الشيخ بذنوبهم معترفين، وبالتوبة معلنين. وطاشت الألباب ثم أنشد بيتين من النسيب ودموعه تبلل لحيته :

أيـــن فـؤادي أذابـــه الوجـدُ وأين قلبي فـمـا صـحـا بعـدُ
ياسـعـد زدني جـوًى بذكـرهـمـو بالله زدنـي فُـديت ياسـعـدُ

وإذا النسيب بإنشاد الشيخ يتحول زهدًا وكادت الدموع تمنعُ خروج الكلام. فنزل عن المنبر عجلاً وقد أطار القلوب وجلا. وترك الناس على أحرَّ من الجمر يودعونه بالمدامع الحمر فمن معلن بالانتحاب ومن متعفر بالتراب. وما أحسب أن رجلاً في الدنيا أعطي من ملك النفوس والتلاعب بها مثلَ ما أعطي هذا الرَّجل. فسبحان من يخص بالبيان من يشاء من عباده.

ولقد قرأت في كتاب (المدهش) لابن الجوزي مجلسًا عن الحج. فبدأ بقوله : لما تكامل بناء البيت أرسل الله إلى خليله (وأذّن) فعلا على أبي قبيس. ونادى في جميع الوجود : إن ربكم بنى لكم بيتًا فحجوه. فأجاب من جري القدر بحجه (لبيك اللهم لبيك) فكان ذلك اليوم أخا لذلك اليوم الذي نادى فيه الله خلائقه ﴿ألست بربكم﴾ وقطع القوم بيدَ السفر بشق الأنفس وعلى كل ضامر. وهنا تمثل رحمه الله بهذه الأبيات عن شوق الإبل وحنينها إلى بيت الله :

غنّهــا يـــا أيهــا الحــادي لهــا ... بالحـمى أو بالنقــا وانظر ســراها

نحِّ عنهـا السـوط يكـــفي شـوقُها ... قـد رأتْ من نفـسهـا مـا قـد كـفـاها

قف على الوادي وسل عن كـبـدي ... كـبـدي واكـبـدي مـاذا دهـــاها

أمر المحرمين بالتعري ليدخلوا على ربهم بزي الفقراء ويدركوا قوله تعالى ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾ ثم اندفع رحمه الله يعطر المجلس بسيرة السلف فقال : تالله لقد جُمع لهم الخير ليلة جَمْع ونالوا المنى إذ دخلوا منَى حج قومٌ من العباد ومعهم امرأة صالحة فجعلت تسائلهم بين الفينةَ والفينةَ : أين بيت ربي؟ أين بيت ربي فيقولون لها ترينه إن شاء الله . فلما لاح البيت قالوا لها هذا بيت ربك فخرجت تشتد راكضة وهي تهتف : بيت ربي بيت ربي حتى وضعت وجهها على الركن فما رفعته إلا وهي جثة هامدة . وتوفي رحمه الله ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة للهجرة وعمره قرابة تسعين عامًا وكانت جنازته مشهودة ببغداد وأفطر يومها كثير لشدة الحر والزحام وأوصى رحمه الله أن يكتب على قبره :

ياعظيم العـــفـــو عـــمن ... عظـــم الـــذنب لـــديه

جـــاءك المـــذنـــب يرجـــو ... الصـــفـــح عن جـــرم يديه

أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليه

رحم الله أبا الفرج ابن الجوزي وسلام عليه في العلماء العاملين .



عبد القادر الجيلاني
رحمه الله

عبد القادر بن عبد الله الجيلاني نسبة إلى بلاد جيلان الواقعة وراء بلاد طبرستان قال عنه الحافظ الذهبي الإمام العارف الزاهد القدوة شيخ الإسلام وعلم الأولياء وشيخ بغداد كان من أئمة الحنابلة ولد ببلاد جيلان وقدم بغداد شابًا وتفقه على الشيخ أبي سعد المخرِّمي. كان من عائلة طيبة يقال لها عائلة الصومعي وكانت له عمة صالحة استسقى بها أهل جيلان فسُقوا سُقيا رحمة عظيمة وسمع من عدد من الشيوخ الأفاضل وروى عنه أشياخ منهم الحافظ عبد الغني وأخوه موفق الدين ابن قدامة. وكان إمام الحنابلة وشيخهم ومن صالحي الفقهاء كان كما وصفه عارفوه كثير الذكر دائم الفكر سريع البكاء قال السمعاني: كان يسكن في باب الأزج في مدرسة بنيت له. وقد بنى تلك المدرسة شيخه أبو سعد المخرمي فلما مات جعله مدير تلك المدرسة فقام عليها خير قيام ودرّس فيها فذاع له صيت في الوعظ والإرشاد حتى ضاقت مدرسته بعدد طلابها وكان يجلس عند سور بغداد فيتوب على يديه ألوف من العُصَاة وقد قضى حياته رحمه الله مدرّسًا في تلك المدرسة إلى أن توفي عن تسعين عامًا فدفن رحمه الله في مدرسته بعد أن تناقل القاصي والداني كراماته وبركته. والحق أن العامة أوغلوا وغَلَوْا في سيرته فرووا عنه مالم يصحّ وذكروا من كراماته مالم يكن يَرْضى أن يُذكر عنه وهذا دأب الصالحين الذين يعجب

بهم العوام فيروون في سيرهم مالا يُرضي الله ورسوله وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله ممّن تعصّب لهم العامّة فتزيدوا في سيرته. وقال بعض من عرفوه كانت له نوبات يغيب فيها عن وعيه فيتكلم أثناء إغمائه والمغمى عليه لا يسجل كلامه ولا يُؤاخذ المغمى عليه حتى يصحو ويفيق ويعلم ما يقول.

والحق أن عبد القادر درس علم الشريعة على أجلة الفقهاء كأبي الوفاء بن عقيل وأبي الخطاب وأبي الحسين بن القاضي أبي يعلى ودرس علوم اللغة والأدب حتى وقع له القبول في الناس وكانت له قدمُ صدق في المجاهدة ونبذ الهوى والنفس ولما تولى مدرسة شيخه عمرها عمارة عظيمة وأعانه في ذلك الأغنياء الصالحون قال عنه ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب: (كانت كراماته تخرج عن الحدّ وتفوت الحصر والعدّ وكانت له أشعار جميلة ينشدها فتخشع القلوب وقد أسلم على يديه عدد مبارك من اليهود والنصارى وقال عنه الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ما نقلت لنا كرامات أحد بالتواتر إلا الشيخ عبد القادر. وكان رحمه الله جواداً هائل الكرم نقل عنه ابن النجار أنه قال: فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام. أودّ لو أن الدنيا كلّها بيديّ فأطعمها الجياع.

وقد انتصر أهل السنة في حياته وارتكس أهل الابتداع والشعوذة. سُئل عنه ابن رجب وذكر له كلام للشيخ عبد القادر مما لا يُفهم فقال ابن رجب أحسن ما قيل في مثل هذا الكلام أنّ كلّ أحد من البشر يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأضاف ابن رجب كان يعجبني فيه تمسكه بمسائل القدَر والصفات متبعًا في ذلك السُّنة المطهرة يقول رحمه الله في كتابه (الغُنية) (والله جلّ جلاله في علوّه مستو على العرش محتو على المُلك يحيط علمه بالأشياء إليه يصعد الكلمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه يدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان بل يقال إنه في السماء على العرش كما قال ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وينبغي إطلاق

صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء يليق بجلاله) وهذه العبارة من كتابة الشيخ تخرج الشيخ عبد القادر من زمرة المتصوفين المنحرفين الذين يؤمنون بالحلول والاعتقادات الخرافية لقد كان متصوفًا في مواصلته للعبادة لكنه كان حنبليًا متمسكًا بمذهب الإمام أحمد وشيخًا من أشياخ المذهب. وهذه قصة قصيرة توضح مقدار ما كان الشيخ عبد القادر يرعى به الفقهاء وطلاب العلم. قال الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي : قدمت وأخي إلى بغداد نلتمس مزيداً من العلم عند علماء بغداد فدلّنا الفضلاء على الشيخ عبد القادر رحمه الله فأدركناه في أواخر عمره ومع أنه كان كبير السِّنّ فقد أنزلنا في ضيافته وأسكننا في مدرسته وكان يُعنَى بنا ويسأل عنا إذا غبنا وربما أرسل إلينا ابنه يحيى فيصلح لنا السرج وكثيراً ما أرسل إلينا الطعام من منزله وكان رحمه الله كريمًا يصلي الفريضة بنا إمامًا وكان يكلفني أن أقرأ عليه من حفظي من كتاب الخرَقي في الغداة ويكلف أخي الحافظ عبد الغني أن يقرأ عليه من كتاب الهداية فأقمنا عنده شهراً وتسعة أيام وتوفاه الله ونحن عنده فصلينا عليه ليلاً في مدرسته ثم لما جاء النهار وعرف الناس نبأ وفاته أقبلوا للصلاة عليه فوجدوه قد دفن فكل من جاء صلى على قبره فما عُلم أنّ عالمًا صلى عليه خلقٌ في كثرة من صلَّوا على الشيخ عبد القادر رحمه الله. لقد كانت بداية الشيخ عبد القادر رُؤًى صالحة يكشف الله له بها طرق الخير قال:وكان يحضر مجلسي الرَّجلان والثلاثة ثم تسامع الناس بي وازدحم الخلقُ عليّ حتى صار يحضر مجلسي نحوٌ من سبعين ألفًا وحدث عن آثار رحمة الله عليه فقال:رزقني الله كفًا مثقوبة لا تضبط شيئًا لو جاءني ألف دينار لم أبيتها وقد أُهدي إليَّ من الذهب والفضة مالا يحصى فأنفقته . وقال : تردُ عليّ أثقالُ هموم لو وضعت على الجبال تفسَّخت فأضع جنبي على الأرض وأقرأ ﴿فإن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسرا﴾ فلا أرفع رأسي إلا وقد فرّج الله الهموم عني. وكان إذا رزق ولداً أخذه على يديه وقال : إنك ميت وإنهم ميتون ويخرجه من قلبه فإذا مات لم يحزن عليه إلا بمقدار . قال ابنه عبد الرزاق ولدَ لأبي

الشيخ عبد القادر تسعة وأربعون ولداً منهم سبعة وعشرون من الذكور والباقي إناث وحدّث أحد تلاميذه قال: كنت أسمع من كتاب الحلية على الشيخ ناصر فحدّثني قلبي وهو في حال ورقّة أن أنقطع إلى العبادة وأترك مشقة طلب العلم ٠ وصليت يومها خلف الشيخ عبد القادر فلما جلسنا أطال النظر إليّ وقال: إذا أردت الإنقطاع فلا تنقطعْ حتى تتفقه وتجالس الشيوخ وتحصّل العلم ٠ ولا تنقطع وأنت فريخ ماريّش ٠ وكان رحمه الله يلقى من الفقر نَصَبا أثناء طلبه العلم فيشهد الحلقات وهو جائع حدّث يوماً عن نفسه فقال كنت ربما تطرقني حال فيغشى علي أُظنّ ميتاً وقد غسَّلوني مَرَّة وهموا بدفني لكني حييت بأمر الله ثم قلت أترك بغداد لكثرة ما فيها من فتن وخرجت على تلك النيَّة فلقيني رجل وقال: أين تمشي ودفعني فوقعت فقال لي: ارجع فإن للناس فيك منفعة. قلت أريد سلامة ديني فقال: هنا سلامة دينك ثم لم أره وحدث عن بعض معاناته فقال: بلغت بي الضائقة في الغلاء والغُربة أثناء طلب العلم في بغداد أني بقيت أيّامًا بلا طعام وكنت أتتبع ما ينبذه الناس فخرجت يومًا إلى الشَّط وإذا الفقراء قد سبقوني إليه فلم يتركوا ولو ورقة خَسّ ولما كدت أموت دخلت مسجداً وقعدت وأنا أصافح الموت ودخل شاب أعجمي ومعه خبز وشواء وجلس يأكل فلما رآني قال: يا أخي بسم الله. فأبيت فأقسم عليّ فأكلت على استحياء فسألني ما شغلك ومن أين أنت: قلت من جيلان أتيت بغداد أتفقه. قال وأنا من جيلان فهل تعرف لي شابًا جيلانيًا اسمه عبد القادر وهو سبط أبي عبد الله الصومعي قلت: أنا هو فاضطرب الرَّجل وقال بحثت عنك ثلاثة أيَّام لم أجدك ونفدت نقودي فاشتريت اليوم هذا الشواء من نقودك وما فعلت ذلك إلا للضرورة. كل يا أخي فالطعام ملكك وأنا ضيفك فأكلت عندئذ وأعطيته بقية الشواء ثم أخرج لي ثمانية دنانير وقال: هذه من والدتك فقاسمته إياها وحمدت الله وعلى الجملة فالشيخ عبد القادر قضى عمراً حميداً في طلب العلم واشتغل طول حياته معلّمًا وتبرك الناس بعلمه واستفادوا من مدرسته وظهرت له كرامات لا تنكر على الأولياء رحمه الله ونفعنا وإياكم بالصالحين.

٩٨

نصر بن إبراهيم النابلسي

هذا الإمام الفقيه المقدسي كان أحد أشياخ أبي حامد الغزَّالي فقد تتلمذ عليه أبو حامد في دمشق في الزاوية الغربية من جامع دمشق • وكانت تلك الزاوية تلقب بالغزَّالية ، وكان أبو حامد يعترف أنَّه استفاد من مناظرات الشيخ إبراهيم علماً كثيراً

كان في الشيخ إبراهيم صفة جعلته محبَّباً إلى جميع الناس تلك الصفة كانت زهده في الدنيا فما عُرِف عنه رحمه الله أن تعلّق بالمال أو حرص عليه بل كان إذا حصل له شيء أنفقه على تلاميذه إذ كان يسابق الريح في كرمه • قال عنه الحافظ الذهبي في مقدمة ترجمته : هو الشيخ العلاَّمة القدوة المحّدث مفيد الشام وشيخ الإسلام صاحب التصانيف • وقال عنه ابن العماد في شذرات الذهب : كان نصر ابن إبراهيم إماماً مفتياً محدّثاً ورعاً كبير القدر عديم النظير وقد استوطن بيت المقدس لأنه كان يتبرك بجيرة المسجد الأقصى لكنَّه عاش آخر عشر سنوات من عمره في دمشق وقد بلغ من ورعه رحمه الله أنه ماقبل طول حياته صلة سلطان أو وزير ولكنه كان ينفق من وقف له في نابلس على نفسه وعلى تلاميذه الكثيرين • وكان يروي موعظة جليلة عن بعض الصالحين : (من أحسن سريرته أحسن الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ومن جمَّل بالطاعات آخرته جمّل الله له أمر دنياه) . وكان رحمه الله يعدُّ من مشاهير الشافعية ومن فقهاء المذهب

وقد تجوَّل طويلا في طَلب العلم في نابلس وبيت المقدس ودرس موَّطأ مالك على محمد بن جعفر الميماسي وسمع في القدس من أبي القاسم الواسطي وأقام في مدينة صور يدرس على الإمام سليم الواسطي وطاف يطلب العلم على شيوخ أجلاَّء في صيدا وبغداد وبيت المقدس ومكة ودمشق ومن كتبه الجليلة (الحجة على تارك المحجَّة) وهو كتاب يعالج أصول الدين على طريقة أهل الحديث وكان من أشياخه الإمام الدارمي صاحب المسند وتبحر رحمه الله في المذهب الشافعي في دمشق حيث تخَّرج هناك على يديه عدد من صالحي الأشياخ • وكان رحمه الله مثلاً في الإجتهاد والدآب فقد حدَّث عن نفسه أنه درس في مدينة صور على الشيخ سليم الرازي ثلاث سنوات متتالية لم تفته في أثنائها محاضرة واحدة وكتب تعليقه على محاضرات شيخه في ثلاثمائه جزء قال عنها ما كتبت منها حرفاً إلا وأنا على وضوء • وكان ربما اكتفى بخبزة تخبز له في جانب الكانون وكان له خادم يقال له ناصر النجار يحكي من أنباء زهده وتقشفه وإيثاره أموراً عجيبة • منها أنه كان في مطلع شبابه ربعة لكنه أخذ نفسه بمنهج من التقشف والزهد حتى غدا جلداً على عظم يفعل ذلك ويستقله في جنب الله .

وكان إذا زار بيت المقدس احتفى به العلماء واجتمع حوله خلصاء تلاميذه فيقيم لهم مآدب ويناولهم مبالغ يكون قد جمعها لهم من وَقْفه المبارك. وقد بارك الله حياة نصر فسخَّر أحد المحسنين وألهمه أن يتبرع بوقف عَظيم لتلاميذ الشيخ فأشرف عليه الشيخ فنما وامتد وازدهر وكان بركة على طلاب العلم• وروي أن الملك تاج الدين بن ألب أرسلان رحمهما الله كان يُجلُّ الشيخ ويعتقد ببركته • قيل إنه حضر مجلس الشيخ فظلَّ الشيخ جالساً في مجلس علمه حتى انتهى ثم سلم على السُّلطان فجامله السلطان وسأله عن أحوال معيشته وتلاميذه ولما عاد السلطان بعث إلى الشيخ بمبلغ كبير وقال : أرجو أن ينفقه الشيخ على تلاميذه. لكنَّ الشيخ ردّ المبلغ في أدب وقال لحامل المبلغ سلِّم على سلطاننا وقل له : إذا احتجنا إلى المال

فليس لنا بعد الله سواك أما الآن فنحن بفضل الله في كفاية وغنى . وكان له تلميذ يقال له نصر المصيصي فلام الشيخ على إرجاع المبلغ وقال له : تردُّه وأنت تعلم حاجتنا إليه فقال له لا تجزع فسوف يأتيك من حطام الدنيا ما يكفيك وكان ما توقعه الشيخ إذ لم يكد الشيخ يصلي العشاء حتى جاء رسول بعض كبار التجار يحمل مبلغًا من ذلك التاجر المحسن كفى الله به كل تلاميذ الشيخ في ذلك اليوم. وقد ذكر ابن عساكر أن الشيخ نصراً رحمه الله كان على طريقة من الزهد والعفاف والثقة بالله لا تتغير على طول الزمن .

ومن مؤلفاته رحمه الله كتاب (الانتخاب الدمشقي) في بضعة عشر جزءاً وكتاب التهذيب في فقه المذهب في عشرة أجزاء وكان له في الحديث قَدَمٌ مع أنه كان مُقلاً، ومن الأحاديث التي رواها حديث حارثة بن النعمان. الذي يقول فيه : مررتَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل جالس بالمقاعد فسلمت عليه واجتزت فلما رجعت وانصرف جبريل قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : هل رأيت الذي كان معي ؟ قلتُ نَعَم. قال فإنه جبريل وقد رد عليك السَّلام . وتوفي رحمه الله يوم عاشوراء عام أربعمائة وتسعين للهجرة. وروى أنه قبل موته بقليل سُمِع وهو يقول : ياسيدي أمهلوني . أنا مأمور وأنتم مأمورون ثم أذن المؤذن فقال لتلميذه الذي يخدمه : أجلسني للصلاة. فأجلسه وشرع يصلي فمات بعد أن أتمَّ الصلاة بقليل وكان عمره ثمانين عامًا. ولم يتمكن تلاميذه وأصدقاؤه أن يدفنوه إلا بعد الغروب لعظمة جنازته وازدحام الناس فأقام تلاميذه على قبره سبعة أيام ودفن بمقبرة باب الصغير. وحدث بعض من رأى جنازته فقال ما رأيت في حياتي مثل جنازته لكثرة ما احتشد فيها من أهل العلم والمحبين ومع أنه توفي نهاراً إلا أننا لم نتمكن من جنازته إلا بعد المغرب لأن الخلق حالوا بيننا وبينه رحم الله أبا الفتح نصراً بن إبراهيم النابلسي إمامًا علم الدنيا كيف يكون الزهد مع توفر الشهوات وكيف يكون طلب العلم رغم إلحاح المصاعب وكيف تكون الدعوة محفوفة من كلٍّ جهاتها بمكارم الأخلاق .

٩٩

ألب إرسلان

كانت مملكة بيزنطة تتكوَّن بشكل رئيسي من مدينة القسطنطينية ومن إقليم أرمينيا ومن مناطق وحصون أخرى داخل أوروبا . وقد صمدت زمنًا طويلاً في وجه الفتح الإسلامي وخاضت حربًا صليبية ضد المسلمين كانت في معظمها سجالاً لكنَّ الله هيأ للمسلمين قائدًا صادق الإيمان تمكن من توحيد الإمارات الإسلامية التي حول دولة بيزنطة واحتل معظم أرمينيا وأصبح كالشوكة في حلق الدولة البيزنطية كان ذلك القائد هو البطل التركي المسلم ألب أرسلان رحمه الله .
كان ذلك البطل من الأتراك السَّلاجقة وكان يعاونه في القيادة ابنه ملكشاه فأخذا ينقصان دولة بيزنطة من أطرافها حتى سيطرا على أرمينية وكشفا ظهر دولة الرَّها وأخضعا عمورية حتى أصبحا على مقربة من قونيه الواقعة على بحر إيجه في آسيا الصغرى .

وفي أثناء ذلك كانت دولة بيزنطة تتحفز لاستعادة أرمينيا وكلّ ما فقدته من أرجائها وقد واتتها الفُرصة حين توفي الامبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر فتولت الملك بعده زوجته الامبراطورة إيدوسيا وصيّةً على ولدها الصغير ميخائيل السَّابع .
ثم تزوجت الامبراطورة البيزنطية القائد العام لقواتها رومانوس ديوجين وكان فارسًا مغوارًا وبطلاً مقدامًا يفاخر الصليبيون بفتوته وبطولاته فلما رأى نفسه

المتصرَّف في مُلك الدولة البيزنطية طفق يؤلف جيشًا من متعصبي الصليبيين ولم يزل يجمع الجيش وينفق عليه الأموال الطائلة حتى بلغ جيشه مائة ألف مقاتل كلهم متعطش لدماء المسلمين إضافة إلى الحرس الجمهوري القوي الذي كان تدريبهم أعظم تدريب هذا بالاضافة إلى مرتزقة صليبيين من النورمان والفرنج والصقالبة والترك المقيمين في جنوب روسيا والبشناق فلما أصبح الجيش الصليبي تام التجهيز توجه صوب أرمينيا بقيادة رومانوس نفسه زوج الامبراطورة التي رفعته إلى رتبة امبراطور. وكانت خطته أن يباغت أرمينية قبل أن يصل إليها ألب أرسلان الذي كان في الجنوب يخمد بعض الفتن. ولما بلغ البطل ألب أرسلان هجوم رومانوس في اتجاه حصن ملازكرد وحصن خُلاط أسرع إلى أرمينيا ليواجه بجيشه الصغير تلك الجموع البيزنطية الهائلة بقيادة رومانوس ذلك الفارس الصليبي المتوثب وحاول ألب أرسلان دعوة جيشه وجمع أكبر عدد منهم لكنه وجد الوقت قصيراً فلم يتمكن أن يجمع أكثر من خمسة عشر ألف جندي سار بهم رحمه الله ليواجه بهم مائة ألف مقاتل. لكنه رحمه الله كان عظيم الأمل في الله فجمع فرسانه وخطبهم خطبة قال فيها سأقاتل صابراً محتسبًا فإن انتصرنا فتلك نعمة من الله وإن كتبت لي الشهادة فهذا كفني وحنوطي جاهزين وأكملوا معركتكم تحت قياده ابني ملكشاه ثم توجه وجنوده إلى الميدان فوجد قطعة من جيش العدو تقدَّر بعشرة آلاف عند بلدة خُلاط يقودهم قائد روسي فاصطدم جيش المسلمين بتلك الفئة فنصر الله المسلمين وأسر القائد الروسي وقتل عدد كبير من عسكر الكفر وجمعت الغنائم وأرسلت إلى الخليفة في بغداد فكان فألاً مباركًا استبشر به المسلمون في مقدمة المعركة الحاسمة فلما تقارب العسكران أرسل السلطان ألب أرسلان إلى القائد رومانوس يطلب منه الصلح والمهادنة فرد الصليبي رداً قبيحًا حين كان جوابه (لا هدنة إلا بالريّ) يعني أنه لن يقبل هدنة إلا بعد أن يدمر عاصمة السَّلاجقة ويحتل كل ديار الإسلام. فانزعج السلطان المسلم وركبه همٌّ شديد لعدم تكافؤ العدد وهنا

قال له الإمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك الحنفي إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وأرجو أن يكون الله قد كتب لك بجيشك القليل شرف النصر فسر إلى العدو الكافر يوم الجمعة بعد الزوال والأئمة على منابرهم يدعون لجيشك بالنصر والله غالب على أمره . وتمّ ذلك عند ظهيرة يوم جمعة من صيف أربعمائة وثلاث وستين للهجرة . وبينما كان رومانوس ينزل بجيشه واديًا انقض عليهم القائد المؤمن كأنه قارعة أو صاعقة بعد أن صلى وبكى فبكي الناس لبكائه ودعا الله فدعا الناس بدعائه ثم ركب وقال للناس ليس عليكم الآن أمير وكلكم أمير نفسه من شاء أن ينصرف فليعد إلى أهله وألقى القوس والنشاب وحمل السيف والدبُّوس مُعلنًا أن الأمر التحام وليس رماية فالتف الروم حول المسلمين وحصل المسلمون في الوسط . فكانت فرصة وسط الغبار أن يقتل المسلمون عدوهم كيف يشاءون ودارت الدائرة على العدو الكافر فتناثر من قتلاهم مالا يحصى وجيء بالأسرى وإذا مقاتل صغير الجثة يسوق أمامه قائد الأعداء رومانوس .

وتذكر ألب أرسلان أنه مزح مع ذلك العسكري الصغير يومًا فقال له وما يدريك أن تُحضر إلينا ملك الروم وحقق الله مزحته ووقف رومانوس صاغرًا بين يدي ألب أرسلان فضربه القائد المسلم ثلاث مقارع وقال له دعوناك إلى الهدنة فأبيت فأين الهدنة التي في الرَّي ثم قال له ما تظن أني فاعل بك فقال كلَّ سوء لكن القائد المسلم رحمه الله قبل فدية مقدارها ألف ألف دينار واشترط عليه أن يطلق أسرى المسلمين فقبل رومانوس ووقع بذلك وعندئذ ناوله القائد المسلم عشرة آلاف دينار وأطلق معه حاشيته فوصل إلى بيزنطة مهزومًا وهناك وجد أن الملك الصغير قد بلغ السّن فتربع على العرش فأظهر رومانوس ابتهاجًا بابن زوجته وأخبره أنه وقع على فدية بمليون دينار فجمع الملك الجديد ما عنده وإذا هو ثلاثمائة ألف دينار فأرسلها رومانوس إلى ألب أرسلان وحلف له أنه لا يملك غيرها فقبلها رحمه الله وسامح بالباقي لقد حصلت هذه المعركة قبل الحرب الصليبية بحوالي عشرين عامًا .

فقد مات ألب أرسلان بعد ذلك بعام وتولى الأمر بعده ابنه ملكشاه. ولكنْ ظلّ العرب على الرغم من معركة ملازكرد التي يسميها الأجانب منازي كرت ظل العرب إمارات متفرقة يحكم كل واحدة منها أتابك أو أمير إلى أن أقبلت حشود الصليبيين فدخلوا ديار الإسلام ودمّروا البلاد وقتلوا العلماء وظل الحال كذلك خمسين عامًا حين هتف بالمسلمين هاتف الإسلام فأيقظهم لتكون الضحية الأولى إمارة الرها التي أسقطها عماد الدين زنكي رحمه الله. إن تاريخ المسلمين ظلّ على الزمن عجيبًا لأن الكثرة والقلة لم تكن في حسبان المسلمين إنما كانت القلة دوامًا منتصرة على الكثرة الكافرة لكن المسلمين كانوا يُهزمون بتفرقهم وشتات أمرهم وأهواء زعمائهم فإذا سخر لهم الله من يلم شعثهم ويجمع شملهم عاد النصر وتحقق فيهم قول ربهم جل جلاله ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾. وديار الإسلام في أيامنا هذه تتقسّمها فتن تترك الحليم حيران ولن يكون لها فَرَج إلا إذا أبرم الله لها أمر رشد يوحدها تحت راية التوحيد وكلمة التوحيد وتتم عندئذ كلمةربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. رحم الله الأمير المسلم ألب أرسلان وجزاه عن جهاده المحتسب خير الجزاء.



الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله

هذا الإمام العالم الجليل هو ممن اختلفت الآراء حوله. فمنهم من يرفعه حتى يسميه حجة الإسلام. وبحر العلوم وأعجوبة الزمان وفخر الأمَّة. ومنهم من يهاجمه فيرميه بضلالات الصوفية وانحرافات الفلاسفة ورواية ضعيف الحديث. وكما اختلف أهل العلم حول شخصه وعقيدته، فقد اختلفوا كذلك حول كتبه فمنهم من يرى كتابه (إحياء علوم الدين) أعظم كتب الوعظ ومنهم من يذم الكتاب ويرى أن إشارات التصوُّف فيه تسلكه في الكتب الخطيرة.

والحقُّ أن أبا حامد الغزالي رحمه الله كان أعجوبة عصره في الذكاء وكانت له بديهة حاضرة يلهمه الله بها إجابات سديدة مسكتة تقطع حجة خصمه ولهذا اشتهر في حياته بلقب شريف حين سماه كثير من أهل عصره (حجة الإسلام) لأنه ما جادل عالمًا إلاَّ هزمه ولا حاجَّ مخالفًا إلا حجَّه. لكنَّ الذكاء أحيانًا يتحوَّل آفة حين يثير تساؤلات ويهيج حيرات وأظنُّ الغزالي رحمه الله أتيَ من ذكائه وقديمًا هاجمت الحيرةُ أبا العلاء من قِبَل ذكائه حين حبس نفسه وحرم عليها طيبات أحَلَّتْ لها.

ولد أبو حامد رحمه الله في بلاد طوس. ولازم في صغره إمام الحرمين الجويني وكان في صغره فقيراً لا يكاد يحصل قوت يومه ولكن ما هي إلا أن اشتد عوده حتى دعاه الوزير نظام الملك رحمه الله لتولي منصب رفيع في مدارسه ومن هُنا عُرف

وشاع فضله حتى فاض رزقه عن حوائجه وتزاحمُ طلاَّب العلم على أبوابه فأحدث ذلك عنده رَدَّ فعلٍ ألجأه كثيرًا إلى الزهد والاعتزال وما يشبه التصوف وطفق بعض العلماء يتسقَّطونَه فتسلَّطت عليه الألسنة وكان أحَدَّها لسان الإمام ابن الجوزي والقاضي عياض حتى لقد أمر حاكم المغرب بحرق كتب الغزالي وكانت خاتمة أمره أن أقبل على طلب الحديث ومجالسةِ أهله ومطالعة الصحيحين. ولم يُعقب رحمه الله إلاَّ بنات وكان له من الإرث والمال والكسب ما يقوم بكرمه وكفايته وقد عرضت عليه الأموال فما قبلها. وكان عظيم الأسلوب في الكتابة ولكنه كان في النحو ضعيفًا. وقد هَدَم الفلاسفة في كتابه (تهافت الفلاسفة) لكنه تأثر بهم حتى لقد قال فيه أبو بكر بن العربي: إن شيخنا أبا حامد بلعَ الفلاسفة فلما أراد أن يتقيَّئهم لم يستطع ذلك. والحق أن الحافظ الذهبي وقف من الغزالي موقفًا منصفًا حين ترجم له ترجمة طويلة أورد فيها دعاية أصدقائه وهجوم أعدائه ويكفي أنه افتتح ترجمته فقال: الشيخ الإمام البحر حجة الإسلام أعجوبة الزمان زين الدين أبو حامد محمد ابن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي صاحب التصانيف والذكاء المفرط.

تفقه أولاً في بلده طوس ثم تحوَّل مع جماعة من زملائه الطلبة إلى نيسابور ولازم إمام الحرمين الجويني فعلَّمه واعتز به ثم أراد الله له أن يشتهر حين اكتشف علمه ومواهبه الوزير الصالح نظام الملك فرفع من شأنه وولاه التدريس في مدرسته النظامية ببغداد وعظم جاه الرَّجل وازداد احترامه كأنه في دست أمير وفي رتبة رئيس كبير فأداه نظره في أعماق العلوم والزهد إلى رفض الرئاسة والإنابة إلى دار الخلود والإخلاص وإصلاح النفس فحجَّ من وقته وزار بيت المقدس ولازم نصر بن إبراهيم النابلسي في دمشق فأفاد الغزالي من فصاحته في المناظرة. وألف كتاب الإحياء وكتاب الأربعين وكتاب القسطاس وكتاب محكِّ النظر ولزم بلده حتى أقنعه الوزير فخر الملك بالخروج من عزلته والعودة إلى نيسابور للتدريس في

نظاميتها . ومن مؤلفاته (تهافت الفلاسفة) الذي هاجم فيه الفلسفة وأهلها ولعل مما أضرَّ به إدمانه النظر في رسائل إخوان الصفا لأنها كانت وما زالت سُمًا زعافًا وداء عضالاً . ومن كتب الغزالي كتاب (المضنون به على غير أهله) وكان يرى قتل الحلاَّج خيرًا من إحياء عشرة . وفي سنة ثمان وثمانين ترك المدرسة النظامية وتزهد وأقام بدمشق ثم تزهد وحجَّ وانتقل إلى بيت المقدس فتعبد هناك ثم قصد مصر وأقام مدة بالاسكندرية وهناك علم أن يوسف بن تاشفين رفع في مسلمي الشمال الأفريقي والأندلس علم الجهاد فشمر الغزالي أن يذهب إليه وينضم إلى جيشه ليجاهد وينال الشهادة ولكن بينما كان متوجهًا إلى يوسف بلغه أنه مات رحمه الله فعاد إلى بلاده طوس . وأتم مؤلفاته البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة والمستصفي في أصول الفقه و(المنخول) واللباب والمنتحل في أصول الجدل . ومعيار العلم وشرح أسماء الله الحسنى . ومشكاة الأنوار والمنقذ من الضلال وحقيقة القولين وغيرها . وكان إمام الحرمين لا يفتأ يفاخر بتلميذه أبي حامد فيقول (الغزالي بحر مُغرق) ومن أقوال الغزالي التي تكشف علمه وصدقَ إيمانه قوله في التوكل من كتاب الإحياء : وكلُّ ما قسم الله بين عباده من رزق وأجل وإيمان وكفر فكله عدل محض ليس في الإمكان أصلاً أحسنُ ولا أتمُّ منه .

ومن درس وعظه (اعلم أن الدين شطران، أحدهما ترك المناهي والثاني فعل الطاعات وترك المناهي هو الأشد والطاعات يقدر عليها كلُّ أحد ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر السُّوء والمجاهد من جاهد هواه) والحق أن كتاب الإحياء فيه جملة من الأحاديث الباطلة وفيه خير كثير نسأل الله علمًا نافعًا وعملاً صالحًا متقبلاً .

والحق أن الإمام أبا حامد الغزالي قد أضر به التصوف لأن المتصوفة لا يخلون من شطحات يخرجون فيها عن مألوف الناس وكما خبرتُهم فإنهم يؤمنون بالأحاديث الضعيفة والموضوعة وكرامات الأولياء التي يروونها فيبدو من قصصها

أنها أصعب من معجزات الأنبياء ثم إنهم يؤمنون بكرامات الموتى وقد سمعت من روى عن البدوي في طنطا معجزات مع أنه روي عنه أنه كان لا يصلِّي وهذا إن صحَّ فهو من أعظم الإثم. وقد وُصف لي ذات يوم متصوف فذهبت أزوره لأسمع منه فلما حضرت صلاة العصر لم يقم معنا ليصلي ولما سألت أحد الجهلة المحيطين به قال لي إن الشيخ يوسف تصلي عنه الملائكة فقلت له إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم تصلِّ عنه الملائكة مع أن الشيخ يوسف لا يساوي غبار قدميه بل لقد كان الأمر في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم على العكس من سيرة الشيخ يوسف. لقد صلى وقام رسول الهدى صلى الله عليه وسلم حتى تورمت من العبادة قدماه وكان يستقل ذلك في جنب الله.

وقد تكلم بعض الأشياخ على الإحياء ومنهم محمد بن علي المازري فقال لقد رأيت تلاميذ الغزالي يحكون أقوالاً مختلفة في الإحياء فإن نَفّس الله في العمر مددت فيه الأنفاس وأزلت عن القلوب الالتباس ثم إن المازري أثنى على الغزالي في الفقه ولكنه هاجم الغزالي واتهمه أنه تأثر بفلسفة إخوان الصفا وكتب ابن سينا وأبي حيان التوحيدي. وقال إنَّ في الإحياء كثيراً من الأحاديث الواهيات. والغزالي نفسه يقول: إن في علومه مالا يسوغ أن يودَع في كتاب وهذا كلام يوحي بالريبة ويبعث على التساؤل: لماذا لا يسوغ أن يودع في كتاب ألغموضه ودقَّته؟ فإن كان هو فهمه فما المانع أن يفهمه غيره.

هذا وللغزالي كتب تدلك من عناوينها على عبقرية الرجل ومنها كيمياء السَّعادة والمعتمد وإلجام العوام. والردُّ على الباطنية، ومعتقد الأوائل وجواهر القرآن وكتاب الغاية القصوى وفضائح الإباحيَّة و(مسألة عوز الدور) وعندي أن كتب الغزالي رحمه الله لا يجوز أن تهمل أو تهاجم وتحرق لأن فيها كنوز معرفة يمكن أن تصفَّى ولما تعرَّض الإمام الحافظ الذهبي إلى آراء الأئمة قال: مازال الأئمة يخالف بعضهم بعضًا ويردُّ هذا على هذا ولسنا من يذم العالم بالهوى والجهل وكل

الخير في متابعة الحنيفية السمحة اللهم اهدنا جميعًا صراطك المستقيم رحم الله الإمام أبا حامد عالمًا ذكيًا دافع عن الإسلام وحجّ خصومه وأراد حمل السلاح فأراد الله له أن يكون من ركب العلماء العاملين .



عماد الدين زنكي

لقد شاء الله جل جلاله أن يحقق النصر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم في أثناء الحروب الصليبية على يد العنصر التركي من أمثال ألب أرسلان وابنه ملكشاه وعماد الدين زنكي وابنه الخليفة الراشد المجاهد العدل نور الدين محمود زنكي ومن بعد ذلك حقق نصر الإسلام على يد المماليك من أمثال قطز والظاهر بيبرس وابن قلاون وفيما بين ذلك حقق النصر على يد عناصر من الأكراد من أمثال أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي والأسرة الأيوبية رحمهم الله وهو بهذا يلقي على العرب درسًا: أن صدق الإيمان أجلُّ عند الله من دعاوي النسب وأن شرف الإسلام أسمى عند الله من مفاخر العرب .

حين أراد الله أن يمحق الكفرة من الصليبيين جعل أولى هزائمهم وبداية هَلَعهم وترويعهم على يد مملوك تركي هو عماد الدين زنكي رحمه الله الذي كان والده مملوكًا للسلطان السلجوقي التركي ملكشاه ابن ألب أرسلان لكن ذلك البطل المسلم الذي كان يحكم قطعة صغيرة من الأرض كان يتطلعُ أن يفجع الصليبيين ويبكيهم ويهاجمهم في معقل حصين من معاقلهم ألا وهو مملكتهم التي أنشئوها في مدينة الرّها ومنطقتها كانت تلك المملكة عريقة فقد أنشأها الصليبيون منذ خمسين عامًا وسخّروها للعدوان بسبب موقعها في العمق فكانت لا تذر إمارة إسلامية إلاّ

هاجمتها وقطعت عليها الطريق. وكانت كثيراً ما تنصب حواجز على الطرقات بين الإمارات الإسلامية حتى لقد فصلت جنود المسلمين في بلاد الأناضول عن قوات المسلمين في العراق وعلى الجملة فقد كانت كدولة إسرائيل مصدر عدوان دائم وإهانات مستمرة للإمارات الإسلامية المنقسمة وكان عماد الدين زنكي كلما رأى حجم الخسائر تحرَّق شوقًا لاحتلال الرُّها وقلعتها وإراحة المسلمين من شرِّها وقد خرج رحمه الله بنتيجة قتالية أن الرُّها لا يمكن أن تفتح مادام ملكها جوسلين في داخلها وفي قلعتها تحيط به مرتزقة الأرمن والبيزنطيين لقد تظاهر زنكي رحمه الله أنَّه يريد أن يغزو مدينة آمد ليحاصرها ويؤمِّن بحصارها كلَّ منطقة ديار بكر وتوجه فعلاً إليها وفي أثناء ذلك بثَّ الجواسيس حول الرَّها ليوافوه بتحركات ملكها جوسلين وكان جوسلين حاكمًا صليبيًا ضعيف الرأي محبًا للشهوات فلما اطمأن أن زنكي رحمه الله قد شغل نفسه في ديار بكر خرج إلى منتجع له في تل باشر ليمارس شهواته واعتمد في حراسة قلعة الرّها على أخلاط من السريان واليعاقبة والنساطرة والأرمن وكان معظمهم أهل صناعة وتجارة لا معرفة لهم بفنون القتال وهنا أخبر الجواسيس زنكي رحمه الله أن الفُرصة مهيأة فكان أول عمل عمله أن قطع الطريق ما بين جوسلين والرّها ولجأ إلى أسرع ركائبه من نجائب الإبل والخيل وفي يومين كان عند أسوار الرَّها بأدوات الهدم وكبار المجانيق حيث حاصر الرَّها ثمانية وعشرين يومًا وصاح جوسلين بالنصارى : إذا سقطت الرّها فمالكم إلا الذبح قبل أن تصلوا إلى السَّاحل لكن صيحاته طارت أدراج الرياح فلم تتوجه لنصرته إلا قطعة من جيش الملك ميلزاند وصلت بعد فوات الأوان وفي أثناء ذلك طار صيتٌ عطر لزنكي رحمه الله أنه أعلن الجهاد في سبيل الله وأنه انقض كالليث غاضبًا أمام المجاهدين على جيش الأعداء وأن حامية الرُّها الصليبية استسلمت وقام بتسليمها إلى زنكي كبير أساقفتها القسيس برصوما؛ فأتى المجاهدون المتعطشون للجهاد من كل أنحاء البلاد الإسلامية ورأوا في زنكي رحمه الله أنه حامي حمى الإسلام. وفي الأيام

التي تلت الفتح سار زنكي في عدله وإحسانه وعفوه على سيرة السَّلَف فأحبه سُكَّان الرَّها واستمعت الدنيا أن زنكي أنْهى خرافة مملكة الرَّها التي نشرت الفساد وأذلت الناس خمسين عامًا وبلغ خبر النصر الإسلامي إلى أهل أوروبا فلم تبق امرأة نصرانية من حاقدي الصليبيين إلا بكت وأبكت أولادها على عز الصليب الذي اندثر في أول دولة صليبية بدأت مع مذبحة القدس التي اقترفها همج الصليبية وانتهت على يد أتابك صغير الديار دوى صوته بكلمة التوحيد فسقطت من حوله رايات الكفر حين أقبل بفتيان الإسلام على قلاع الظَّلمة فدمّرها في أقل من شهر وعبثًا حاول الصليبيون الاحتفاظ ببعض حصونهم بعد سقوط الرّها لكنّ كل الحصون المحيطة بالرها تساقطت واحدًا واحدًا وكلما طاح حصْنٌ دوّى من حوله هتاف التوحيد وعلا في أوروبا نواح النساء والرجال باكين على عهود همجيتهم يوم قتلوا في المسجد الأقصى سبعين ألفًا في أقل من أسبوع ودنَّسوا ديار الإسلام بأبشع جرائم النهب والسلب والفواحش لكنّ الله ردّ كيدهم في نحورهم وقذف في قلوبهم الرعب حين دكت تلك المملكة الطاغية فتفرق من حول حاكمها كل الصليبيين وأثبت مُدَّعو البطولات أنهم جبناء يُهزمون بالرُّعب قبل أن يروا شباب الإسلام ومع أن عماد الدين زنكي رحمه الله نال ذلك الشرف حين هدم معنويات الصليبيين ومهَّد الطريق لنور الدين وصلاح الدين والملك المظفر قطز والظاهر بيبرس وابن قلاون فقد قُتل رحمه الله بعد وقت قصير من فتحه للرُّها قتله بعض غلمانه بمؤامرة دنيئة من أعداء المسلمين لكن ابنه السلطان نور الدين محمود حافظ على إنجازاته وفتح الطريق واسعًا للانتصارات الماجدة التي حققها ذلك القائد المسلم الذي سلك في الناس سيرة الخلفاء الراشدين وترك الصليبين فلولاً مذعورة فقدت كرامتها، ثم لم تلبث أن ذهب ريحها حين دمرها صلاح الدين في حطين والقدس وعسقلان ثم لم تزل تنحسر حتى اندحر آخر صليبي من ميناء عكا منسلخًا من شرفه بعد أن ترك أحلامه الكاذبة في ميناء عكا على أيامها الماجدة أزكى السَّلام. لقد كان زنكي رحمه

الله حين أسقط الرَّها أحد أبطال الإسلام الذين كتبوا أسماءهم في سجلات الخلود ورويت له كرامات حتى إن ملكًا من ملوك صقلية من معاصري عماد الدين زنكي فاخر أحد العلماء في صقلية فقال له أين كان محمدكم حينما هجمتُ منذ أيّام على شواطىء أفريقيا فقتلت وسلبت ورجعت منتصراً فقال له الشيخ المسلم كان محمد صلى الله عليه وسلم مبتهجًا بفتح مملكة الرّها وستراه إن شاء الله بعد قليل مبتهجًا باحتلال مملكة القدس فامتقع الملك الصقلي ولم يفتأ من ذلك اليوم مرتعبًا حتى رأى عودة القدس إلى رحاب المسلمين وخروج مجرمي الصليبيين منها بعد أن أظلَّهم عدل صلاح الدين ونصر صلاح الدين وبأس صلاح الدين. وقد رأى بعض الصالحين عماد الدين زنكي في منامه في رؤيا صالحة فقال له ما فعل الله بك فقال: غفر لي مغفرة عظيمة. فقال الشيخ بم غفر لك قال بفتح الرَّها. رحم الله عماد الدين وعسى الذي أراح المسلمين من طغيان الصليبية الحاقدة أن ينصرهم على الصهيونية المجرمة. إنه على ذلك قدير وهو بالإجابة جدير.



نظام الملك

إذا ذكر اسم نظام الملك في تاريخ الدولة السلجوقية تألق التاريخ وافتخر لقد كان رحمه الله قوام الدنيا والدين قال عنه الحافظ الذهبي نظام الملك الحسن بن علي بن إسحق الطوسي عاقل سائس خبير سعيد متدين محتشم عامر المجلس بالقراء والفقهاء. وقد اقترن اسم نظام الملك بإنشاء المدارس الحكومية المنظمة فقد أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وهي المدرسة النظامية التي أتم بناءها عام أربعمائة وتسعة وخمسين وكان أول مدرسيها أبو إسحق الشيرازي ثم نشر المدارس الحكومية رحمه الله بمرو في خراسان وبهراة وببلخ وبالبصرة وأصبهان ونيسابور وطوس وأماكن أخرى فانتشر العلم والأمن. لم يكن نظام الملك ملكًا وأقصى ما تبوّءه الوزارة للسلطان ألب أرسلان ثم لابنه ملكشاه لكنه دبر الملك أحسن تدبير ومحا المظالم ورفق بالرعيّة وبنى الوقوف فهاجر العلماء والكبار إلى جنابه واستمر في الوزارة عشرين عامًا وكان رحمه الله من رواة الحديث كان فيه خير وتقوى وتقريب للصالحين وخضوع للمواعظ يعجبه من ينتقده فينكسر ويبكي وكان الخليفة العباسي المقتدي يعجب بسيرته ويُجله. دعاه يومًا إليه فقربه مَن مجلسه وقال له ياحسن رضي الله عنك رضاء أمير المؤمنين عنك وروي عنه أنه ختم القرآن وحفظه وهو في الحادية عشرة من عمره. وبرع في الإنشاء والحساب روي عنه أنه ما جلس إلا على

وضوء وما توضأ إلا صلى نافلة وكان يصوم الاثنين والخميس وقد جدد عمارة العاصمة طوس وبنى بها مستشفى وكان رحمه الله يتصدق كلّ صباح بمائة دينار.
قال عنه ابن عقيل في كتابه المنتظم: بهرت سيرته العقول كرمًا وحشمة وإحياء لمعالم الإسلام فبنى المدارس وأنفق عليها وأنعش العلم وأهله وعمر الحرمين الشريفين ودور الكتب التي ملأها بالكتب الغوالي فراجت في عصره سوق العلم وحسُنت حال العلماء فتقدموا على أهل الأموال وقد رزقه الله نزاهة اليد فشاعت البركة في الأموال وأمسك الناس عن ذم الزمان لأن الفقر هو الذي يُشكي الناس من زمانهم فلما عمهم إحسان الدولة أمسكوا عن ذم الزمان وأهله وقد رثاه الشاعر ابن عطية فقال:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة	يتيمة صاغها الرحمن من شرَف
عزَّت فلم تعرف الأيام قيمتها	فردَّها غيرةً منه إلى الصَّدف

ورغم أنه ملأ عصره سعادة وإخاء وحُبًّا فقد كتب له أن يموت مقتولاً إذ دخلَ عليه وهو في طريقه إلى الحج رجل من الباطنية في زي فقير متصوف وناوله ورقة فيها قصته فأخذها منه وطفق يقرؤها فضربه بسكين في قلبه فقتل رحمه الله وهو قريب من الثمانين عامًا في ليلة جمعة سنة خمس وثمانين وأربعمائة بقرب نهاوند وكان آخر قوله: لا تقتلوا قاتلي قد عفوت عنه لا إله إلا الله. لكن القوم أمسكوا القاتل وقتلوه بعد أن دمر ذلك الصَّرح الشامخ من صروح المعروف. وتهامس الناس أن السُّلطان كان مشاركًا في التدبير لقتله وخصوصًا حين مات السلطان بعد مقتل نظام الملك بخمسة وثلاثين يومًا. وسوف نعطر المجلس بلمع من أخباره لأن سير الصالحين تثير الهمم وتكشفُ الظلم.

لقد درس نظام الملك علىَ عدد من فضلاء المشايخ وروى عنهم وذكر صاحب (بغية الطلب في أخبار حلب) من أشياخه أكثر من خمسة عشر شيخًا وروى عنه الحديث كثيرون وكان له مجلس يملى فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن الأحاديث التي رواها رحمه الله مُسْنَدًا إلى جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا لعن آخر هذه الأمَّة أولها فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم) وكان رحمه الله ينظم الشعر ومن شعره قوله :

أأحبابنا لاشتت الله شملكم ولاذقتمو من لوعة البين ما عندي

تحملتمو لي كلُّكم شوق واحد وحملتموني شوقكم كلَّه وحدي

وكان نظام الملك رحمه الله وافر الهمّة والحظ معًا فقد قامت في أيامه حروب وفتن ومطامع في أطراف الملك فأثبت للسلطان ألب أرسلان جدارته وأوقف المطامع عند حدها وهزم الأرمن في أطراف القسطنطينية ونالت دولة ألب أرسلان من ذلك أموالاً ظهرت آثارها في الرَّخاء الذي شاع في عهد نظام الملك وزير السلطان .

وكان نظام الملك يروي الحديث تبرُّكًا وتعلُّقًا منه بالسنة المطهرة وكان يقول : الحديث العالي عندي هو الذي صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان رواته مائة . وقد وصف رحمه الله بالكرم الهائل فقد قدم في عام أربعمائة وثمانين إلى النهروان فاجتمع القصَّاد فما رد أحدًا منهم ولما أحصى ما أنفقه إذا هو مائة وأربعون ألف دينار . ولم يكن رحمه الله ينسى أي باب من أبواب البرّ حتى لقد عثروا بعد موته في مكة على خمسين ألف ذراع من قماش يصلح لتكفين الموتى .

وروجعت عنده أوراق محاسبين فوجد مصروفات بلغت ثلاثين ألف دينار ليس فيها توقيع إلا لفقير أو فقيه أو عالم أو شريف من أهل البيت فطابت نفسه لذلك الإنفاق الموفق واستأذن يومًا من السلطان ليحج فلما استعدت السفن في دجله كتب إليه أصحاب الحاجات حوائجهم وتقدم فقير برقعة وقال للحاجب أرجوك أدخلها إلى نظام الملك فإن لي عنده حاجة فلما قرأها نظام الملك قال للحاجب أدخل صاحبها عليّ فخرج الحاجب يطلبه فلم يجده وإذا الورقة مكتوب

فيها يانظام الملك وجودك هنا لحاجات الناس أفضل من حجة النافلة لأن الله يقضي هنا بك حوائج المسلمين ويغدو الرزق بمكة رغداً فأوقف نظام الملك الرحلة كلَّها وأقام وبحث عن الرَّجل صاحب الرقعة ليتعرف إليه ليكافئه فلما وجده بعض القوم مصادفة قيل له أجب نظام الملك فقال مالي ولنظام الملك إنما هي أمانة أديتها. وكان نظام الملك إذا مرض داوى نفسه بالصدقة فيعافيه الله وأحصى مرَّة ما تصدّق به في إحدى مرضاته وإذا هو ثمانون ألف دينار. وكان رحمه الله يكثر من إدخال أحد الفقهاء عليه فسُئل في ذلك فقال هذا الفقيه يدخل عليَّ فلا يطريني ولا يغرُّني بل يذكرني بذنوبي وتقصيري فيخرج من عندي وقد غسلت نفسي من الكبر ثم هو لا يقبل مني عطاءً ولو اجتهدت في إقناعه. أما غيره فأشعر حين يخرجون من عندي أن نفسي تغتر ويعتريها غفلات وأوصى مرَّة ولده فقال إذا شمَّرت للفقه فلا تغتر بنفسك وأيقن دومًا أن ما تجهله أكثر مما تعلمه. وكان يقول لو خيّرت من حوائج الدنيا لطلبت من الله جلّ جلاله أن يكفيني برغيف كلّ يوم ومسجد أتعبد فيه لربي. وكان يحسُن إلى أحد الشعراء فعلم أنه هجاه بأبيات فأحضره يومًا إليه وقال له: علمت أنك هجوتني فعرفت أن عطاءك لا يكفيك فأمرت بمضاعفته لك. فانصرف الشاعر وهو لا يكاد يرى نفسه خجلاً وكان كريمًا في بيوته كان له أربع نسوة تقدّم في بيوتهن ألوان واحدة من الطعام عشرة رءوس من الغنم وعشرة ألوان وعشرة أوعية من الحلوى وكان الفقراء يعمدون بيوته فأيَّ بيت دخلوه منها وجدوا فيه كفايتهم. وكان رحمه الله له اعتقاد حسن في أهل الطاعة من المتصوفة فلما سُئل عن ذلك قال. كنت أخدم تركيًا يقال له ابن باخز فلقيني يومًا أحد المتصوفة فقال لي لا تشغل نفسك بمن تأكله الكلابُ غدًا واتفق أن ابن باخز شرب ليلته حتى سكر وكانت له كلاب كالسباع فأنكرته كلابه ومزَّقته شرَّ ممزق. قال نظام الملك منذ ذلك الحين اعتقدت أن أهل الخير من المتصوفة لهم مكاشفات[1]. رحم الله نظام الملك وزيراً تعبق سيرته بعطر التقوى والعلم والاستقامة.

(١) الكلام عن الصوفية والتصوف وبدعهم يطول ولا يسع المجال هنا لشرح ذلك فلزم التنبيه [الناشر].



نور الدين الشهيد رحمه الله

كثير من أهل التاريخ يعدون نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي من الخلفاء الراشدين لكثرة ما أزال من ظلامات ومحا من مكوس وابتزازات وأقال من عثرات ثم لعظمة مواقفه في رد الصليبيين ودحر الغزاة المعتدين وأخيراً لما بذله من تسهيل سبيل الله بخدمات وفوده وحجاجه وعلى الجملة فإن نور الدين، رحمه الله كان له من اسمه نصيب فقد أوقد في دياجير الضعف جذوة الدين وأنزل الهزائم الساحقة بالصليبيين وامتشق حسامه منذ نعومة أظفاره فلم يغمده إلا بعد أن تألق نجم صلاح الدين حين قام على تراث الشهيد بالحفظ والرعاية والانتصارات. ولقد ورث نور الدين ميراث البطولة عن أبيه الشهيد عماد الدين زنكي الذي دوّخ حصن الرُّها وأسقط في هجوم صاعق وخطة محكمة أول دولة من الدول الصليبية الغاشمة ألا وهي مملكة الرها حين طوّقها ومنع عنها النجدات، فاستسلمت على الرغم من إمدادات أوروبا وبكت لاستسلامها نساء الصليبيين المعتدين في أوروبا حين رأوا نعش العدوان يتهتك تحت الضربات القوية التي وجهها والد الشهيد عماد الدين زنكي إلى الجيش الصليبي المعتدي والحق أن آل زنكي كانوا من بيوتات الجهاد العريقة الشريفة ولد نور الدين محمود زنكي في غمار الحروب الصليبية في شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة وكانت حال المسلمين في حضيض من الشتات

والضياع والهزيمة ولكن الله أمدّ نور الدين بعزيمة من الإيمان جعلته من أركان الجهاد ومن تباشير النصر. وقد ظهرت ملامح انتصاراته منذ صغره فقد حاصر دمشق وملكها عشرين عامًا وافتتح حصونًا كثيرة ملأها قوة وعدلاً منها فامية وتل باشر وعين طاب والتقى بالبرنس صاحب انطاكية وكان البرنس في ثلاثة آلاف من خيرة جنوده فدمرهم نور الدين وقتل البرنس وأذل الصليب في حلب فأظهر السنة وقمع أهل الغلوّ وأكثر من بناء المدارس والمساجد في حمص وحلب ودمشق وبعلبك وأبطل المكوس الظالمة ثم استولى من الأعداء على المنيطرة وبانياس وكسر الفرنج عدة مرات فأذلهم ودوخهم. وكان راميًا فذًّا ومحاربًا مقدامًا ومتعبدًا لربه في خوف وورع وكان يتعرَّض للشهادة وكان كثيراً ما يدعو الله فيقول: اللهم اجعل قبري في بطون السباع وحواصل الطير وبنى دار العدل فمحا المظالم وعم العدل والإنصاف وأمر بإكمال سور المدينة المنورة واستنبط عينا بأحُد وفتح درب الحجاز واجتمع له جمع من الفرنج والأرمن في مدينةحارم فسار إليهم واحتل في أثناء سيره حرَّان وسنجار والرُّها والرَّقة ومنبج وشيزر وحمص وحماة وبعلبك وتدمر حتى خلص إلى جموع الفرنج والأرمن وإذ هي أكثر من ثلاثين ألفًا فهجم عليهم هجومًا صاعقًا دمرهم فيه حتى لم يكد ينجو منهم أحد ففروا عنها وتركوها وبانياس. ثم استنجد به شاور حين بعث نور الدين جيشًا إلى مصر حيث انتصر على الفاطميين وعلى شاور وصفت الديار المصرية لحكم نور الدين فناب عنه أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين. الذي لم يلبث أن أباد الدولة الفاطمية. وكان نور الدين عالمًا حلو الخط واسع المعلومات وكان ديّنًا يصلي في جماعة ويكثر الصوم والتلاوة والتسبيح ويتحرَّى في قوته الحلال ويتجنب الكبرياء وكان يروي الحديث وكان جليسه لا يرى منه إلا الأدب والوقار والتواضع وروى أنه ما سُمع منه كلمة سخط في رضا ولا غضب وكان كلما ا تسع ملكه نقص الضريبة على رعيته. وقد لقى الصليبيين في معارك وحصون نيفت على خمسين حصنًا فانتزعها بالقوَّة وبحب الناس له.

وكان إذا ملك مالاً بنى مساجد ومدارس حتى لقد بنى جامعًا بالموصل أنفق عليه أكثر من سبعين ألف دينار. قال عنه المؤرخون كان نور الدين لا تنشف ثيابه من نفحات الجهاد وإذا فرغ أكل من عمل يده ينسخُ ويلبس الصوف ويلازم السجادة والمصحف وكان حنفيًا ويراعي مذهب الشافعي. وقال عنه ابن خلكان كان مجاهدًا متمسكًا بالشرع الشريف. كثير الإحسان والأوقاف وكان أسمر طويلاً حسن الصورة ليس بوجهه شعر إلا حول حنكه. وقال عنه ابن الأثير ما قرأت بعد السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين وعمر بن العزيز أعظم من سيرة نور الدين. كان لا ينفق على نفسه إلا من مال خاص به وطلبت زوجته منه عطاء فأعطاها ثلاثة دكاكين فاستقلتها فقال لها والله لا أملك غيرها وأما ما ترينه فهو ملك للمسلمين.

وكان مجموع أوقافه في البر يحسب شهريًا فيزيد على تسعة آلاف دينار صورية وقال له مرَّة أحد كبار المشايخ وهو القطب النيسابوري لا تغامر أيها الأمير وحافظ على حياتك لأن ضياع حياتك قد يضيع المسلمين فقال له نور الدين لقد غاليت ياشيخنا لقد حفظ الله البلاد قبلي لا إله إلا هو. ولم يكن يجزل المكافآت للمفاخرة ولا كان للشعراء في بلاطه سيطرة حتى لقد قال أحد الشعراء وهو أسامة بن منقذ يذكر نور الدين:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا ... له فكلٌّ على الخيرات منكمش

أيامه مثلُ شهر الصوم طاهرةٌ ... من المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

ولم يعرف عنه أنه لبس حريرًا ولا ذهبًا. وقد منع بيع الخمر في كل بلاده وكان قوي العضل يكثر اللعب بالكرة ويبدع في تصريفها فعاتبه بعض الناس في ذلك فقال له: لا تنس أننا في حال حرب وفي ثغر يحتاج إلى حماية واللعب بالكرة على الخيل يجعلها دوامًا على أهبة النزال. وأهديت إليه من مصر عمامة مذهبة فأهداها إلى شيخ الصوفية فباعها بألف دينار. وترافع هو وخصم له فحضر المحكمة ودافع عن نفسه فحكم القاضي له وأثبت له الحق فتنازل عن حقه في نفس المجلس. وكان

لا يكل الجند إلى أمرائهم ولكنه يتفقدهم بنفسه ويباشر خيولهم . وأسر مرة أميراً افرنجيًا فافتدى نفسه بثلاثمائة ألف دينار فبنى بالمال مستشفى ومدرسة . وذكره العماد الكاتب فقال : أسقط نور الدين عن الناس المكوس ونقى أموال الدولة وكتبت له أنا في هذا الأمر أكثر من ألف منشور . وكان كثيراً ما يخلو لنفسه فيصنع شيئًا بنفسه ويبيعه فيأكل من عمل يده .

وكان ربما أجرى الفرس وخطف الكرة من الهواء ثم قذفها فبلغت آخر الميدان وأحصى ما أسقطه نور الدين من المكوس في سنة فبلغ ٥٨٦٠٧٤ ديناراً ولما نزل الفرنج على دمياط بدأ نور الدين صومًا على نية أن ينصر الله جيش المسلمين وكان لا يفطر إلا على ضئيل من الطعام . وصلى ذات يوم فلما سلم استوقفه إمامه وقال له يهديك رسول الله صلى الله عليه وسلم السَّلام ويبشرك أن الفرنجة رحلوا عن دمياط . وقال له إن هذا الكلام حقّ بعلامة يوم حارم . ثم سأله إمامه ياسيدي وما علامة يوم حارم فقال نور الدين لما التقيت بالعدو يوم حارم ورأيتُ كثرتهم خفت على الإسلام فانفردت ونزلت ومرَّغت وجهي على التراب وصحت يا الله الدين دينك والجند جندك اللهم ثبتنا بمنك وكرمك فهزمنا العدو في يوم حارم هزيمة صرع الله بها جنوده فما قامت لهم قائمة وكان رحمه الله يحب العلماء ولا يرد لهم قولاً كان على مذهب أبي حنيفة ولكن لا يتعصب وقد أقطع البدو أراضي فكفوا عن سلب الحجاج وعم الأمان وكان يؤخذ على نور الدين أنه قليل الابتسام جدا ، فلما وعظه إمامه بأن الابتسام من وصايا النبوة قال له نور الدين : لا تؤاخذني أيها الشيخ كيف ابتسم وآلاف المسلمات سبايا عند كفار لا يتقون ولا يرحمون وكيف ابتسم والمسجد الأقصى يدنسه العدو . مات رحمه الله على فراشه بداء الخوانيق فأبى الناس إلا أن يسموه الشهيد والحق أنه إن شاء الله من أعظم الشهداء لأن الثمانية والخمسين عامًا التي عاشها كانت كلها جهاداً محتسبًا إن شاء الله لتكون كلمة الله هي العليا دفن بالمدرسة النورية التي بناها بدمشق رحم الله نور الدين محمود زنكي وسلام عليه في أبطال الإسلام .



صلاح الدين الأيوبي

كلّما قرأت سيرة هذا البطل امتلأ قلبي أملاً أن تكون خاتمة دولة إسرائيل على يد بطل مؤمن إيمان هذا البطل. وذلك أن الصليبية الحاقدة ألبت أوروبا على أمة محمد ودين محمد وديار الإسلام وقد تمكنت فعلاً من تدمير جزء كبير من أمة محمد حين قتلت في حرم بيت المقدس خلقًا هائلاً سالت دماؤهم في رحبة المسجد الأقصى حتى خوَّضت فيها خيل الكفر إلى رُكبها واطمأن الصليبيون أن دين محمد قد زال وأن أمة محمد قد ذهبت إلى غير رجعة حين أنشأوا في ديار الإسلام أربع ممالك للصليب ترأسُها مملكة القدس وحين نشروا لغتهم في قرى ساحل الشام حتى أصبح الناس لا يسمعون في تلك الربوع إلا رطانة الفرنجة. في ذلك الضياع والشَّتات نشأت أسرة صلاح الدين كريمة قوية عزيزة الجانب طمَّاحة إلى الجهاد فساعدت عماد الدين زنكي ثم انضمت في دمشق إلى ابنه نور الدين وفي قصر نور الدين ورحابه نشأ صلاح الدين في ظل أبيه نجم الدين وعمه أسد الدين وما إن بلغ سن الرشد حتى رأى والديه يرسلانه إلى حلقات العلم فقرأ على أشياخ صالحين وتخرَّج متقنًا للدين والأدب والعربية حتى كانت لغته رحمه الله رائعة الأسر جميلة النبرة خالية من العجمة ولم يزل يعكف على التعمق في الشريعة وفقهها حتى صار من فقهاء الشافعية وكان رحمه الله يمزج علمه بالزهد والورع ويقول إذا سُئل عن

المال والثَّراء إن الذهب عندي والتراب سواء مادام العبد مصيره أن ينتقل عن الذهب ليعيش في التراب. وفجأة فتح عينيه رحمه الله ليرى نفسه في مصر ثم ليرى نفسه نائبًا لعمه القائد أسد الدين شيركوه بن أيوب الذي أرسلهُ السلطان نور الدين زنكي نجدة لوزير الفاطميين شاور السعدي على قرينه الوزير ضرغام بعد أن اختصم الوزيران فلجأ أولهما إلى نور الدين القائد المسلم ولجأ الثاني وهو ضرغام إلى كفار الصليبيين وانتصر جيش صلاح الدين فخلف عمه على القيادة وبدأ نجمه يلمع في سماء المسلمين. كان صلاح الدين رحمه الله تتقطع نفسه أسى كلما رأى المسلمين وما يعانونه في القدس وعكا ويافا والرملة وعسقلان وهنا استشعر رسالته وعلم أنها تحرير ديار الإسلام في كلِّ مكان وأن يجعل بداية التحرير من مصر وبالفعل انطلق رحمه الله من مصر فطفق يجمع ديار الإسلام تحت حكمه وينقص دولة الصليب من أطرافها حتى تم له في وقت قصير الاستيلاء على ديار اليمن وبصرى ودمشق ثم على حمص وحماة وحلب وتم له فتح شمال العراق (كردستان) والموصل وحرَّان والجزيرة وديار بكر وفي أفريقيا مد ملكه إلى الشمال الأفريقي. وهنا أدركِ الصليبيون أن من حولهم خطرًا جسيمًا وقوة فتية قوية لكنَّ الهمّ الأكبر لصلاح الدين كان تخليص القدس وكان رحمه الله يبكي كلَّما تذكر ذل المسلمين تحت حكم الصليب في القدس والسواحل ومن ثم بدأ رحمه الله بالتوجه إلى فلسطين فتستقبله قراها ومدنها بالترحاب.

وكان على الكرك حاكم صليبي لئيم بذيء اللسان غدَّار اسمه ريجينولد. وكان بينه وبين صلاح الدين عهد ألا يعترض حجاج بلاد الشام لكنه كان ينقض العهد ويعترض قوافل الحجاج فينهبها واجتاح يومًا قافلة فيها أخت صلاح الدين فنهبها وسبّ أمامهم محمدًا صلى الله عليه وسلم وقال لهم: أحضروا محمدًا لينقذكم وزاد بعدئذ في تحديه حتى لقد جنَّد جيشًا وسار به ليغزو مكة فأقسم صلاح الدين إذا أظفره الله به أن يقتله بيده. كان ريجينولد شديد الشبه بإسحق شامير الذي

يتحدى المسلمين في عقد دارهم ويعلن أن أرض الإسلام صهيونية الأصل والأمل في الله كبير أن يلقى نفس مصير ريجينولد وقد التف الكفر كله حول أعداء الإسلام وانضم الغلاة والحشاشون إلى الصليبيين حتى إن أحد الحشاشين دخل خلسة خيمة صلاح الدين وضرب عنقه بالسيف لكن الله نجى الإمام المسلم لأن صلاح الدين كان يلبس على رقبته حديداً .

ولقد انتهز الفرصة صلاح الدين رحمه الله حين رأى وراءه جيشًا مؤمنًا قويًا تجمع رجاله من مجاهدي مصر والشام فتوجه به إلى منطقة الغور وسهول حطين حين سمع أن الروم يحشدون له هناك وكان يعلم أن المعركة الحاسمة ستكون في سهل حطين لكنه عرَّج إلى طبريا وحاصرها ليجر الصليبيين إليه في مصيدة وكمين واستولى رحمه الله على مدينة طبريًا إلاَّ القلعة فقد اعتصمت بها حاكمتها زوجة القمص وحتى لا يضيع صلاح الدين الفرصة ترك حامية للمحاصرة وقاد جيشه صوب حطين حتى إذا وصل إلى هناك نزل على عيون ماء ومنطقة خضراء وترك للصليبيين منطقة جافة لا ماء فيها و لا خُضرة وتصاف الفريقان وعبثًا حاول جيش الصليبيين الهائل أن ينال شربة ماء إذ منعه جند صلاح الدين ودار القتال واشتد وفي فترة من توقف القتال حرق رجال صلاح الدين هشم الزروع فظلت النار مشتعلة بالقرب من صف الصليبيين فاجتمع عليهم الظمأ والحر وكان جيش الصليبيين حاشداً فيه ملك القدس وحاكم الكرك المجرم وكبار قادة الصليب ومنهم قائد فرقة الداوية وقائد فرقة الاستباليه وكلُّ قائد متعصب من جيش الصليب وبعد صلاة يوم الجمعة في السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هجرية انقض صلاح الدين بجيشه على جيش العطاش في الحر وكان يومًا مباركًا بإذن الله ردّ الصليبيون فيه الهجوم بعنف حين اجتمعوا حول ملكهم وحاولوا نصب مخيّم فلم يستطيعوا أن ينصبوا إلا خيمة واحدة احتشد حولها فرقتا الداوية والاستبالية ليحموا شرف قائدهم وقد جعل جند المسلمين بؤرة هجومهم تلك الخيمة واستقتل الجيش الصليبي لعلمهم

أنهم إن هزموا في ذلك اليوم فلن تقوم لهم قائمة وبدا الأعياء على جنود الصليب لشدة الحر وشدة العطش فأمعن المسلمون في التكبير حتى زلزل الكفار زلزالاً شديداً وهاجم المسلمون خيمة الملك لكنَّ فتيان الفرق الدينية صدوُّهم فتألم صلاح الدين ثم صاح كذب وعد الشيطان وأمر جيشه أن يعاود الهجوم على الخيمة وفي أثناء ذلك برح العطش بحراس الخيمة فجلس كثير منهم على الأرض يائسين وداهمهم المسلمون على تلك الحال فداسوا فوق الجثث واستاقوا القادة أمامهم إلى خيمة صلاح الدين وفيهم ملك القدس ومجرم الكرك ريجنولد وأكثر من ثلاثمائة قائد من الداوية والاستبالية فأجلس صلاح الدين الملك الصليبي والقادة الكبار من حوله وناول الملك كأس ماء مثلج عذب فيه ماء زهر فشرب الملك وناول بقية الماء إلى ريجنولد المجرم فقال صلاح الدين لقد أكرمناك ولكن لم نأمر أن تكرم هذا المجرم وأمر ريجنولد أن يمثل بين يديه فذكره بخياناته وغدره وسبابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاولته غزو مكة والمدينة ثم استل سيفه وضرب عنقه فكاد الملك يغمى عليه من الخوف لكنَّ صلاح الدين أمَّن روعه وأكرمه ووزع الأسرى على المقاتلين لكنه أمر بقتل كل من بقي من الداوية والإسبتاليه لكثرة ما كانوا يحملون من حقد على الإسلام. وبعد هذا النصر والفتح المبين بشهر واحد فتح صلاح الدين القدس ومع أنه دخلها عنوة فإنه لم يقتل أي نصراني واكتفى أن يدفع كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة ثم يخرجوا من القدس بسلام وأمر رحمه الله ألا يفرق بين أم وأبنائها ولا بين زوج وزوجها وأعفى أكثر من خمسة عشر ألفًا من الفقراء النصارى والشيوخ من الفدية وكان يبكي حين يرى مناظر البؤس فيهم وضاعت ابنة امرأة نصرانية فكادت الأم تجن فلما ردها القائد المسلم طفقت تدعو للإسلام. بعد هذا التاريخ بست سنين مات القائد المسلم بالحمى بعد أن ملأ الشرق والغرب بعطر ذكره تاركًا للمؤمنين عبرة أن اليهود لن يطردهم من فلسطين إلا مثل صلاح الدين. ومن ورائه وحدة المسلمين.



المظفر قطز
وعين جالوت

ما مرّ بأمة محمد من المذابح الوحشية كتلك التي داهمتهم أيام المغول. ولا رأى المسلمون من الذُّل والبلاء والغضب وهتك الحرمات كما حلّ بهم على أيدي المغول. لقد أقبلوا من أواسط آسيا كالموت أو كالطاعون أو كالسيل المدمّر فدمروا بلاد مرو في خراسان وذبحوا أهلها قبل أن يسقطوا بغداد بأربعين سنة واشتهروا في حروبهم بالغدر والخيانة ونكث العهود ثم لما انحدروا صوب بغداد قتلوا خليفة المسلمين المستعصم وخانوا عهده ثم عاثوا في بغداد فقتلوا في أيام معدودات ما قُدِّر ربما بين خمسمائة ألف وألف ألف قتيل وحرقوا المكتبات حتى سالت دجلة حمراء بدماء الأبرياء ثم سالت سوداء برماد الكتب ثم عربد سيلهم في ديار الشام فقتلوا أهل حلب وانحدروا نحو دمشق فكاد يقع فيها ما صار لأهل حلب لولا قدر حكيم من الله أوقفهم عن القتل إلى أجل محدود. وكان من سوء حظ المسلمين أن ملك المغول هولاكو الذي تولى بعد جنكيزخان ونائبه كتبغا كانا يعتنقان الديانة الصليبية وكان في دمشق عدد لا يستهان به من الصليبيين فاصطفاهم المغول وقربوا وجهاءهم وأساقفتهم وانتهز النصارى العرب في دمشق تلك الفرصة فجاهروا بالعداء وشرب الخمر وإهانة القرآن وكانوا ربما شربوا الخمر ورشقوا بقية الكئوس في وجوه المسلمين. وكانوا يخرجون بالصليب يطوفون به في الشوارع ويرغمون المسلمين أن

يقوموا تعظيمًا للصليب وربما عرج بعضهم على المساجد فشرب الخمر فيها تحدّيًا وعداءً لدين الإسلام والمغول في أثناء ذلك يهينون المسلمين إهانات يومية حتى أصبح العيش في دمشق بلاءً لا يطاق وفي أثناء إقامة المغول بدمشق انتشر وباؤهم في فلسطين ونهبوا القرى والمدن واحتلوا ساحل فلسطين إلى عسقلان ووضعوا في عسقلان حامية قذرة مجرمة وولوا عليها واليًا من أقارب هولاكو وحين رأوا أنفسهم على مفتاح سيناء تطلعوا إلى مصر واعتبروها لقمة سائغة لأنهم لم يهزموا في معركة قط حتى اعتقد البعض أن جيش المغول لا يقهر كما أشيع ذات يوم عن شذاذ اليهود في فلسطين إن جيشهم لا يقهر. كانت مصر تحت حكم المماليك وهم سلالات من عبيد الأيوبيين لم يزالوا يخدمون الأيوبيين حتى أصبح منهم السلطان ونائب السلطنة. وأراد المغول أن يغزوا مصر فكتب ملكهم هولاكو كتابًا سيئًا قبيحًا شديد البذاء إلى الملك المظفر قطز وأرسل مع الكتاب وفدًا ليوصله إلى المظفر قطز وجاء في كتب التاريخ أن الوفد تألف من أربعين فارسًا يلبسون كامل أسلحتهم وأوصاهم هولاكو أن يخاطبوا ملك المسلمين بعجرفة ويوجهوا إليه كلامًا مهينًا ليوقعوا الرعب في قلبه ولم يكد هولاكو يكتب الرسالة ويرتب إرسالها حتى غادر متوجهًا إلى بلاده في مأمورية واصطحب معظم الجيش وقال لكتبغا: كن على ثقة أننا قادرون أن نعود إليك منجدين تحت طلبك واعلم أن المسلمين قد ذهبت ريحهم ولن ينهضوا إلى الأبد وحتَّى لو هاجمتهم بعشرة أشخاص لولوا الأدبار ومضى وفد المغول مع الرسالة إلى مصر حتى نزل في بلاط السلطان قطز فألقى رئيس الوفد بالرسالة إلى السلطان المسلم وهو يقول له ليس أمامك إلا الاستسلام أو قتلك وقتل شعبك وفتح الملك المظفر قطز تلك الرسالة وإذا هي مستودع من البذاءة وكان من ضمنها ما يلي:

يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك أنا نحن جند الله في أرضه خلقنا من غضبه وسلطنا على من حل به سخطه فلكم في جميع البلاد معتبر وعن

قتالنا مزدجر فاتعظوا بغيركم وأسلموا قيادكم إلينا فنحن لا نرحم من بكى ولا نرقُّ لمن شكا خيولنا سوابق وسيوفنا صواعق. لا تطيلوا الخطاب وأسرعوا بالجواب وقد أعذر من أنذر

ألا قلْ لمصر ها هولاكو قد أتى بحد سيوف في العجاج بواتر
يصير أعزُّ القوم منها أذلة ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر

فلما قرأ السلطان قطز الرسالة استشاط غضبًا وشاور بعض من حوله فمال كثير منهم إلى الذُّل والمسالمة لكنه رحمه الله شاور العلماء ومنهم عز الدين بن عبد السلام فأشاروا عليه بإعلان الجهاد وقتل الرسل وعندئذ ألوى بإشارة من يده وإذا الجنود يحيطون بالرسل فجرِّدوا من أسلحتهم وسيقوا إلى السجن وفي اليوم التالي سيقوا إلى القتل فقتلوا ما عدا جنديًا واحدًا كان أحقرهم بنية أبقى عليه السلطان ليعود إلى قائد التتار كتبغا ويخبره بما حصل لجنوده وجمع السلطان جيش الإسلام مؤلفًا من المماليك والأيوبيين والشاميين والمصريين أحصاهم وإذا هم قرابة عشرين ألفًا وتوجه والعلماء يدعون له إلى فلسطين فاحتل ميناء عسقلان ثم توجه شمالاً حتى بلغ عين جالوت واختار من تلك المناطق الخصبة مكانًا لمعسكره. وبلغ خبر الزحف الإسلامي إلى مسامع كتبغا فطار صوابه وانقض بجيشه على جيش المسلمين والتقى المسلمون والمغول في عين جالوت بشمال فلسطين وكان الجيش الإسلامي أكثر عددًا وأثبت قلوبًا فلما التحم المسلمون والكافرون خبأ السلطان نصف الجيش في الأودية والتلاع وانهزم المسلمون أول الأمر فخدعوا المغول وطوّق الجنود المسلمون المغول فاستحر فيهم القتل وقتل قائدهم كتبغا قتله السلطان المسلم بعد أن أذله وسبَّ الكفر الذي انتمى إليه وسارت البشائر يمينًا وشمالاً إلى أنحاء مصر والشام ودقت طبول النصر فانتهز المسلمون الفرصة في دمشق فانقض المسلمون على الصليبيين في مخابئهم وأنزلوهم من صياصيهم وعاقبوهم بمثل ما كانوا يصنعون بالمسلمين وكانت أيامًا جميلة مباركة ارتكس فيها الكفر وارتفع فيها

علم الإسلام وكانت صيحة قطز أثناء المعركة وا إسلاماه أما صيحته بعد عين جالوت فكانت أطردوا الكافرين إلى ما وراء الفرات وهزم المغول في حلب ثم لم تعد لهم ريح ولا قامت لهم قائمة ولم يزل قطز رحمه الله يطهر ديار الشام ومشارف العراق من رجس المغول حتى ثأر لدين الإسلام وشفى قلوب المسلمين وأثبت رحمه الله أن المسلمين إذا نظمتهم وحدة تحت راية الإسلام لم يهزموا أبدًا حتى ولو كان عدوهم سيلاً جارفًا من الحاقدين .

لقد كان بين معركة حطين ومعركة عين جالوت قُرابة ثمانين سنة وحطين وعين جالوت قريتان من قرى فلسطين حطين في السهل الممتد بين صفد وطبريا وعين جالوت في شمال بيسان والمسافة بينهما مسير ساعة بالسيارة وقد كانت عبرة عظيمة أن المسلمين انشغل بعضهم ببعض قرابة قرن من الزمن بين سقوط ديار الشام في قبضة الصليبيين وسقوط بغداد في قبضة المغول فما نفعتهم النزاعات ولا أغنت عنهم الخلافات ثم لما انتبهوا لصيحات دينهم نصرهم الله وهم قلة وظل الصليبيون في هزائمهم حتى جاء خليل بن قلاون وطرد آخر فلولهم من عكا وأنهى مهزلة الحروب الصليبية .

ثم انقض من قبل ذلك السلطان قطز رحمه الله فدَمّر المغول في أيام معدودات ولقد كان القاسم المشترك بين بطلي حطين وعين جالوت هو أن كلاً منهما هجم تحت لواء الإسلام مدافعًا عن حمى الإسلام مجاهدًا لتكون كلمة الله هي العليا . كان صلاح الدين بطل حطين فقيهًا عالمًا من علماء المسلمين وقائدًا مباركًا للغر الميامين وكان المظفر قطز حاكمًا دينًا محبًا للعلماء يتخذ منهم مجلس شوراه وكان مجموع الدروس من سير التاريخ : أنّ أمة محمد تبتلى بالأعداء لكن العاقبة بإذن الله تكون لهم والنصر يكون مسك ختامهم وثانيًا أن بؤرة الهجوم الكافر تتخذ مسرحها فلسطين لأنها الأرض ا المباركة المقدسة ولأنها همزة الوصل بين ديار الشام ومصر ولأنها مبعث الأنبياء فما من نبيٍّ إلا وشرفه الله بزيارتها ومن هذا المنطلق فإنَّ

عزّ العرب في أيامنا هذه لا يتحقق إلا بمعركة حاسمة إسلامية القيادة موحدة الأعلام تدهم الصهاينة المجرمين في عقر فلسطين في القدس الشريف لتضع حداً لمهزلة الاحتلال الصهيوني فإذا طاحت تلك الفئة المجرمة غارقة في دماء الكفر فقد زال الخطر ورجع للإسلام مسرى رسوله واستجبنا لنداء الله وهو يحضنا على ضرب رقاب المعتدين وتحرير مقدّسات المسلمين ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظه واعلموا أن الله مع المتقين﴾ اللهم حقق لأمة محمد نصراً على عدوّهم يعزُّ به دين الله ويذل به الكافرون .



شيخ الإسلام أحمد بن عبد السلام بن تيمية

هذا العالم الجليل يصعب أن تتحدث عنه في عُجالة لأن سيرته بحر زاخر بالفضائل وأقل فضائله قد لا ينهض لها عظماء العلماء. وما قولك في عالم ألف في فنون العلم الشريف أكثر من ثلاثمائة كتاب أحدها وهو (فتاواه) يقع في سبعة وثلاثين مُجلدًا. ثم ما قولك في عالم عاش سبعين عامًا لم يتمكن في أثنائها أن يؤنس أمّه لكثرة أشغاله بل لم يتمكن أن يتزوج رحمه الله ولما سُئل في ذلك قال: كنت أرجو ذلك وأتطلع إليه ولكني والله ما فرغت. وقد نشأ رحمه الله في بيت مبارك وأسرة زكية فأبوه عبد السلام لُقب بشيخ الإسلام، وجدّه عبد الله كذلك. ولد في مدينة حران وهي مدينة على الطريق من الموصل إلى الشام ثم انتقلت أسرته إلى دمشق فرارًا من وجه التتار وهناك نشأ شيخ الإسلام أحمد بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية وتيمية هي إحدى جدَّاته كانت من صالحات النساء فسُميت العائلة باسمها . وإذا ذكر اسم الإمام أحمد ذكرت معه ثلاثة أمور عظيمة لا ينوء بها إلا أهل الحظوظ العظيمة أولها : حرصه على السُّنة وصفاء العقيدة كما كانت أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصلاحين. وهذا الأمر هو الذي جر عليه غضب أهل البدع وجهلة المتصوفة فألبوا عليه الحكام ورموه بالأراجيف وقالوا عنه عدوٌّ الأولياء ولم يزالوا به حتى آل أمره إلى السجن فسُجن عدة مرات وأراد الله له

أن يموت في سجن دمشق فمات رحمه الله وهو ساجد.

أما الأمر الثاني من أموره التي تحلى بها رحمه الله فكان عظمة علمه وتنوعه. كان إذا سُئل في التفسير أجاب كأنه إمام المفسرين وإن سألته في فقه الشافعية ظننته من أئمة الشافعية مع أنه كان رحمه الله حنبليّ المذهب. كما نبغ رحمه الله في الفقه والتوحيد والمنطق والأصول وكان إذا حفظ مسألة أو حققها لم ينسها أبدًا.

وأما الأمر الثالث فكان صدق نيته في الجهاد وصلابته في الحق ومواقفه الجليلة في كلمة الحق -وخصوصًا بين يدي الحكام- وكانوا في عهده من المغول حديثي العهد بالإسلام وبتلك المواقف تسبب لنفسه بالسجن فسجن في مصر وسجن في الشام وغاضبه سلاطين العرب والمماليك والتتار مع أنه ما كان مرَّة واحدة على باطل وإنما كان دوامًا على الحق وإني موردٌ هنا إن شاء الله شيئًا من طرائف مواقفه:

أولا: كان رحمه الله كريمًا معطاءً عظيم السخاء على طُلاب العلم وربما دخلت عليه آلاف مؤلفة فأنفقها على طلاب العلم. حتى أصبح مقصودًا في حوائج الناس

ثانيا: كان يحمل روحه على راحته ويتمنى الشهادة وكانت له في ذلك كلمتان أو عبارتان كأنهما قبس من الوحي قال إحداهما حين هُدد بالسجن: إنكم لن تستطيعوا ضري فتضروني لأن بستاني في صدري وجنتي معي لا تفارقني ثم إن حبسي خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة، أما الثانية فكانت يوم سجنوه في مصر بالقلعة وأغلقوا عليه الباب فقال على مسمع من سجانيه: والله لو بذلت لكم ملء الأرض ذهبًا ما تحققت لي هذه النعمة ألا وهي نعمة الخلوة إلى الله في السجن أظل معه جلّ جلاله أذكره وأشكره وأخدم علمه الشريف ودينه الحنيف.

ثالثا: كان إذا وقف بين أيدي الحكام أحسُّوا له بمهابة عظيمة. فحين استبد قازان -وهو من سلاطين التتار- بملك الشام واجتاح لبنان إلى دمشق دخل عليه

شيخ الإسلام فلامه على العدوان وأنكر عليه الغدر وطلب إليه باسم الإسلام أن يمتثل إلى أوامر الدين وأن يوحد قواته مع قوات إخوانه المسلمين لقتال أعداء الإسلام فقال قازان : نطلق من أسرناهم من مسلمي لبنان فقال شيخ الإسلام لا والله حتى تطلق أيضًا من أَسَرْتَهم من اليهود والنصارى لأن لهم عهدًا كما للمسلمين ودخل رحمه الله على حاكم طاغية يقال له قطلوبك فلفت نظره إلى أموال الناس وقداستها وأنها لا يجوز أن تُبْتَزّ. فلما استهان قطلوبك بكلام الشيخ قال للطاغية إني لا آسف على زيارتك في بيتك فإن موسى عليه السَّلام كان أفضل مني ومنك وكان يزور فرعون وهو شرٌّ منك. ولام مرة حاكم مصر لأنه توقف عن الجهاد وقال له لا تنس قول الله تعالى : ﴿وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾. وبلغ من اعتداده واعتزازه بدينه أنه أودع السجن فأطبق عليه مدير الشرطة باب السجن فتلا شيخ الإسلام قوله تعالى : ﴿فضرب بينهم بسور له باب. باطنه فيه الرحمه وظاهره من قبله العذاب﴾ .

رابعًا : بلغ من صدق تضحية الإمام أنه لم يكتف بجهاد الوعظ وصدق المواقف ولكنه خاض معارك الحروب في شجاعة وصدق فقد ركب في إحدى المعارك فرسه وانتضى سيفه وكان اليوم من أيّام رمضان فأفطر الشيخ ودار على الجنود يؤملهم رحمة الله ويروي لهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لجيشه إنكم ملاقو عدوّكم غدًا والفطر أقوى لكم فأفطروا وكان يأكل وهم ينظرون إليه يشجعهم بذلك على الإفطار ليتقووا بهذا على الجهاد. وما أجمل أن أقتبس في أواخر هذا الحديث لقطة من رسالة كتبها الشيخ أحمد لوالدته وكانت استعجلته أن يعود إليها بعد أن خرج من سجن مصر لكنه رحمه الله لم يتمكن أن يعود إليها لكثرة ما جد حوله من مشكلات ومكث في مصر مليًا ليردّ على بعض أهل البدع ويدحض حججهم الواهية في مجالس علم من طراز رفيع .

وكان بعضهم ربما لجأ إلى الغوغائية ورفع الصوت والدعاء على الإمام

فيجيبهم بقوله بيننا كتاب الله وسنة رسوله. ثم يتلو عليهم من براهين الصدق ما يجعلهم في الناس أضحوكة والآن أقدم تلك النبذة من كلامه السهل الممتنع الذي كتب به إلى والدته رحمها الله يعتذر إليها ويطمئنها على نفسه وبخاصة في إحقاق السُّنة وقمع البدعة. وإني إذ أقدم هذا النموذج لعشاق البلاغة أسأل الله أن يفيض علينا من عزم ذلك الإمام ما يثبتنا به في مواقف التضحيات.

يقول الشيخ رحمه الله: من أحمد بن تيميّة إلى الوالدة السعيدة أقر الله عينيها بنعمه. وأسبغ عليها جزيل كرمه. وجعلها من إمائه وخدمه وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. إنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وهو للحمد أهل. ونسأله أن يصلّي على خاتم النبيين وإمام المتقين محمد عبده ورسوله. هذا ونحن في نعم من الله عظيمة ومنن كريمة. نشكر الله عليها ونسأله المزيد. وتعلمون أن مُقامنا السَّاعة في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية متى أهملناها فسد الدين والدنيا. ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ولكن الغائب عذره معه. وقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة مالم يخطر بالبال. وثمّ أمور كبار نخاف من إهمالها الضرر الخاص والعام والمطلوب كثرة الدعاء. وإذا كان التاجر يكون مسافراً فيخاف ضياع ماله فيحتاج إلى أن يقيم حتى يستوفيه فكيف ونحن في أمر يجل عن الوصف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيراً كثيراً وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار والأهل والأصحاب واحداً واحداً. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وأهله وصحبه وسلم تسليما.



محمد الفاتح

مدينة القسطنطينية ظلّت حُلُمًا غاليًا من أحلام المسلمين يلوح لهم في روائع الأماني من عهد البعثة المحمدية الكريمة واستمر قرابة ثمانية قرون ونصف. كان المسلمون أثناءها يرسلون أبصارهم إليها فترتد عنها كالة حسيرة. حاصرها معاوية مرتين ثم حاصرها مسلمة بن عبد الملك ثم سليمان بن عبد الملك ثم فكّ الحصار عنها عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

لقد كان المسلمون واثقين أن الله سيفتح عليهم القسطنطينية لأن النبي صلى الله عليه وسلم بشّرهم بذلك. روى الإمام أحمد رحمه الله عن بشر الغنوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لتفتَحُنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش وجاء في بعض الروايات أن النبي وصف فاتحها بأن اسمه اسم أحد الأنبياء. فطمع في ذلك الشرف سليمان بن عبد الملك وموسى الهادي وهارون الرشيد حتى شاء الله عزَّ وجل أن ينال ذلك الشَّرَف شابٌ تركي كريم نبيل عالم تقي شاء الله له أن يفتح تلك المدينة الهائلة التحصينات وهو دون الخامسة والعشرين. جاء في شذرات الذهب لابن العماد وفي وصف محمد الفاتح أو محمد الثاني رحمه الله : (كان من أعظم سلاطين بني عثمان. وهو الملك الفاضل النبيل العظيم الجليل. أعظم الملوك جهادًا وأقواهم إقدامًا واجتهادًا، وأكثرهم

توكلاً على الله واعتماداً، له مناقب جميلة ومزايا جليلة وآثار باقية في صفحات الأيام. ومآثره لا يمحوها تعاقب الأعوام) كان محمد بن مراد الثاني رحمه الله شيخ سلاطين الإسلام حتى لقد سماه أهل أوروبا السيد العظيم وحسبك به عظيمًا أن الصليبية كانت ترتعد فَرَقًا إذا ذكر اسم محمد الفاتح حتى إن البابا حين بلغه نبأ وفاة السلطان محمد الفاتح أقام حفلات الأفراح في روما لكن ذكرى محمد رحمه الله ظلت تثير الرعب في قلوب الصليبيين عبر تاريخ طويل. لقد كان أبو محمد الفاتح السلطان مراد الثاني يتطلع أن يرى ابنه محمداً من عظماء رجال الإسلام ولذلك عُني بتنشئته جسميًا ودينيًا وعقليًا فكان معجزة في ركوب الخيل والرماية والضرب بالسيف ووكل بتعليمه الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني الذي كان الناس يدعونه أبا حنيفة عصره. وقد حفَّظ محمدٌ القرآن في سنٍّ مبكرة وأقام أبوه احتفالاً كبيراً بمناسبة ذلك ثم خرجه في سائر علوم الدين والأدب وكانت لغته العربية في غاية القوة والاستقامة. وكان يراسل الشيخ المحيَوي استاذ السيوطي بمصر كما كان له معلمون يدرسونه الرياضيات والفلك والجغرافيا والتاريخ واللغات حتى لقد كان يتقن ست لغات ولمحمد رحمه الله ديوان شعر باللغة التركية. وكان رحمه الله قوي البنية قمحي اللون محبًا للعلماء والأدباء وكان عظيم الورع والعبادة قلما صلى صلاة إلا في المسجد جماعة وكان يكره الترف وتنوُّع المآكل ويبتعد عن مجالس الهزل وكان يعاصره من سلاطين البيزنطيين امبراطور يقال له قسطنطين كان كثير التحدي شرس الطباع شديد العدوان فعلم محمد أنه لا نجاح له ولا استقرار إلا إذا دَمر قسطنطين وهدم مدينة القسطنطينية على رأسه. وشرع السلطان محمد الفاتح رحمه الله في تنظيم جيشه للمعركة الحاسمة وفي أثناء ذلك لجأ إليه مهندس مجري فصنع له مدافع عملاقة تقذف حجارة كبيرة إلى أهداف بعيدة تبعد عن المدافع أكثر من كيلومتر وكان جيش السلطان محمد رحمه الله يتجاوز مائتين وخمسين ألفًا يُسانده أسطول يزيد على مائة وثمانين سفينة. وكان امبراطور القسطنطينية

قسطنطين التاسع قائدًا شجاعًا أقسم قبيل المعركة ألاَّ ينسحب أو يستسلم حتى يُقْتَل وقد استهلّ الهجوم البيزنطي بهجو من السفن الجنوية اقتحمت به القرن الذهبي وهو مدخل مائي كان الروم قد ركبوا عليه سلسلة هائلة لا تفتح إلا بعدد هائل من الرجال وقد اقتحمت السفن الجنوية ذلك القرن ودمرت كثيراً من السفن الإسلامية وكانت بداية سيئة توقع الروم بعدها أن يرتد الجيش الإسلامي التركي لكن عزم السلطان محمد كان مستعداً أن ينهض لمائة هزيمة . فقد أمر رحمه الله أمراً شديداً لم يكن تنفيذه ممكنًا في شهر إلا أنه نَفَّذه وجنوده في ليلة واحدة . لقد أمر بتوفير ألواح هائلة من الخشب وأمر أن يُصَبَّ عليها زيت وأن يزيح الجنود السفن فوق تلك الألواح لتنزلق على الزيت وكانت تلك العملية تتطلب عشرات الآلاف من الجنود لكن ذلك لم يكن لينال من عزم محمد . وكان أشدَّ شيء على المسلمين أن المسافة كانت قرابة ثلاثة أميال وفي الطريق جبال ووهاد وأودية لكن المسلمين كان هتافهم يا ألله وتمَّ كلُّ شيء في ليلة واحدة واقتحم المسلمون الحاجز المائي ولشدّ ما كانت دهشة الروم حين صحوا فرأوا مياهم تعجُّ بالسفن الإسلامية ثم كادُوا يجنُّون حين رأوا السفن الإسلامية تسير في الحقول لا على الماء وجنود الله يدفعونها بعزائمهم المباركة والتحم أهل البر وأهل البحر واستمرت المعارك من مبتدئها إلى منتهاها قرابة واحد وخمسين يومًا دمر الله فيها على الكافرين وقُتل قسطنطين وأعمل المسلمون في المدينة القتل وجاء نصر الله والفتح وطاحت المدينة العاتية بعد أن استمات أهلها في الدفاع عنها وبكت أوروبا كلها على القسطنطينية وتحطم كبرياء الصليبية حين رأت المدينة العريقة التي قارعت الخطوب مئات السنين وقد انهارت أمام عزائم المسلمين . ولقد دخل المدينة فيما بعد عدد من الكفار لزيارتها بإذن من السلطان محمد الفاتح فكادوا لدهشتهم يُجَنُّون حين علموا أن السلطان محمداً بعزيمته الربانية قد أحضر ثمانين سفينة في ليلة واحدة فحملها على ألواح هائلة أغرقت في الزيت وسحبها جنوده الأبرار مسافة ثلاثة أميال على أرض صعبة

التضاريس حتى أدخلوها داخل الأسوار وتمّ لهم ذلك غير مبالين بالتعب والسقوط في الزيت حتى لقد قال قائد رومي والله لو جمعنا جيش الروم ما أنجز هذا العمل في شهر . ومكث الروم شهرًا ينتظرون أن تغضب السماء على الغُزاة المسلمين ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث في حين رأى الناس السلطان محمدًا وهو يمرغ وجهه في التُّراب تواضعًا لله والمؤمنون يهنئونه وهو لا يزيد على أن يقول النصر من عند الله رحم الله شهداء المسلمين وفي اليوم الرابع من الفتح دخل السلطان محمد القسطنطينية على ظهر جواده في موكب حافل يعجُّ بالذكر والتهليل من الوزراء والقادة والجنود البواسل والكل يهتف ما شاء الله لا قوة إلا بالله اللهم احفظ سلطان المسلمين وفي منتصف المدينة وقف محمد رحمه الله يخاطب جنود الإسلام ويقرأ عليهم حديث البشارة بفتح القسطنطينية ثم أصدر أمرًا صارمًا بأن جميع من في المدينة مستسلمون لا يجوز قتلهم ثم أمر بإحضار كبير البطارقة وجميع زملائه فأعاد تعيين الهيئة الدينية ورد عليهم ما طلبوه من الكنائس وحوّل بقيتها إلى مساجد ومنها كنيسة آيا صوفيا التي ظلت مآذنها متلألئة إلى أن حولها مصطفى كمال أتاتورك إلى متحف وأرسل السلطان محمد من نادى في الناس أنهم أمناء على أموالهم وأنفسهم وأن عليهم الانصراف إلى أعمالهم وترك الخيانة والشغب وأسدل ستار تلك المعركة الهائلة على دخول أعظم المدن وأعرقها في حكم الإسلام على يد بطل مؤمن مبارك بشَّر به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل انتصاره بأكثر من ثمانمائة وخمسين عامًا اللهم ارحم السلطان الفاتح واجزه عن جهاده أكرم الجزاء .



الحافظ السيوطي

إن أحدًا لا يكاد يصدّق بأن حافظًا من حفاظ المسلمين استطاع في سنوات عمره المباركة أن يؤلف خمسمائة كتاب كلُّها قيم وكلها ممتع وأن بعض تلك الكتب كان كبير الحجم يقع في عشر مجلدات كبيرة وأن ذلك الحافظ الموفق كابد طلب العلم والرحلة إليه والصبر على تلقيه حتى لقد تتلمذ على أكثر من خمسين شيخًا بحيث لم يكن يتحول من شيخ إلى شيخ إلا بعد أن يحصل منه على إجازة وشهادة . وكان رحمه الله من الوفاء لشيوخه بحيث ألف كتابًا خاصًا بتراجمهم يذكر فيه نبذًا شافية عن حياة كلّ منهم وعلمه وفضله . كان ذلك الحافظ هو جلال الدين السيوطي واسمه عبد الرحمن بن الكمال بن محمد الخضيري السيوطي الشافعي المذهب المصري المولد والنشأة وهو من القاهرة ولد في أسيوط وفي أسيوط بنى جدُّه مدرسة ووقف عليها أوقافًا فلقبت العائلة بالسيوطي وعرف عبد الرحمن هذا بالحافظ السيوطي . وإني موردٌ هنا مواقف من سيرة هذا العالم الجليل لعلّ أن يكون فيها عبرةٌ للمعتبر وذكرى للمدكر ودروس لكل طالب علم في الأدب والدأب وإخلاص العمل لوجه الله الواحد القهار :

أولاً : البيت الطيب كالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه مباركًا زكيًا وصلاح الآباء يدرك الأبناء بمشيئة الله وتربية الأبناء على منهج الإسلام مما يزكي به الله النشأة

ويصلحُ الذرية والسيوطي رحمه الله تحدَّر من بيت علم وفضل فقد كان أبوه فقيهًا شافعيًا وكان جدّه عالمًا وقد أخذه أبوه رحمه الله بحفظ القرآن منذ نعومة أظفاره فلما بلغ قريبًا من ست سنين مات أبوه وقد حفّظه من أول القرآن إلى سورة التحريم وبذلك نشأ يتيمًا ولكن على عين الله وفي رعاية الله وفي كنف علماء حاطوه بعنايتهم. ولما بلغ الثامنة من عمره أتقن حفظ القرآن تلاوة وتجويدًا ولم يزل يدأب في طلب اللغة والقرآن الكريم حتى أجيز في تدريسهما وهو شابٌّ لم يجاوز الخامسة والعشرين.

ثانيًا: ومن طرائف السيوطي رحمه الله أنه لما حجّ شرب من ماء زمزم وقال: بسم الله اللهم إنَّ ماء زمزم لما شُرب له وإني أشربه على نية أن تفتح عليَّ لأصل في الفقه إلى رتبة شيخي سراج الدين البلقيني ثم شرب المرة الثانية علي نية أن يصل في الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلاني فانظر إلى طموحات الأبرار الذين عزفوا عن طمع الدنيا وبهرج اللذات واتخذوا من العلم الشريف أسمى أمانيهم وأغلى أحلامهم وبالفعل استجاب الله للسيوطي وبلغه ما تمنّاه من مراتب عالية. ومنازل غالية.

ثالثًا: كان علماء السَّلف رحمهم الله يعتقدون أن حج بيت الله الحرام وزيارة المسجد النبوي الشريف والتمتع بمشاهدة منازل الوحي وآثار الصحابة ومشاعر الحج مما يفتح الله به على طالب العلم ويزكي نفسه وعقله ويعلي منازله في مدارج السَّالكين وفتوح العارفين ولهذا سارع الحافظ السيوطي في مطلع حياته إلى الديار المقدسة وأتم الحج والعمرة وانطلق في الحال إلى مشاهير العلماء في ديارهم فرحل إلى اليمن ومنها إلى الهند ثم إلى المغرب وتجوَّل في مدن مصر يجلس إلى أشياخها فزار المحلة ودمياط والفيوم، وكان كلَّما وصف له شيخ جليل قصد إليه في بلده فلا عجب إن كان السيوطي أكثر علماء عصره أشياخًا ورحلات.

رابعًا: في هذه الأيام يتقن الدكتوراة فنًا واحدًا وربما قدَّم أحدهم الدكتوراه في

فترة زمنية محدودة من التاريخ كعصر المنصور بن أبي عامر في الأندلس. فإذا سألت سعادة الدكتور عن عهد المعتمد بن عباد قال لك هذا ليس من اختصاصي لأنه في فترة متأخرة عن فترة رسالتي أما السيوطي رحمه الله قد أتقن سبعة تخصصات كما جاء في كتابه (حسن المحاضرة) وتلك التخصصات كانت التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع. وكان له مع ذلك شعر لطيف لكنه كشعر الفقهاء. يهتم بالبديع اللفظي وكان له في كلّ تلك العلوم باع طويل وكان رحمه الله يعرف قدر نفسه في كلّ علم فقد ألف كتابًا يردّ به على بعض حساده سماه (الردّ على من أخلد إلى الأرض وجهل أنَّ الاجتهاد في كل عصر فرض) وفيه يقول: (وليس على وجه الأرض من مشرقها إلى مغربها أعلم بالحديث واللغة العربيَّة مني. إلاَّ أن يكون الخضر أو وليًا من أولياء الله). والحق أنَّ كلامه في وصف نفسه صحيح لأن مؤلفاته في الحديث والنحو والبلاغة تثبت ذلك ولكنه كان يعترف بضعفه في الحساب ولله العصمة والكمال. وكان السيوطي رحمه الله إلى جانب علمه الواسع صاحب أخلاق فاضلة.

خامسًا: أما موقفه من الملوك والحكام فقد كان يحبهم في الله ويتقرب إلى الله بطاعتهم ويدعو لهم بظهر الغيب لعلمه أن الله يقيم ميزان العدل بهم. لكن السيوطي رحمه الله كان لا يقبل جوائزهم بل يردها بأدب شاكرًا وداعيًا فأحبه الملوك لما رأوا من إخلاصه لهم وعفافه عن أموالهم. وقد قرأنا أن السلطان قنصوه الغوري رحمه الله أهدى إليه ألف دينار وغلامًا خصيا ليخدمه فرد الدنانير مع شكر ودعاء للسلطان. وقبل الغلام الخصي وأعتقه وأرسله إلى المدينة المنورة ليخدم مع الطواشات في المسجد النبوي. ولما بلغ الأربعين كثر حُسَّاده وأمعنوا في غيبته والوشاية به عند الملوك حين رأوا حظوته عندهم وعندئذ أخبر المريدين والتلاميذ أنه سيعتزل التدريس والإفتاء ويتفرغ للتأليف وعبادة الله ويترك الحسَّاد ومؤامراتهم ويقطع دابر حسدهم بترك مزاحمتهم على الجاه والشهرة وسكن بعدئذ جزيرة المنهل

التي يسميها المصريون اليوم المنيل وتفرغ للعبادة والتأليف فنفع الله بتلك الفترة من حياته في إثراء مكتبات العلم ونال بتلك العزلة عليا الدرجات .

سادسًا : كان غفر الله له إذا أصابه البغي انتصر لنفسه انتصارًا شديدًا وردَّ على خصومه ردًا عنيفًا. فقد عيره السخاوي رحمهما الله وكان من منافسيه بأنه كان في صباه فقيرًا فأجابه بأن ذلك كان من فضل الله لأن الله كتب له أن تكون تربيته من مال حلال ثم قال له إن أشراف الناس لا يباهون بأموالهم ولا يعيرون الفقراء بفقرهم ولا تنس أن صاحبك الفقيه ابن كركي الذي يحسدني معك كان مغنيًا في الزفة في حي الصليبة وكان يحترف قراءة المولد. ولما كثرت افتراءات السخاوي وأتباعه عليه ألف كتابًا عنيفًا كشف فيه أسرار حساده وسماه (الكاوي في سيرة السخاوي) والحق أن السخاوي وابن كركي قد ظلما الحافظ السيوطي حتى لقد تنقصاه أخيرًا بأن أمه فارسية فرد عليهما ردًا مفحمًا في مقامة سماها (طرز العمامة) وقال عن كتاب السخاوي إن صاحبه ملأه بغيبة الناس. وإنما كان حسد الحساد له لأنه كان صاحب فنون علمية لم يسبق إليها وكانت باعه طولى في اللغة العربية وحسبك أن تقرأ كتابه الذي ألفه في اللغة والأدب وسماه (المُزهِر) لترى اختيارات تدل على غاية الذكاء الخارق والحافظة العجيبة .

سابعًا : كان السيوطي رحمه الله عظيم الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يرى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام كثيرًا. ولم يعمَّر السيوطي شيخوخة طويلة فقد توفي في الثانية والستين من عمره. ولما وشى حاسدوه إلى السلطان أنه خَلَّف ثروة عظيمة أبى السلطان أن يتدخل في التركة وقال كيف نتدخل في تركته وهو لم يكن يقبلُ عطايانا ولا هدايانا. وقد نقل عنه بعض من حضروه في مرض موته أنه شرع في دقائقه الأخيرة يقرأ سورة يس، وكان آخر مَا خرج من فمه الآية الأخيرة من سورة يس ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كلِّ شيء وإليه ترجعون﴾ ودفن رحمه الله عند بوابة السيدة عائشة بنت جعفر الصادق ولم يعرف أنه أعقب

بنين أو بنات . وللسيوطي رحمه الله شروح في اللغة والأدب والحديث كنا ومازلنا نستفيد منها ومن كتبه الجامع الكبير وهو من أوسع كتب الحديث وقد لخص منه كتابه (الجامع الصغير) وكان ثبتًا في رواية الحديث وفي علم الرجال وإذا كان البعض قد حسدوه فذلك أمر لم يسلم منه الفضلاء حتى الأنبياء لقد مات حاسدو السيوطي رحمه الله وبقي علمه وعبقريته وما تزال الأجيال تنهل من معين الحافظ السيوطي وتدعو له بأمداد مضاعفة من الرحمة والمغفرة .

رحم الله الحافظ عبد الرحمن بن الكمال السيوطي وسلام الله عليه كلما أفاد الناسُ من مئات كتبه وروائع أدبه .



الحافظ ابن حجر

إذا بارك الله نيَّة عبد بارك أوقاته وأيام عمره. وأفاض عليه من فتوحه وإلهامه وإذا ساعات عمره لا تقدّر بثمن وإذا ميراث فضله نور لا تنطفىء له جذوة. مثل هؤلاء الأبرار يولدون يوم أن يموتوا بما خلّفوه من ميراث كريم وفكر منير وقدوات صالحة. تنشر في عالمهم الهدى والتقى والعلم والإيمان. ولقد قلبت كتاب (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله فوجدت نفسي في وسط بحر من العلوم لا ساحل له. لقد وجدت المؤلف الجليل يتناول كلُّ حديث أورده البخاري فيشرحه شرحًا عجبًا لا يترك من دقائقه صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فهو يتحدث في المسائل الفقهية المتعلقة بالحديث ويذكر الروايات المختلفة للحديث في مراجع السُّنَّة ثم يتبع ذلك بالشرح اللغوي للألفاظ والتراكيب، وقد يعرب الجمل إعرابًا يقرّب معنى الحديث وتراه بعدئذ يستطرد استطرادات تكشف خبيء علمه وسعة اطلاعه في مسائل مهمة وفوائد متنوعة.

وبينما كنت أفكر في الوقت الذي استغرقه المؤلف في تأليف هذا السّفر الجليل علمت أنه استغرق في تأليفه خمسًا وعشرين سنة وأملاه على تلاميذه فكتبوه ثم لما راجعه أضاف إليه إضافات استمر بعضُها يتوارد إلى قُبيل وفاته. واستوقفني حجم الكتاب الهائل فظننت أنه لم يؤلف سواه ولكنَّ دهشتي بلغت مداها حين علمت أنه

رحمه الله ألف في علم الحديث ثلاثة وتسعين كتابًا يقع كثير منها في عدة مجلدات وألف في علوم القرآن خمسة كتب وفي العقيدة عشرة كتب وفي موضوعات مفيدة متنوعة ثمانية كتب هذا إلى جانب ديوان شعره وبذلك بلغت مؤلفاته زهاء مائة وخمسين كتابًا كلها في خدمة هذا الدين وفي صالح المسلمين. فتبارك الله وليُّ المؤمنين. هذا وإني مورد هنا بعض المواقف من عمره المبارك وسيرته العطرة :

أولاً : الحافظ بن حجر العسقلاني ينتمي إلى عائلة عريقة أصلهم من مدينة عسقلان -وكان ثغرًا بحريًا لأهل الجهاد والمرابطة- وهي بجوار مدينة المجدل على بعد خمسة عشر ميلاً شمالي مدينة غزّة ولما هدم صلاح الدين مدينة عسقلان على رءوس الصليبيين نقل تلك العائلة المباركة إلى مصر فكان الحافظ بن حجر بذلك مصري المولد والنشأة والوفاة .

وكان أبوه رحمه الله ورعًا حريصًا على تربية أسرته فأخذهم إلى الحج حيث جاور بهم المسجد الحرام سنتين ومضى بهم بعد ذلك إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف وفي أثناء ذلك توفيت والدته ثم تبعها أبوه وهو لم يتجاوز الرابعة من عمره فكفله بعض أقاربه الصالحين وأدخله الكُتَّاب وهو لم يتجاوز الخامسة فحفظ القرآن الكريم وهو في التاسعة من عمره وكان وليُّ أمره يأخذ معه كلما حجّ فنالته بأمر الله بركات مرابع النبوة ومنازل الوحي وظهرت عليه علائم توفيق وصلاح وفتوح ونجاح .

ثانيًا : وكانت له أخت تسمَّى (ستّ الرَّكب) فاعتنت بتربيته وكانت كاتبة قارئة أعجوبة في الذكاء فنشَّأته على الفضائل والعلم والأدب ولما ماتت رحمها الله كان يذكرها ويقول : أصبت بفقدها في أمي الثانية . ولا شك أن بيئة طاهرة كتلك البيئة حاطته بإذن الله من الصبوات المريبة والنزوات المحرّمة مع أنه قد توفر له المال والفراغ والشباب .

ثالثًا : وقد وصفه أصدقاؤه أنه طلب العلم مخلصًا لوجه الله ولمرضاته عزَّ

وجلّ فأورثه الله مخافته وتقواه ونشأ رحمه الله صوّامًا قوّامًا دقيق المراقبة لله متحريًا في مأكله ومشربه المال الحلال . ونشأ جميل الطريقة كثير الصدَقات . ولما صحب السلطان في حلب كان له راتب يومي من لحم يرسله السلطان إليه كلّ صباح ؛ فكان يوزعه على الفقراء ويشتري لنفسه لحمًا من ماله . ووصفه بعض المقربين منه فقال : كنت أرى في وجهه نور كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وذكره شيخه السخاوي فقال : لقد رزقه الله في صغره سعة الحفظ فكان يحفظ في كل يوم نصف حزب (أي ربع جزء) وحفظ سورة مريم في يوم واحد .

رابعًا : عاش رحمه الله قرابة ثمانين عامًا فأتاح له طول عمره أن يعمل في المناصب العلمية الرفيعة فتبوأً عليا الدرجات وكان إلى جانب ذلك من عائلة ثرية إذ ورث عن أمه رحمها الله مالاً كثيرًا وبذلك فرغ باله للعلم والتعليم ولم يشتغل عن طلب العلم بمكابدة المعيشة لأنه كان موسرًا وما أجمل الثراء إذا اقترن بالدين والأخلاق وقد عرف رحمه الله بكرمه حتى لقد رُئي وهو صبي يتصدق على زميل له بمائتي درهم وهو بعد لم يتسلّم ماله .

خامسًا : كان الحافظ ابن حجر مولعًا بحب القرآن الكريم وقد رزقه الله حفظه وتجويده وحلاوة الصوت في تلاوته وثبت الله القرآن في حافظته وكان رائع التجويد فأحب الناس صوته وتلاوته حتى لقد صلى التراويح بالناس في مكة وهو دون الخامسة عشرة وجلس للفتيا وهو لم يبلغ الخامسة والعشرين . وقال عن نفسه وهو في الثالثة والعشرين لقد رفعت الحجاب وفتحت الباب (يعني كشفتُ غوامض العلم) وأقبلت بالعزم المصمم على التحصيل فوفقني ربي وهداني سواء السبيل .

سادسًا : وكان الحافظ ابن حجر أديبًا حلو الأسلوب عالمًا باللغة العربية فساعده ذلك على تفسير القرآن وكتابة التاريخ وشرح الحديث وله ديوان شعر اشتمل على ألف وسبعمائة بيت وستين بيتًا وهو شعر متوسط لكنه ذو مقاصد ومعانٍ شريفة راقية ومن شعره البديعي قوله :

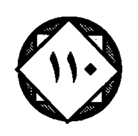
يقول حسودي إذ مدحتُ محمداً ليشفع لي هل أنت بالشِّعر واصلُ
وهل لك عند المصطفى من وسيلة وهل أنت مستجد فقلت وسائلُ

ومن شعره رحمه الله

يارب ذكّرني فأنت خلقتني من يوم يبدأ نشأتي نسَّاءَ
َوإذا خطوت إلى الخطا فاغفره لي كرمًا فأنت خلقتني خطَّاءَ

سابعًا : وكان بوادر البركة في الإمام الحافظ أحمد بن حجر قد ظهرت قبل ولادته. فقد كان لوالده رحمه الله ولد نجيب فاضل فمات ذلك الابن بعد أن قرأ الفقه وظهر فضله فحزن عليه والده حزنًا شديداً وكان لذلك الأب شيخ جليل هو الإمام يحيى الصنافيري فلما رآه حزينًا سأله عن سبب حزنه فذكر له موت ولده بعد أن بدا صلاحه فبشره الشيخ يحيى أن الله جل جلاله سيعوضه خيراً كما عوَّض أم طلحة وأبا سليم ودعا الله له فكان الإمام أحمد بن حجر خير عوض عن الفقيد .

وكان له رحمه الله قدر من أخلاق العلماء العاملين من عفَّة وشرف. واحتساب وإخلاص ولهذا أقبل عليه طلاّب العلم من كلّ مكان وجلس في حلقة درسه السلاطين. وكانت له مهابة العفيف الزاهد الذي لا يعبأ بحطام الدنيا. وقد جاء في وصفه البدني أنه كان صبيح الوجه ذا شيبة جميلة نيرة ووقار وأنه مارئي أكظم للغيظ منه كان حليمًا لا يكتفي بالصفح بل يكافىء المسىء ويستعين على الغيظ بالصبر والصلاة وكان يلازم قيام الليل وسنة الضحى ويصوم يومًا ويفطر يومًا. ولما توفي رحمه الله في الثامن عشر من شهر ذي الحجة عام ثمانمائة واثنين وخمسين بكاه كل أهل القاهرة حتى النصارى وأسلم عدد من أهل الكتاب لما كانوا يرون من آدابه وشمائله والتزامه للعدل. وكان السلطان والخليفة ممن حملوا نعشه وصلت عليه صلاة الغائب، مكة المكرَّمة وبيت المقدس والخليل وحلب وسار في جنازته أكثر من خمسين ألفًا يدعون له بلسان واحد بالرحمة والمغفرة رحمه الله رحمة واسعة .



الرَّحالة محمد بن عبد عبد الله بن بطوطة

في مدينة طنجة ذلك الميناء المغربي الشهير عاش محمد بن عبد الله بن بطوطة في عائلة متدينة اشتهرت بالصلاح والتقوى وكان منها قضاة وعلماء ولكنَّ ابن بطوطة شغلته أحلام الرحلات والمغامرات فعاقته عن طلب العلم ولهذا لم يتخَّرج قاضياً أو فقيهاً واكتفى بحفظ القرآن الكريم ودرس بعض علوم اللغة العربية والدين. كانت هواية ابن بطوطة أن يجلس إلى الملاحين في الميناء يستمع إليهم ويدهش لأخبارهم ويتمنى لو تتاح له فرصة الترحال. كان رحمه الله من قبيلة عربيَّة وهو وإن لم يكن من المحدثين أو الفقهاء لكنَّ الله يسره لما خُلِقَ له وهو الرحلات والحق أنه كان في رحلاته مستجيباً لقول الله تعالى ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فقد كان هدفه من رحلاته أن يطلع على أحوال ديار الإسلام ويصلح إن استطاع الإصلاح وقبل هذا وذاك أراد أن يحج بيت الله الحرام ويتجول في الربوع المقدسة. ثم لما استقر به المقام كتب مشاهدته في كتاب جيد اللغة صار فيما بعد من أهم المراجع التاريخية والاجتماعية ولولا ما أخذ عليه من نزعة التصوف والعيش أحيانا مع الدراويش في الزوايا لكان كتابه من أجمل كتب الرحلات وأشدها متعة وإفادة. كان النصف الثاني من القرن السَّابع وجميع القرن الثامن من عصور الظلام لأنه جاء بعد سقوط الحضارة العباسية في بغداد على

يد المغول أوالتتار حيث شُرِّد العلماء في أقطار الأرض وانتشرت البدع والخرافات والأساليب الركيكة في الأدب ولهذا سدّ كتاب رحلات ابن بطوطة فراغًا بما حواه من تفصيل الرحلات الطريفة حتى إن قارئه ليشعر كأنه مع الناس في ذلك القرن يؤاكلهم ويشاربهم ويطلع من قريب على أحوالهم ويشارك أحياناً في حلبة القضاء والسياسة والحكم. ويصف في أثناء ذلك عادات الناس في بيوتهم ومساجدهم ومجالس علمهم وزواياهم ومبانيهم وعادات رجالهم ونسائهم وحال الإسلام والمسلمين في شتى أصقاعهم وأقطارهم والجميل في رحلات ابن بطوطة أنها امتدت وقتًا وترحالاً حتى كادت تشمل معظم الأقطار الّتى فيها مسلمون في آسيا وأفريقية. وكان خط سيره طويلاً مما جعل رحلاته حافلة بالأخطار والأحداث.

خرج في مطلع رحلاته من طنجة بعد أن استأذن من والده واسترضى أهله ووالدته. وكانت نيتَّه الأولى حج بيت الله الحرام وكان خروجه في يوم الخميس الثاني من رجب عام سبعمائة وخمسة وعشرين للهجرة. فاجتاز الشمال الأفريقي كلّه في المغرب والجزائر وتونس ثم مشى مع ركب الحجاج التونسيين فلما فصل الحجيج من تونس وجد ابن بطوطة نفسه أفقه من في القافلة فاختاره القوم قاضى الرّحلة وفقيه الركب فسُرَّ بذلك اللقب لأن لقب قاضٍ في تلك الأيام كان لقباً محترمًا. وتزوج في مدينة صفاقس ثم مضى مع القافلةً إلى مصر فأقام بها مُدَّةً مسروراً بعمرانها ومساجدها وأزهرها وعلمائها ووجد أن القاهرة قد خَلَفت بغداد بعد عين جالوت ثم توجّه إلى الصعيد إلى ميناء عَنذاب على البحر الأحمر ليبحر إلى جدّة وعبر النيل إلى المنيا وملّوي ومنفلوط وقوص ومعبد الكرنك في الأقصر وإسنا واصطاد الوحوش في طريقه حتى بلغ عنذاب بعد ثمانيةعشر يوماً. وبينما كان متوجّهاً إلى الحجاز قامت حرب بين سلطانين فاضطر أن يذهب إلى سيناء عن طريق المنطقة الشرقية بمصر بلبيس والصالحية وتوجه إلى الشام عبر سيناء فلم يدفع على الحدود ضريبة لأنه كان طالب علم لا تاجراً ولما رأى نفسه في فلسطين أحس

بالبركة في الأرض المقدسة فزار غزة والخليل والقدس وزار المسجد الأقصى ودخل قبة الصخرة ثم زار عسقلان وعكا بسورها المنيع المهدم وزار قبر أبي عبيدة أمين الأمة رضى الله عنه وجُبَّ يوسف في منطقة طبريا وزار بيروت وكانت مدينة صغيرة ثم توجه إلى حمص وحماة فاستمتع بنواعيرها وزار قبر عمر بن عبد العزيز في معرة النعمان وضحك من أهل قرية سرحين الشهيرة بصناعة الصابون فقد كانوا يتشاءمون من رقم (١٠) فإذا عدُّوا إلى (٩) قالوا بعد ذلك تسعة وواحد تسعة وإثنان وإذا أردت أن تغيظهم فقل (١٠) ثم مضى ابن بطوطة إلى حلب ورأى قلعتها الشهيرة، وتوجه غَربا إلى أنطاكية وحصون الإسماعلية وزار دمشق فبهره جمالها وغوطتها والجامع الأموي وأبواب دمشق ومدارسها وأسواقها وفي دمشق حان موسم الحج فتوجه ابن بطوطة إلى مكة المكرمة عبر وادي حوران وبصرى وحصن الكرك وتبوك والعُلا وديار ثمود (مدائن صالح) ثم المسجد النبوي بالمدينة المنوَّرة وهو يستمتع بآثارها الحبيبة . ثم أحرم من ذي الحليفة ميقات أهل المدينة وعرّج على موقع غزوة بدر وعين بدر وذكر أنها تفور وبلغ مكة مع الركب المبارك فلم يترك في مكة محدِّثًا ولا معلّمًا إلا زاره يطفيء بذلك أشواقه إلى البلد الأمين والبيت العتيق ثم قطع الصحراء إلى العراق مارًا بنجد وزار النجف وبغداد وواسط وعاد إلى البصرة فصلّى بها الجمعة وذم الخطيب هناك لكثرة أخطائه في النحو ثم زار الأبلّه وعبَّادان وتوجه إلى أصفهان غربي إيران ثم زار شيراز وعاد ليحجَّ مرة أخرى وهناك جاور البيت الحرام مدَّة ثم ذهب إلى اليمن حيث زار زبيد وتعزّ وصنعاء وعدن وباب المندب وزيلع وجيبوتي ومقديشيو وكينيا وزنجبار وكلدة ثم تنزانيا وأبحر إلى ساحل عمان حيث زار نزوة ومضيق هرمز ومضى إلى البحرين فوصف الغوص ثم إلى القطيف ثم إلى مكة مرَّة ثالثة فمكث في جدّة أربعين يومًا ثم أبحر من جدّة إلى مصر وسيناء والشام وساحل تركيا وتجول في أنحاء الأناضول والبحر الأسود والقرم وبحر آزوف والفولجا ووصل إلى أوائل منطقة الجليد في الاتحاد

السوفييتي ثم عاد إلى اسطنبول ورأى كنيسة أياصوفيا وبعدئذ توجه إلى المناطق الشرقية من آسيا إلى أن عبر نهر السند وإقليم البنجاب ثم دلهي حيث أقام ثماني سنوات فيها ثم توجه إلى بلاد الصين وزار ملكها وقد حمل إليه هدية من ملك الهند. ومن بلاد الصين هرب عائداً إلى دلهي حيث ألف الناس فيها ثم عمل قائداً عسكريًا في سلطنة هنور ثم رحل إلى جزر الملديف جنوب غربي الهند وفي جزر الملديف تزوج أربع نساء ولكن ضيق عليه السلطان فرحل إلى جزيرة سرنديب سيريلانكا. ثم ساحل مليبار وفي تايلند ثم زار الملايو وشبه جزيرة ملقا ثم ذهب إلى الصين مرة أخرى فوجد فيها حربًا بين السلطان وابن عمه فعاد إلى الملايو فاراً ثم أبحر إلى ساحل عمان ثم إلى إيران والعراق والشام ومن دمشق تجوَّل في فلسطين ثم حج مرَّة رابعة من هناك ثم عاد إلى جدّة فمصر فميناء الاسكندرية ومنها إلى فاس حيث علم أن أمَّه ماتت وكان هو في السَّابعة والأربعين. قضى منها خمسًا وعشرين سنة في الأسفار وأقام موظفًا في الدولة بالمغرب ولكنَّ حنينه إلى الأسفار لم يذهب فسافر إلى الأندلس وتجوَّل في مدنها وعاد إلى أصيلا بالمغرب وفي أصيلا استأذن السلطان لاستئناف الأسفار فأذن له وهو يضحك لولوعه بالسفر وهناك توجه إلى أفريقيا حيث زار موريتانيا والسنغال والنيجر ومالي ثم عاد إلى بلاده حيث طلب منه السلطان أن يكتب تفاصيل رحلته فألف رحلاته في سنتين ولم تكتشف قيمة كتابه إلا بعد وفاته بخمسمائة سنة حيث ترجمت رحلاته إلى الإنجليزية والألمانية والفرنسيَّة وقد توفي رحمه الله عن ست وسبعين سنة ودفن في بلدة طنجة حيث هناك شارع يقال له شارع ابن بطوطة.

وقد ذكر رحمه الله من مشاهداته كثيراً من الأمور والعادات الغريبة كبرية الغزلان على طريق سواكن ومشايخ الصوفية في الأقاليم وحبّ أهل عدن للمزايدات حتى إن أحدهم ظلّ يزايد على كبش حتى اشتراه بأربعمائة دينار وهو لا يساوي ديناراً. ووصف الخيول البرية في ظفار والحجر الذي نزل من السماء

وعـربات الآزوف وعـادات الـنسـاء في شتى الأقـاليم كـل ذلك في أسلوب سـهل لا يدرك لذته إلاَّ من يقرأ تفـاصيل تلك الـرحـلات الرائعـة العـجيبة التي سـجلهـا في رحـلاته المطبـوعـة والحق أن ابن بطوطة إنما قـام برحـلاته ونيـتـه السيـر في الأرض للاعتبار ولكي يترك في دنياه أجمل الآثار .

رحم الله الرَّحالة ابن بطوطة ونفعه بما تركه من فوائد وآثار وعبر .



الفهرس